PLUME

الأكثر مبيعاً على قائمة «نيويورك تايمز»

حِكاية رجلٍ اسْمهُ دايف

قصة انتصار وغفران

بيع منها أكثر من **مليون** نسخة إنجليزية

دايف بيلزر

مؤلف الروايتين اللتين صدرتا بالعربية «**طفل اسمه نكرة**» و«**الولد التائه**»

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حكاية رجلٍ اسْمهُ دَايف

قصة انتصار وغفران

تأليف
دايف بيلز

ترجمة
أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
A Man Named Dave
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
A PLUME BOOK
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 1999 by Dave Pelzer
All rights reserved
Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-514-9

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION
tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والدار العربية للعلوم ناشرون غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسسة والدار.

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهـداء

إلى السـيدة التي منحت كل ما لديها لكـي تجعلني الرجل الـذي أنا عليه اليوم، إلـى عروسي المحببـة وصديقتي المفضلة، السيدة **مارشا بيلزر**.

أنت تكملينني وسوف تبقين أميرتي إلى الأبد.

إلـى ابني، **ستيفـن**، لا يسعني أبداً أن أخبـرك كم أنت عزيز عليَّ وكم غيرت حياتي إلى الأفضل. إن كل شيء أفعله في حياتي هو من أجلك أنت.

ملاحظة المؤلف

لقد جرى تغيير بعض الأسماء في هذا الكتاب بهدف حماية كرامة الآخرين وخصوصيتهم.

وكما هي الحال في الجزءين الأولين من هذه الثلاثية، فإن هذا الجزء الثالث يصف اللغة والحكمة التي تطورت بشكل خاص من وجهة نظري فضلاً عن تلك المرحلة بالذات.

ليس المقصود بهذا الكتاب، في ظل أي ظروف، أن يستخدم بهدف العقاب أو الانتقام، بل بالأحرى لكي يخدم هدفاً مما حدث في حياتي والدروس المتاحة التي تعلمتها منها.

الفصل الأول

النهاية

4 آذار 1973

مدينة دالي ستي في ولاية كاليفورنيا

كنت أشعر بالخوف، وكانت قدماي باردتين، ومعدتي تعتصر من شدة الجوع. كنت أنصت وأنا جالس في عتمة الكراج لكي ألتقط أدنى صوت يصدر من صرير سرير الوالدة وهي تتقلب في أثناء نومها في غرفة النوم في الطابق العلوي. وكان يمكنني أن أعرف أيضاً من شدة سعال الوالدة المتقطع الجاف ما إذا كانت لا تزال نائمة أو على وشك أن تنهض، وأدعو الله لئلا يستمر سعال الوالدة متسبباً في إيقاظها، وأتمنى أن أحظى ببضع دقائق أخرى فقط قبل أن يبدأ يوم آخر من أيامي في الجحيم، فأغمض عيني بشدة قدر استطاعتي وأتمتم دعاء سريعاً مع أنني أعرف أن الله لا يحبني.

ولأنني لست جديراً بأن أكون فرداً من أفراد العائلة، كنت أتمدد على سرير عسكري نقّال قديم من دون ملاءة، وأنطوي على شكل كرة محكمة لكي أحافظ على دفئي قدر المستطاع. وأستخدم الجزء الأعلى من قميصي كخيمة أغطي بها رأسي متخيِّلاً أن هواء زفيري سوف يدفئ وجهي وأذني نوعاً ما. وأدفن يديّ إما بين ساقيّ وإما تحت إبطي. وإن واتتني الشجاعة بما فيه الكفاية، وبعد أن أتأكد فقط من أن الوالدة قد غابت عن الوعي، فإنني أسرق خرقة من كومة الخرق المتسخة وألفها بإحكام حول قدميّ. فأنا أفعل أي شيء لأبقى دافئاً.

أن يبقى المرء دافئاً فهذا يعني بقاءه على قيد الحياة.

إنني مرهق عقلياً وجسدياً. لقد مضت أشهر منذ استطعت الهروب إلى أحلامي. ومهما حاولت جاهداً فلا أستطيع أن أعود إلى النوم. إذ إنني أشعر ببرد شديد، ولا أستطيع أن أمنع ركبتيّ من الارتجاف، فأفرك قدميّ بعضهما ببعض، وبحذر، لأنني أشعر نوعاً ما أنني إن أتيت بأي حركة مفاجئة فسوف تسمعني الوالدة. ولا يسمح لي أن أقوم بأي شيء من دون سلطة الوالدة المباشرة. وحتى على الرغم من أنني أعلم أنها قد عادت للنوم في الطبقة السفلى من السرير ذي الطبقتين في غرفة نوم أخي، فإنني أشعر أنها لا تزال تحكم قبضتها علي.

ولطالما كانت الوالدة كذلك.

يبدأ رأسي بالدوران وأنا أحاول أن أتذكر ماضيَّ. فأنا أعلم أنني لكي أنجو نوعاً ما، فإن الأجوبة التي أريدها تكمن في ماضيَّ. وفضلاً عن الطعام والحرارة والبقاء على قيد الحياة فإن معرفة سبب معاملة الوالدة لي بهذه الطريقة تهيمن في حياتي.

إن ذكرياتي المبكرة عن الوالدة تتسم بالحذر والخوف. فلمَّا كنت طفلاً في الرابعة من عمري، تعوَّدت أن أعرف من نبرة صوت الوالدة شكل اليوم الذي في انتظاري. فكلما كانت الوالدة صبوراً وطيبة دعوتها أمي، ولكن كلما غضبت وتصرفت بحدة تحولت أمي إلى الوالدة، وهي شخص بارد شرير قادر على تنفيذ أنواع الهجمات العنيفة غير المتوقعة جميعها، لذا، كان يتملكني على الفور خوف شديد من أن أجعلها تتحول إلى ذلك الشخص إلى حدّ أنني لم أكن أذهب إلى الحمام من دون طلب الإذن منها أولاً.

ولمَّا كنت طفلاً صغيراً، أدركت أيضاً أنها كلما شربت أكثر انجرفت أمي بعيداً لتهيمن شخصية الوالدة فيها. ففي عصر أحد

أيـام الأحد، قبل أن أبلغ الخامسـة من عمري وخـلال إحدى هجمات الوالـدة الثملة، خلعت ذراعي من كتفي بشـكل عرضـي. وفي اللحظة التي حدث فيها ذلك، أصبحت عينا الوالدة كبيرتين بحجم الدولارات الفضية، فأيقنت أنها قد تخطت الحدود وأفلتت زمام الأمور من يدها، إذ إن هـذا قـد تجـاوز معاملتهـا الاعتياديـة التي تتضمـن صفع وجهي ولكم جسمي والإلقاء بي من أعلى الدرج.

ولكن حتى في ذلك الوقت من الماضي، أعدت الوالدة خطة لكي تواري آثار أعمالها. ففي صباح اليوم التالي، بعد أن أوصلتني بالسـيارة إلى المستشفى، قالت للطبيب باكية إنني قد وقعت عن السرير الطابقي خـلال الليل ووصفت لـه كيف أنها حاولـت بتهـور أن تلتقطني عندما سـقطت وأنها لم تكن لتسـامح نفسـها لأنها تصرفت ببطء شديد. فلم يتردد الطبيب في تصديقها. وعندما عدنا إلى البيت، لم يخامر والدي، وهو إطفائي تلقَّى تدريباً طبياً، أي شك في قصة الوالدة الغريبة.

في ما بعد، وبينما كانت الوالدة تحتضنني بين ذراعيها، أيقنت أنه لا يفترض بي أن أبوح بالسر أبداً. وحتى في ذلك الحين، اعتقدت نوعاً ما أن الأوقـات الجميلة التي قضيتها مع أمي كانت سـتعود. واعتقدت حقـاً أنها ستسـتيقظ بطريقـة ما من سـباتها العميق وسـتطرد شـخصية الوالدة إلـى الأبد. وبينما كنت طفلاً في الرابعة من عمري أتأرجح بين ذراعي أمي، ظننت أن الأسوأ قد انتهى وأن الوالدة ستتغير.

كان الشيء الوحيد الذي تغير هو حدة غضب الوالدة وخصوصية علاقتي السـرية بها. وبحلول الوقت الذي بلغت فيه الثامنة من عمري، لم يعد يسـمح بذكر اسمي. فاسـتبدلت اسـم **ديفيد بالصبي**. ثم أصبح اسم **الصبي** يبدو شخصياً جداً، لذا قررت أن تناديني باسم **الشيء** لأنني لم أعد فـرداً من أفراد العائلة، ثـم نفيت لكي أعيش فـي الكراج وأنام فيه. وإن لم أجلس على يدي في قعر الدرج، فإن مهمتي كانت تقضي

بـأن أنفذ أعمالاً شـاقة كأعمال العبيـد. وإذا لم أؤد مهمتـي في الوقت المناسـب الـذي تحـدده الوالدة، لـم أكن أتعـرض للضرب فحسـب، بل لم يُكن يسـمح لي بأن أتنـاول أي طعام. وقد رفضـت الوالدة غير مرة أن تطعمني لأكثر من أسـبوع. ومن بين ألاعيـب الوالدة التحكمية جميعها، كانت تستمتع باستخدام الطعام كسلاحها المطلق.

كلمـا قامت الوالدة بأشـياء غريبة لـي بدا عليها أنهـا تعرف كيف تنجـو بأيٍّ مـن ألاعيبهـا. فعندمـا أحرقـت ذراعـي بموقد الغـاز قالت للمعلمين المرعوبين إنني قد عبثت بعود ثقاب فأحرقت نفسي. وعندما طعنتني الوالدة في صدري قالت لإخوتي الخائفين إنني قد هاجمتها.

على مـدى سـنوات، بذلـت ما في وسـعي لكي أسـبقها بسـرعة تفكيـري وأفوقهـا ذكاء نوعـاً ما. فقبـل أن تضربني الوالدة، كنت أشـد أعضاء جسـدي. وحين لـم تكن تطعمني، كنت أسرق فتات الطعام من أي مكان أسـتطيع أن أسـرق منه. وعندما تعوَّدت أن تملأ فمي بسـائل غسيل الأطباق الزهري، كنت أحتفظ بالسائل في فمي حتى أتمكن من بصقه في نفايات الكراج عندما لا تنظر إلي. لقد كانت هزيمتي للوالدة بأي طريقـة تعني العالم بالنسـبة إلي. وتلك الانتصـارات الصغيرة هي التي أبقتني على قيد الحياة.

كان الشـكل الوحيـد للهروب بالنسـبة إلـي يكمن فـي أحلامي. فعندما تعوَّدت أن أجلس في أسـفل الدرج ورأسـي مائل إلى الخلف، كنت أتخيل نفسـي محلقاً في الهواء مثل بطلي، سـوبرمان. وقد أيقنت أنني مثل سوبرمان أتمتع بهويتين. فشخصيتي الشبيهة بشخصية سوبرمان الثانية، كلارك كنت، هي شخصية الطفل المدعو الشيء السخيفة وغير المناسـبة. وفـي الأوقات التـي تعـوّدت أن أتمدد فيهـا باسـطاً ذراعيّ وساقيّ على أرض المطبخ وأنا عاجز عن الحراك، كنت على يقين أنني سـوبرمان وأن لديَّ قوة داخلية وهوية سـرية لا يدركهما أحد سـواي.

حتى توصلت إلى الاعتقاد لو أن الوالدة أطلقت عليَّ الرصاص لكانت الرصاصات سترتد عن صدري. ومهما اخترعت الوالدة من ألاعيب ومهما هاجمتني بعنف، فقد كنت سأنتصر وسأعيش. وأحياناً، عندما لم أكن أتمكن من التخلص من شعوري بالألم أو الوحدة، كان كل ما يتوجب عليَّ فعله هو أن أغمض عيني وأحلق مبتعداً.

بعد بضعة أسابيع فقط من ذكرى ميلادي الثانية عشرة، انفصل والدي ووالدتي. فاختفى **سوبرمان**، ووهنت قوتي الداخلية. وفي ذلك اليوم، أيقنتُ أن الوالدة ستقتلني، إن لم يكن في يوم السبت ذاك ففي يوم آخر قريب. وبعد رحيل والدي عن البيت، لم يعد شيء يستطيع أن يوقف الوالدة. وعلى الرغم من أن الوالد كان، في بعض الأحيان، يرتشف من شرابه المسائي ويراقب، بتعاسة، الوالدة وهي تجعلني أبتلع ملء ملاعق من ماء النشادر، أو يهز كتفيه وهي تضربني حتى أفقد الوعي، فإنني لطالما كنت أشعر بأمان أكبر في أثناء تواجده في المنزل. ولكن بعد أن ألقت الوالدة بأمتعة والدي القليلة وابتعدت بسيارتها، ضممت يديّ بأقوى ما استطعت وتمتمت دعاءً قائلاً: «... وأدعو الله أن يحررني من الشر... آمين».

حدث ذلك قبل شهرين تقريباً، ولم يستجب الله لدعائي قط. والآن، وأنا مستمر بالارتجاف في عتمة الكراج، أعلم أن النهاية أصبحت وشيكة، وأبكي لأنني لا أملك الشجاعة أو القوة لأقاتل دفاعاً عن نفسي. فأنا متعب جداً. لقد استنزفت تلك السنوات الثماني من العذاب المستمر قوة الحياة مني. وما كان مني إلاّ أن أضم يديّ وأدعو أن تتحلى الوالدة، عندما تقتلني، بالرحمة وتفعل ذلك بسرعة.

بدأت أشعر بالدوار. وكنت كلما دعوت أكثر، شعرت أنني أستغرق في النوم، فتتوقف ركبتاي عن الارتجاف، وترتخي أصابعي من التشبث ببراجمي النحيلة. وقبل أن أستغرق في النوم، كنت أقول

لنفسي: «يا إلهي... إنك تسمعني، ويمكنك أن تأخذني بعيداً؟ أرجوك، خذني. خذني اليوم».

* * *

ينتصب القسم الأعلى من جسدي واقفاً، ويصبح بإمكاني أن أسمع الألواح الخشبية تصرُّ من وزن الوالدة، فيتبع ذلك صوت سعالها المكتوم بعد لحظة، كذلك يمكنني تقريباً أن أتصورها وهي تنحني إلى الأمام وتسعل ملء رئتيها من السنوات التي قضتها في التدخين وفي عيشها أسلوب حياة مدمراً. يا إلهي، كم أكره سعالها.

ويتلاشى ظلام نومي بسرعة، وتسري البرودة في جسدي، وأريد من كل قلبي أن أبقى نائماً إلى الأبد. فكلما استيقظت من سباتي سألت الله لماذا لم يأخذني في أثناء نومي. إنه لا يستجيب لدعائي أبداً. لقد كنت أتمنى من أعماقي لو أنني أموت، فليست لديَّ الطاقة لأعيش يوماً آخر في هذا المنزل، ولا أستطيع أن أتخيل يوماً آخر أقضيه مع الوالدة وألاعيبها الشريرة. فأنهار وأجهش بالبكاء، وينهمر شلال من الدموع على وجهي. لقد تعوّدت أن أكون قوياً، لكنني لم أعد أستطيع أن أحتمل بعد الآن.

كان مشي الوالدة المضطرب يعيدني إلى حقيقتي البائسة، فأمسح دموعي وأنفي الذي سال. إذ يجب عليَّ ألا أظهر لها أبداً أي دليل على الضعف. ثم آخذ نفساً عميقاً وأنظر إلى الأمام، وأشبك يديّ قبل أن أنسحب إلى قوقعتي التي ستحميني لبقية اليوم، وأتنهد قائلاً: «لِمَ هذه التعاسة؟ ما هو السبب يا إلهي؟ إنني فقط... أريد أن أعرف سبب تعاستي؟ لماذا؟ فأنا لا أريد أن أبقى على قيد الحياة؟»

تمشي الوالدة بتعثر من غرفة نومها، ويصرخ عقلي قائلاً لي: «تحرك! تحرك!» فلديَّ بضع ثوان فقط قبل أن... وقد كان يفترض بي أن أستيقظ قبل ساعة لكي أبدأ أعمالي المنزلية.

أقف على قدميّ وأمشـي بتعثـر في الظلام محـاولاً أن أعثر على مفتاح ضوء الكراج. فأتعثر بإحدى أرجل السـرير العسـكري. وبحركة لا إراديـة، أمد يدي إلـى الأرض لكي أخفف من أثر السـقوط، لكنني بطيء جداً. وبعد لحظة، يصطدم وجهي بالإسمنت البارد، وتملأ نقاط فضية براقة بصـري. وأضرب راحتَـيْ يديّ علـى الأرض. فأنا أريد أن أفقد الوعي وألا أستعيد رشدي ثانية أبداً.

أرفع نفسـي عن الإسمنتِ عندما أسـمع الوالدة وهي تتوجه نحو الحمام. وبعد أن أشـعل الضوء، أنتزع المكنسـة قبل أن أسـرع صاعداً الدرج. لو أنني أسـتطيع فقط أن أكنس الدرج قبل أن تضبطني الوالدة، فلـن تتمكن مـن أن تعرف أننـي متأخر. ويمكننـي أن أفوز. ثم أبتسـم لنفسـي وأقول: «هيا، يا رجل. انطلق! تحرك!» ويبدو عليَّ أنني مبهور الأنفـاس. ويتحرك ذهني بسـرعة تفوق سـرعة الصوت، لكن جسـمي يسـتجيب بحركة بطيئة. وأشـعر بقدميَّ وكأنهما قطعتان من الإسمنت، وأن أطـراف أصابـع قدميّ بـاردة جداً. ولا أفهم السـبب لِـمَ أنا بطيء هكذا، لقد تعوّدت أن أكون سريعاً كالبرق.

ومـن دون تفكير، أمد يدي اليسـرى إلى السـياج الخشـبي الذي تعـوّدت أن أسـتند إليـه عندما أصعـد الدرج. وأقول لنفسـي: «سـوف أفوز. وسـوف أنجح في ذلـك فعلاً». وأسـتطيع أن أسـمع صوت ماء المرحـاض من الأعلى، فأزيد من سـرعتي. وأمد يدي باتجاه السـياج. وأبتسم في داخلي قائلاً: «سـوف أهزمها». وبعد جزء من الدقيقة يغور قلبـي عندمـا تضيع يـدي السـياج وتقبـض على هـواء. ويبدأ جسـدي بالارتعاش. السـياج! أمسـك السـياج الغبـي! وكلما حاولت بشـدة أن أركز ترفض أصابعي أن تطيعني.

ويخيم السواد على عالمي.

تخترق نظرة مخيفة عيني. ويبدو رأسـي وكأنه عالق في الضباب.

ويمكنني أن أميز شكلاً واقفاً فوقي أمام ضوء أبيض ساطع. «... كم الساعة؟»

أحاول أن أهز رأسي لأوضح الصورة. وللحظة أعتقد أنني أقف أمام ملاك مرسل من السماء لكي يأخذني إلى الجنة.

لكن سعال الوالدة المثير للاشمئزاز سرعان ما يوقظ مخيلتي. «قلت، كم الساعة؟» ويكاد صوتها يجعلني أبلل سروالي تقريباً. فالوالدة تستخدم نبرة صوت ناعمة شريرة لئلا توقظ أطفالها الأعزاء. وتأمرني أمي وهي تطقطق أصابعها قائلة: «أرني بأيّ سرعة تستطيع أن تحرك جسمك الصغير المؤسف إلى هنا... الآن!» فيرتجف جسمي وأنا أضع المكنسة على قاعدة الدرج.

فتبتسم الوالدة بسعادة قائلة: «أوه، كلا! أحضر صديقتك معك». لكنني لست واثقاً مما تعنيه. فأستدير إلى الخلف ثم أرفع نظري إلى الوالدة. فتتابع قائلة: «المكنسة، أيها الأبله. أحضرها معك».

ومع كل خطوة أخطوها، يبدأ عقلي بالتخطيط للدفاع ضد أيّ لعبة تنتظرني من ألاعيب الوالدة عقاباً لي على جريمة عدم إنهاء عملي في الوقت المحدد. وأحذر نفسي لكي أحافظ على تركيزي. فأنا أعلم أنها تنوي أن تستخدم المكنسة كسلاح إما على صدري وإما على وجهي. وأحياناً عندما نكون وحدنا، تحب الوالدة أن تضرب نهاية المكنسة مباشرة خلف ركبتي. وإذا جعلتني أتبعها إلى المطبخ، فأنا هالك، ولن أتمكن من أن أذهب إلى المدرسة سيراً على الأقدام، ناهيك عن الركض إليها. ولكن إن أبقتني الوالدة على الدرج فإنني أعلم أنها ستضربني فقط على الجزء العلوي من جسدي.

ولدى وصولي إلى قمة الدرج، أتخذ وضعية الاستعداد. فينتصب جسدي مستقيماً بشكل مثالي ورأسي مطرق إلى الأسفل ويداي ملتصقتان على جنْبيّ. ولا يسمح لي أن أحرك عضواً من أعضاء

جسدي أو أرمش بعيني أو أنظر إلى الوالدة أو حتى أن أتنفس من دون إذنها المباشر.

تهمس الوالدة وهي تنحني فوقي قائلة: «قل لي، قل لي إنني غبية». فأنكمش وأنا أتخيلها تقضم جزءاً من أذني، لكن هذا جزء من اللعبة، فهي تمتحنني لترى ما إذا كنت سأجفل. لكنني لا أجرؤ أن أرفع بصري أو أشيح بوجهي، وكعباي معلقان فوق الدرج، فأدعو لئلا تدفعني الوالدة... اليوم.

وتتوسل الوالدة قائلة: «هيا، قل لي، رجاء». وتتغير نبرة صوتها. ويبدو صوت الوالدة هادئاً ولا يشكل تهديداً. ويدور رأسي. فأنا لا أفهم. هل سمحت لي الوالدة للتو بالكلام؟ ليست لدي فكرة عما تتوقعه مني؟ فأنا في كلتا الحالتين عالق، وأركز طاقتي على مقدمة حذائي، وكلما حدقت أكثر، يأخذ جسدي بالترنح.

ومن دون تحذير تدفع الوالدة إحدى أصابعها تحت ذقني وترفع وجهي إلى وجهها، وأنفاسها الفاسدة الرائحة تجعل معدتي تنقلب، فأحاول ألا أفقد الوعي من رائحتها النتنة. وحتى مع أنها لا تسمح لي بأن أرتدي نظارتي في البيت، فإنني أنظر إلى وجه الوالدة المحمر المنتفخ، وقد أصبح شعرها، الذي كان في السابق براقاً، دهنياً يعوزه البريق، وخصلاته تحيط بوجهها. فتقول لي: «كم تعتقد أنني غبية؟ قل لي بالضبط كم أنا غبية».

فأنظر إليها بارتباك وأجيبها قائلاً: «سيدتي؟»

وتلسع نار مضطرمة جانب وجهي، عندما تقول الوالدة بصوت كالفحيح: «من بحق الجحيم أعطاك الإذن لتتكلم، ناهيك عن النظر إلي؟»

وسرعان ما أطرق برأسي، مرة أخرى، لكي أخفي الألم في داخلي. وأقول لنفسي: «يا إلهي، إنني لم أر ذلك قادماً. ما الذي

يحدث لي؟ فلطالما كنت قـادراً على أن أرى ذراعها وهي تتراجع إلى الوراء قبل أن تصفعني. ولا أسـتطيع أن أفهم سبب بطئي الشديد هذا. تباً، يا ديفيد. حافظ على تركيزك! فكر!»

ثـم تزمجر الوالدة قائلة: «متى سـيبدأ **الشـيء** بإنجـاز أعماله؟ ما مشـكلتك؟ إنني أراهن أنك تعتقد أنني غبية! فأنت تعتقد أنك تستطيع أن تنجو بأي شـيء لعين تحب أن تفعله! أليـس كذلك؟» وتهز الوالدة رأسـها، ثم تقول: «لست أنا من يؤذيك. بل أنت من يفعل ذلك. وأنت من يقرر أفعاله. وتعرف من، أقصد ما، أنت وما هو هدف وجودك في هذه العائلة».

«إذا كان **الشـيء** يريـد أن يـأكل، إذاً فالأمر بسـيط: يقوم **الشـيء** بما يؤمر تماماً. وإذا لم يكن **الشـيء** يريد أن يعاقب، إذن، فلينأ بنفسـه عـن المشـاكل. فهو يعـرف القواعـد. وأنـا لا أعاملك بطريقـة مختلفة عن الآخرين، لكن **الشـيء** يرفض ببسـاطة أن يطيع الأوامر». وتتوقف الوالدة لتأخذ نفسـاً عميقـاً، ويبدأ صدرها يحدث صوتـاً كالصفير، لقد حـان الوقت لها لكي تعاقبني، وأعلم ما سـيأتي لاحقاً، وأتمنى لو أنها تقدم على ضربـي. ويرتفع صوتها مجدداً وهي تقـول في صوت هادر كالرعد: «وماذا عني؟ يفترض بي أن أكون نائمة، ولكن لا، يجب عليَّ أن أكون هنا مع **الشـيء**. أيها القذر المثير للشفقة! أيها الوغد الصغير! إنك تعرف وظيفتك. أنت لست شـخصاً، بل أنت شيء تفعل ما أريده تمامـاً. هـل تفهم؟ هـل كلامي واضـح أو ربمـا يجب علـي أن ألقنك درساً آخر؟»

تتـردد أصـداء كلمـات الوالدة فـي روحي. ولسـنوات، سـمعت الكلام نفسـه مـراراً وتكراراً. ولسـنوات، كنت إنسـانها الآلي البشـري الذي يقوم بما تريده كدمية تشغلها وتطفئها كلما رغبت في ذلك.

إننـي أنهار داخليـاً، ويبدأ جسـدي بالارتجـاف، ولا أسـتطيع أن

أتحمل ذلك بعد الآن. فأقول لنفسي: «هيا. افعلي ذلك! اقتليني فحسب! هيا!» وفجأة تزداد حدة نظري، وتتوقف أجزائي الداخلية عن الارتعاش، ويبدأ الغضب يملأني ببطء، ولم أعد أشعر بأنني بارد كالثلج، فأحرّك رأسي من جانب إلى آخر في حين أن عينيَّ تتحركان ببطء، تتأملان جسد الوالدة المكسو بثوبها، ومن ثمَّ تبدأ أصابع يدي اليمنى تقبض على مقبض المكنسة الخشبي. وبينما أطلق نفساً عميقاً، تحدق عيناي مباشرة في عيني الوالدة، وأقول لها بصوت كالفحيح: «دعيني وشأني»...

وتتسمر الوالدة في مكانها. فأركز كل ذرة من جسدي على اختراق عدساتها ذات الإطار الفضي وعينيها المحمرَّتين، وأملأ نفسي بالإرادة لكي أحول كل دقيقة توجب علي أن أتحملها خلال السنوات الثماني الماضية من الألم والوحدة نحو الوالدة.

ويتحول وجه الوالدة إلى لون أبيض شاحب كالأموات. فالوالدة تعرف بالضبط ما أشعر به. وأقول لنفسي: «إن الأمر ينجح». وتحاول الوالدة أن تبعد نظرها عن نظري، فتحرك رأسها إلى اليسار قليلاً، وأحاول أن أجاري حركتها، فلا تستطيع أن تهرب. وتنظر الوالدة إلى الأسفل وبعيداً، فأرد رأسي إلى الوراء وأزيد من حدة نظري، وأبتسم. ومن أعماق روحي أشعر أنني دافئ. فقد أصبحت أنا مسيطراً الآن.

أسمع صوت قهقهة يتردد في أعماقي، وللحظة، أعتقد أنني أضحك على الوالدة. فأخفض نظري لأرى ابتسامة الوالدة أشبه بابتسامة التمساح. ومن ثمَّ تشتت أنفاسها الفاسدة تركيزي. وكانت الوالدة كلما ابتسمت، يصبح جسدي أكثر توتراً. وتدير الوالدة رأسها نحو الضوء. فأقول لنفسي: «الآن، يمكنني أن أعرف أن الأمر سيحدث. هيا. افعلي ذلك! هيا، أريني ما لديك!» ثم أرى شيئاً ضبابياً لجزء من الثانية قبل أن أشعر بيديها تصفع وجهي. وبعد لحظة، يسيل

الـدم الدافئ مـن أنفي، فأتركـه يتقطّر علـى الدرج المفروش بالسـجاد الأسـود، وأرفض أن أمنح الوالدة متعـة أن تراني أبكي أو أتصرف بأي طريقة كانت. وأتحداها ببقائي مخدر الشعور قلباً وقالباً.

تقـول الوالـدة وهـي تكشـف عـن أنيابهـا: «إنـك تظهـر بعـض الشـجاعة، أليس كذلك؟ حسـناً، لقد تأخرت بضع سـنوات! وأنت لا تتمتع بمـا يتطلبه الأمـر، ولـم تكن تتمتع بـه قط ولن تفعـل ذلك أبداً. فأنـت مجرد حشـرة صغيرة مثيرة للشـفقة، وأسـتطيع أن أقتلك في أي وقت أريده. هكذا ببساطة». ثم تفرقع الوالدة أصابعها، وتقول: «وأنت على قيد الحياة فقط لأن هذا يعجبني. فأنت لست أكثر من مجرد...».

أحجـب كلمات الوالدة عن مسـامعي في حيـن أن الخوف البارد يزحف عائداً إلى روحي. فأطرق برأسـي مسـتأنفاً وضعية الاسـتعداد، فيتقطّـر دم أحمر قـان على أطـراف حذائي. وللحظة عابرة أشـعر أنني على قيد الحياة.

لقد أصبحت هي من تتحكم بزمام الأمور الآن.

وكلما ثرثـرت الوالدة أكثر، أطرقت أكثر معترفـاً أن الوالدة قادرة حقـاً ومتسـامحة لأنهـا تركتنـي أعيش ليـوم آخر فـي عائلتهـا. وتقول الوالـدة: «إنك لا تدرك مدى حسـن حظك. فأنـت لا تصدق الظروف التي مررت بها وأنا في مثل سنك...».

وأطلق تنهيدة عميقة وأغمض عيني في محاولة عابثة لكي أحجب نبـرة صوتها عن مسـامعي. فكـم أتمنى لو يغمـى عليها وتسـقط ميتة. وأتصورها في مخيلتي وهي تزحف على أرضية المدخل، وإنني لأمنح أي شيء مقابل أن أكون هناك أراقبها وهي ترتجف بعجز وممددة على ظهرها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ويتغير صـوت الوالدة في نبرتـه. وفجأة، أشـعر أن حلقي يلتهب بالنـار وهي تحكـم قبضتهـا حول عنقـي، وتـكاد عينـاي تخرجان من

وجهـي. فأنا لـم أركز علـى هجـوم الوالدة قبـل أن يحـدث. وبحركة لا إراديـة، ألف يـدي حول أصابـع الوالدة. ومهما حاولـت جاهداً، لا أسـتطيع أن أنزع يديها عني. وكلما قاومت، أحكمـت قبضتها المميتة. فأحاول أن أصرخ، ولكن لا يخرج من حلقي إلا صوت قرقرة. ويهبط رأسـي إلى الأمام وتنقلب عيناي إلى الأعلى، فأركز على وجه الوالدة. وأصرخ في نفسـي: «افعليها! هيا، افعلي ذلك! إنك قوية جداً وشريرة جداً! أريني ما يمكنك أن تفعلي! اقتليني!»

يرتعش خـدا الوالدة من كراهيتها الشـديدة، ويتسـع منخراها من تنفسها المتسـارع. وأريد أن تقتلني الوالدة. وأبدأ أشعر بنفسي أنجرف بعيداً. ويشعرني سمعي وكأنني في وسـط نفق طويل. وتسقط ذراعاي على جنبي. وللمرة الأولى منذ سـنوات، يسـترخي جسدي، ولا أشعر أننـي لم أعد بـارداً من الداخل، ولـم أعد خائفاً بعد الآن. فأنا مسـتعد لأن...

وتهز صفعة قوية رأسـي مـن جانب إلى آخر. وتقـول الوالدة في صوت كالفحيح: «آه، اسـتيقظ! استيقظ! أيها القذر البائس! فأنا لم أنتهِ منك بعد! وأنا أعلم بالضبط مـا تريده! هل تعتقد أنك ذكي جداً؟ ماذا لو... عوضاً عن إرسـالك إلى عمك دان هذه العطلة الأسـبوعية، ربما كان علـيَّ إرسـال الصبية بدلاً منـك. فهكذا نسـتطيع أن نمضي المزيد مـن الوقـت الخاص معـاً؟ أراهن علـى أنك لـم تفكر في هـذا، أليس كذلك؟»

كنـت أعلم من نبرة صوتها أنه لا يفترض بي أن أجيب، لكنني لا أستطيع ذلك.

«أوه، مـا الأمـر؟ هـل تعانـي الحشـرة الصغيـرة من التهـاب في الحلـق؟ أوه... هـذا سـيئ جداً!» وتبتسـم الوالـدة. وأسـتطيع أن أرى شـفتيها تتحركان، لكنني بالكاد أستطيع أن أفهم ما تقوله. وبعد ضغطة

سريعة أخرى، تفلت الوالدة قبضتها. ومن دون أن آخذ إذناً، أفرك عنقي وألهث طلباً للهواء. وبطريقة ما، أعلم أنها لم تنتهِ مني، ليس بعد. وبعد لحظة، أكاد أفقد توازني عندما تنتزع الوالدة المكنسة من جانبي، فأشد القسم الأعلى من جسدي بشكل تلقائي. وتقول لي: «هذا من أجل خداعك في أداء أعمالك. لقد قلت لك مئات المرات إنه يتوجب عليك أن تنهض وتعمل قبل أن أستيقظ. هل كلامي واضح تماماً؟»

فأتردد غير مدركٍ كيف عليَّ أن أردّ أو ما يجب عليَّ أن أقوله.

«قلت، هل هذا واضح؟»

فأقول متلعثماً بصوت أجش: «نعم... آه، نعم، يا سيدتي».

ثم تسألني الوالدة وهي ترد رأسها للخلف في هيئة توحي بالسيادة قائلة: «قل لي، ما اسمك؟»

فأجيبها بنبرة مرتبكة: «**الشيء**».

«وما هي وظيفة **الشيء**؟»

«أن... أن... أن... يفعل ما تأمرينه به وأن يبتعد عن... عن... المتاعب».

«وعندما أقول اقفز؟»

فأجيبها من دون تفكير قائلاً: «أسأل، إلى أي ارتفاع؟»

وتنظر الوالدة إليَّ شزراً وتقول: «لا بأس. لا بأس على الإطلاق، لكنني أعتقد فعلاً أن **الشيء** يحتاج إلى درس آخر. وربما سوف يعلمك هذا... ويعلِّم **الشيء**...».

وأستطيع أن أسمع صوت حفيف، فأشد ذراعي لأخفف تأثير الضربة، ويصبح القسم العلوي من جسمي صلباً كالصخر، لكنني لا أستطيع أن أعرف من أي اتجاه يأتي الصوت، ثم تصيب ضربة عنيفة جانب عنقي، وتلتوي ركبتاي وأنا أستدير إلى داخل المدخل وأنحني

على جسـم الوالدة. ومن دون أن أفكر أمد نفسـي إليهـا، فتلمع عيناها من السـعادة، وتبعد يدي عنها بقوة. وبينما تنـزلق قدماي، يرتدّ رأسـي إلى الخلف. ويمكنني أن أشـعر بحلقي ينهار بالطريقة نفسها التي كان يحصل فيهـا ذلك عندما تعـوّدت الوالدة أن تجعلنـي أبتلع ملاعق من مـاء النشـادر، فأجهد نفسـي لكي آخذ نفسـاً مـن الهواء، لكـن دماغي بطـيء الاسـتجابة. وتتعقب عينـاي عيني الوالـدة، فتسـألني قائلة: «أما زلت تعتقد أنك تستطيع الطيران؟»

وألقي نظـرة خاطفة إلى الأسـفل لأرى يد الوالـدة تتحرك؛ وبعد لحظة أشـعر بنفسـي أطفو ويداي تنقذفان إلى ما فوق وجهي. وفجأة، تمـلأ صـدري دفقة هـواء عندمـا يرتطـم مؤخر رأسـي بالـدرج، وأمد يدي، لكنني لا أسـتطيع أن أمنع جسـدي من أن يرتدّ إلى الخلف على الدرجـات. وعند أسـفل الدرج، ينتفـخ صدري وأحـاول أن أعثر على دلـو لكي أتقيأ فيـه. وعند الباب فوقـي، تنحني الوالـدة وهي تضحك، وتقول: «انظر إلى نفسك! إنك تبعث على السخرية!»

وبوجه مشـدود، وبصوت بـارد كالجليد تقول لـي الوالدة: «إنك حتى لا تسـتحق المجهود». وبحركة مفاجئة من يدها، تقذف المكنسة إلي، ثم تخبط الباب لتغلقه. والطريقة الوحيدة التي أملكها لأحمي بها نفسـي هي أن أغمـض عيني، فلا أزعج نفسـي حتى بأن أسـتدير بعيداً أو أغطي وجهي؛ ويمكنني أن أسمع صوت المكنسة وهي تسقط على الدرج قبل أن تخطئ في إصابتي كلياً.

وأنـا وحـدي في الكـراج، أستسـلم وأبكـي كالطفـل، ولا آبه إن استطاعت الوالدة أو أي شخص آخر في العالم أن يسمعني، فلا كرامة لي ولا قيمة. ويتنامى الغضب داخل روحي ببطء، فأجمع قبضتي كفّيّ وأبدأ بتفريـغ إحباطي على الأرض. لماذا، لماذا، لماذا؟ ما الذي فعلته بحق السماء لكي أجعلها تكرهني إلى هذا الحد؟

ومع كل ضربة أضربها أشعر بأن قوتي تستنـزف مني. ويبدأ ضوء الكراج الأصفر الفاتح يتلاشـى وأنا أفقد وعيي. ومن دون أن أفكر في أن الوالدة قد تضبطني، أتمـدد على جنبي وأرفع قميصي على وجهي، وأدفن يدي بين ساقي وأغمض عينيٍ؛ وقبل أن أفقد وعيي، أجمع يدي بعضهما مع بعض وأتمتم قائلاً: «خذني».

* * *

«استيقظ! أقول لك استيقظ!». فتنفتح عيناي وترفرفان. وأشـعر أنني محبوس في سـديم عقلي وأنـا واقف أمـام الوالدة فـي المطبخ، وليسـت لديَّ فكرة عـن كيفية وصولها إلـى هنا، وأعلـم بطريقة ما أن الوقـت قد حـان لكي أعـود إلى المدرسـة؛ ويجهـد عقلي نفسـه لكي يتذكر سبب فشلي في تتبع الأحداث.

تزمجـر الوالـدة قائلـة: «قلـت لـك، استيقظ!» ثـم تنحنـي عليَّ وتصفعني على وجهي، فأشعر كأنني مسحور بحيث إنني لم أعد أشعر بالألم. فتسألني بشيء من القلق: «ما هي مشكلتك بحق السماء؟»

وأنسـى نفسـي. فأمسـح وجهي بكفّيّ وأجيبها قائلاً: «لا أدري». وأعـرف علـى الفور أننـي قـد ارتكبـت جريمـة مزدوجة لأننـي قمت بالتحرك والكلام من دون إذن الوالدة. وقبل أن أوقف نفسـي، أرتكب جريمـة أخـرى بـأن أنظر إليهـا مباشـرة وأهز رأسـي وأقـول: «إنني لا أفهم... ما الذي يجري لي؟»

فتقـول الوالـدة: «إنك علـى ما يـرام». فأنحني إلى الأمـام لكي أسـتوعب ما قالته. ولسـت واثقـاً مما تسـمعه أذناي، لكنني أعتقد أن الوالدة قد تحدثت إليَّ لتوِّها بنبرة صوت ناعمة. ثم تقول: «أصغ إلي. أخبرهم... أخبرهم... أنك كنت...» وأجهد نفسي لكي أنتبه لتعليمات الوالـدة، لكـن كلماتهـا تبدو غيـر مفهومـة ومربكـة. وتطقطـق الوالدة أصابعها مشـيرة إلى تقدم مفاجئ في قصتها الجديدة التي ستستخدمها

لتغطية أعمالها، فتقول: «إذا سألك أولئك المدرسون الفضوليون أخبرهم أنكم كنتم تتصارعون وأنك خرجت عن السيطرة... فاضطر إخوتك لأن يهزموك. هل تفهم؟»

فأحاول أن أستوعب تعليمات الوالدة الجديدة.

تسألني الوالدة وهي تجهد نفسها لكي تكبح جماح غضبها قائلة: «هل تفهم؟»

فأضحك بيني وبين نفسي قائلاً: «آه نعم». ولا أستطيع أن أصدق مدى سهولة إتيان الوالدة بأكاذيبها الغريبة في كل يوم من أيام المدرسة. وأفاجأ أيضاً بأنني لم أعد أكترث لإخفاء مشاعري أمامها. فأتابع قائلاً: «وأخبرهم أنني مخطئ، وأنني سيئ».

وتقول الوالدة وهي تنتحب لكي تشجعني على الكلام: «وماذا؟...».

فأقول متلعثماً: «سأخبرهم... أنني... كنت ألعب... أعني أصارع! كنتُ أصارع. و... أصبحت خارجاً عن السيطرة. نعم، أفهم...».

تميل الوالدة برأسها جانباً وهي تتفحص الضرر الأخير الذي تسببت به. وتبقي نظرها مركّزاً لبضع دقائق قبل أن تفقد توازنها وهي تمشي بتعثر باتجاهي، فأحجم إلى الخلف بحركة عنيفة، فتقول لي بصوت هادئ وهي تمد يدها من على مسافة مناسبة كأنني كلب ضال: «صه... كلا، إن كل شيء على ما يرام. هدئ من روعك. لن يؤذيك أحد. صه...». وتدور الوالدة حولي قبل أن تعود إلى كرسي المطبخ، ثم تحني رأسها إلى الأمام وتحدق في الفضاء.

يبدأ رأسي بالهبوط إلى الأمام ثم يجعلني سعال الوالدة المتقطع أنتصب فجأة. فتقول لي منتحبة بصوت أجش: «إن كنت تعلم... وإن كنت فقط تفهم... أتمنى لو أنني أستطيع أن أجعلك، وأجعلهم يفهمون...» وتمسك الوالدة عن الكلام في منتصف الجملة لكي

تستجمع أفكارها. ويمكنني أن أشعر بعينيها وهي تتأمل جسدي. ثم تقول: «إن الأمور تخرج عن السيطرة، وهذا كل شيء. وأنا لم أعن قط... أن أعيش بهذه الطريقة. فلا أحد يفعل ذلك. لقد حاولت، والله يعلم أنني حاولت أن أكون زوجة طيبة وأماً مثالية. لقد فعلت كل شيء؛ وانتسبت إلى نادي الآباء وأقمت حفلات مثالية. لقد حاولت فعلاً».

وتهمس الوالدة قائلة: «أنت... أنت الشخص الوحيد الذي يعلم فعلاً؛ وأنت الوحيد الذي أستطيع فعلاً التحدث إليه. إنني لا أثق بهم. ولكن أنت... أنت المتنفس والمستمع المثالي بالنسبة إليَّ في أي وقت يعجبني. فأنت لا تتحدث، ولهذا فلا أحد يسمع ألمك. وليس لديك أي أصدقاء، ولا تخرج من المنزل أبداً، لهذا فأنت تعرف ما يعني أن تبقى لوحدك تماماً داخل المنزل. وفضلاً عن المدرسة، لا أحد يعرفك. فالأمر وكأنك لم تكن قط...».

ثم تتبجح قائلة وهي تومئ برأسها إلى الأعلى والأسفل لتؤكد على تحذيرها: «كلا. إنك لن تخبر أحداً أبداً... أبداً».

ومن دون أن أسترق نظرة خاطفة واحدة، يمكنني أن أسمع الوالدة وهي تتنشق الهواء وتجهد نفسها لكي لا تفقد السيطرة على أعصابها. وأدرك أنها تستخدمني فقط لكي تتحدث إلى نفسها، ولطالما كانت تفعل ذلك. وحين كنت أصغر سناً، اعتادت الوالدة أن تجرني من سريري في منتصف الليل وتجعلني أقف أمامها وهي تهذي لساعات. ولكن الآن وأنا واقف أمامها أشعر أنني مخدر جداً بحيث إنني لا أدرك فحوى كلامها غير المترابط. ما الذي تريده مني بحق السماء؟ أيمكن أن يكون النعاس ما زال مسيطراً عليها في هذا الوقت المبكر من الصباح أم أنها لا تزال تحت تأثير ما شربته الليلة الماضية؟ أهي ربما تختبر رد فعلي؟ إنني أكره ألا أعرف ما تتوقعه مني الوالدة.

وتتابع قائلة: «أنت. أوه، لقد كنـت ظريفاً جداً. وكان الجميع في الحفـلات يحبونـك ويريـدون أن يأخذوك معهـم إلى البيـت، فلطالما كنت مؤدباً ومتمتعاً بالسلوك الحسن. ولـم تكن تتكلم إلا إن تكلم أحد معك. أوه، إنني أتذكر أنك كنت تزحف إلى حضني، إن لم تتمكن من النوم، وتغني لـي أغنيات ذكرى الميلاد حتى في منتصف شـهر تموز. ولطالمـا اعتمدت عليك لتغني لي لحناً كلما شـعرت بشـعور سيئ». وتبتسـم الوالدة وهي تتذكر الماضي، لكنها لم تعد تسـتطيع أن تسيطر على الدمـوع التي بدأت تنهمر علـى وجنتيها. إنني لـم أرها هكذا من قبل. ثم تقـول: «إنك تتمتع بأعذب صوت، يا ديفيـد. لِمَ لم تعد تغني لي بعد الآن؟ لِمَ حدث هذا؟» وتحدق الوالدة بي وكأنني شبح.

ويتلاشـى إعيائـي فأقـول لهـا: «لا أعـرف...». وأدرك أن هـذه ليسـت إحدى ألاعيب الوالدة الشـريرة. وأعلـم أن هناك شـيئاً مختلفاً في أعماقهـا؛ فهي تحاول أن تصـل إلي. فالوالدة لم تكـن قط عاطفية إلى هذا الحد بخصـوص ماضيها. وأتمنى لو يكـون ذهني صافياً لكي أسـتوعب مـا تحـاول أن تقولـه لـي. وأعلـم أن التـي تتكلم هـي أمي الحقيقية وليسـت المرأة الشـريرة، بل الأم التي ظلّت محبوسـة داخلها لسنوات طويلة. فأقول لها: «يا أمي؟»

فيرتفـع رأس الوالدة في حركـة مفاجئة وهي تغطـي فمها بيدها، وتقول: «أمي؟ يـا إلهي! أتعلم، يا ديفيد، منذ متـى ناداني أحدهم بهذا الاسـم؟ يا إلهي!» وتغمـض عينيها محاولة أن تخفـي ألمها، ثم تقول: «لقـد كنتَ هشـاً جـداً وجبانـاً، لكنـك لا تتذكـر ذلـك، ولطالما كنت الأبطأ. فقـد تعوّدت أن تسـتغرق وقتاً طويلاً لكي تربـط حذاءك. حتى اعتقـدت أنني سـأجن وأنا أحـاول أن أعلمك كيف تربط شـارة مخيم الكشـافة المربعة، لكنك لم تستسـلم قطّ. وقد عثرت عليك في إحدى الزوايا وأنت تحـاول أن تربط العقدة. نعم، تلـك هي إحدى صفاتك.

إنك لا تستسلم أبداً». ثم تسألني الوالدة بابتسامة عريضة قائلة: «أتتذكر صيف ذلك العامِ حين كنت في السابعة أو الثامنة من عمرك وقضيت وإياك وقتاً طويلاً ونحن نحاول أن نصطاد تلك السمكة في حديقة **ميموريال؟**»

فأتذكر بوضوح تام كيف جلست وأمي على الحافة البعيدة لجذع شجرة ضخم ساقط فوق جدول صغير. ولم أستطع أن أصدق أنها اختارتني أنا مفضلة إياي على شقيقي الأصغر، **ستان**، الذي كان يبذل قصارى جهده بشكل مستمر ليحظى بانتباه الوالدة. وعندما ثار **ستان** في نوبة غضب على الشاطئ تحتنا، اعتقدت أن الوالدة ستدرك خطأها. لكن الوالدة لم تعر اهتماماً لغضب **ستان**، وأحكمت قبضتها بعض الشيء على حزامي في حال انزلقت وهمست في أذني مشجعة؛ وبعد بضع دقائق من صيد السمك، تعمدت إبقاء طعم بيض السلمون الزهري فوق الماء. فلم أرد لمغامرتي مع أمي أن تنتهي قط. والآن، وأنا أهز رأسي لكي أمحو تلك الذكرى، يصبح صوتي متهدجاً وأنا أعترف لها قائلاً: «لقد دعوت لئلا نصطاد تلك السمكة أبداً».

«لماذا فعلت ذلك؟»

«لكي... نتمكن من أن نمضي المزيد من الوقت معاً... كأم وابنها».

«أوه، لقد كاد أخوك **ستان** يموت من شدة الغيرة وهو يضرب بقدميه ماشياً نزولاً وصعوداً في الجدول الصغير ويرمي الصخور في الماء محاولاً أن يخيف سمكتك. يا إلهي». ثم ترد الوالدة شعرها للخلف مظهرة ابتسامة نادرة.

لست واثقاً مما إذا كانت غير قادرة على أن تسمع المعنى الحقيقي لما قلته أو تفهمه.

تناشدني الوالدة قائلة: «**ديفيد؟** إنك تتذكر، أليس كذلك؟»

فأصيح وأنا أهز رأسي: «نعم. أتذكر كل شيء. وأتذكر أنّه في اليوم الأول من المدرسة عندما طلبت منا المعلمة أن نرسم صورة لما كنا نفعله في صيف ذلك العام أنني رسمت صورة لي ولك ونحن جالسان تحت تلك الشجرة القديمة وهناك شمس ساطعة فوقنا. لقد أعطيتك إياها في ذلك اليوم بعد المدرسة، أتتذكرين؟»

فتشيح الوالدة بوجهها عني، وتقبض على فنجان القهوة بيدها، ثم تضع إصبعها على شفتيها، وتتلاشى البهجة عن وجهها. وتقول بنبرة صارمة وكأن مغامرة صيد السمك ليست أكثر من خدعة: «كلا!»

«أوه، إنك بالطبع تفعلين...».

فتقاطعني الوالدة قائلة: «قلت لك لا، تباً!» وتغمض عينيها بإحكام وتغطي أذنيها. ثم تقول: «كلا، كلا، كلا، لا أتذكر. ولا تستطيع أن تجعلني أفعل ذلك! ولا يستطيع أحد أن يجبرني على أن أتذكر الماضي الذي لا أريد أن أتذكره، لا أنت ولا أي شخص آخر، لا أحد يملي عليَّ ما أفعله! هل تفهم ذلك، أيها السيد؟»

فأجيبها بشكل تلقائي: «نعم، يا سيدتي».

ويتحول لون وجه الوالدة إلى الأحمر كلون الشمندر وتتشنج العضلات في عنقها، ويبدأ القسم الأعلى من جسمها بالارتجاف. ولست واثقاً مما يحدث، لكنني أعتقد أن الوالدة تتعرض لنوبة عنيفة. وأريد أن أصرخ، لكنني خائف فوق الحد لأفعل ذلك. وأقف أمام الوالدة كمغفل عاجز وأنا لا أعرف ماذا أفعل.

وبعد بضع ثوان يتلاشى اللون الأحمر عن وجهها، وتطلق تنهيدة عميقة، ثم تقول: «إنني لا أعرف فحسب أي شيء بعد الآن... إن كنت ذاهبة أو قادمة. لا أعرف... ولم أقصد أن تحدث الأمور بتلك الطريقة. ولا أحد يفعل ذلك. ولا يمكنك أن تلومني، فقد بذلت ما في وسعي...».

وتتلاشى العذوبة عن صوتها. وأريد من أعماقي أن أركض وأعانق أمي قبل أن تتلاشى بعيداً، لكنني أعرف أن الوالدة لن تتذكر بعد بضع ساعات كلمة واحدة من محادثتنا كعادتها. فأتراجع عن طاولة المطبخ وأستأنف وضعية الاستعداد.

ثم تقول الوالدة بشكل مفاجئ: «أوه، يا إلهي. الآن انظر إلى ما فعلته. سوف يتوجب عليَّ أن أوصل أولادي بالسيارة إلى المدرسة. انسَ أمر الأطباق. فيمكنك أن تنتهي منها بعد المدرسة. وأصغ إلي. إنني لا أريد أن أسمع كلمة واحدة من أولئك المدرسين الفضوليين اليوم، لذا أبق نفسك بعيداً عن المشاكل!» ثم ترفع الوالدة صوتها ليعود إلى النبرة الشريرة المعتادة: «أتفهم هذا، أيها السيد؟»

فأتمتم قائلاً: «نعم، يا سيدتي».

وتزمجر الوالدة قائلة: «إذن، اخرج من منزلي الآن! هيا أسرع!»

وأسألها قائلاً: «وماذا عن الغداء...؟»

«هذا سيئ جداً. لقد أخذت من وقتي فسوف آخذ شطيرتك القذرة، وسيتوجب عليك أن تبقى من دون طعام اليوم. والآن اخرج من هنا! لا تجعلني أحضر المكنسة! أسرع الآن!»

وبلمح البصر أسرع عبر مطبخ الوالدة وما زال بإمكاني أن أسمع صوت ضحكتها الشريرة وأنا أخبط الباب الأمامي لأغلقه قبل أن أعدو بأقصى سرعتي متوجهاً إلى المدرسة.

* * *

بعد دقائق، وبعد أن جريت إلى المدرسة بأقصى سرعة، أدخل مترنحاً إلى مكتب الممرضة ويداي تضربان ركبتي. ومع كل نفس أتنشقه، تضيق العضلات المحيطة بحنجرتي؛ ويبدأ ضغط هائل يتنامى من خلف عيني، وأضرب بيدي على ركبتي لكي أجعل الهواء يندفع إلى رئتي نوعاً ما، فتستدير الممرضة خلف مكتبها. ويحاول ذهني أن

يجعلني أصرخ، لكنني لا أستطيع أن أصوغ الكلمات. وأحاول مجدداً، فأقول بتلعثم مشيراً إلى عنقي: «لا أستطيع... التنفس!»

تثب الممرضة من خلف مكتبها بسرعة البرق وتنتزع حقيبة بنية وتقلبها رأساً على عقب مفرغة محتوياتها على الأرض وتركع على الأرض أمامي. ومن خلال دموعي، أستطيع أن أرى الرعب في عينيها. وأريد أن أصرخ، لكن الخوف يعقد لساني. وتجذب الممرضة يدي، لكنني أبعدها عني وأستمر بسحق ركبتي. وكلما حاولت أكثر أن أسحب الهواء إلى رئتي، تضيق القيود الخفية حول صدري. فتصيح الممرضة قائلة: «كلا! توقف، يا ديفيد! لا تقاوم! إنك مصاب بفرط التّهوئة!»

فأفغر فمي قائلاً: «فرط... التّهوئة!»

«تمهل. سوف تكون بخير. وسوف أقوم فقط بوضع هذه الحقيبة فوقك...».

«كلا! لا أستطيع... لن أتمكن من... أن أرى... ويجب عليَّ أن أرى!»

«صه. إنني بجانبك هنا. أغمض عينيك وركز على صوتي. جيد. الآن، تمهل. اسحب أنفاساً قصيرة من الهواء، وتنفس عبر أنفك. وهذا هو كل شيء». وتهمس الممرضة بصوت سلس. فأشعر معها بالأمان. ثم تقول: «هذا أفضل بكثير. أنفاس قصيرة. مد يدك، وأمسك بيدي. إنني هنا تماماً. ولن أتركك. وسوف تكون بخير».

فأطيع الممرضة وأغمض عيني. وبينما تضع الممرضة الحقيبة فوق وجهي، يمكنني على الفور أن أشعر بالهواء الدافئ يدور، وهذا ما كان يشعرني بحال أفضل، ولكن بعد بضعة أنفاس يصبح هواء الشهيق حاراً جداً، وتبدأ ساقاي تلتصقان بعضهما ببعض، وبحركة مفاجئة، أسحب يدي من يد الممرضة.

«صه، يـا ديفيد. ثـق بي. إنـك على ما يـرام، وأنت أفضـل حالاً بكثير. هذا هو كل شيء. تمهل. أترى؟ الآن، أرجع رأسك إلى الخلف واسترخ».

فأحني رأسـي للخلف، وتندفع دفقة هواء خارج فمي، وأشعر أن الضغـط حاد جداً بحيـث إنني أجهد نفسـي لأمتنع عن التقيّـؤ، وأنتزع الحقيبة مـن على وجهي قبل أن تلتوي سـاقاي وأقع على الأرض وأنا ألهث طالباً المزيد من الهواء. وفي غضون ثوان تبدأ القيود التي تحيط بصدري تخفّ.

وبعـد بضع دقائـق، تبرد النيـران التي كانت تلتهـب داخل عنقي، فتقـول الممرضـة وهي تمسـك بـكأس مليئة بمكعبـات الثلـج أمامي: «تفضل، خذ قطعة من هذه لتذيبها في حلقك».

أحـاول أن ألتقـط قطعة مـن الثلـج، لكـن أصابعـي المرتجفة لا تسـتطيع أن تُمسِـك بها. ومن دون تفكيـر، تمد الممرضـة يدها داخل الكأس وتخرج قطعة من الثلج، ثم تقول لي: «افتح فمك».

فأطرق برأسـي محـاولاً أن أختبئ. وفـي الدقيقة التـي أفعل فيها ذلك، يعاودني الألم الشـديد، فتوجهني الممرضة بنبـرة آمرة أكثر: «ما المشـكلة، يا ديفيد؟ هيـا الآن، افتح فمك». فأغمض عينـي، وأعلم ما هـو آت: الأسـئلة. وإننـي لأمنـح أي شـيء لأتجنب جولـة أخرى من الأسـئلة. فكل ما يفعلونه هو أنهم يثيرون اسـتياء الجميع في المدرسة وتكتشـف الوالدة الأمر بطريقة ما. وكلما استدعى المدير الوالدة، كان طاقم المدرسـين يشـهد النتائج في اليوم التالي. وبينما أسـتمر بتجنب عيني الممرضة، أتخيل نفسـي وأنا أتسلل إلى الزاوية حيث أستطيع أن أتوارى عن الأنظار.

أفتـح عينـي ببـطء عندمـا أشـعر بالممرضـة وهـي ترفـع رأسـي بأصابعها، فيصبح لون وجهها شاحباً كالأموات.

وتقول بتعجب وهي تنظر من جانب إلى آخر: «أوه... يا... إلهي!» ما الذي حدث لعنقك بحق السماء؟»

فأعصر يدي وأنا آمل أن تنسى الموضوع، وأقول لها بصوت يشبه الصفير: «من فضلك، انسي الموضوع».

«إن جانب حنجرتك متورم!» وتسرع الممرضة لكي تحضر خافضاً للسان من أحد مرطباناتها الزجاجية. ثم تقول: «دعني ألقي نظرة. افتح فمك»، فأطلق تنهيدة مثيرة للأعصاب قبل أن أطيعها، فتطلب مني بلطف قائلة: «أريد منك أن تفتح فمك أكثر بقليل، أيمكنك أن تفعل ذلك من أجلي؟»

وأقول لها منتحباً: «لا أستطيع ذلك. فهو يؤلمني كثيراً».

وأخيراً، تسمح لي الممرضة بأن أقفل فمي. ومرة ثانية، أحاول أن أتجنب نظرتها، وأدفن أصابعي المرتجفة في حضني. فتهز رأسها قبل أن تقف وتمسك بلوح ملاحظاتها. ففي كل يوم من أيام المدرسة وعلى مدى عام، كانت الممرضة قد فحصت جسدي من الرأس إلى القدم قبل أن توثق فحوصاتها. والآن، تتمتم لنفسها وهي تكتب آخر نتائجها. ثم تعاود الانحناء نحوي، وتدلك راحة يدي برقّة. وأعض على شفتي من شدة الترقب، فتحدق الممرضة بعيني وكأنها لا تعرف ما تقول.

والآن، يتملكني خوف شديد فعلاً.

فتقول لي ودمعة تسيل من خلف نظارتها: «إنني آسفة، يا ديفيد. لقد كنت مخطئة. إنك لست مصاباً بفرط التهوئة. إن حنجرتك... لهاتك متورمة وقصبتك الهوائية ملتهبة. وما أقوله هو: لهذا السبب تعاني متاعب في التنفس. إن فتحة حنجرتك تمنع تدفق الأكسجين إلى رئتيك. هل تفهم ما أقوله؟»

وأستغرق دقيقة لكي أتصور في عقلي ما تعنيه الممرضة. فأنا لا أريد أن تعتقد أنني غبي.

وتسألني قائلة: «متى حدث هذا؟»

فأبعد نظري عن عيني الممرضة وأحدق بحذائي. ثم أقول: «لقد كنت... ممم...». وأبحث في ذهني عن الكلمات المناسبة التي استخدمتها الوالدة في قصتها الملفقة، لكنني أشعر أن ذهني محبوس في منحدر ضبابي. فأتابع قائلاً: «لقد كنت... لقد وقعت... لقد وقعت عن الدرج».

وتجيب قائلة وهي ترفع حاجبيها: «يا ديفيد؟»

فأرد عليها بسرعة قائلاً: «إنها غلطتي أنا! لقد كنت أتصارع مع إخوتي وأصبحت خارجاً عن السيطرة...».

فتقاطعني الممرضة قائلة: «هذا هراء. إنك تعني أن أمك تعلم بحالتك... ومع ذلك تجعلك تركض إلى المدرسة؟ هل تدرك ما الذي كان ربما ليحدث لك؟ بربك، لقد كان من الممكن أن...».

فأقول لها بنعومة وسرعة قدر استطاعتي قبل أن يعود الإحساس الملتهب ثانية: «كلا، يا سيدتي، من فضلك. إنني بخير فعلاً. من فضلك! إنها ليست غلطتها! انسي الموضوع!»

فترفع الممرضة نظارتها لكي تكفكف دموعها، وتقول: «كلا! ليس هذه المرة! لن أنسى الموضوع. لقد نلت كفايتي. وهذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. فيجب أن أبلغ المدير عن هذا. ويجب أن أفعل شيئاً ما». وتقف على قدميها وتخبط لوحها على ساقها وهي تمشي نحو الباب.

فأتوسل إليها قائلاً: «كلا! من فضلك! إنك لا تفهمين! إذا أخبرتهم فسوف تقوم...».

وتستدير الممرضة وتقول: «ستقوم بماذا؟ أخبرني، يا ديفيد، أخبرني لكي يكون لديَّ شيء ما، أي شيء لأستند إليه! إنني أعلم أنها السبب، ونحن جميعاً نعلم أنها كذلك». ثم تقول لي مناشدة: «ولكن

يجب عليك أن تساعدنا، لكي نساعدك».

وفي محاولة مني لكي أخفف من وطأة آلامي، أحدق بالسقف وأعصر يدي وأركز على سحب أنفاس صغيرة من الهواء من خلال أنفي. وبزاوية عيني، يمكنني أن أرى أن الممرضة وهي لا تزال واقفة بجانب الباب، فأدير رأسي ببطء تجاهها وتنهمر الدموع على خدي، وأقول لها: «آه، إنني... لا أستطيع».

فتزمجر بصوت عال قائلة: «لماذا؟ بحق السماء، لماذا تتستّر عليها؟ ما الذي تنتظره؟ يجب أن يفعل أحدهم شيئاً ما!».

وتتردد كلمات الممرضة في رأسي، وأعض على شفتي حتى تنزف، وتبدأ ذراعاي بالاهتزاز، فأقول من دون تفكير بصوت يشبه الصرير: «تباً! ألا تفهمين؟ ليس هناك شيء يستطيع أحد أن يفعله! إنها غلطتي أنا! لطالما كانت غلطتي. افعل ذلك أيها الصبي. قم بذلك أيها الشيء، إلخ. وكل يوم هو تكرار لليوم الذي يسبقه. وحتى أنت». وأوجه إصبعي نحو الممرضة، وأقول: «كل يوم آتي إلى هنا تنزعين ثيابي وتفحصينني، وتسألينني عن هذا وذاك... لماذا؟ لا شيء يتغير. ولا شيء سيتغير على الإطلاق!» ويبدأ القيد المحيط بصدري يضيق، لكنني لا أحفل بذلك. فأنا لم أعد أستطيع أن أسيطر على تدفق مشاعري. فأقول: «لقد حاولت الآنسة **موس**...».

فتسأل الممرضة قائلة: «الآنسة **موس**؟»

«إنها مدرِّستي في الصف الثاني. لقد حاولت... حاولت أن تساعدني. وقد رحلت...».

فتقول الممرضة بنبرة غير مصدقة: «يا **ديفيد**؟»

وأدفن وجهي بين يدي، وأقول: «لقد حاول والدي... وقد رحل، أيضاً. يجب عليك أن تفهمي: كل ما أنا عليه وكل ما أفعله هو سيئ. كل شيء خطأ. وإذا اقتربتِ أكثر من اللازم، فسوف... فسوف تتولى

أمـرك أنت أيضـاً! لا أحـد يتغلّب عليهـا!» ثـم أصيح قائـلاً: «لا أحد يتغلّب على الوالدة!» وأنثني على نفسي في نوبة سعال. وتستنـزف أي طاقة لدي. ثم أنحني على سـرير الفحص الخـاص بالممرضة. وأجهد نفسـي لكي أبطئ من سـرعة تنفسـي. ثـم أقـول: «إننـي... حين كنت أجلـس في أسـفل درج الكراج وهم يشـاهدون التلفزيـون أو يتناولون العشـاء، كنت أحاول أن أفهـم الأشـياء وأن أدرك السبب». وأهز رأسي لأبعـد عنه سـاعات لا تعد ولا تحصـى قضيتها في الكـراج. ثم أقول: «أتعرفين أكثر أمر أريده؟»

فينفتـح فمهـا ويبقى مفتوحاً. فهـي لم ترني على هـذه الحالة من قبل، وتجيب قائلة: «كلا».

«إنني أريد فقـط أن أكون حقيقياً، أن أكـون كصبي حقيقي يملك ثياباً وأشياء. ولا أعني مجرد ألعاب، أريد أن أخرج من البيت. ولطالما أردت أن ألعب لعبة تسـلق القضبان الحديدية بعد المدرسـة. إنني أود فعلاً أن أفعل ذلك». وللحظة أبتسم لما أتخيله، ثم أقول: «لكنني أعلم أنني لن أتمكن من ذلك، أبداً. فيجب عليَّ أن أهرع إلى البيت بسـرعة وإلاّ أتعـرض للمتاعـب. وأحيانـاً، في الأيـام المشمسـة عندما أركض عائداً إلى البيت، أغش وأتوقف لأراقب الأطفال وهم يلعبون».

وتصبح مخيلتي ضبابية وأنا أبوح بأعمق أسراري للممرضة. ولأن الـكلام لم يكن مسـموحاً لي به في منـزل الوالدة، لأنّه لـم يكن لديَّ أصدقاء في المدرسـة، لذا لم يكـن لديَّ أحد لأعبر له عن مشـاعري. فأقـول لهـا: «فـي أوقات أخـرى في الكـراج ليـلاً، عندما أتمـدد على سريري، كنت أجهد نفسـي بالتفكير لكي أكتشف ما يمكنني أن أفعله، أعني لكي أسـوي الأمـور بينـي وبين الوالـدة ولأجعلها أفضـل حالاً. فقـد وددت أن أعرف لماذا وكيـف أصبحت الأمور بهذا السـوء. وقد اعتقدت فعلاً أننـي إن حاولت جاهداً، ودعوت من كل قلبي، فسـوف

أجد الأجوبة. لكنها لم تأت قطّ».

وأقول متلعثماً وأنا أقاوم دموعي: «لقد... لقد حاولت. وقضيت الكثير من الوقت... وأريد فقط... فقط... أن أعرف السبب. وهذا كل شيء. لماذا أنا، ولماذا نحن؟ لقد أردت أن أعرف. لماذا؟» وأحدق بعيني الممرضة، وأقول: «إنني لم أعد أكترث بعد الآن! فأنا أريد فقط أن أخلد للنوم! لقد سئمت كل شيء! سئمت الخدع والأسرار والأكاذيب والتعلل بالأماني أن الوالدة ستستيقظ يوماً ما وستصبح أفضل حالاً من جديد! فأنا لا أستطيع أن أتحمل بعد الآن!»

ثم أتوسل إليها قائلاً: «إن كنت تستطيعين، دعيني أنام فقط لبعض الوقت، من فضلك».

فتهز رأسها وتقول: «يجب أن ينتهي هذا، يا ديفيد. انظر إلى نفسك. إنك...».

وأقاطعها بصوت هادئ: «لا بأس... إنني لست... فعندما أكون في المدرسة، لا أكون خائفاً. عديني فقط ألا تخبري أحداً. ليس اليوم، رجاءً!»

فترد الممرضة بصوت فاتر قائلة: «إنك تعلم أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، يا ديفيد».

وأقول لها وأنا ألهث: «إن أنت... إن أنت أخبرتهم... إذاً فأنت تعلمين ما سيحدث. من فضلك، انسي الموضوع!»

فتومئ برأسها موافقة، وتقول: «اليوم فقط».

«أتعدينني؟»

«أعدك». ثم تأخذ بيدي وترشدني إلى سرير صغير في زاوية الغرفة.

«أتعدينني وعد شرف؟» وأرسم بإصبعي إشارة ضرب على صدري.

فتكرر وهـي تغص بالـكلام قائلـة: «أعـدك». ثم تدثرنـي بملاءة صوفية سميكة.

وأكرر قائلاً: «وعد شـرف؟» فتنفرج شـفتا الممرضة عن ابتسـامة وهي تربت بلطف على شـعري الكثيف، فأمسـك بيدها وأحتضنها بين يدي، وأكرر قائلاً: «وعد شرف؟»

فتشد الممرضة على يدي بلطف، وتقول: «وعد شرف».

وفي أعماق روحي، أشعر أنني في أمان وأنني لم أعد خائفاً. فأنا مستعد للموت.

الفصل الثاني

التحليق في السماء

24 آب 1979

كان العرق الغزير الدبق يغطي كل مسامة من مسامات جلدي؛ وكانت معدتي منقبضة من شدة الخوف؛ وبدت أصابعي ملتحمة بعضها مع بعض وهي تنشبك بمسند الكرسي. وقد أردت أن أغمض عيني، لكن الشعور بالانتعاش والسحر والخوف في داخلي أبقاني متسمراً إلى جانب النافذة الزجاجية، فتفحصت كل معلم من معالم منطقة بي آيريا التي كانت موطني على مدى الثماني عشرة سنة.

ثم سألت نفسي بدهشة قائلاً: «أأنا أطير؟»

انزلق جسدي على الكرسيّ، فاعتقدت بالتأكيد أنني قد سقطت من الطائرة عندما قامت طائرة البوينغ بانعطاف حاد مفاجئ نحو اليمين. ولكي أساعد نفسي على احتواء خوفي، أكرهت نفسي على إغماض عيني. وقلت لنفسي: «إنني بخير، إنني على ما يرام. يا إلهي، لا أستطيع التصديق! إنني أطير! إنني أطير حقاً!» واستطعت أن أشعر بنفسي وأنا أنجرف بعيداً. وبسبب شعوري بالإثارة لالتحاقي أخيراً بسلاح الطيران الأميركي وتوديعي لأبوي بالرعاية والصراع الذي عشته في الماضي، فلم أنم منذ أيام. وعندما أخذ هدير محركات الطائرة يتلاشى، بدأت أسترخي. وكلما خف توتري، فكرت أكثر في مدى التغيير الذي طرأ على حياتي.

إنني لم أحلم قط، وأنا طفل نجا من العيش في كراج منزل

الوالدة، أنني كنت لأنجح في الخروج منه على قيد الحياة. ونوعاً ما، فقد أيقنت أن الوالدة كانت على وشك أن تقتلني، ومع ذلك فلم أحفل بهذا. لقد تخليت عن كل أمل. وعلى الرغم من ذلك ففي الخامس من شهر آذار 1973، اليوم الذي تلا اليوم الذي رمتني فيه الوالدة من أعلى درج الكراج، اتصل مدرسي بالشرطة التي وضعتني على الفور تحت وصاية وقائية. وأصبحت حراً. ومع أنني شعرت ببهجة غامرة، فإنني شعرت أن حريتي كانت نصراً أجوف. ففي أثناء جلسة الدعوى القضائية في المقاطعة، أحسست أن الوالدة قد تخلت عني وأنني لم أكن جديراً بما يكفي لأكون ابنها. وعندما أعلمتني، ملاك الرحمة، الأخصائية الاجتماعية الخاصة بي، السيدة **غولد**، أن صلتي بالوالدة وأطفالها سوف تنقطع تماماً، شعرت بأنني محطم.

وعندما أصبحت طفلاً بالرعاية، سرعان ما اكتشفت أنني لم أكن أعرف شيئاً على الإطلاق عن العيش في العالم الحقيقي. فقد هيمنت الحاجات الأولية للبقاء في حياتي السابقة كسجين الوالدة. ولكن بعد أن تم إنقاذي، شعرت أنني طفل حديث المشي وأنا أتعلم وأنمو بالقفزات والوثبات. وكانت أبسط الأشياء التي يتعلمها أطفال الحضانة تشكل عقبات بالغة بالنسبة إليَّ. ولأنني قضيت سنوات في الكراج ورأسي منحن إلى الخلف في وضعية سجين الحرب، فإن شكل جسمي قد تطوّر بطريقة سيئة. وعندما أصبحت طفلاً بالرعاية، توجب عليَّ أن أتعلم كيف أركز وأمشي في وضعية مستقيمة. وكلما كنت أشعر بالتوتر، أتلعثم وأخلط الكلمات بعضها ببعض. وكنت أستغرق وقتاً طويلاً لأكمل جملة بسيطة واحدة. وكانت أمي بالرعاية، السيدة **تيرنباو**، تقضي ساعات معي كل يوم بعد المدرسة وهي تعلمني أصوات الكلام وتساعدني على أن أتخيل الكلمات وهي تتدفق من فمي كالماء المتساقط من الشلال. وربما كانت جهود السيدة **تيرنباو**

سبب خرابها. ففي غضون بضع دقائق، بدأت أزعج والـديّ بالرعاية بكل ما كنت أقوله. ففعلا كل ما باستطاعتهما لكي يسكتاني. وقد أردت أن أتباهى بطريقتي الجديدة في التواصل مع الجميع في كلِ دقيقة. ولكن سرعان ما أصبح فمي نقطة ضعفي. ولأنني كنت نحيلاً جداً وأخرق، فقد أصبحت فريسة سهلة للآخرين. وبدت طريقتي الوحيدة للدفاع عن نفسي هي فمي. فكنت كلما شعرت أنني في وضع حرج انفجرت كلمات تعبر عن الغضب الشديد والكراهية مني قبل أن أدرك ما أقوله أو لماذا أقوله.

لقد كانت الطريقة الوحيدة التي شعرت أنني أستطيع بها أن أتعرف إلى الأصدقاء هي أن أسرق في سبيل تقبل الآخرين لي أو أن أفعل أي شيء أستطيع أن أفعله لكي أحظى باهتمامهم. وكنت على يقين أن ما أفعله خطأ كبير، ولكن بعد سنوات قضيتها وأنا مشرد ومعزول تماماً، كانت حاجتي إلى الانسجام مع الآخرين قوية جداً بحيث إنني لم أقو على مقاومتها. فبذل والداي بالرعاية قصارى جهدهما لكي يرشداني إلى الطريق الصحيح ويعلماني خطورة قراراتي.

ومن ناحية أخرى، فقد خاب أملهما بسبب سذاجتي وجهلي. ففي المرة الأولى التي أخذت فيها حماماً، ملأت حوض الاستحمام إلى الحافة قبل أن أخطو داخله متسبباً بفيضان الماء من جوانبه. وبعد ذلك، عصرت كل قطرة استطعت عصرها ممّا اعتقدت أنه مستحضر حمام الفقاعات ذو الرائحة الجميلة داخل حوض الاستحمام. ثم حركت الماء مثل الزوبعة محاولاً الحصول على أكبر قدر ممكن من الرغوة. وبقدر ما ضحك والداي بالرعاية من مرحي بالماء لم تكن أختاي بالرعاية سعيدتين كثيراً، فخبأتا علب الشامبو الخاصة بهما في غرفتي نومهما. وحتى ذلك الحين، لم أكن قد سمعت قط بكلمة شامبو.

اعتقدت أنـه يتوجب عليَّ أن أعمـل لكي أبقى علـى قيد الحياة. وفـي وقـت مبكر حيـن كنت طفـلاً بالرعايـة، سـمعت مـراراً وتكراراً أن الأطفـال بالرعايـة لا يصلون إلى أي شـيء ولا يتخرجـون أبداً من المدرسـة الثانوية ولا حتّى من الكليّة. وقد اكتشـفت أيضاً عندئذ أنني عندما أبلغ الثامنة عشرة، لن أبقى خاضعاً لوصاية المحكمة، أي قاصراً تعوله حكومـة المقاطعة. ولأن ليس لـديَّ والدان أعتمـد عليهما، فقد كنت سأصبح وحيداً كلياً. وكلما أوشكت على بلوغ سن الرشد، استبد بي الرعب من أن أصبح مفلساً ومشرداً. وشعرت في أعماقي بالخوف من ألا أكون قوياً بما يكفي لكي أنجح بمفردي. فحين كنت طفلاً خائفاً يعيش في كراج الوالدة، كان أحد الوعود التي قطعتها على نفسـي، إن أنا تمكنت من الهروب على الإطلاق، أنني سأملك دائماً المال الكافي للطعام. وهكذا، تخليـت في أثناء فترة مراهقتي عـن الألعاب التركيبية وألعـاب السـيارات وصببـت اهتمامـي علـى كسـب عيشـي. وبحلول الوقت الذي بلغت فيه الخامسة عشرة، كنت أعمل في تلميع الأحذية. ثم كذبت بشـأن سـني لكي أحصل على عمل كمسـاعد نـادل. وكنت لأفعل أي شـيء لكي أعمل أربعين سـاعة أسـبوعياً. وعندما أصبحت طالباً في السـنة الأولـى في المدرسـة الثانويـة، أخذت أعمـل كالعبيد لسـتة أيام في الأسـبوع لكي أتمكن من تحقيق ستين سـاعة من العمل أسـبوعياً. وبذلت قصارى جهدي لأتدبر سـاعة إضافية من العمل لكي أجني دولارين إضافيين. وفقط حين كنت أذهب إلى المدرسـة وأنهار على مقعدي وأنا أشـعر بالغثيان من الإعياء الكامـل، كنت أصبح أكثر كسلاً. أما من بعض النواحي، فقد شعرت بالفخر لاعتقادي أنني متقدم في العمل. لكنني أحسست في داخلي أنني أجوف ووحيد. فبينما كان الصبية الآخرون يواعدون الفتيات الجميلات ذوات الفسـاتين القصيرة والزينـة الباهظة ويقـودون سـيارات آبائهم ويتحبون بسـبب الأسـبوع

الذي يعملون فيه لعشر ساعات، أخذ شعوري بالغيرة من وفرة حظهم يتزايد في داخلي.

وكلما شعرت أنني محبط قليلاً، دفنت نفسي في العمل أكثر. وكلما انكببت على العمل، أخذ توقي لأن أصبح مراهقاً طبيعياً يختفي. والأهم من ذلك، هو أن الصوت الذي كان يفور في داخلي ويجاهد باحثاً عن أجوبة عن ماضي، قد بقي صامتاً.

لقد كان العمل بالنسبة إليَّ يعني السلام.

ففي صيف العام 1978، عندما بلغت الثامنة عشرة، ولكي أطور مهنتي كبائع سيارات معروف، قررت أن أترك المدرسة الثانوية. ولكن بعد بضعة أشهر، وبعد ركود طرأ في أنحاء الولاية كلّها، وجدت نفسي وقد أصبحت راشداً بشكل رسمي من دون شهادة ومن دون عمل. وبدأت مدخرات حياتي تستنزف سريعاً، فتحقّق أسوأ كوابيسي، وتلاشت كل خططي المدروسة جيداً عن التقدم إلى الأمام والتضحية في حين أن الآخرين كانوا يلهون. وبسبب افتقاري إلى التعليم، فقد تركزت الوظائف الوحيدة المتاحة لي في مطاعم الوجبات السريعة، لكنني أيقنت أنني لن أتمكن من أن أنجح عن طريق العمل في تلك الوظائف بقية حياتي.

منذ فترة سجني لدى الوالدة، أيقنت أنني سأصبح شخصاً مهماً. فكلما كانت تصرخ في وجهي وتشتمني وتتركني ممدداً على الأرض وأنا غارق في دمائي، كنت أقاوم وأبتسم في داخلي وأنا أقول لنفسي مراراً وتكراراً: «يوماً ما سترين. ففي أحد الأيام، سأجعلك فخورة بي!» لكن نبوءة أمي كانت صحيحة. فقد أخفقت. ولقد كرهت نفسي في الصميم بسبب ذلك. وكان الوقت الذي قضيته وأنا عاطل عن العمل قد أيقظ صوتي الداخلي. وبدأت أفكر في أن الوالدة ربما كانت محقّة طوال الوقت. فأنا فاشل. وقد عاملتني بتلك الطريقة لأنني كنت

أستحقها. وأصبحت خائفاً جداً من مستقبلي حتى إنني لم أعد قادراً على النوم. وأخذت أقضي أمسياتي وأنا أحاول أن أصوغ استراتيجية تمكنني من البقاء على قيد الحياة. وخلال تلك الليالي التي لا نهاية لها تذكرت النصيحة الوحيدة التي لطالما أسداها إليَّ والدي.

خلال السنوات الست التي قضيتها وأنا طفل بالرعاية، قابلت والدي أقل من عشر مرات، وفي نهاية زيارتي الأخيرة، أراني بفخر إحدى المقتنيات الوحيدة التي تركها، وهي شارته التي تمثل تقاعده من فرع الإطفاء في **سان فرانسيسكو**. وقبل أن أعاود الصعود إلى الحافلة، تمتم والدي بصوت كئيب قائلاً: «ارحل من هنا، يا **ديفيد**. ارحل إلى أبعد مكان تستطيعه من هنا. لقد بلغت تلك السن تقريباً. فارحل». وأخذ ينظر إليَّ بعينين تحيط بهما دوائر داكنة، ثم تفوه بكلماته الأخيرة قائلاً: «افعل ما عليك فعله، ولكن لا تصبح... لا تصبح مثلي».

وشعرت في أعماقي أن والدي كان مدمناً على الكحول ومشرداً. وبعد أن أفنى عمره وهو ينقذ الآخرين من الأبنية المحترقة، أصبح عاجزاً عن إنقاذ نفسه. وفي ذلك اليوم وبينما ابتعدت بي الحافة، بكيت من أعماق روحي. وكلما كانت الحافلة تمرّ بشخص نائم بجانب أحد الأبنية، كنت أشعر بالأسف من أجله، مع أنني، كنت أعلم أنني لا أريد أن أصبح مثله ولا أستطيع أن أفعل ذلك. وشعرت بالأنانية وأنا أفكر في نفسي أكثر من التفكير في والدي المبتلى، لكن نصيحته: لا تصبح مثلي، أصبحت وصيتي الشخصية.

وقررت الالتحاق بالخدمة العسكرية فقد كانت فرصتي الوحيدة. فتخيلت نفسي أخدم في سلاح الجو كإطفائي، ثم أعود إلى منطقة **بي آيريا** وأري والدي شارتي. وقد برهنت محاولة الالتحاق على أنها محنة بحد ذاتها. فبعد أن أجهدت نفسي للحصول على شهادة المدرسة الثانوية الحرة، توجب عليَّ أن أملأ أكواماً من الأوراق الرسمية في

كل مرة كنت أطـرد فيها من منـزل رعاية إلى منـزل آخر، ثم أشـرح في استمارات منفصلة السبب في إرسالي إلى بيت آخر. وكلما كان الموظف المسؤول عن التجنيد في سـلاح الطيران يضغط عليَّ بطرح الأسئلة عن ماضيّ، كان الرعب الشـديد يستبد بي بحيث إنني كنت أتلعثم كالأبله. وبعـد أسـابيع من تجنب ذلـك النوع من الأسـئلة، استسـلمت وأعطيت الرقيب شرحاً وجيزاً عن السبب في عدم انسجامي مع الوالدة. وانتظرت رد فعلـه، ثم حبسـت أنفاسـي وأنا أعلم أن المسـؤول عـن التجنيد كان سيرفض طلبي إن اعتقد أنني محب للمشاكل.

في كل صباح، ولأسابيع عدة، كنت أنتظر أمام باب المكتب لكي يفتح ومن ثم أهرع إلى الداخل لكي أملأ المزيد من الأوراق الرسـمية وأدرس الأفـلام أو أيّ كتيبات يزودني بها المسـؤول عن التجنيد. لقد أصبحـت مهووسـاً بفكرة الالتحـاق بالجيش. فسـلاح الطيـران أصبح بمثابة تذكرتي للعبور إلى حياة جديدة.

بعد أن انتهيت من ملء الأوراق الرسـمية، وتحققت منها مرتين، ثـم عـاودت التحقق منها مـن جديد، توجـب علـيَّ أن أخضع لفحص طبـي؛ وخـلال سلسـلة الفحوصـات، تعرضـت للوكز والنخـز في كل بوصة من جسمي النحيل. وفي النهاية جلست، وأنا شبه عار، والطبيب يدور حولي ويسـألني عن الكدمات القديمة التي على رأسي والندوب التي على جسـمي والعلامـات التي على يـدي اليمنى عندمـا أحرقتني الوالدة بموقد الغاز. فقللت من أهمية أسئلة الطبيب هذه وقلت له إنني كنت طفلاً أخرق، عندها أطلق الطبيـب تنهيدة ورفع حاجبيه؛ فانقبض قلبـي علـى الفـور، وأدركت لتـوّي أنني قـد تفوهت بخطإ ما. ولشـدة خوفـي من أن يقلل ما قلته من تأهيلي، أسـرعت بالقول إن تلك كانت مرحلة عابرة في طفولتي. فسأل الطبيب وكأنه لم يصدق قصتي، وقال: «طفولتك؟»

«نعـم، حين كنت في السادسـة أو السـابعة. لكننـي...». ورفعت إحـدى أصابعي لأؤكد على أهمية هذه النقطـة، فقلت: «لم أعد أخرق الآن! كلا، ليـس بعـد الآن. ليـس أنـا. كلا، يـا سـيدي...». فأومـأ لي الطبيب لأبتعد عن سـرير الفحص وأمرني أن أرتدي ملابسي. فشعرت بموجة راحة وأنا أراه يرسم علامة على المكان الذي يذكر أنني مؤهل طبياً للالتحاق، وأصبحت في قمة السـعادة إلى أن حانت اللحظة التي انحنيت فيها كثيـراً وارتطمت بالطاولة، فتبعثـرت الملفات التي تحوي أوراق المجنديـن الآخريـن فـي كل اتجـاه. وحاولـت، وأنـا مـا زلت أجهد نفسـي لأرفع سـروالي، أن أمسك بالأوراق متسـبباً فقط ببعثرتها أكثـر. فأمرني الطبيب أن أتوقف عن محاولة المسـاعدة وأن أخرج من المكتـب بأقصى سـرعة ممكنـة. وبينما أنـا أهرع إلى خـارج المكتب، ابتسم الطبيب، وقال: «تخطيت تلك المرحلة الخرقاء، أليس كذلك؟»

بعـد سـاعات في ذلـك اليوم، جلسـت مسـمراً أمام أحـد أجهزة الكمبيوتـر بجانب أحد رقباء سـلاح الطيران وهو يطبع كمـاً هائلاً من المعلومـات. وأخيراً، توقف الرقيب والتفت نحوي، وسـألني بلامبالاة قائلاً: «إذاً، في أي يوم تريد أن تلتحق؟»

فهـززت رأسـي وأنا غيـر واثق بأننـي قد سـمعت ما سـألني إياه الرقيب لتوّه. فانحنيت إلى الأمام وهمست قائلاً: «تعني أنني قد قبلت؟ أيمكنني أن ألتحق؟ هل تسألني فعلاً إن كنت أريد الالتحاق؟»

فقـال الرقيـب مازحـاً: «لا تجعـل منهـا قضيـة كبيرة. نعـم، إنك مقبول. وهـذا هو الأمر، ما لـم يبلغنا مكتـب التحقيقات الفيدرالية أنك مجرم».

فعاد ذهنـي في لمـح البصـر ليتذكـر كل المواقف الحرجـة التي حدثت بيني وبين الشـرطة بسـبب مخالفات السـرعة التي تعرضت لها فـي أثناء مراهقتـي، فانقبـض قلبي، وأيقنت أن سـلاح الطيران سـوف

يطردني إن اكتشف شيئاً عن ماضيّ. وما جعلني أجفل أكثر كان الرقيب عندما ربّت على كتفي قبل أن يفاجئني بقوله: «هيه، يا بيلزر، هدئ من روعك. إذاً... متى تريد أن تلتحق؟»

لقد أصبح ذهني مشوشاً، فقلت لنفسي: «الآن سنحت لك الفرصة لكي تصبح شخصاً مهماً. لقد حان وقتك لكي تبني حياتك». وببساطة، لم أستطع أن أصدق أنني نجحت فعلاً بعد أن جاهدت لستة أشهر.

وسمحت لنفسي بالابتسام مكافأة لي، وقلت: «متى يحين أقرب وقت أستطيع أن ألتحق فيه؟»

فقال الرقيب بسرعة: «إنك تعاني مشكلة تتعلق بصديقتك، أليس كذلك؟» وقبل أن تسنح لي الفرصة لكي أجيب، أحنى الرجل رأسه وطبع شيئاً ما بسرعة على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، ثم بادر قائلاً: «إن كنت فعلاً متعجِّلاً، فيمكنني أن أجعلك تستقل طائرة وتبدأ التدريب الأساسي بحلول... الليلة. أو، إن لم يناسبك ذلك، فيمكنك أن تلتحق الأسبوع القادم. إذاً، ماذا تريد؟»

علمت على الفور ما يجب عليَّ أن أفعله، لكن موجة من العار غمرتني؛ فقد كنت لأشهر أكذب على والديَّ بالرعاية وأنا أخبرهما أنني أخضع لاختبارات متخصصة ومقابلات من أجل الوظائف، وهذا ما جعلني أشعر، بطريقة ما، أنه صحيح، إذ لم تكن لدى آل تيرنباو أي فكرة عما أضمر النية لفعله حقاً. لذا، شعرت أنني بحاجة مفاجئة إلى أن أغادر وألتحق بالجيش ثم أقوم بالاتصال بهما من معسكر التدريب. وباستثناء والديّ بالرعاية وحفنة من الأصدقاء المقربين، لم يكن لي أحد في الحياة. فلم تكن لديَّ صديقة ولا زملاء عمل ولا أصدقاء يأخذونني للذهاب في رحلات أو لمشاهدة الأفلام ولا أقارب لأتحدث إليهم ولا أي شخص. وشعرت أنني إذا اختفيت عن

وجـه الأرض فـإن عدداً قليـلاً من الناس قـد يلاحظ ذلـك. لكنني في أعماق قلبي، شـعرت أنني مدين لعائلتي الحقيقية، أي لوالديّ بالرعاية والأصدقاء القلائـل الذين أعرفهـم، بأكثر من مجـرد مكالمة خارجية. وفضلاً عن كل شـيء، فإن تلك المسألة كانت مسـألة شرف. فأطلقت نفساً عميقاً قبل أن أجيب الرقيب قائلاً: «سألتحق الأسبوع القادم».

فسألني بأدب قائلاً: «الأسبوع القادم. هل أنت واثق من هذا؟»

ومـن دون أن أرمـش بعينـي، أومـأت برأسـي وقلـت: «نعـم، يا سيدي!»

فضغـط الرقيـب أحـد الأزرار وبـدأ الكمبيوتـر يطبـع سـيلاً مـن الأوراق. ثـم قال مـن دون أي أثر للعواطـف: «وقِّع هنـا، وهنا، وهنا، وهنا... وهنا». فحدقت بالمربعات التي تحوي علامات ضرب حمراء سـاطعة. وقلت لنفسـي: «هذا هـو الأمـر». وانتزعت القلـم الحكومي وكتبت اسمي بقوة حتى إنني كدت أمزق الأوراق. وبينما أخذ الرقيب الأوراق وطبـع المزيد مـن الأوامر على الكمبيوتر، قمـت بقتل الوقت عن طريق تأمـل صورة لامعة محاطـة بإطار لمقاتلات سـلاح الطيران المتطـورة. وبدأ لعابي يسـيل لرؤية خطـوط الطائـرات المصقولة على خلفية السماء الزرقاء الواسعة.

فسـألت وأنا أشـير إلى الصورة التـي تعلو مكتبه: «سـيدي، أهذه هي مقاتلة **أف**-15؟»

فأجـاب الرقيب مـن دون أن يرفع نظـره عن الكمبيوتـر: «كلا... إنها مقاتلة **أف**-16».

أومأت برأسـي لسـماع جواب الرقيب، ثم قلت مـن دون تفكير: «معذرة، يا سـيدي، ولكن إن لـم أكن مخطئـاً، إنها طائرة **أف**-15 **إيغل** المصنعـة في معمـل **ماكدونيل دوغـلاس**، وهي طائـرة الضربة الأولى ومقاتلـة جوية متفوقة وقادرة على الطيران بسـرعة تزيـد عن 2.5 ماخ،

ومصنَّعة من محركي **جي إي أف** 100...».

فالتفت الرقيب إليَّ وفمه مفتوح على مداه.

قلت لـه: «هل تفوهت بخطإٍ ما، يا سيدي؟» وفكرت للحظة في ما قلته لتوّي، وشعرت حتى بالدهشة من مدى السهولة التي تفوهت بها بالمزايا التقنية الرئيسية للطائرة. فلقد سبق لي أن تعلمت تلك الحقائق كلّها من نشرات التجنيد ومن عدد كبير من الكتب التي قرأتها خلال الأشهر القليلة الفائتة.

ثم أومأ لي الرقيب برأسه لكي أتابع كلامي.

ففكرت في ذلك على الفور على أنه اختبار غريب، وأغمضت عيني لكي أتذكر قدر المستطاع، وقلت: «وأعلم أنها مكملة لقذائف **آيم**-7 و**آيم**-9 **سايدويندر**. وأعتقد أن طائرة **ستريك إيغل أف**-15 قد حطمت الرقم القياسي الذي حققته طائرة **أم إي جي** الروسية منذ عامين أو ربما ثلاثة أعوام». ثم توقفت لكي ألتقط أنفاسي وانتظرت رد فعله. وعلى الرغم من شدة توقي للقبول، فإنني لم أرد من الرقيب أن يعتقد أنني أتباهى، وأدركت من ابتسامة عينيه أنه لم يكن متأثراً فحسب بل كان مهتماً بالطائرات أيضاً.

فعارضني قائلاً: «إنها طائرة **أم آي جي**، يا **بيلزر**، وليست **أم إي جي**. إنك شاب ذكي. من أي قاعدة أطلقت طائرة **ستريك إيغل**؟»

فأجبته بثقة: «من قاعدة **غراند فوركس** في ولاية **نورث داكوتا**».

فقال لي: «حسناً، لا بأس. والآن سؤال مهم: لماذا أطلقت من قاعدة **غراند فوركس**؟»

فابتسمت له وأنا مستمتع باللعبة، وقلت: «بسبب الضغط الجزئيّ. فالهواء الأبرد يسمح للطائرة بأن تصل إلى سرعات وارتفاعات أكبر وفي الوقت عينه تستهلك وقوداً أقل... وأعتقد أن تلك هي الفكرة».

فردّ الرقيب علي بابتسامة عريضة وربّت على كتفي، وقال: «أين تعلمت بحق السماء...؟»

فترددت قبل أن أقول: «بالغريزة». واعتقدت للحظة أنني قد أفشيت أسراراً عسكرية، ثم قلت: «لقد قرأتها، يا سيدي».

«قرأتها؟»

«آه... نعم، يا سيدي. فقد تعوَّدت أن أقرأ كثيراً. فلطالما أردت... أعني». ثم سألته بصوت منخفض: «يا حضرة الرقيب؟ أتعتقد أنهم سيسمحون لي بالطيران فوراً؟»

ضحك الرقيب قائلاً: «يا إلهي! إنك مدهش، أليس كذلك؟»

ثم صاح بصوت مرتفع منادياً مهجع الجنود القريب قائلاً: «هيه، يا ماكس. لديَّ خليفة **تشك ييغر** هنا! ويريد أن يعرف ما إذا كان يستطيع أن يطير!» وانفجر صوت بالضحك. فأغمضت عيني. ولطالما كان يبدو عليَّ أنني أقول الشيء الخطأ في الوقت الخطإ وأجعل من نفسي مغفلاً.

أطلقت نفساً عميقاً، والرقيب ينظر إلى عيني. ثم قلت بصوت حازم: «لقد التحق الضابط **تشك ييغر** بسلاح الطيران قبل أن يطير».

فقلب الرقيب في أوراقي ثم قال: «اسمع، يا **بيلزر**، لقد نجحت بصعوبة في الالتحاق بسلاح الطيران. فقد تسربت من المدرسة الثانوية وعلامات جدارتك هي أقل من المعدل بكثير. وأنت تتمتع بجسم نحيل وبصر ضعيف. أتريد أن تصبح طياراً؟ أتعتقد أنك ستصبح إطفائياً؟ أصغ إلي. ها هو ما يجب عليك أن تفعله: تعلم مهنة الإطفائي، واحصل على بعض الدروس الجامعية الهامة، وسوف يسدد سلاح الطيران رسوم تعليمك. وبعد سنوات، إن كنت تريد أن تعيد الالتحاق بسلاح الطيران، فيمكنك أن تقدم أوراقك للحصول على وظيفة. وهذا هدف كبير. ولكن إن كنت جاداً، فيمكننا أن نتنازل عن

بعض الشروط. هل أنت موافق؟»

فبلعت ريقي بصعوبة وأنا مدرك مدى حسن حظي لمجرد أن ألتحق بسلاح الطيران. وقلت: «نعم، يا سيدي، أفهمك. وشكراً لك على النصيحة».

«هذا هو سبب وجودي هنا». ثم وقف على قدميه مشيراً إلى أن عمله معي قد انتهى. وقال: «لا تقلق، يا بيلزر. بل استمر بالدراسة وسوف يجعلونك تصبح رباناً لطائرة أس أر-71». ثم رفع حاجبيه وقال: «أفترض من فرط معرفتك المتعلقة بعلم الطيران أنك تعرف ما هي بلاكبيرد، أليس كذلك؟»

فأشرقت عيناي لسماع ذكر طائرتي المفضلة، فصحت قائلاً: «نعم، يا سيدي! أعلم عن طائرة بلاكبيرد أكثر من أي شيء آخر!»

فمدّ يده وقال: «حسناً إذاً، سنراك الأسبوع المقبل».

وقلت وأنا أصافحه: «شكراً لك، يا سيدي. سأجعلك فخوراً بي. وسترى ذلك».

فضحك الرقيب بصوت مرتفع. وترك يدي. ثم اتخذ وضعية الاستعداد وحياني تحية حازمة قائلاً: «إلى اللقاء، أيها الطيار بيلزر - آ - ييغر!»

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، قررت أن أحيط والديَّ بالرعاية علماً قبل أن أجبن وأغير رأيي. فقلت لهما: «لقد التحقت بسلاح الطيران! وسأغادر الأسبوع القادم!»

فأجاب والدي بالرعاية، هارولد تيرنباو، بلامبالاة قائلًا: «أوه، حقاً؟»

وبحثت في عينيهما عن أي رد فعل لأخباري المفاجئة. وبعد أن ساد الصمت لفترة أشبه بالأبدية، بادرت قائلاً: «إنني لا أحقق أي شيء. وقد كنت أعمل بغباء معتقداً أنني سأعثر على الأجوبة المتعلقة

بماضيّ وبأمي وأحاول أن أهدئ ألمي الذي أشعر به حيال والدي. والآن، حان الوقت لكي أحقق أهدافي. فقد سبق أن فاتني الكثير. لكنني إن بقيت مركزاً وعملت بجد، فربما يمكنني أن أغير حياتي للأفضل». وتوقفت مترقباً جوابهما. فظل والداي جالسين كما هما. ثم سألتهما وأنا أبدو محبطاً: «أليس هذا هو ما حاولتما أن تعلماني إياه، أعني، أن أصبح معتمداً على نفسي؟»

أخذ **هارولد** و**أليس**، اللذان رعياني واحتضناني قبل أعوام، يومئان برأسيهما قبل أن ينفجرا ضاحكين. فهززت رأسي باستياء. وبسبب التوتر المتصاعد الذي عشته في ذلك اليوم في الامتحانات والاختبارات وخوفي من ألا أكون صالحاً لأن ألتحق وقلة النوم وكتماني السر لوقت طويل، فقد شعرت بالغثيان. وصحت قائلاً: «توقفا! ما الشيء المضحك؟ هذا أمر جاد! وأنا أعني ما قلته! وقد سبق أن وقعت الأوراق».

فانحنت **أليس** وعانقتني، وقالت: «لقد كنا نعرف منذ وقت طويل، يا **ديفيد**».

وقال **هارولد** بابتسامة: «بوجود كل تلك النشرات الملقاة في الأنحاء وثرثرتك حول هذا النوع وذاك من الطائرات، فما هو الشيء الآخر الذي يمكن أن تنوي فعله؟»

«إذاً، ألستما غاضبين؟ أعني...؟»

قالت **أليس**: «بالطبع لا، يا **ديفيد**. ولكن أجب عن هذا: لماذا اخترت الخدمة العسكرية؟ إن ثلاث سنوات وقت طويل».

فصححت كلامها قائلاً: «إنها أربع سنوات. سوف ألتحق لأربع سنوات. فقد سئمت وتعبت عيش الكفاف. إنني أرهق نفسي في العمل، ومن أجل ماذا؟ من أجل لا شيء. فقد كنت أقتصد في معيشتي وأعمل كالعبيد، وليس لديَّ شيء أملكه من جراء ذلك. ولكن

تأكدا من أنه يمكنني خلال أربع سنوات أن أتعلم وأنمو، كما يمكنني أن أستكشف وأرى أشياء تجاوز حدود أي صورة في أي مجلة». وتوقفت وأطرقت. ثم قلت: «ربما سيساعدني الابتعاد... سيساعدني على أن أعثر على الأجوبة...».

مدت السيدة تيرنباو يدها ووضعتها على يدي، وقالت: «إنك ربما لن تعلم أبداً، يا ديفيد. فأحياناً تحدث الأمور السيئة. أما بالنسبة إلى بعض الأمور في الحياة فليست هناك حقائق ثابتة».

فقاطعتها قائلاً: «كلا. هذا خطأ. يجب علي أن أعلم. ويجب علي أن أكتشف الحقيقة. وإن لم أتعامل مع هذا الوضع، فكل ما سأفعله هو أنني سأتكتم على السر كما يفعل الجميع. وإن لم أفعل ذلك، فما الذي يضمن أن الحال لن تؤول بي مثلها أو مثل والدي؟ هناك شيء ما جعلهما يتصرفان بتلك الطريقة. فالأمور تحدث لسبب ما. وأنا أريد أن أدرك هذا السبب وأن أعرفه. وإن لم أكتشف الحقيقة وأفعل شيئاً، فمن سيفعل ذلك؟ كم هو عدد الأطفال الذين أشرفتما على تربيتهم وقد تحدروا من بيوت تشبه البيت الذي أتيت منه؟ إن المشكلة لن تختفي إن أدرنا ظهورنا لها أو أخفيناها بعد الآن. وهذه الأمور تحدث كل يوم، والجميع يتصرف وكأن ليس هناك أي خطب. ولا أحد يريد أن يتكلم عن تلك الأمور، ناهيك عن تعامله مع النتائج المترتبة عليها. إن هذا خطأ وقد حان الوقت لكي نتخذ موقفاً. أليس هذا هو ما علمتماني أنتما والجميع إياه عندما تم إنقاذي؟ لقد علمتموني أن أكون طيباً وشريفاً ومنصفاً وأن أعثر على شيء أؤمن به وأن أعمل بجد وأن أبقي إيماني راسخاً مهما استغرق ذلك من وقت؟»

جلس والداي بالرعاية أمامي وهما مذهولان كلياً. فطوال السنوات التي عرفتهما فيها، لم يرياني قط وأنا متوتر ودقيق هكذا حيال ماضيّ. فتابعت كلامي بنبرة أكثر نعومة قائلًا: «أصغيا إلي،

سـوف يكون هذا على ما يرام. وسـوف أتولى أمري، وسـأكون بخير، ولكـن افهما مـن فضلكما أنني لا أريـد أن أصبح مثلهما. وهذا شـيء يجب عليَّ أن أفعله».

استغرقت دقيقة لكي أسـتجمع أفكاري. ولم أرد أن أفسد الأمور فأبوح لهما بمشـاعر قلبـي بطريقة خاطئـة، فقلت: «أنتمـا تعلمان أنني أحبكما كثيراً. فقد عاملتماني كأنني شـخص حقيقي. ولكن طوال فترة وجودي في سـلاح الطيران، سوف أوفر كل دولار أستطيع توفيره. فأنا أريد بيتـاً... يكون بيتي أنا. وأريد أن أشـتري بيتاً فـي منطقة **غويرنفيل** علـى ضفاف نهر **رشـان**. فأنا أعرف مـا أريده منذ كنت فـي الحضانة، وهـذا هو حلم حياتي. وفي أثناء الفترة التي عشـتها فـي منـزل الوالدة في وضع سـيئ فعـلاً، اعتدت أن أدخـل البيت وأحلم بمنـزل خشـبي بجانـب النهـر وموقـد دافـئ ورائحـة الأشـجار. فـكان ذلك يشـعرني بالأمـان. وعلى الرغـم من كل الأمـور التي اقترفتها الوالـدة في حقي، فهي لم تسـتطع قط أن تنال مني عندما كنـت أفكر في النهر. وفي أثناء طفولتي، منحني ذلك الحلم شـيئاً لأعيش مـن أجله. إنني أريد منـزلي الخاص». ثم تـرددت وانقبضت حنجرتي، وبدأت الدموع تسـيل على وجنتـي، فحاولـت أن أكبت مشـاعري، لكن سـنوات الضغط الشـديد كانت قاسية جداً علي.

همست السيدة **تيرنباو** قائلة: «ما الأمر، يا **ديفيد**؟ ما الخطب؟»

أغمضت عيني قبل أن أنفجر بالبكاء، وقلت: «كل ما أراده طوال حياتـه هو أن يملك شـيئاً ما... وهـو الآن يعيش وحيداً في الشـوارع، وليس لديه شيء. وهذا ليس منصفاً».

سألتني **أليس** قائلة: «من يعيش وحيداً؟ عمَّن تتحدث؟»

فصحـت قائلاً: «والدي. سـوف أشـتري منـزلاً وأجعـل والدي يعيش معـي. إنه الأمـر الصـواب الواجب فعلـه. و...». ثـم قلت وأنا

أجدد عهدي لنفسي: «سأعثر على الأجوبة. وعندما أصبح جاهزاً، سوف أبذل ما بوسعي لكي أفعل شيئاً مهماً في حياتي». وكفكفت دموعي المنهمرة على وجهي وأنا أشعر بالحماقة.

سألني **هارولد** بشيء من الطرافة قائلاً: «إذن، ستنضم إلى سلاح الطيران؟ هل تعتقد أنك ستتمكن من أن تبقى في منأى عن السجن العسكري؟»

فابتسمت رداً على ابتسامته وقلت: «نعم، يا سيدي. سوف أجعلك فخوراً بي. وسترى. فيوماً ما سترى أنني سأجعلك تفتخر بي».

تدخلت **أليس** قائلة: «الآن بما أنك اتخذت قرارك، فمتى ستخبر والديك؟»

فأخذت نفساً عميقاً، وعندما أخرجته من رئتي شعرت أنني نقي وأن جسدي بكامله يسترخي. وفجأة أحسست أنني أستطيع أن أتمدد على سرير ناعم وثير وأنام إلى الأبد. وللمرة الأولى منذ ستة أشهر أشعر بالسلام الحقيقي. كان السيد والسيدة **تيرنباو** جالسين أمامي وهما يمسكان بأيدي بعضهما بعضاً، فوضعت يدي حول أيديهما، وقلت وأنا أنظر إلى عيني **أليس**: «بحسب اعتقادي، يا أمي» ثم نظرت إلى **هارولد** وقلت: «ويا أبي، لقد التحقت بسلاح الطيران الأميركي وسوف أغادر الأسبوع القادم، فهل لديكما أي أسئلة؟»

جعلني ميلان طائرة **البوينغ** 727 المفاجئ أستفيق من شرودي، فرمشت بعيني محاولاً أن أركز نظري على أفق مدينة **سان أنطونيو** الظاهر من خلال نافذة الطائرة. وكلما حدقت من خلال الزجاج، تلاشى وجها والديّ وصفاؤهما من ذهني. فقد أصبحت على عتبة حياتي الجديدة. ثم أخذت نفساً عميقاً، وابتسمت. فها قد بدأت الرحلة!

الفصل الثالث

رسالة من الديار

لم يكن تدريب سلاح الطيران أمراً سهلاً، ولكن بعد أن تخطيت الأسبوعين الأولين بشق الأنفاس، بدأت أتعوَّد الرّتابة وشعرت بالراحة لتوقعات الرقباء المدربين الذين ذكروني بطريقة غريبة بالأيام التي عشتها مع الوالدة. لقد كان لديَّ من الحكمة ما يكفي لكي أتصرف بهدوء ولكي لا أنظر بشكل مباشر إلى عيون مدرسيّ كلما انتقدوا سريتي. كذلك تعوّدت أن أنفذ واجباتي بسرعة ودقة قدر المستطاع. لكن الأهم من هذا كلّه هو أنني أبقيت فمي المتلعثم مغلقاً بإحكام. وكلما كنت أحظى بلحظة فراغ، كنت أكتب رسائل طويلة عن متاعبي لوالديّ بالرعاية ولمعلم الطيران، **مايكل مارش**، الذي تعرفت إليه من أيامي تحت وصاية والديّ بالرعاية، ولوالدي. ففي كل يوم وفي وقت متأخر من فترة العصر، كانت سريتنا تتلقّى نداء البريد. وفي كل يوم كان قلبي يقفز إثارة. لكن الرسائل الوحيدة التي تلقيتها كانت الرسائل المجعدة التي أرسلتها إلى والدي والتي ختمت عليها عبارة: تعاد إلى المرسل. وبعد بضعة أسابيع، تخليت عن محاولة التواصل مع والدي بواسطة البريد. فقررت أن أحاول البقاء قريباً منه عن طريق دعائي.

بعد تلاوة دعائي المسائي، كنت أتقلب في فراشي وأنا أشعر بالراحة لأنني قد نجوت فعلاً من شبكة الوالدة المعقدة من الكراهية والخداع. وقد أيقنت أنها لم تعد تستغلني أو تؤذيني من أي ناحية كانت. وللمرة الأولى في حياتي، شعرت أنني شخص مستقل وأنني

أقصيت الوالدة أخيراً عن أعماق ذهني، وشعرت أنني مبتهج كثيراً، ولم يعد مطلبي الذي تمنيته طوال حياتي يبدو مهماً جداً. فقد نلت حريتي.

ومع ذلك، فقد اكتشفت ذات ليلة كما حدث معي وأنا في وصاية والديّ بالرعاية، أن الوالدة ما زالت تعيش في أحلامي، فكانت دائماً تقف أمامي كتمثال رخامي في نهاية ممر طويل وأقف أمامها وأنا محرج وعاجز، لكنني أعتقد نوعاً ما أن تمثالها لا يمكن أن يلحق بي الأذى. ثم تفتح عينيها على وسعهما وتبتسم قبل أن تحدق بيدها النحيلة وتسحب سكيناً فضياً لامعاً، فأعلم أنه يجب عليَّ أن أفعل شيئاً ما، أي شيء، لكن خوفي يشل حركة دفاعاتي. ثم تتجه الوالدة نحوي بحركة بطيئة، وتخترق عيناها المكسوتان بغشاوة أعماق روحي، وقبل أن تلمس قدمها الأرض بوقت قصير، أستدير وأهرب بعيداً إلى آخر الممر بأقصى سرعتي. وبينما تتسارع دقات قلبي، أعلم أنني على بعد أميال من الوالدة، لكنني أستطيع أن أشعر نوعاً ما أنها ما زالت تسير خلفي. فأركض لوقت طويل، ولكن لا مفرَّ، فأبحث باهتياج عن مخرج من الممر الشبيه بالمتاهة، لكنني أتعثر وأقع في حفرة، فتقف الوالدة فوقي باتزان مظهرة أسنانها الصفراء وأنفاسها الفاسدة. وعندما أنظر إلى عينيها ملتمساً الرحمة، أرى تعبير وجهها كأنه يضحك قبل أن ترفع يدها وتطعنني. ثم أغمض عيني عندما ينقذف السكين الفضي اللامع من يد الوالدة ويطير في الهواء، فأطلق نفساً عميقاً وأنا أصيح قائلاً: «لماذا...؟»

همس راندي، زميلي في سلاح الطيران الذي يشاركني السرير، بصوت منخفض ما يكفي لئلا يسمعه أحد، قائلاً: «هيه، يا بيلزر. استيقظ، يا رجل! إن أحد تلك الأحلام يراودك ثانية».

مسحت العرق الدبق عن جبهتي وأنا أتفحص مهجع نوم رفاقي

الطيارين. وحمدت الله أنني لم أوقظ أفـراد فرقتي، أو قاعدة التدريب برمتها. وتفحصت صدري لأتأكد من أن الوالدة لـم تعبر إليَّ وتطعنني. وشـكرت راندي على اهتمامه، ثم قضيت بقية الليلـة وأنا جالس على حافة سريري.

في صبـاح اليـوم التالـي بعد الفحـص، اسـتدعاني مدرسـي إلى مكتبه. وبينما أنا واقف في وضعية الاستعداد أمام طاولة مكتبه، تملكني الرعب الشـديد بحيث إن جسـدي بـدأ يترنح. وأبقيت عينـي مركزتين أمامي وحبسـت أنفاسـي وأنا أدعو لئلا تكون لدى المـدرس أي فكرة عن نوبة قلقـي الأخيرة. فأمرني الرقيـب قائلاً: «اسـترح، أيها الطيار». ثـم قال وهو يقرأ بلامبالاة: «كتب هنا فـي تقرير الليلة الماضية... أنك قد تعرضت لإحدى تلـك الحوادث مجدداً... وهي المـرة الثالثة لهذا الأسبوع. ما مشكلتك؟ هل تشعر بالحنين لأمك؟»

أخذ ذهني يبحث بسـرعة عن إجابة، فقـد كان لديَّ من الذكاء ما يكفي لكي أتجنب قولَ الحقيقة، فقلت بصوت مرتفع: «كلا، يا سيدي! إنني لا أشعر بالحنين، ولم أشعر به للحظة، يا سيدي!» ونظرت بشكل خاطـف إلى الرقيـب الذي لـم ينـزعـج من جوابـي التلقائـي. وبدأت شفتاي تختلجان وأنا أحاول أن أعوض عن توازني المفقود. ثم وعدته بصـوت متهـدج قائلاً: «إن هـذا لن يتكرر، يا سـيدي! لـن يتكرر على الإطلاق!»

فقـال الرقيـب وهـو ينهض بسـرعة عن كرسـيه ويقـف على بعد بوصـات قليلة من أنفـي: «تأكد مـن ألا يتكـرر، أيها الطيـار. تأكد من ذلك! فليس لدى سـلاح الطيران الأميركي مكان على الإطلاق للصبية المدلليـن المنتحبيـن. إن هدفنا وغرضنـا الوحيد أن نحمـي حرية هذه الأمة وديمقراطيتها. هل هذا واضح؟ وإذا كنت لا تسـتطيع أن تتحمل هذه المسؤولية، إذن، فارحل! وإذا استمررت في وضعك الحالي، فلن

يتبقى لديَّ خيار آخر إلاّ أن أخضعك للتقييم النفسي لكي تتعرض لإمكانية الصرف من الخدمة بسبب الوضع الصحي. هل كلامي واضح... أيها الطيار بيلزر!»

بلعْتُ ريقي بصعوبة، وقلت: «واضح تماماً، يا سيدي!» ولكن حتى بينما كانت الكلمات تخرج من فمي، شعرت أن حلمي الأكبر قد تبخر في الهواء. ففي ذهني، كنت أرى كوخ أحلامي الخشبي يتبخَّر وصورتي مع والدي ونحن جالسان على الشرفة أو نصطاد السمك معاً في نهر رشان تتلاشى. وبعد أن صرفني مدرسي، حييته تحية حازمة وخرجت من مكتبه بمشية عسكرية. وعلى الفور، أسرعت نحو المرحاض وتقيأت. وجثوت على ركبتيّ وأنا ألعن نفسي لأنني سمحت للوالدة بأن تستمر بإحكام قبضتها علي، حتى أصبحت مفعماً بالعار.

وبعد أن مسحت القيء، أخذت أرتجف من الغيظ، ليس من الوالدة، بل من نفسي. فكل شيء حققته، من دراسة الكتب عن المغامرات في عتمة كراج الوالدة إلى العمل لساعات كثيرة وأنا مراهق في مطاعم الوجبات السريعة، قمت به نوعاً ما لكي أطور نفسي وأتهيأ لعيش حياة أفضل، حياة حقيقية. وإن طردت من سلاح الطيران الآن فالغلطة غلطتي أنا، وليست غلطة شخص آخر. ولهذا السبب، شدد الرقيب على ذلك في رسالته الضمنية، وهي: يجب علي أن أفعل شيئاً ما لكي أغير وضعي الراهن.

صباح ذلك اليوم، خططت لأخترع طريقة أنقذ بها نفسي نوعاً ما من قصة أخرى وحياة خزي متوقعة. فالطرد من القوات المسلحة بسبب الأحلام الصبيانية غير الناضجة لم يكن خياراً ممكناً. ولأنني اعتدت أن أشاهد كوابيس في الساعات المبكرة من الصباح وكان زميل سريري، راندي، ذا نوم خفيف، فإنني رشوته لكي يوقظني عند

أول بوادر المشكلة. لكنني شعرت بعد بضع ليال أنني قد تماديت في استغلال سماحة نفس راندي التي يمتاز بها أهل الولايات الجنوبية. فقررت أن أتطوع لمناوبة الحراسة التي تبدأ في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وحتى إطلاق بوق الاستيقاظ في الساعة السادسة صباحاً. فنجحت فكرتي نجاحاً فورياً، لكن قلة النوم جعلت تركيزي على دراستي الأكاديمية أمراً محالاً. فحين كنت أدرس تماريني في الصف، كنت أخلط الكلمات بعضها مع بعض، وكنت أسقط فجأة على مقعدي لأستيقظ فقط على صوت رقيب التدريب الغاضب. وخلال تدريب العرض العسكري، أصبحت أخطئ في كل حركة تقريباً. وسرعان ما تم إبعادي لكي أتدرب على الحركات الدقيقة في شمس تكساس المحرقة، وذلك لكي لا أستمر بإحراج سريتي. وقد تعرضت للسخرية من مدرسي سلاح الطيران بسبب قلة تركيزي وحماقتي اللامتناهية.

لكنني رفضت أن أنهار، ولم أمانع في أن أتعرض للذم والتقريع. فقد منع ضعفي من بعض النواحي ذهني من الاسترسال في صراعاتي الداخلية. وما دمت أنأى بنفسي عن مكتب الطبيب النفسي، كان يسعدني أن أنفذ تدريباتي العسكرية حافي القدمين على الإسفلت الملتهب.

وبسبب ارتباكي وانتشار الإشاعات عن كوابيسي، وجدت نفسي مبعداً عن سريتي التي بدأت تنقسم إلى زمر. وكان أصدقائي الوحيدون هم الذين كلفوا معي بالقيام بمهمات تنظيف المرحاض. وخلال القسم الثاني من التدريب، كوفئ أفراد صفنا بأن منحنا إجازات في فترات عصر العطل الأسبوعية، فرفضت الإجازة وتخلفت عنهم لكي أدرك ما فاتني في دراستي ولكي أتدرب على حركات المشي العسكري في الممرات الطويلة الخاوية وأكوي لباسي العسكري وأنشيه حتى يصبح

حاداً كالشفرة وألمع حذائي العسكري بقطعة قماش قطنية رطبة حتى يصبح لامعاً كالمرآة. وبعد بضع ساعات، كانت مجموعات من أفراد سريتي يعودون وهم يتبجحون بمغامرتهم ويتباهون بلباسهم الأزرق الموحد أمام الفتيات المحليات، في حين أنني كنت أقوم بمجرد عد الأيام حتى أتمكن من أن أبدأ تدريبي كإطفائي. والأهم من كل شيء هو أنني كنت أحصي ذهنياً النقود التي سوف أدّخرها من بقائي في الثكنة. وكلما كانت الدولارات التي كنت أكنزها تزداد، كان فخري يزداد بحقيقة أنني قد بدأت أتخذ خطواتي الأولى نحو شراء منزلي عند نهر رشان.

خلال الأسبوع الأخير من التدريب الأساسي، وبينما أنا أبلغ مكتب المستشار المهني عن وظيفة الإطفائي، علمت من النظرة البعيدة التي علت وجه الرقيب أن هدفي لم يكن من المعني له أن يتحقق. ومن دون أن ينظر إلي، بحث الرقيب في كومة من الاستمارات وتمتم قائلاً: «أيها الطيار... هناك تأجيل في طلب تخصصك، وبحلول الوقت الذي سيعدل فيه، ... لا تسألني عن السبب، لكن الأمور تحدث... لذا...». وعندما أمسك الرقيب عن الكلام، شعرت بمصيري يلوح في الأفق مهدداً.

وللحظة، ظننت أن مشاكل أوراقي تعزى إلى إخفاقاتي المستمرة وتقييمي النفسي الذي كان يهددني دائماً. وهززت رأسي لأوضح أفكاري. ودعوت لئلا يكون الرقيب يعبث بي وألا تكون هذه خدعة يلعبها المستشارون المهنيون مع الطيارين الشبان الساذجين. فقلت له: «يا سيدي، إنني لا أفهم ما تقوله لي، يا سيدي؟»

تنحنح الرقيب، وقال إن وظائف الإطفائيين قد شغلت.

فقلت له: «لا بأس بهذا. يمكنني أن أنتظر بعض الوقت».

فقال الرقيب بسرعة: «كلا. لن تكون هناك وظائف شاغرة.

وأنـت». وقال وهـو يوجه إصبعه نحـو نظارتـي البلاسـتيكية المحاطة بإطار أسود: « لن تصبح، وأكرر، لن تصبح إطفائياً!»

فقلـت من دون تفكير محطماً قواعد السـلوك: «ولكن... هذا هو ما وقعت من أجله. ولهذا السبب التحقت. وأنا...».

قاطعني الرقيب قائلاً: «إنني آسـف حقاً. لكن ضـرورات المهمة تأتي أولاً...».

فقاطعتـه قائـلاً: «ولكن، يـا سـيدي! لقد اسـتغرقت وقتـاً طويلاً لكـي أتمكـن من الدخـول... ولكـي أمـلأ الأوراق الرسـمية وأتخطى المقابـلات... لا يمكن لهذا أن يحدث، أعني، إن هذا كل ما أردته في حياتي... وأبي!» وصحت قائلاً: «لقد كان...».

قال الرقيب بسرعة: «اسـترح! أنهِ خدمتك، أيها الطيار. إن سلاح الطيـران لا يكتـرث لما تريـده أنت! أصـغ...». ثـم قال بصـوت أكثر نعومـة: «إننـي أدرك وضعـك. ولـدي أكثر من سـتة جنود خـارج هذا المكتـب يعانون المشـكلة نفسـها. وقد علمـت عندما تـم إلحاقك أن ضرورة المهمـة تتمتـع بالأولوية. وهكـذا، وفي الوقـت الحاضر، فإن سلاح الطيران يأمر أنه يحتاج جنوداً من تخصص 62210 فقط».

فسألت وأنا أنحني نحو مكتبه قائلاً: «جنود 62210؟»

فقلـب الرقيب فـي الكتيب وهـو يطابق الأرقـام الشـفرية لأنواع الوظائف. وعلمت من رد فعله أنني سـأتعرض لصدمـة أخرى. وقال: «آه، إنها وظيفة أخصائي خدمة الطعام».

فسألت وأنا أهز رأسي: «سيدي؟»

«طباخ، أيها الطيار بيلزر. أنت ستصبح طباخاً. هيا». وقال الرقيب بصوت مبتهج: «إنه عمل سـهل. فسوف تعمل لبضع ساعات، ثم تعود إلى البيت، أي من السـاعة التاسعة وحتى الخامسـة تماماً مثل ساعات عمـل المصارف. وهذا سـهل. هيه، وفـي معظم القواعد التي سـتعمل

فيها ستكون مسؤولاً عن المدنيين، فهم الذين سيطبخون ويقومون بكل العمل، وكل ما عليك القيام به هو أن تشرف عليهم!»

فاستفسرت قائلاً: «إذن... أستطيع في وقت فراغي أن أذهب إلى الكلية أو أعمل في وظيفة بنصف دوام؟» وهكذا، تقبلت مصيري على الفور وبدأت أحاول نوعاً ما أن أضع خطة أحوّل بها هزيمتي إلى نتيجة إيجابية.

فقال المستشار: «أصغ إليَّ. لديك الكثير من وقت الفراغ، فسوف تصاب بالملل الشديد ما لم يتم تكليفك في وحدة ميدانية. وعندئذٍ سوف تعمل بجد في مكان ناء ليس فيه أحد. ولكن هيا، يجب أن أرى ذلك يحدث ولا تقلق. ففي غضون ثلاث سنوات، وإذا أبقيت نفسك بمنأى عن المشاكل، يمكنك أن تتدرب وتصبح إطفائياً».

«لكنني إن بقيت هنا، فأنا أريد أن أقود طائرة. ولهذا السبب يجب عليَّ أن ألتحق بالكلية».

«نعم، بالطبع، أياً يكن. لا تقلق. قم فقط بتوقيع هذه الأوراق التي كتبتها لك في هذه المشكلة الصغيرة. ولا تقلق، بل واصل العمل بجد. فالأمور لديها طريقة في التغير فجأة. فاجعل طموحاتك عالية!»

فانتزعت القلم من دون تردد، وكتبت اسمي ورتبتي والتاريخ، ووجدت من الغرابة أن مسار حياتي، بعد أشهر من الشوق الشديد، قد أصبح يسير مجدداً في اتجاه لا أملك السيطرة عليه. وعندها شعرت أنني عاجز كلياً. فقد ألغيت طموحات طفولتي بجرّة قلم. وبعد ذلك، حدقت بقلم الحبر الجاف الرخيص الأسود الذي ختم عليه اسم حكومة الولايات المتحدة ثم ألقيت به على كومة الأوراق، وشعرت أنني مخدر جداً بحيث إنني خرجت من المكتب من دون أن يتم صرفي، ناهيك عن تأديتي التحية لرئيسي.

بعد تخرجي من مرحلة التدريب الأساسي بأسابيع وتحويلي إلى

قاعدة تدريبي المتخصص، بدأت الصدمة التي انتابتني بسبب الخدمة كمجرد طباخ في سلاح الطيران تتلاشى. وقد شعرت بالعار الشديد حتى إنني لم أخبر والديّ بالرعاية. وقاومت حقيقة أنني قد خذلت والدي من بعض النواحي. فقد كنت أعلم أن الأمر يعني الكثير بالنسبة إليه؛ أن أصبح إطفائياً. وبدا فخوراً جداً عندما اتصلت به قبل التحاقي بأيام. وأردت بشدة أن أثير إعجابه وأفاجئه بقولي إن **ديفيد بيلزر**، الطفل غير المرغوب فيه والذي كان يدعى باسم **الشيء**، سيصبح يوماً ما موضع ثقة لينقذ حياة الآخرين مثل بطلي القديم... والدي.

كلما كنت أتفاخر أمام والدي في ذلك اليوم عن خططي المستقبلية للحصول على درجة في علم الحرائق بعد أن أنهي تدريبي التأهيلي الأولي، كان يبدو أكثر سعادة. وكانت نوبات سعاله العنيفة التي تسبب بها التدخين طوال عمره، تتوقف للحظات قليلة. وكان صوته يبدو أقل حدة وأكثر دفئاً. وقد أوشكت على أن أنهار وأبكي عندما أطلق ضحكة متوترة وقال إنه فخور بي، ثم قال: «سوف تبلي حسناً، أيها النمر. سوف تكون بخير». فقبضت على الهاتف بكلتا يديّ وضغطته على أذني لدى سماعي كلمة نمر. فحين كنت صبياً صغيراً وقبل أن يتحول لون عالمي إلى اللون الأسود، كانت أكبر مجاملة استطاع والدي أن يقدمها لأطفاله الذين يوقرونه هي كلمة نمر. وبعد أن أغلقت السماعة، وقفت مسمراً في مكاني، فبعد تلك السنوات كلّها، ما زال والدي يتذكر كلمة غالية واحدة، وشعرت من أعماق روحي كم كنت أتوق بشدة لأن أجعل الوالد والوالدة فخورين بي. لكنني تمنيت أكثر من ذلك أن أصبح إطفائياً، فذلك سيمكنني نوعاً ما من أن أخفف من الوحدة والألم اللذين شعرت أن الوالد كان يعيشهما كل يوم بسبب ابن وزوجة وعائلة لم يتمكن من أن ينقذهم ولم يكن ليفعل ذلك.

تخليت عن أحلامي وكرامتي وركـزت جهودي على العمل بجد قدر المسـتطاع. وبسـبب السـنوات التي قضيتها في العمـل في مطاعم وجبات سـريعة متعـددة، وجدت صفـوف التدريب باعثـة على الملل. فسبقت الآخرين في دراسـة المواد وحافظت على علامة كاملة تقريباً. وكنـت بمهاراتي الذاتيـة أتفوّق على الصـف برمته. وبينمـا كان بعض نظرائـي يطبخون وجباتهم بسـرعة ومن دون اهتمـام، اعتدت أن أحلل كل إجـراء وكل مقـدار من المقاديـر ثم أحدد وقـت كل حركة من أي مهمة كلفت بتحضيرها من أجل تلك المناوبة بالذات. وسـواء أكان ما أطهوه عجة منتفخة ذات جبن يخرج من كلا جانبيها أم خضراً مقرمشة مثاليـة أم أضلاعاً مشـوية تذوب في الفم، كنت أشـعر أنني قد أعددت نوعـاً ما الطبـق المثالي. وكنت أشـعر بالفخـر كلما امتدحنـي معلمي، أو أي شـخص آخر يأتي خلال فترة الطعام ولا سـيما أحد أفراد فريق الطيران، للجهود التي بذلتها.

وخلال سـاعاتي خـارج الخدمة، وبينمـا كان زملائي يسـتمتعون بوقتهم في نادي الطيار، التزمت بالعهد الذي قطعته على نفسـي بتوفير نقـودي وبقائي فـي الثكنـة. فكنت أدفن نفسـي لأقـرأ كتباً عـن تاريخ سـلاح الطيـران أو مغامـرات الطيـران القتالي. وسـرعان مـا أصبحت مدمناً على القراءة وبدأت أنشئ مكتبتي الخاصة بعلم الطيران كتاباً تلو الآخر. وفي كل يوم من أيام قبض الرواتب، كنت أتذكر لائحة تسوُّقي المجعـدة التي تحـوي أسـماء طائرات محـددة غيرت مجـرى التاريخ بالنسـبة إليَّ. وسـرعان ما أصبحت موسـوعة متنقلة. وكم تمنيت أيضاً لو أنني أتمكن يوماً ما من أن أحدث شـيئاً مهماً في عالمي الجديد في سلاح الطيران.

وإن شعرت أن عقلي سينفجر من كثرة الدراسة المتواصلة، سواء في الليـل أو النهار، كنت أخرج في نزهات طويلـة على الأقدام خارج

القاعدة وأذهب إلى صندوق البريد الخاص بي وعيناي مفتوحتان جيداً ثم أتلو دعاءً سريعاً قبل أن أطلب الرقم. وفي بعض الأحيان، تعوَّدت أن أنفعل بحيث إنني كنت أجاوز الرقم حتى يتوجب عليَّ أن أقبض على أصابع يدي اليمنى لكي أحول دون اهتزازها. ولكن حتى قبل أن أفتح الصندوق، كنت على يقين من النتيجة. حتى إنني قد توصلت إلى مرحلة أصبحت فيها أهز كتفي وكأنني لا أكترث لأي شيء. وبالضبط كما فعلت قبل سنوات في منزل الوالدة لكي أحمي نفسي، ألغيت مشاعري وقسوت في داخلي. لذا، كنت أقوم ببضع جولات حول القاعدة الجوية وأعود لثلاث أو أربع مرات، على أمل أن يكون أحد ما من مكتب البريد قد ارتكب خطأً ما وعثر على رسالتي التي وضعت عن طريق الخطإ في مكان ما على الأرض وأعاد وضعها في الصندوق العزيز. وغالباً ما كنت مخدر الإحساس لأنني كنت أعلم أن الغد هو يوم آخر.

وفي أحد الأيام، وخلال فترة الغداء، قررت ألا أتفقد صندوق بريدي، وتحديت نفسي أن أمشي بمحاذاته من دون أن أفكر في ذلك. إذ إن خيبة الأمل قد أصبحت قاسية جداً علي. فجاوزته بمقدار خمسة أقدام فقط قبل أن أستدير وأسرع عائداً إليه. وبعد لحظات، كانت أصابعي ترتجف وأنا أسحب رسالة مجعدة ملوثة من الصندوق. لكنني ركزت، وفمي مفتوح على مداه، على الكتابة الطفولية. وتسارعت ضربات قلبي وأنا أفض الظرف. ثم جلت ببصري على طول الورقة بصبر نافد لكنني فقدت قبضتي على الرسالة، ثم وقفت مسمراً في مكاني وأنا أراقبها وهي ترفرف وتقع على الأرض. لقد كان أسلوب الخط المميز يخص والدي.

أيقظني صديقي من شرودي عندما انحنى على الأرض والتقط رسالتي قائلاً: «ما المشكلة؟»

فاستغرقت وقتاً طويلاً حتى صغت الكلمات فقلت: «والدي... أوه، والدي... إنه ليس بخير».

فهز صديقي رأسه وقال: «هيا، يا رجل، لا تقلق. إن الآباء يكبرون في السن، لكن زوجته العجوز سوف تعتني به. هيا... إن المشاكل تحدث».

وأردت أن أصرخ قائلًا: كلا. إنك لا تفهم... ولكن قبل أن أتمكن من أن أبرر مخاوفي، تاه صديقي بين حشد من الطيارين الذين كانوا يتسلمون بريدهم ويطلقون صيحات من السعادة وهم يلوحون برسائلهم العزيزة فوق رؤوسهم. فأطرقت نحو الأرض وتواريت عن الأنظار في الاتجاه المعاكس، وتمنيت لو أنني لم أتلق تلك الرسالة قط.

تجولت خارجاً ثم عثرت على مقعد وجلست عليه. ولزمني أكثر من خمس محاولات لكي أستوعب محتوى الرسالة. وكلما استوعبتها أكثر، انقبض قلبي. فقد كتب لي والدي أن الحياة أصبحت صعبة جداً عليه وأنه لم يعد باستطاعته العثور على وظائف بدوام جزئي كعامل غسل أطباق أو طباخ بديل في مطعم للوجبات السريعة. وبعد أن شعر الوالد بالخجل من نفسه، تخلى عن الطلب من أصدقائه أن يبيت في بيوتهم لبضع ليال. ومن دون أي شخص يذهب إليه وأي مال في حوزته، أصبح بطل المجتمع القديم الآن مشرداً. فأردت أن أرسل إلى الوالد بعض المال لكي أخفف شيئاً من آلامه.

وبعد أن قرأت المغلف والرسالة، بحثت باهتياج عن عنوانه، ولكن لم يكن هناك أي عنوان. ولطالما كان خط يد الوالد بالكاد مقروءاً. فقد كانت كل جملة من جمله غير مكتملة أو مفككة أو من دون أي خاتمة. وكانت الكلمات إما مهجأة بطريقة خاطئة أو مختلطة أو مقطوعة كلياً. فوجهت كل تركيزي على كتابة الوالد بحيث إن

عروق رأسي بدأت تنتفض من شدة الألم. وفجأة، أدركت ما حدث: فربما كان ثملاً عندما كتب الرسالة على عجل، ولا بد من أن هذا هو الاستنتاج الوحيد. ففسر هذا حالة الظرف المتسخ وخط يده، والأهم من ذلك، السبب في أنه قد نسي أن يكتب عنواناً.

وفي لمح البصر، استشطت غضباً، وبدأت أشعر بالخزي من الحياة التي يعيشها والدي. وتساءلت قائلاً: «كيف يمكن له أن يكون من الحماقة بمكان بحيث يستمر في طريقة عيشه هذه؟» يجب عليه أن يدرك أن إفراطه في الشرب، وأسلوب حياته بأكملها، سيكون السبب في موته. فصرخت في نفسي قائلاً: «لماذا؟ لماذا لا يستطيع الوالد أن يقلع عن الشرب مدى الحياة؟ لقد كان شجاعاً جداً وهو إطفائي. لماذا لا يستطيع أن يستجمع قوة إرادته لكي يعالج أمراً سهلاً نسبياً كهذا؟ وهل يكون من الصعب عليه أن يتخلى عن زجاجة الشراب؟»

أغمضت عيني وأنا أتذكر مراراً وتكرارا المرات العديدة التي كاد والدي يفقد فيها وعيه فوقي وعيناه محمرتان كالدم ورائحة العرق الذي دام عدة أيام والمشروبات التي انسكبت عليه تفوح من ملابسه. ولطالما وعدني أنه يوماً ما وبطريقة ما سيأخذني بعيداً عن قبضة الوالدة الشريرة. لكنني أدركت حتى عندئذ أن الثمل هو الذي يتكلم. ومع أن الوالد كان شجاعاً في عمله فلم تكن لديه النية في أن يعترض طريق الوالدة. فشعرت وأنا جالس خارج ثكنة سلاح الطيران أنني عاجز كلياً. فبالنسبة إليَّ لم يكن والدي رجلاً سيئاً، لذا بررت له أعماله قائلاً في نفسي: «إن غضب الوالدة ربما كان هو ما دفعه إلى الشرب. وربما... كان ذلك هو المتنفس الوحيد لكي يتعامل مع...؟» فصحت قائلاً: «يا إلهي! هل كان إفراط الوالد في الشرب قد بدأ كطريقة للهروب من الجحيم الثائر بيني وبين الوالدة؟ وهل كنت أنا السبب في مشكلة إدمان الوالد؟»

ارتجف جسدي من الإحساس بالذل. وجعلَتْ أفكاري تترجّح بين الشعور الشديد بالذنب لورطة الوالد ورغبتي في أن يتحلى بالتصميم لكي يساعد نفسه. واعتقدت أنني إن كنت السبب في وضع الوالد هذا... إذاً فأنا المسؤول عن تدمير العائلة وانفصال والدي وسبب انهيار وظيفته في محطة الإطفاء. أنا هو السبب في وضعه الحالي. وكانت موجة الخزي المفاجئة التي شعرت بها غامرة جداً حتى إنني بدأت أجهش بالبكاء. ومن بعض النواحي، لطالما عرفت هذا في أعماقي، فقد كنت على يقين في طفولتي أنني بذرة سيئة، لذا تسببت بشكل ما بتعاسة كل شخص ربطتني به أي علاقة، وقد توجب عليَّ أن أحسن الأمور بعد أن أصبحت راشداً، كما أن شراء منزل لي وللوالد لم يعد أمراً كافياً. فمن يعلم في أي وضع سيعيش والدي إلى أن يصبح التحاقي بسلاح الطيران نهائياً؟ لقد كنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يخفف من آلامه، ويجب عليَّ أن أفعل ذلك الآن.

قررت أن أرسل إلى الوالد بعض المال، وحتى لو استخدم المال لشراء الشراب، فلم يكن ذلك يهمني. بل جادلني ضميري قائلاً: «من أنا لكي ألقي الأحكام على رجل ناضج مع أنني ما زلت من نواح عديدة طفلاً مثيراً للشفقة؟» وبعد المتاعب كافة التي عرَّضت والدي لها، فهذا هو أقل شيء في وسعي أن أبذله من أجله. وإذا كان المال يساعد على التخفيف من ألم وحدته ويأسه لبضع ساعات، إذن، فليكن ذلك.

وبعد أن توصلت إلى قرار نهائي، توقفت أصابعي عن الارتجاف. فكفكفت دموعي وحدقت بالمغلف المجعد. وبعد دقائق، هززت رأسي باشمئزاز بعد أن تذكرت أن والدي لم يترك أي عنوان. وانفجرت قائلاً: «تباً! لماذا؟» ثم صحت وأنا أقبض على الرسالة: «لِمَ حياتي مبتلاة بالكثير من المتاعب!» وعندما حاولت الوالدة طوال اثنتي

عشـرة سـنة أن تقتلني، لم أقاومها أو أهرب، بل قمت بمجرد الاعتياد على المعاملة السيئة عن طريق التكيف مع كل لحظة من كل يوم حتى أنجو. ولم تكن حياة الرعاية سهلة، بل بذلت ما في وسعي فيها. وحين كنت مراهقاً، كنت أعمل بجد في حين أن بقية الأولاد كانوا يستمتعون بحياتهـم. وفـي حيـن أن علامـات الآخرين في مكتـب مديـر التجنيد للالتحاق بالجيش كانت ناجحة، استـغرقت أنا وقتاً طويلاً لكي ألتحق بسـلاح الطيران. وعندما تحطم حلـم حياتي بأن أصبح إطفائياً بسـبب خطإ سخيف ما في الأوراق الرسـمية، عضضت على شفتي وضغطت عليها. والآن، لن أتمكن حتى من أن أساعد والدي لأن ليس له عنوان أو رقـم هاتف لكي أتصل به. ولن أسـتطيع أن أزعج الوالدة وأتوسـل إليها لتعطينـي معلومات عن الوالـد لأنني طردت مـن عائلتها الكريمة ولم أعـد جديراً بامتيـاز الحصول على رقـم هاتفها. وبينمـا أنا جالس والـدم يغلي في عروقي ببطء بسـبب ورطتي الأخيرة، تمنيت بشـدة لو أنني شـخص آخر غير ديفيد جيمس بيلزر. فغطيت وجهي بيدي كأنني أريد أن أنتزع إجابة من دماغي.

كان الخيـار الوحيـد الذي اسـتطعت التفكير فيه هو أن يراسـلني الوالـد مـرة أخرى عـن طريـق المصادفـة. فربمـا كان ليتمكـن من أن يكتب عنوانه. وكنت كلما واجهتني ظروف مسـتحيلة تسحقني، ألتجئ إلـى الله، ففـي طفولتـي، لطالما شـعرت بالذنـب وأنا أتوسـل إليه أن يسـاعدني، لكنني الآن أتوسـل إليه لكي يحفـظ والدي سـالماً ودافئاً، وكنـت في أغلب الأحيـان، أدعو الله لكي يخفف من آلامه. فهمسـت قائلاً: «أرجوك افعل كل شـيء لكي تحمي والـدي. أرجوك، أنقذه من الشرور كلّها. آمين». وبعد أن توسلت إلى الله، اكتشفت أن طبقة رقيقة من الثلج قد غطت ملابسـي العسكرية والمقعد الذي كنت جالساً عليه والقاعدة الجوية بكاملها. وعلى الرغم من أن أطراف أصابعي تحولت

إلى اللون الأرجواني وكانت أذناي تؤلمانني بشـدة، فإنني شعرت نوعاً ما بالدفء يسري في داخلي. وعندما نهضت على قدمي ومشيت عائداً نحو الثكنة هبت ريح عاصفة في وجهي فلم أرمش بعيني، بل قلت لنفسي: «إن الأمر عائد لله الآن. فهو وحده القادر على أن ينقذ والدي».

انقضت أيام وأسابيع وربما أشهر، وأنا أنتظر وأدعو، لكنني لم أسمع خبراً عن والدي.

وبعد التخرج من تدريب التخصص، تم نقلي إلى القاعدة الدائمة في فلوريدا. وكما تباهى مستشاريّ في التدريب الأساسي، توقعت أن أخدم في بيئة نموذجية حيث أشرف على المدنيين الذين يديرون المطبخ، لكن ذلك لم يحدث، فقد عينت في مجموعة هندسة القتال التي تتطلب أن أمضي معظم وقتي وأنا أعمل بجهد تحت غطاء خيمة أكثر من القيام بمجرد الإشراف على الآخرين في مبنى مكيف بالهواء. وما كان يخيفني هو النهوض من السرير في الصباح الباكر قبل أن أقود السيارة لساعة من الزمن في وسط مكان مجهول إلى موقع الميدان وأعمل على الفور من دون أي استراحة ثم أنهي يومي في الثامنة مساء من ذلك اليوم لكي أعيد الكرة في اليوم التالي. وقد كرهت العمل وشعرت أنني عديم القيمة والأهمية كما كنت أشعر حين كنت أعيش مع الوالدة.

وكعادتي، فقد دست على كبريائي وقبلت التحدي. وعلى أي حال، فمهما حاولت جاهداً، كان يبدو أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً صحيحاً من وجهة نظر مشرفيّ العنيدَين اللذين تعوَّدا أن يعنفاني في كل دقيقة من اليوم. لكنني رفضت أن أستسلم. ولأنني عانيت وقتاً عصيباً لكي أجعل وحدات الموقد الميداني، التي تطهى عليها كل الوجبات، تعمل طوال الوقت، فقد توجب علي أن أبدأ يومي في

الساعة الثالثة فجراً بدلاً من الساعة الرابعة والنصف. وبحلول الوقت الذي كان فيه الآخرون يأتون ويبدأون مناوبتهم، يكون الطعام مطهوّاً وجاهزاً لكي يوضع في الأطباق وعلى وشك أن يقدَّم. لكن ذلك لم يبدُ كافياً بالنسبة إلى الرقباء. وعلى الرغم من إنجازي لذلك العمل المميز، فإنني وجدت نفسي فقط أتعرض للتوبيخ بسبب أمور أخرى. وكل أسبوع، ومهما انكببت على القيام بمهماتي بتأنّ، كنت أخفق. وبدا ذلك لي حلقة مفرغة لا نهاية لها ولا تتغير أبداً. فلقد كنت دائماً أمسك بزمام الأمور إلى أن تحين اللحظة التي يظهر فيها رقبائي ليلقوا نظرة على تقدمي في العمل، ويعثروا علي فقط وأنا أعالج خطإي الفادح الأخير. وبعد وقت قصير، اكتشفت أنني الوحيد الذي يعد كل الوجبات حين يبدو على الرقباء والطيارين الآخرين أنهم راضون بمراقبتي وأنا أؤدي العمل كله.

بعد ذلك، وفي عصر أحد الأيام، استدعاني مشرفي، ويدعى الرقيب الفني **كامبل**، بشكل غير متوقع، إلى ما اعتقدت أنه محاضرة أخرى تتعلق بأخطائي، كان رجلاً أسود طويل القامة، ولطالما تعوَّد أن يصرخ في وجهي وأسنانه البيضاء البراقة منطبقة بإحكام على سيجاره الضخم، فقال لي بابتسامة عريضة: «إنني أخبرك أيها الطيار **بيلزر** أنك أحمق في العمل».

فنقلت نظري إلى حذائي العسكري المرقط، وقلت: «إنني أبذل ما في وسعي، أيها الرقيب **كامبل**».

«يجب عليك أن تعرف أن مهمة السرية هي أن تبني القواعد من العدم وأن تصلح مدارج الطائرات عندما تتعرض للتخريب في أثناء هجوم للعدو. فعندما لا تصلح مدارج الطائرات فإن الطائرات لا تقلع. واعلم أن عمل البناء والإصلاح لا يمكن أن يتم إذا كان الجميع جائعين. الأمر بهذه البساطة. هل تفهم ما أقوله؟» فأومأت برأسي.

وتابع قائلاً: «إنني أحملك على العمل بجد لأرى ما إذا كنت تستسلم، ولهذا السبب أزعجك؛ إنني أزعجك بشدة، فقم بالعمل جيداً وهذا هو كل مـا يهمني. ونحن جميعاً نعيش هنا، ومـا زال عليك أن تتكيف مع هذا الوضع. وليس من العار أن تعمل طاهياً، وأنا أعلم أنك تريد شـيئاً آخر. ويمكن لـك أن تفعل ما تريده في المسـتقبل، ولكن الآن، يجب أن تبقى معنا». ثم قال الرقيب **كامبل** بابتسـامة عريضة وهو يربِّت على ظهـري: «لقـد أبليت حسـناً! ولم تعد بـي حاجة إلـى أن أزعجك بعد الآن».

ففهمت عندئذ فقط سـبب تعرضي للإزعاج وإجباري على حمل العـبء أكثر من الآخريـن. لقد كنـت قيد الاختبـار. فأطلقـت تنهيدة، وقلت في نفسـي: «على الأقل، لقد تعاملت مـع وظيفة أمقتها ورغبت في أن أبـذل جهدي كلّه فيهـا». وفضلاً عن كل شـيء، فقد كنت على يقين بأنني لن أستسلم أبداً وأنني سأجد الشرف بفضل إصراري.

وبعد فتـرة وجيـزة، وجدت نفسـي في مهمتـي المؤقتـة الأولى. وبسـبب ثقة الرقيب **كامبـل** بي، كنت مـع اثنين من نظرائـي الطباخين المكلفيـن الوحيديـن بإطعـام مجموعـة صغيرة مـن ربانـي الطائرة مع طاقم مسـاعد في موقع بعيد. وبـدأت أعمل مع الطياريـن الأعلى رتبة منذ غروب الشـمس حتى بزوغ الفجر، وقد كوفئـت جهودنا بالمديح. وخلال فترة بقائي، بدأت أشعر بفخر عارم أنني قد أسهمت في العمل الجماعي.

مسـاء ذلك اليـوم، بينما ذهـب الطيـارون الآخـرون للتجول بين الحانـات المحلية، تخلفت عنهم لكي أطالع أحـد كتبي. كان جزء من السـبب في ذلك هو خوفي الشـديد من النـاس الآخريـن. فبينما تعوَّد الآخـرون أن يرووا قصصـاً خيالية عـن الأماكن التي نشـأوا فيها وعن مغامراتهـم في المدرسـة ومواعدتهـم للفتيات، كان الخوف يسـتبد بي

فأقف متخشباً كالتمثال وأتلعثم في الكلام، ولم أكن أستطيع أن أنظر إلى أحد في وجهه، ناهيك عن استمراري بالنظر إلـى عينيه وقتاً كافياً لكي أروي له دعابة. لذلك فقد فضلت أن أبقى وحدي على أن أخرج ليعتبرني الآخرون مغفلاً أكثر مما يعرفون عني أصلاً.

وبعد بضع ساعات، وبعد أن قرأت بضعة فصول من كتابي وكتبت رسالة أخرى لوالدي لم أرسلها قط، وبعد أن حدقت في السقف، كان النوم ما زال يجافيني. ولسبب ما، لم أستطع الاسترخاء، وظللت مستيقظاً تماماً حتى بعد أن انهار أفراد كتيبتي كلّ في فراشه. وكما هي عادتي، فكلما كان يتملكني الشعور بالقلق حيال شيء ما كنت أغفو قبل أن يتوجب عليَّ أن أبدأ يوماً جديداً بدقائق معدودة.

في اليوم التالي بعد أن قدمت الغداء، دفع أحد الطهاة هاتفاً في يدي رافضاً أن ينظر إلي، فهززت رأسي وأنا مرتبك، وتنقلت عيناي بين صديقي الواقف على بعد بضعة أقدام مني وبين الهاتف الذي أمسكته بين أصابعي، وترددت للحظة قبل أن أضغط السماعة على أذني. ثم قلت: «مرحباً».

فقال الصوت من مسافة بعيدة جداً وهو يتقطع: «يا ديفيد؟»

وانقبض قلبي. فسألت والدتي بالرعاية بأقصى سرعة استطاعت فيها الكلمات أن تخرج من فمي قائلاً: «أمي، أهذه أنت؟ ما الأمر؟ ما الخطب؟ كيف حصلت على هذا الرقم؟ لماذا تتصلين بي؟»

فصاحت أليس قائلة: «يا إلهي! إنني آسفة جداً، يا ديفيد. أتوسل إليك أن تسامحني من فضلك. لقد استغرقت أياماً حتى أصل إليك. فأفراد سريتك... في فلوريدا... لم يكونوا واثقين من مكانك... وقد جربت كل رقم أعطوني إياه. فاعلم من فضلك أنني...».

«انتظري! تمهلي، إنني أكاد لا أستطيع سماعك! فالخط... مشوش كثيراً. أخبريني فقط. ما الأمر؟ ما الخطب؟»

«**هارولد** على ما يرام. وأنا على ما يرام... صدقني، يا **ديفيد**، عندما أخبرك أنني حاولت بجهد كبير. فأنا أقسم بالله أنني حاولت...».

بدأت معدتي تنقبض. وكلما حاول ذهني أن يفكر في الاحتمالات الممكنـة كلّها، كان الجواب يبدو واضحاً وضوح الشـمس. فقلت وأنا أغمض عيني وأتلو دعاء سريعاً: «أخبريني. أخبريني فقط. قولي لي إنه ليس...».

استطعت أن أسمع **أليس** على الجانب الآخر من الخط وأعصابها تنهـار، فقالت منتحبـة: «عد إلـى البيت، يا **ديفيـد**. عد إلـى البيت. إن والدك في المستشـفى. ويقولون إنه لـن... أمامه بضعة أيام فقط... عد إلى البيت، يا **ديفيد**. عد فحسب».

وعندما استوعبت الكلمات، سقطت السماعة من يدي، وسقطت علـى ركبتـي، وكان صـوت مشـوش حـاد صـادر مـن الهاتـف يمـلأ مسامعي.

الفصل الرابع

التفكير المتفائل

لم يكن ممكناً لأي شيء أن يهيئني للقاء والدي، ولم تكن لديَّ أي قدرة على احتمال موظفة قسم الممرضات في المستشفى، الذي يقع في قلب **سان فرانسيسكو**، والتي وقفت أمامي وأمام **أليس** كأننا غير مرئيين وهي ترفض أن تخبرنا ما إذا كان **ستيفن بيلزر** موجوداً في هذا الطابق بالذات، أو إذا كان قد أدخل أصلاً المستشفى. وبسبب أرقي وعبوري للبلاد في منتصف الليل وتلهفي لرؤية والدي، فقد بدوت على حافة الانفجار.

وأياً تكن الأحداث التي تخيلتها خلال الرحلة الجوية محاولاً التعامل مع الوضع الفعلي، فقد جعلت توتري يتفاقم أكثر مما ينبغي. وبينما أنا على متن الطائرة، بدا لي من المستحيل تغيير أي خيار، لكنني الآن حاولت جاهداً أن أثني القسم العلوي من جسدي على الطاولة لكي أحمي نفسي من الانهيار. وشعرت أن مقاومتي التي تساعدني على أن أبقى قوياً ومحافظاً على تركيزي قد بدأت تستنزف مني. وكان أنفي على وشك أن ينزف بسبب رائحة المعقم القوية، وقد أعادت هذه الرائحة إلى مخيلتي ذكريات الحبس في الحمام مع رائحة خليط ماء النشادر والكلوركس الذي كانت الوالدة تعده. وكانت فكرة مقابلتي للوالدة وجهاً لوجه وتعاملي معها فعلاً حين تأتي فكرةً فظيعة بالتأكيد. وتمنيت أمنية وحيدة وهي أن تتمكن الوالدة في أعماقها مرة واحدة من أن تدفن كراهيتها الشديدة وتسمح لي ببضع دقائق وحدي

مع والدي من دون أن تطلق غضبها المتفجر.

ومع ذلـك، فقـد اعتقدت أننـي أبالغ. ففـي الواقع، لقـد اتصلت الوالدة بنفسـها **بأليس** لتخبرها عن حالة والدي. وربما كان هناك أصلاً صدع في درع الوالدة الدفاعي. فعندما تحدثت إليها عن انضمامي إلى سـلاح الطيران، بدت مسـرورة من كل قلبها وحتى فخـورة بجهودي. وللحظـة عابـرة ذكرتنـي لهجتهـا اللطيفـة بـالأم التـي عشـقتها فـي ما مضى. وفكرت في نفسـي قائلاً: «مـاذا لو أعادهما مـرض والدي إلى بعضهمـا؟» ففي طفولتي، وقبـل أن تقلب الأحداث حياة العائلة رأسـاً على عقـب، كنت أعلم أن والـديَّ كانا مغرمين بعضهمـا ببعض غراماً متقداً. ولطالما سـمعت أن أزمة ما يمكنها أن تعيـد العلاقات المتوترة إلى طبيعتها. ولا بد من أن هناك سـبباً فـي أن الوالد والوالدة لم يُطلقا بعد كل تلك السـنوات من الفـراق. إذاً، فهناك أمـل. وكنت على يقين مـن ذلـك! فربما كان الخـوف من دخـول الوالد المستشـفى أفضل ما حدث للعائلة بأسرها.

وكلمـا كنت أفكـر أكثر في هـذه النتيجة المحتملـة، كانت لهفتي تـزداد لمقابلة والـدي. وكالكثيـر من الناس فـي مواقف مشـابهة، فقد بالغـت أنا أيضـاً في رد فعلـي أول الأمـر. فكلمـا كان تفاؤلـي يزداد، كنت أتصور نفسـي مع والـدي وأنا أخرجه من المستشـفى في غضون بضعـة أيام وأقضـي الوقت معه علـى انفراد. ثـم ربما... يومـاً ما لعله يكـون قريباً... كنت سـأتمكن من أن أعود ثانية في إجـازة من الخدمة العسـكرية لنجلس جميعاً معاً إلى مائدة العشـاء. وحدثتني نفسـي وأنا مفعم بالطاقة أنه مهما طرأ من نتائج فلا شـيء سـوف يعود إلى سـابق عهـده. فقـد هبت ريـح التغيير منـذ اللحظة التـي انهارت فيهـا الوالدة وهاتفت السـيدة **تيرنبـاو**. وكانـت التمثيليـة بكاملها سـتنتهي. فأومأت لنفسي موافقاً، لكنني أومأت أكثر للمرأة المخبولة في قسم الممرضات

والتي ظلت تتصرف وكأنها منهمكة بمسائل أكثر أهمية. ولم يعد ذلك يزعجني، فقد كنت أملك زمام السيطرة على مشاعري وأنا واثق من أن كل شيء سيتغير نحو الأفضل.

خرج ممرض، من مكان مجهول، وهو يرتدي رقعة اسم كتب عليها اسم ستيف، ومشى بعجلة خلف القسم، وتولى سيطرة مباشرة على الموقف. وقبل أن أتمكن من أن أمطره بوابل من الأسئلة، قرأ ستيف اسمي المطرز على لباس سلاح الطيران الموحد، فأطلق تنهيدة طويلة.

فقلت من دون تفكير: «والدي، ستيفن بيلزر، هو هنا؟ أعني، هو على ما يرام وهو في المستشفى في هذا الطابق، أهذا صحيح؟» وحدقت بالمرأة المتعجرفة التي أشاحت بوجهها بعد أن ردت شعرها للخلف باشمئزاز.

أوشك ستيف على أن يجيبني، لكنه رفع يده إلى فمه كأنه يريد أن يستجمع أفكاره. ثم قال: «يا إلهي، لقد كنا بانتظارك. نعم، أيها الفتى، إن والدك هنا، و... نعم، إنه في هذا الطابق، لكن هناك بعض الأمور التي يجب عليك أن تعرفها».

فأشحت بوجهي كأنني أريد أن أقول: نعم، نعم، هيا. قل ما عندك. فتذمرت قائلاً: «إذاً... ما الأمر؟ ماذا حدث؟ هل وقع وكسر ذراعه؟ ما الأمر؟ متى سيخرج من المستشفى؟»

بينما كان ستيف ينقر بأصابعه على الطاولة متسائلاً كيف يتعامل معي، التقطت أذناي صوتاً خافتاً لسعال جاف متقطع. ومن دون تفكير، التفت إلى اليمين وتوجهت نحو الغرفة التالية لقسم الممرضات، واستغرقت بضع ثوان حتى تعوَّدت عيناي على الظلام. فكان والدي الهزيل كالهيكل العظمي واقفاً أمامي وهو يرتجف كورقة شجر في رداء المستشفى الرقيق؛ وكانت ذراعاه ترتعشان بشكل خارج عن إرادته

وهو يجهد نفسه لكي يجر قدميه الحافيتين أمامه، وبدا عليه أنه يحاول أن يستخدم أي قوة يستطيع أن يستجمعها لكي يتمكن من الوصول إلى الحمام. ومن النظرة الخالية من التعبير في عينيه، استطعت أن أدرك أنه لم تكن لديه فكرة عن هويتي أو حتى إن كان ثمة شخص آخر معه في الغرفة؛ فأتيت من خلف ظهره وعلقت ذراعه على كتفي وساعدته في الوصول إلى الحمام. فأخذ جسده الهزيل يرتجف بجانبي وهو يقاوم لكي يقف مستقيماً ويريح نفسه. وأخذ رأسي يدور وأنا أتساءل مراراً وتكراراً كالأحمق: «هل أنت بخير؟ هل أنت على ما يرام؟»

بعد أن ساعدت الوالد على الاستلقاء فوق سريره فقط أدركت مدى سوء حال هيئته. فقد بدت عيناه خاليتين من التعبير، وكانتا تتجهان نحو أي شيء يلفت انتباهه للحظة قبل أن تلتفتا إلى مكان آخر. وهو ممدد على ظهره، كان الوقت الوحيد الذي سكنت فيه ذراعاه عن الارتعاش هو عندما جر يده الهزيلة إلى يده الأخرى لكي يمسك بها. وعندما نظرت إلى وجه الوالد، ابتسمت على أمل أن تلتقي عيناي بعينيه القلقتين. كان جلد وجنتيه أحمر قرمزياً ومتمدداً ورقيقاً، ولاحظت وجود رقعة بيضاء كبيرة ملصقة على الجانب الأيمن لعنقه وكتفه، لكنني لم أعرها اهتماماً، وعوضاً من ذلك مددت يدي لأمسك بها يد والدي، وهمست قائلاً بلطف: «أنا ديفيد، يا أبي».

فلم يحدث أي رد فعل.

فقلت بنبرة أكثر حزماً: «هل تسمعني، يا والدي؟»

فكان رد الوالد الوحيد مجرد شهيق أجش.

واستطعت أن أسمع صوت أنفاس أليس عند مدخل الغرفة. ولشدة إحباطي، تمددت بجسدي إلى جانب الوالد وأبقيت وجهي فوق وجهه تماماً، وقلت: «يا أبي؟ هيا، يا أبي؟ هل تستطيع.. هل تسمعني؟ هذا أنا، ديفيد. قل شيئاً، أي شيء. يا أبي؟»

تفحصت عيني الوالد، باحثاً عن أقل استجابة، واعتقدت أنه إذا لم يستطع التحدث، فقد كان على الأقل يستطيع أن يتواصل معي بعينيه، وزحفت الدقائق ببطء من دون أي جواب. فأردت أن أقبض على جانبي وجهه وأعتصر منهما أي شيء يدل على أن الوالد كان يعلم فعلاً أنني بجانبه.

استطعت أن أشعر على الجانب الأيمن من كتفي بأحد يقبض علي بلطف ولكن بقوة، فابتسمت معتقداً أن الوالد قد استيقظ من شروده، وقلت وقد غمرتني موجة من الراحة: «إنني هنا، يا أبي. هنا تماماً. وعندما ربّت على يده، أوشكت أن أقفز من السرير لأنني اكتشفت أن تلك اليد هي يد الممرض **ستيف** وليست يد والدي.

وقال لي من دون أدنى شعور بالإحراج: «يجب علينا أن نتحدث».

فسألته وأنا معتقد أنني لا أستطيع أن أترك والدي: «ولكن أبي...».

قالت السيدة **تيرنباو** وهي واقفة الآن بجوار والدي: «سأبقى أنا».

وعندما خرجنا من الغرفة، أغلق **ستيف** الباب الخشبي الثقيل بعناية. فسألته قائلاً: «ما مشكلته؟» وشعرت أن القلق قد بدأ يستبد بي، فضغطت عليه طلباً للأجوبة وقلت: «أي نوع من الأدوية تعطونه؟ لماذا لا يستطيع أن يميزني؟ هل العقاقير هي السبب؟ كم سيمضي من الوقت حتى يتحسن ويزداد وزنه؟ متى تتوقع أن يخرج من المستشفى؟»

فقال **ستيف** رافعاً يده: «هيا، يا رجل. هدئ من روعك قليلاً. ألم تخبرك أمك...؟ إنك لا تعرف شيئاً، أليس كذلك؟»

فقلت له بتهكم: «أعلم ماذا؟ لو أنني أعلم شيئاً لما أزعجتك بالأسئلة الآن! أخبرني فقط ما الذي يجري بحق السماء؟ من فضلك!»

وتوسلت إليه الآن قائلاً: «يجب عليَّ أن أعرف».

اقتادني ستيف إلى آخر الممر للبحث عن مكان أكثر خصوصية. وفي نهاية الممر، توقف ليعرض علي الجلوس على أحد الكراسي. فرفضت الجلوس وأنا أشعر بالحاجة إلى أن أبقى واقفاً. فقال لي: «لقد حدث هذا قبل أربعة أشهر عندما أدخل والدك...».

فصحت قائلاً: «أربعة أشهر! أدخل؟ لماذا أدخل؟ لماذا لم يتصل بي أحد؟ لماذا فعلتم هذا الآن؟»

قاطعني قائلاً: «من فضلك، امنحني فرصة للكلام. لقد أراد... والدك أن يتكتم على الوضع. والكثير من المرضى هم على هذه الشاكلة. وفي أي حال، لم يصبح تشخيصنا مؤكداً إلا بعد أن أجرينا الاختبارات كافة. إن والدك مصاب بالسرطان، يا ديفيد. ويؤسفني أن أقول إنه فتَّاك. فهو في المراحل المتقدمة من المرض. وأنا آسف». ومد ستيف يده ليمسك بيدي، ثم قال: «ليس هناك شيء يمكننا فعله».

فقلت له وأنا أرفض تلميحه: «تمهل! ماذا تعني بأنه فتاك؟ إنني لا أفهم...».

قال ستيف ببطء وتأنٍ وهو يقبض على كتفي: «إن والدك، يا ديفيد... لن ينجو».

فهززت رأسي بإنكار تام قائلاً: «أتعني... أتقول إنه سوف يموت؟ والدي سيموت؟ ألا تستطيعون أن تعطوه حقنة من شيء ما... أعتقد أن هناك نوعاً من العلاج الكيميائي. وإن كان المال هو ما تحتاجونه... فقط لا تدعوه يموت... ليس الآن، أرجوكم». وأخذت أتوسل إليه كأنه وحده صاحب القرار في مصير والدي.

«أصغ، يا ديفيد. هدئ من روعك للحظة. إنني لا أعرف، ولا أي شخص يعرف، كم من الوقت تماماً تبقّى لوالدك، ولكن...». ثم أكد

بلهجة قوية قائلاً: «إن الشيء الوحيد الذي أنا على يقين منه هو هذا: إن والدك لن ينجو. وليس هناك شيء، أي شيء، يمكنني أنا أو أنت أو أي شخص آخر أن نفعله حيال هذا. هيا، إنك لم تعد طفلاً. وأنت تعي هذه الأمور. فهذه حقيقة من حقائق الحياة. لقد عاش والدك عمراً كاملاً، والآن حان أجله». وتوقف ستيف لوقت قصير لكي يستجمع أفكاره، وعندما نظر إلي، أدركت الضغط الشديد الذي كان يرزح تحته وكم كان يبذل من جهد لكي يمد لي يد العون. وللحظة قصيرة، تساءلت كم مرة في الأسبوع كان يقضي وقتاً كهذا مع أشخاص آخرين في مثل حالتي، فشعرت بالحماقة والخزي. ثم قال لي وهو يأخذ بيدي: «إنني آسف حقاً، يا ديفيد».

لقد عجزت عن استجماع أفكاري. ومهما كان مخزون الطاقة الذي لدي، فقد شعرت فجأة أنه قد تلاشى. وأخيراً، في الوقت الذي شعرت فيه أنه يجب علي أن أضبط نفسي وأتحلى بالقوة، وجدت نفسي عاجزاً كلياً وبشكل مثير للشفقة. وتبادر إلى ذهني الكثير من الأسئلة، لكن الأمر تطلّب مني طاقتي كلّها حتى أصوغ جملة واحدة. فقمت بمجرد الوقوف أمام ستيف كالمخبول. ووددت أن أحرر كل ما في داخلي وأجهش بالبكاء. وبعد لحظة، كبحت جماح تلك الرغبة في نفسي. وقلت بشكل غير مترابط: «لأربعة أشهر؟ أتقول لي إن والدي مكث هنا كل ذلك الوقت؟ كم مضى عليه وهو... كما هو الآن؟ لماذا هو عاجز عن الكلام؟ أهو مخدَّر؟ أعني، إنه يتصرف كأنه حتى لا يميزني... إنني لا أفهم فحسب». وتلعثمت قائلاً: «إنني أريد فقط أن أعرف. وهذا كل ما في الأمر».

فبادر ستيف قائلاً وهو يدفع كرسياً إلى جانبه لأجلس عليه: «كما قلت لك، لقد أدخل والدك المستشفى قبل بضعة أشهر، وسرعان ما بدأ وضعه يتدهور. كان نمو المرض متمركزاً على جانب عنقه في

الأصل، لكنه بدأ ينتشر نحو حنجرته. إنه الآن تحت تأثير الأدوية وفي ظروف أنـا واثق من أنـك تدركها. لهذا السـبب يفتقر إلـى التمييز بين الأشـياء. وإذا تم إيقاف العلاج فسـوف يتحسـن إدراكه، لكنه سيصبح عاجزاً عن تحمل الألم».

سألته وصوتي يتلاشـى: «إذاً... لن يكون قادراً على أن يقول أي شيء ثانية؟ على الإطلاق؟»

فأجاب سـتيف وهو يومئ برأسـه: «هذا صحيح. لـن يفعل ذلك بعد الآن».

جلسـت على طـرف الكرسـي الخشـبي وفركـت يـدي بعضهما ببعض متسـائلاً عمـا يمكنني فعلـه لأخفف عن والـدي. ولمرة واحدة في حياتي، سـررت حقاً عندما فكرت في الوالدة. فعلى الرغم من كل خططها الشيطانية، فإنها هي التي عرفت كيف تتعامل مع وضع الوالد.

قطع سـتيف حبل الصمت قائلاً: «عندما أدخل والدك المستشفى للمرّة الأولى، لم يكن على ما أعتقد يدرك حقاً خطورة وضعه. والكثير مـن المرضى هم علـى هذه الشـاكلة. فهم غالبـاً لا يعرضون أنفسـهم للفحص الطبي حتـى يكون الأوان قد فات تقريباً. لنسـمِّ ذلك إحراجاً أو جهلاً أو غروراً أو أياً يكن، ولكن يجب أن تعلم من فضلك أننا قد بذلنا كل ما في وسعنا من أجل والدك. ومن المهم أن تعرف هذا».

قلت لـه: «نعم، أدرك ذلك. شـكراً لك، ولكن... هـل كان قادراً على الكلام عندما أدخل المستشفى للمرّة الأولى؟»

فقام ستيف بإيماءة بسيطة برأسه.

سألته قائلاً: «إذاً، لِمَ لم يتصل بأحد؟»

فعبس سـتيف وقال: «لقد فعل، فلا بد من أنـه فعل ذلك بعد أن أدخل المستشفى على الفور لأن ابنه الآخر، رونالد، قد حضر لزيارته، فقضيا بضعة أيام معاً، وأعتقد أنه في الخدمة العسكرية أيضاً».

فغرت فمي، وقلت في نفسي: **رونالد**؟ وكان **رونالد** الأخ الأكبر من بين إخوتي الأربعة. ولم أكن قد رأيته منذ إنقاذي في العام 1973. ولقد هرب أخيراً من قبضة غضب الوالدة قبل بضع سنوات ليلتحق بالجيش حالما بلغ الثامنة عشرة من عمره. ولم يخطر **رون** ببالي منذ سنوات. فسألت قائلاً: «هل كان قادراً على الكلام؟ أعني، هل تبادل الحديث مع **رونالد**؟»

ففسر لي **ستيف** بلطف قائلاً: «قدر استطاعته. فقد كان والدك يعاني ألماً كبيراً، وسرعان ما فقد قدرته على الكلام بعد زيارة أخيك».

«منذ متى... أعني، متى أتى **رونالد** لزيارته؟»

فهمهم **ستيف** قبل أن يجيبني قائلاً: «يمكنني القول إن ذلك حدث قبل شهرين أو ثلاثة أشهر».

«ماذا عن الآخرين؟ أي الوالدة وإخوتي وأصدقاء والدي الإطفائيين؟ هل استطاعوا التحدث إليه؟ أعني، هل كان كلام والدي مترابطاً؟ هل علم من أتى لزيارته؟»

فقاطعني **ستيف** قائلاً: «أي آخرين، يا رجل؟ لقد كان **رونالد** الوحيد الذي أتى لرؤيته؛ فلم يزره أحد آخر».

«ولكن الوالدة، لا بد من أنها قد رأت...؟»

فأكد **ستيف** بإصرار قائلاً: « لا أحد، وأعني ما قلته. ونحن لم ندرك حتى إنه متزوج حتى أعدنا تفقُّد أوراق دخوله المستشفى. وأعتقد، بعد التحدث إلى والدك، أنهما ليسا بالضبط على اتصال بعضهما ببعض. وهناك احتمال، باعتبار الطريقة التي تكتم بها والدك على مرضه، أن والدتك لم تكن حتى...».

فاعترضت على قوله وأنا أشعر بجسدي بكامله يصبح مشدوداً: «أوه، إنها تعلم».

عارضني ستيف بقوله: «إنني واثق لو أنها...».
فقلت له: «مستحيل. إنك لا تعرف شيئاً. ولا تعرفها».
فسألني قائلاً: «وكيف تعرف أنت؟»
فأجبته قائلاً: «هيا، يا ستيف، فكر في الأمر. من تظن أنه قد اتصل بأخي رونالد والسيدة تيرنباو؟»
فتوقف ستيف لبرهة قصيرة ثم ابتعد عن موضوع قلة تعاطف الوالدة، وقال: «بما أنك القريب الوحيد المتواجد هنا الآن، فيجب عليك أن تفكر في إجراءات والدك».
وكنت لا أزال أرفض الاعتراف بأنني سأفقد والدي، فسألته قائلاً: «إذاً... ماذا يسعني أن أفعل؟» وقد وددت نوعاً ما أن أكتشف شيئاً ما، أي شيء، نسي الأطباء أمره أو تجاهلوه وكان ربما ليشفي والدي من مرضه. وفكرت في كل الاحتمالات في آن. وتابعت قائلاً: «إذاً! لماذا لا ينظر إلي؟ هل يعرف، أعني هل هو قادر حتى على إدراك وجودي معه؟»
تنهد ستيف كأنه قد بدأ يسأم سيل أسئلتي الذي لا ينتهي. وقال: «معظم الوقت، النسبة هي خمسين بالمئة في أحسن الحالات. وهو يبدو أكثر وعياً في الصباح، ولكن، في معظم الحالات، ليس لأكثر من بضع دقائق في كل مرة. فهو في مرحلة تنساق فيها أفكاره بعيداً بعض الشيء، وجزء من السبب يُعزى إلى أدويته. وأقول لك ثانية إن كل هذا طبيعي بالنسبة إلى حالته».
وكلما كان الممرض يتحدث أكثر، كنت أشعر بعبء ثقيل يرهق كتفي. وكان فمي مفتوحاً على وسعه وأنا أحدق باتجاه ستيف.
فقال لي وهو يهز رأسه: «أعلم أن هذا كثير لتتعامل معه. لكن الأولويات تأتي أولاً؛ اقض وقتاً مع والدك، وهذه أهم الأولويات. ويمكنني أن أساعدك في إعداد الأوراق الرسمية وكل الأمور الأخرى

التي ستحتاجها في الأيام القادمة. أما الآن، فقم بقضاء الوقت مع أبيك فحسب».

فأجبته قائلاً: «لكنني... لا أعرف ما أقول. أعني، إنه لا يعرف حتى إنني معه».

«يا ديفيد، لقد عاش والدك في عزلة تقريباً طوال الوقت منذ أن أدخل المستشفى. ولم يكن يبدو عليه أنه خائف، لكنه كذلك. فهو يعلم أنه لن ينجو، وأي شيء تستطيع أن تفعله سيعني له الكثير. فهو وحيد تماماً هنا». ثم وبخني ستيف بلطف قائلاً: «يجب عليك أن تفعل هذا! قم بمجرد تذكيره بتلك الأوقات الطيبة التي قضيتماها معاً، وارفع من روحه المعنوية، وسوف يشعر بهذا».

فقلت في نفسي متهكماً: «نعم، كل تلك الأوقات الطيبة!»

وشكرت ستيف للمرة الألف، وقد أكد لي هو بدوره أنه سيبقى على اتصال بي. ولكن حتى عندما عدت على مضض إلى غرفة الوالد، كنت لا أزال أعتقد نوعاً ما أن والدي سينجو بأعجوبة.

وبينما كنت أعاود الدخول إلى الغرفة التي تفوح فيها رائحة المعقّم، التفتت إلي السيدة تيرنباو وابتسمت بسرعة. وقالت وهي تربت على يد الوالد: «إنني أتبادل ووالدك حديثاً لطيفاً. وقد أخبرته لتوِّي كم أصبحت شاباً وسيماً».

فكدت أصيح وأنا أقول: «أوه، يا إلهي! أيمكنه أن يتكلم؟»

فردَّت أليس بصوت سلس وهي مستمرة بالابتسام لوالدي: «أوه، إنك لست في حاجة إلى أن تثرثر لكي تتجاذب أطراف الحديث، أليس كذلك، يا سيد بيلزر؟ سوف أترككما الآن أيها السيدان الوسيمان وحدكما». ثم تركت يد والدي وخرجت من الغرفة بهدوء.

شعرت أنني مشلول التفكير وأنا لا أعرف ما أقول أو ما أفعل. وللمرة الأولى منذ سنتين تقريباً، سنحت لي الفرصة أخيراً أن أرى

والدي. وبينما كنت أحدق به، أدركت فجأة أنني لم أكن أعرف شيئاً عنه. وبحسب ما أتذكر، فمن المرجّح أن زياراتي لوالدي لم تكن تتعدى العشر زيارات، وربما أقل من عشرين ساعة مجتمعة، وهكذا تساءلت الآن: هل كنت مشغولاً طوال السنوات القليلة الماضية وأنا أتوق لحب والدي على أمل أنه ربما سيبادلني الشعور نفسه؟ ففي طفولتي، وددت من كل قلبي أن أتمتع بصحبته، لكنني الآن وأنا أراقب جسد الوالد يذوي وهو يجهد نفسه ليلتقط أنفاسه، أردت أن أهرب. ومن دون سابق إنذار، بدأت الدموع تملأ عيني. فقلت: «إنني، آه... لقد حاولت أن أكتب لك. أعني، لقد كتبت لك... لكنني لم أكن واثقاً من عنوانك». وهززت رأسي وأنا أعلم أنني أبدو كمغفل، لكنني واصلت الكلام متلعثماً، فقلت: «لقد وصلتني رسالتك حين كنت في قاعدة في **كولورادو**. ولم... أعني، لم أستطع أن أعثر على عنوانك. إنني آسف. إنني آسف فعلاً. فأنا لم أعرف. وقد كنت لآتي في وقت أبكر، لكنني لم أعرف فحسب».

ثم أشحت بوجهي لكي أتمالك نفسي. وكان الشيء الأخير الذي أردته هو أن تنهار أعصابي أمام والدي، مع أنه كان ينبغي أن يقتصر تركيزي على حاجاته هو وليس على أسفي. وبعد بضع دقائق من الصمت، تذكرت نصيحة **ستيف** حول إبقاء روح والدي المعنوية مرتفعة. ومن دون أن أتوقع، لاحت ببالي ذكرى تتعلق بي وبوالدي حدثت قبل أن ألتحق بالمدرسة، فجلست على سرير الوالد وأنا أدس الملاءة خلف ظهره الواهن. وبدأت قائلاً: «ربما لا تتذكر هذا، ولكن حين كنت في الرابعة أو ربما الخامسة ذهبنا جميعاً إلى نهر **رشان**... وفي وقت مبكر من مساء أحد الأيام، ذهبت في نزهة على الأقدام. فتبعتك...». وكلما تحدثت أكثر توضحت تلك الحادثة في ذهني، فاستأنفت حديثي قائلاً: «وقد كنت أنتعل ذلك الحذاء الصغير الخاص

بالكشافة، فحاولت أن أستمر بالمشي بسرعة مناسبة وبهدوء قدر المستطاع. وأعتقد أنني نجحت في السير لخمسة أقدام أو ربما عشرة، بعيداً عن الكوخ عندما سمعتني. فالتفتَّ إليَّ بسرعة بحيث إنني ظننتك على وشك أن توبخني، لكنك...». وتوقفت للحظة لأبتسم بوجه والدي، ثم قلت: «قمت بمجرد مد يدك الضخمة وأمسكت أصابعي بين أصابعك... ثم، من دون أن تتفوه بأي كلمة، جعلتني أمشي بصحبتك».

«يجب عليَّ أن أقول إن هذا كان لطيفاً جداً بالنسبة إليَّ وأنا طفل، وفي ذلك الوقت، بالنسبة إليَّ وإلى رون وستان، أن نستطيع الاستئثار ببضع لحظات معك... لقد كان ذلك كل ما تحدثت عنه بعد نزهتنا. وفي صيف ذلك العام، علمت أن ذلك هو المكان الذي أريد أن أعيش فيه. لقد اكتشفت ذلك هناك بين الأشجار والنهر وعبير الزهور وفي تلك اللحظات الثمينة التي قضيتها برفقتك. وفي ذلك الوقت، أحسست معك بالأمان، فقد كنت بالنسبة إليَّ بطلاً خارقاً شبيهاً بسوبرمان». ثم سخرت من نفسي قائلاً: «أعلم أن هذا يبدو سخيفاً نوعاً ما، لكن تلك كانت المرة الأولى التي أمسكت فيها بيدي وأردت أن تكون برفقتي».

وتوقفت للحظة لكي أغمض عيني. وعندما فعلت ذلك، تلاشت تلك الذكرى مع والدي من مخيلتي، وبدأت أشعر بمعدتي تنقبض. وفي أثناء فترة مراهقتي تحت وصاية والديّ بالرعاية، لم أكن أطيق الانتظار حتى أصبح راشداً لكي أتمكن ووالدي من أن نناقش ماضينا؛ وكنت آمل نوعاً ما أن يوطد ذلك العلاقة بيننا. ولم تكن لديَّ النية في أن أثير استياءه أو أن أستخدم ما حدث لكي أنحى باللائمة على أي شخص. وببساطة، اعتقدت أنني إن ملكت الأجوبة، فربما كنت سأتمكن من أن أحرر نفسي من مصير يدفعني إلى تكرار مأساة

الكراهية والعنف التي لا طائل منها. وعندما نظرت إلى والدي، شعرت أن الوالدة قد تعمدت استغلال الوضع بأن اتصلت بي فقط بعد أن أصبح الوالد عاجزاً عن التفوه بكلمة واحدة.

«في أثناء وجودي في البيت، أتذكر تلك الأوقات التي تعوَّدت أن تأتي فيها من محطة الإطفاء لبضع دقائق فقط لكي تتفقد أحوالي. ولم تكن الوالدة تعرف، لكنني كنت أحرص على أن يكون وصولك في الوقت الذي أغسل فيه الأطباق لكي أراك. وأحياناً تعوَّدت أن أتأخر كثيراً جداً في أعمالي و... أنت تعرف الوالدة... لقد كنت أدفع الثمن بعد رحيلك. وقد علمت أنها لن تسمح لك بأن تنزل إلى القبو، ولذا، فقد كنت أغسل الأطباق مراراً وتكراراً حتى أسمعك وأنت تفتح الباب الأمامي». وتوقفت للحظة وأنا أحدق بعيني والدي مباشرة، وقلت: «لقد أنقذتني حتى لو حدث ذلك لبضع ثوان فقط في المطبخ. وقد شكل ذلك الأهمية كلّها بالنسبة إليَّ. وحين كنت أحياناً تمسني برفق كنت أستنشق رائحة عطرك. لقد كنت مصدر قوتي الخفي. إنني آسف فحسب، أنه توجب عليك وعلى الصبية جميعهم أن تعانوا الكثير من المتاعب. لقد اعتقدت نوعاً ما أنني سأتمكن من أن أعوض عليك وعلى الجميع».

«لقد كنت أعرف، يا أبي، كما أؤكد لك، أنك لطالما أيقنت أنك تعود إلى البيت من أجلي. والآن، مهما يحدث، فسوف أبقى هنا من أجلك، ومهما قال الجميع، فسوف أحمي كرامتك».

ثم سمعت من ورائي صوت **أليس** وهي تغلق الباب. ومن دون أن أقطع تسلسل أفكاري، أومأت للسيدة **تيرنباو** واستأنفت الحديث. وللمرة الأولى في حياتي، بدأت فعلاً أفتح قلبي لوالدي.

«في سنوات طفولتي، كنت فخوراً بك لأنك إطفائي. أتتذكر حين كانت الوالدة عضوة في مخيم الكشافة وقادت مجموعة الأطفال

إلى محطة الإطفاء في شارع بوست. لقد بدوت ظريفاً جداً في اللباس الكحلي الموحد وأنت متكئ على سيارة الإطفاء المصقولة. وأعتقد أنني ربما كنت في الصف الأول؛ وعندئذٍ قررت أنني أريد أن أصبح إطفائياً، ولهذا السبب التحقت بسلاح الطيران». وفجأة أمسكت عن الكلام، فلم أعد أملك الشجاعة لكي أخبره حقيقة أنني أخصائي خدمة طعام مثير للشفقة. وحتى لو كذبت عليه، فقد كنت أعلم أن الوالد سيسمع ذلك في صوتي. وقد وددت من أعماقي أن يفخر بي وأن أثبت له أنني لست فاشلاً وأن الحال لن تؤول بي مثل... مثل...

لقد غمرتني موجة من الإحراج. فكنت كلما أخذت أحدق بالوالد، كنت أرى نفسي مخلوقاً عاجزاً لن يصل إلى أي شيء مهما حاول جاهداً.

لكنني أبعدت تلك الأفكار عن رأسي، وفجأة تحول تفكيري إلى شارة الإطفائي الخاصة بوالدي. فسألت قائلاً: «يا والدي... هل ما زلت... هل... هل ما زلت تحتفظ بشارتك؟ شارة الإطفائي؟»

وتخيلت الوقت الذي احمر فيه وجهه من الفخر وهو يعرض شارته الفضية وأرقام هويته المختومة عليها. وقلت لأليس بصوت خافت: «إنها الشيء الوحيد الذي يملكه والذي يبين ما بذله في حياته؛ وبعد كل شيء، إنها الشيء الوحيد الذي لديه...».

فهمست أليس بلطف قائلة: «يا ديفيد! انظر إلى والدك!»

فالتفت برأسي بسرعة نحو والدي، وكان رأسه مستمراً بالارتعاش، لكنه اتجه الآن أكثر نحو اليمين في حين أن عينيه بدتا متوترتين كأنه يريدني أن أنظر إلى... وصحت قائلاً: «الخزانة! أتريدني أن أنظر في الخزانة؟»

وأمعنت النظر في وجه والدي أبحث عن أي رد فعل. وبدا عليه أنه يستجمع كل قوة يملكها لكي ينحني باتجاه الخزانة، فوثبت عن

السرير وفتحت الباب وكان هناك سروال مهترئ معلق بعناية وقميص مكوي ومعطف ثقيل. فجلت ببصري إلى أسفل الخزانة، وفتشت عن حقيبة سفر الوالد التي كان يستخدمها لكي يحزم أغراضه حين كان يعمل في محطة الإطفاء، ولكن كل ما استطعت أن أعثر عليه هو حذاء منظف بالفرشاة وموضوع بأناقة جانباً. وأخذ إحساس غريب بالخوف يتملكني وأنا أفتح الأدراج لأعثر فقط على زوج من الجوارب البيضاء ولا ثياب ولا أوراق ولا محفظة ولا شارة إطفائي. فالتفتُّ إلى والدي وأنا أهز رأسي. وفي لحظة هدوء، وبينما ظل نظره موجهاً نحو عيني، أدركت ما يحاول أن يوصله إلي.

أومأت برأسي لوالدي برفق وربّتّ بيدي على معطفه، وشعرت جزئياً بالغضب لانتهاكي خصوصيته في حين أنني كنت في أعماقي لا أطيق الانتظار لأعثر على كنزه. فعثرت على مجموعة من الأوراق التي بدت رسمية ودسستها في جيبي الخلفي من دون تفكير حتى أتمكن من قراءتها لاحقاً. لقد كان الشيء الوحيد الذي يهمني هو شارة والدي. وبعد محاولتين، خففت من سرعتي، واستخدمت أطراف أصابعي لكي أتتبع كل خط وأي فتحة وأنا أتفحص ملامح والدي، فشعرت بانتفاخ صغير، ومن دون أن أنظر، انتزعت حقيبة جلدية سوداء.

فبادرت السيدة تيرنباو بقولها: «أليست هذه لوالدك...؟»

قاطعتها وأنا أفتح الحقيبة الصغيرة قائلاً: «نعم». ثم أظهرت الشعار الفضي أمام وجه والدي المرتجف.

وسرعان ما هدأ تنفسه. وبينما أنا أحمل الشارة، بدأت أشعر بأهمية معناها بالنسبة إليه. فقد كان الشيء الوحيد الذي يمثل حياة والدي وهو راشد، فضلاً عن زواجه المنهار، هو ما أحمله بيدي الآن. وجَّه والدي نظره كأنه يحاول التركيز، ولاحظت عندئذٍ أن شفتيه كانتا

تختلجان، فأحنيت رأسـي إلى الأمام، ولكن مهما حاولت، لم أسـتطع أن أميـز أي أصوات تخرج من فمـه. وعندما فتح عينيـه تركزتا مجدداً فـي عيني، فهززت رأسـي من الخـوف، وقلت بسـرعة: «لا أعرف! لا أعـرف مـا الـذي تحـاول أن...». وفجأة شـعرت بإحسـاس ضئيل في يدي اليمنى. وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت أصابع والدي القرمزية النحيلـة تلتف حول أصابعي وتقبض على شـارة الإطفائي. ولمَّا بدأت يدي ترتجف من ارتجاف يد والدي، أطبق والدي أصابعه على الحقيبة الجلدية السـوداء. فتفحصت عينيه، وفهمت قصده. فهمسـت في أذنه، وأنا أدعـو لكـي يتمكن من سـماعي، وقلت: «سـوف أحمي شـارتك وأحافـظ عليهـا، وليشـهد الله على مـا أقوله. وسـوف أحملها كشـارة شرف».

عندمـا ارتخت قبضـة والدي، أدركـت أنه قد اسـتغرق في النوم. وقبل أن تنـزلق أصابعه بعيداً، قبلت يده، ووضعت يد الوالد المرتجفة برفق على صدره وأنا واقف بجانب سريره. وعندما التفتُّ نحو الباب، رأيت سـتيف واقفـاً بجانب أليـس. فقال لي: «سـيكون قـادراً على أن يرتاح الآن. فقد أدخلت السـعادة إلى قلبه. لقد أخبرني قبل عدة أشهر عندما أدخل المستشـفى أنه يريـدك أن تحتفظ بها». ونظرنـا كلانا إلى يـدي اليمنى التي ما زالت متشـبثة بشـارة والدي. ثم قال: «إنه الشـيء الصـواب لتفعلـه». ثم قال بصـوت متهـدج: «إن اليوم هو يـوم جميل بالنسبة إلى والدك. إنه يوم جميل جداً».

«كيـف تعـرف... أعني، إننـي لا أعـرف مـا إذا كان يسـتطيع أن يفهمني. فإذا لم يستطع الكلام...».

فأجاب سـتيف قائلاً: «إنه يتكلـم. وأنت تتعلـم أن تصغي. وهذا أمر صعب، ولكن ما دام يعلم أنك هنا إلى جواره، فهذا هو كل ما يهم في الأمر».

صحت قائلاً وأنا أغص بالكلمات: «إنه لن... إن والدي لن... ينجو؟» وعندما حدقت بوالدي، شعرت كأن مطرقة هشمت جمجمتي. وهمست لأليس قائلاً: «سوف يموت». وفغرت فمي من الذل ثم صفعته بيدي. فلم أستطع أن أصدق أنني تفوهت بتلك الكلمات، وحتى تلك اللحظة بالذات كنت لا أزال أؤمن بأن انقلاباً مفاجئاً سيجري. وبطريقة غريبة، شعرت أنني بإنقاذ والدي من حياته اليائسة فقد كنت في المقابل، سأنقذ نفسي.

التفتُّ إلى ستيف، ووقفت وأنا شبه مسمر في مكاني، وقلت: «إذاً، كيف سأعرف... عندما يحين الوقت؟»

«ما زال أمامك بعض الوقت. ولطالما سيكون هناك شخص ما يتولى العناية بوالدك. وسوف نعلمك عندما تطرأ أيّ تغيُّرات». وبهذا عاد ستيف إلى لهجة الممرض الرسمية. فقال: «سوف يكون كل شيء على ما يرام».

وبعد أن أكد لي أن الوالد سيرتاح لبعض الوقت، وجدت نفسي أقود سيارة السيدة تيرنباو الضخمة الصدئة. وبوجود أليس بجانبي، تجولت ببطء عبر متنزه غولدن غيت في شارع جون كينيدي. وعندما وصلت إلى رينبو فولز، ركنت السيارة وأنزلت زجاج النافذة. وتذكرت المرات الكثيرة التي قاد فيها والدي ووالدتي السيارة برفقتي أنا ورون وستان عبر المتنزه. فكنا، ووجوهنا ملتصقة بزجاج سيارة الستيشن المعطوبة، نحدق بالأزهار ذات الألوان البراقة والمزروعة حديثاً في صفوف لا تنتهي. وإذا تجرأ أحدنا على أن يفتح إحدى النوافذ، كنت أتنشق عطر الأشجار المميز. وإن حالفني ورون وستان الحظ، تمكنا من أن نلمح السلاحف الحمراء وهي تستمتع بأشعة الشمس بينما تمر سيارة الستيشن الفضية بمحاذاة البركة. وفي ذلك الوقت من الماضي قبل أن ألتحق بالمدرسة، حتى مع أنني كنت أعلم أن هناك سراً يربط

بيني وبين الوالدة، فقد شعرت بالأمان لأننا كنا معاً جميعاً كعائلة. وفي ذلـك الوقت مـن الماضي، دعـوت لكي تصبـح حياتي يوماً مـا هادئة وجميلة كالمتنـزه.

واسـتيقظت من شـرودي، فأدركت مـا عليَّ أن أفعلـه. فقلت من دون مشاعر: «يجب عليَّ أن أراها».

أجابت السيدة **تيرنباو** وهي تومئ برأسها موافقة: «أعلم ذلك».

ففوجئت. وقد توقعت منها أن تتحداني. إذ عندما اتصلت الوالدة بـي قبل سـاعات مـن التحاقي بسـلاح الطيـران، كانت **أليـس** هي من منعتني من رؤيتهـا. وكلما كان يتبادر إلى ذهني سـؤال يتعلق بالوالدة، كنت دائماً أسأل السـيدة **تيرنباو** عن رأيها فيه أولاً. لكنني أدركت الآن أن **أليس** قد تجنبتني وسمحت لي بأن أتخذ قراراتي الخاصة.

وبعد أن أخذت لقطة ذهنية أخيرة للماء المتسـاقط من شـلالات رينبو **فولز**، وجهت السـيارة نحو الطريـق وأبعدت قدمي عن المكابح، ثم خرجت من متنــزه **غولدن غيت** متوجهاً نحو جادة **كريسـتلاين** في مدينة **دالي ستي**.

الفصل الخامس

أفول النجم

صعـدت بتردد الدرجات الحمـراء التي تؤدي إلـى منـزل الوالدة وأنا على يقين أن ليس هناك مجال للتراجع. ولم أدرك السبب في أنني لا أزال منجذباً نحوها. وكنت، باختياري، قد تركت السـيدة **تيرنباو** في **بليموث**، ففضلاً عن كل شـيء، لـم أرد أن أصطحبها معي إلى عالمي القـذر بعـد الآن أكثر ممـا فعلت سـابقاً. وعلـى قمة الـدرج، وقبل أن أجبن، قرعت بقوة البـاب الأمامي، وفي اللحظة التي فعلت فيها ذلك، لاحظت أنّه ليس هناك أيّ سبيل لأسيطر على يدي المرتجفة، فخبأتها خلف ظهري متخذاً وضعيتي العسـكرية. وفكرت في أن أرتب شعري أو أن أفعـل أي شـيء آخر يجعلني ذا هيئـة أفضل عندمـا انفتح الباب الأمامي.

فجالت عينـا أحد الصبيـان الصغـار متأملة لباس سـلاح الطيران الموحـد الذي أرتديـه. وقال الطفـل: «هيه، هـل أنت من عائلـة **بيلزر** أيضـاً؟» وأدار الطفل رأسـه وصاح قائلاً: «يا أمي! هنـاك فرد من أفراد عائلة **بيلزر** يريد أن يقابل...».

وتدفقـت الكلمـات من فمـي من دون تفكيـر، فقلت: «يـا إلهي، كيفن؟» وتذكرت بوضوح تام أحد أيام السـبت قبل سـنوات حين كان كيفـن طفلاً رضيعاً يزحف على الأرض وهو مرتد طقمه الأزرق. وفي ذلـك الوقت مـن الماضي، كانت صيحات سـعادته تذيـب قلبي البارد كالجليـد. والآن، بينما أنا أتفحـص ملامحه، كنت علـى ثقة بأن كيفن

ليست لديه أيّ فكرة عن هويتي.

انفتحت عيناه على وسعهما، وبدا مظهر الصدمة التّام مرسوماً على وجهه، فقال: «يا أمي؟»

وظهر من خلفه شخص آخر، وهو مراهق ذو وجه مرصع بالنمش، فدفع كيفن جانباً متخذاً وضعية عدائية كأنه يريد أن يحمي منزله من المتطفلين، محاولاً أن يبدو كشاب قوي وهو يحدق بي. ومهما حاول رَسِل أن يخفي توتره، فقد استطعت على الرغم من ذلك أن أكتشف من حركاته القلقة أنه كان متوتراً أيضاً. فقال: «إذاً... ماذا تريد؟»

فأجبت بلهجة متروَّى فيها قائلًا: «يجب أن أراها». وأضفت قائلاً: «من فضلك» محاولاً أن ألطف من موقف أخي العدائي.

فأومأ رَسِل برأسه كأن موعداً كان بيننا، وقال: «نعم، صحيح».

دعاني رَسِل للدخول، وهو يشير بذراعه نحو غرفة المعيشة، لكنه تبعني كحارس يوصل سجيناً إلى آمر السجن. وشعرت جزئياً أن تصرفه يُعزى إلى السنوات التي قضتها الوالدة في غسل دماغه نفسياً، أو ربما إلى الغيرة لأنني نجوت من براثن غضبها في حين أنه هو وإخوتي الآخرون ظلوا في البيت. وقد شعرت أيضاً بطريقة غريبة أن رَسِل كان يبغضني ربما لأنه قد أصبح بديلاً منّي.

كنت أتفحص غرفة المعيشة، في حين أن كيفن أخذ يقفز أمامي، ولم يكن شيء قد تغير خلال سبع سنوات. فبدت كل قطعة من قطع الأثاث كأنها ملتصقة في المكان نفسه الذي كانت فيه عندما تم إنقاذي قبل سنوات. وكان الشيء المختلف الوحيد هو كم أصبحت الغرفة صغيرة ومظلمة بسبب الجدران الملطخة بالنيكوتين والستائر الرقيقة الملوثة. وكانت رائحة كريهة ساحقة، اعتقدت أن مصدرها هو قطيع الوالدة الصغير من الكلاب والقطط، قد جعلت الدمع يسيل من عيني

تقريباً، فسعلت وهززت رأسي باشمئزاز، فهذه هي المرأة التي تعوّدت، وأنا طفل، أن تقيم حفلات أنيقة وتفتخر بفخامة منـزلها.

عندما خطوت داخل المطبخ ورأيت شكل جسد الوالدة المظلل تصلب جسدي برمته والتصقت يداي بجانبي جسمي والتحمت ذقني بصدري، وحدقت عيناي بالبقع المختلفة الألوان على الأرض. ومرت ثانية قبل أن أستعيد حواسي، لكن الأوان كان قد فات؛ فعندما سمعت صوت ضحكتها المثير للاشمئزاز، كانت الوالدة قد لاحظت للتو رد فعلي التلقائي، فاتكأت على الطاولة لأثبت نفسي في دواري وأنا واقف على بعد مسافة آمنة وواضع يدي خلف ظهري في وضعية الاستراحة.

كانت الوالدة تفرغ كيساً ورقياً بنياً مليئاً بمواد البقالة. فنظرت بشكل خاطف وهي ممسكة برغيف من الخبز، وأظهرت ابتسامة من ابتساماتها الشريرة. وسألتني قائلة: «إذن، ... يمكنني أن أعتقد أنك قد قابلتَه على الأقل؟»

فأجبت بنبرة خالية من العواطف: «نعم، يا سيدتي».

واستجوبتني بتهكم وهي تبدأ بوضع مواد البقالة للاستعمال المستقبلي: «وكيف حاله؟»

سألتها وأنا أحسب كل كلمة من كلماتي قائلاً: «إنك لم تري الوالد، أليس كذلك؟»

وبسرعة البرق، وضعت الوالدة يديها على وركيها واتخذت ثلاث خطوات باتجاهي، وما يدعو للمفاجأة، أنني لم أتراجع إلى الخلف، بل تسمرت في مكاني. فقالت بعنف: «هذا ليس شأنك. أصغ إلي، أيها التافه! إنني الوحيدة التي أسدت إليك معروفاً! ولم يكن يتوجب عليَّ أن أتصل بتلك الأم بالرعاية، لم يتوجب عليَّ أن أفعل ذلك، كما أؤكد لك».

فصححت كلامها بهدوء قائلاً: «إنها تدعى السيدة **تيرنباو**».

وقالـت: «أياً تكـن». وعادت الوالـدة إلى طاولـة المطبخ وبدأت تسـعل مفرغة رئتيهـا، وتصرفت كأنها تـرزح تحت وطأة توتر شـديد. فتوجه رَسِل نحو الوالدة عندما سمع معاناتها كأنها على وشك أن تنهار في أي لحظة. فرفعت الوالدة ذراعيها بحركة سـريعة وأرجعت رأسـها للخلـف وصاحت: «إننـي بخير. إننـي على ما يـرام». وعندمـا تراجع رَسِل إلى الخلف مجدداً أنزلت الوالدة ذراعيها، ثم قالت بصوت يشبه الفحيـح ولهجة حقودة: «أنت من بين جميـع الناس لا يحق لك. ليس لك الحق على الإطلاق أن تطلـق الأحكام علي»، وتحول لون وجهها من اللون الأحمـر القاني إلى الأبيض كالأشـباح. وقالـت منتحبة: «لا أحد يعلم... مدى صعوبة هذا... بالنسبة إليّ!»

صاح رَسِل قائلاً: «الآن انظر إلى ما فعلته!»

وقفت هناك للحظة وأنا مشـوَّش. ففكرت في نفسـي قائلاً: «هل أسـئلتي المباشـرة تثير انفعالها حقاً أم أن حضوري قـاس عليها؟» وقد يكون هذا أيضاً عرضاً مسـرحياً من عروضها التي تحاول فيه أن تحول تركيز التعاطف إليها وليس إلى المسألة موضوع النقاش. ولأنه لم يكن هناك شـيء لأخسـره فقد أمعنت في الضغط عليها أكثر قائلاً: «إنني لا أفهم فحسـب. كيف يحدث أن الوالد مكث في المستشـفى طوال هذا الوقت ولم تريه ولو لمرة واحدة؟»

«إن الألم شديد عليَّ لأحتمله، ألا تدرك ذلك؟ لقد عرفته أكثر... من أي شخص آخر. إن ذلك كله كثير جداً».

أومأت للوالدة بشـكل ظاهري كأنني أوافقها على جملتها. لكنني في داخلي كنت أقول: «وجائزة الأوسكار لأفضل أداء، عن فيلم تحت تهديد مزيف، هي من نصيب... **كاثرين رويرفا بيلزر**!»

وتابعـت الوالـدة مقاطعـة أفـكاري لتدّعـي قائلة: «ليسـت لديك

فكـرة. إنه لم يكـن إلى جانبي أو إلـى جانب أطفاله، فـإذا لم يكن في عمله، فإنه يذهب للسَّهَر مع رفاقه في مكان لا يعلمه إلا الله».

فأومأت برأسـي ثانية وأنا أعلم جيـداً أن الوالدة تختلق أيّ أعذار تستطيعها لكي تبرر افتقارها إلى التعاطف واللياقة العامة.

ثم أعلنت الوالدة قائلة: «أيها الصبيـان، اتركانا وحدنا». ولوَّحت بيديها.

فقال كيفن: «ولكن، يا أمي...».

صاحت قائلـة: «قلت لكما غـادرا قبل أن أجعلكمـا تبكيان بكاء شديداً!» فهرع الصبيان خارجين من الغرفة بلمح البصر.

وبينما أخذت الوالدة تثرثر عن قلقها، بدأت عروق رأسي تنتفض مـن العبء الـذي تحملته في ذلـك اليوم. ولم أسـتطع معرفـة كم من الوقت سـأتحمل البقاء في هذا البيـت. فقاطعتها قائـلاً: «إذاً، ماذا عن الوالد؟»

فزمجرت الوالدة قائلة: «لقد قلت لك!»

قلت لها بصوت سـلس: «كلا، يا سـيدتي». ونظـرت إلى عينيها، فأيقنـت أنني لن أتراجـع عن موقفي. فقلت لها: «إنـه لا يزال زوجك. وهو وحيد فـي هذا العالم. وليس على ما يرام...». وتحكمت بنفسـي قبل أن أفلت زمام السـيطرة علـى أعصابي. وأمام الوالـدة، وفي بيتها، توجب علي أن أحافـظ على رباطة جأش تامة. وقلـت: «إن والدي... لـن ينجو. وليس هناك وقت طويل أمامه». انتظرت الوالدة لكي تجيب وتسـتفيق وتلقـي بسـترتها وتهـرع لتـزور والـدي. ولمعرفتـي أنني قد تخطيـت نقطة اللاعودة، خطـوت نحو الوالدة وقلت هامسـاً بحيث لا يسـمعني أحد سـواها: «إنه والد أطفالك. لا تجعلي الوضع يؤول إلى هـذه النهاية. أرجـوك، أتوسـل إليك، افعلي الشـيء الصـواب واذهبي لمقابلته».

وقد عرفت من التوتر البادي على وجه الوالدة أنني بدأت أتوصل إلى إقناعها. فأومأت برأسها قليلاً موافقة. ومن خلف نظارتها ذات الإطار الفضي الباهت، لمحت الدموع وهي تملأ عينيها. لقد كانت المرة الأخيرة التي تخلت فيها الوالدة عن حذرها هكذا قد حدثت قبل يومين من إنقاذي في شهر آذار من العام 1973، حين كنا واقفين في الغرفة نفسها وانهارت وبدأت تتحدث عن ماضيها. فدعوت الله وأنا واقف أمامها لئلا أفقدها... ثانية. وكان هدفي الوحيد هو أن تكون الوالدة إلى جانب والدي. وفكرت في نفسي: ربما قد تتمكن بضع دقائق يقضيانها وحدهما من أن تمحو سنوات الحقد كلها. فتوسلت إليها بنعومة قائلاً: «هيا. هيا نذهب جميعاً ونرى الوالد. هيا»، وابتسمت وأنا أمد يدي إلى يدها.

صاحت الوالدة وهي تمد ذراعها المرتجفة: «أوه، يا ديفيد». فأخذت بيدها من دون تردد. وقلت لها: «سيكون الأمر على ما يرام. سيكون بخير». وبدأ جسمها يتمايل، وأغمضت الوالدة عينيها بإحكام كأنها تمحو كل الألم الذي كبتته في قلبها، ثم أطلقت تنهيدة أخرى أكثر عمقاً وكأنّها تطهر نفسها. وعندما نظرت إلى وجه الوالدة، أخذ التحول يطرأ على لونها، وبدأ اللون الأحمر يهيمن في ملامحها. وقبل أن تفتح عينيها، علمت ما كان آتياً، وفجأة شعرت بيدها تصبح باردة كالثلج، فتوسلت إليها بصوت خافت قائلاً: «أرجوك، لا ترحلي».

وفي اللحظة التي أفلتّ فيها يدها سحبتها الوالدة بعنف. وتماماً كما حدث قبل سنوات، كنت أتمتع بالذكاء الكافي لأبتعد عنها. ومن ابتسامتها الشريرة عرفت أن الوالدة قد عادت وهي تسعى وراء الانتقام. فقالت: «يا لك من تافه انتهازي صغير! إنني أراهن على أن أولئك الناس الذين رعوك فخورون جداً! فها أنت تأتي إلى هنا وتدخل منزلي وتملي عليّ ما يجب أن أفعله. من جعلك المخلّص؟» وتوقفت

الوالدة قليلاً لتستجمع قوتها وهي تجهد نفسها لتشعل سيجارة؛ وقد تطلب الأمر منها عدة محاولات، ليس لإشعالها فحسب، بل لتسحب مجّة منها، بسبب ارتجافها العنيف. وقالت وهي تقحم إحدى أصابعها في وجهي والدخان يتصاعد من فمها: «أنت من بين جميع الناس، ليس لك الحق. وربما تتمتع بقدر من الأهمية بالنسبة إلى سلاح طيران الولايات المتحدة، لكنك تعلم...». وترددت الوالدة كأنها تريد أن تجعلني أستوعب المعنى الكامل لكلماتها، فقالت: «...إنك تعلم ما هي حقيقتك. ففي أعماقك، أنت لا شيء. إنك لا تستحق حتى أن تتنفس الهواء نفسه الذي أتنفسه وأطفالي. كيف استطعت أن تدخل منزلي كأنك تملكه لتملي عليَّ ما ينبغي عليَّ أن أفعله أو لا أفعله؟ كيف استطعت أن تفعل ذلك بعد كل ما بذلته من أجلك؟ من منحك الحق في العودة إلى هنا؟»

حاولت أن أحافظ على وضعية لا توحي بالتهديد. وكما تعوَّدت أن أفعل قبل سنوات، التزمت الصمت ببساطة وأصبحت إنساناً نصف بشري. فكان نصفي آلة ونصفي الآخر إنساناً، ومع ذلك فكلماتها: «بعد كل ما بذلته من أجلك» قد أصابتني بدهشة كبيرة.

فتمتمت قائلاً: «ما بذلته من أجلي؟»

زمجرت بعد أن سحبت مجة طويلة من سيجارتها وقالت: «إنك ما زلت لا تفهم، أليس كذلك؟ لم يتوجب عليَّ أن أحررك. كلا! لقد تخليت عنك، وانتهيت منك. فأنت لم تمنحني أي سعادة، وهكذا تخلصت منك». وتطلب الأمر مني بضع ثوان لكي أستوعب ما قالته الوالدة. ثم استأنفت كلامها قائلة: «لقد كنت مجرد قمامة. فألقينا بك بعيداً ببساطة كما تلقى القذارة». واتخذت الوالدة الوضعية الأرستقراطية الراقية وقالت بصوت تهكمي: «أوه، يا إلهي. يا للوقاحة! هل حطمت آمالك؟ أراهن على أنك قد اعتقدت طوال ذلك الوقت

أن منقذيـك المباركيـن فـي المدرسـة هـم المسـؤولون عـن تحريـرك المفاجـئ». ثم همسـت الوالدة بصوت يكاد لا يسـمع قائلـة: «إنك لا تـدرك مدى حسـن طالعـك. لقـد كان بمقـدوري أن أنهي كل شـيء. هكـذا... ببسـاطة». وأكـدت الوالدة علـى قولهـا بفرقعـة أصابعها. ثم قالت: «إنك تعرف حقيقتك، لذا، فلـو كنت مكانك لأبقيت ذلك الفم التافه مغلقاً. لا تزعج نفسـك. لقد حالفك الحظ في الماضي. وهكذا، فلا تعتقد أنني لم أبذل شيئاً من أجلك».

وفجأة، ظهـر رأس كيفن خلفها مـن غرفة الطعـام. وعندما رأته، اتخذت الوالدة وضعية الزوجة الحزينة. ومع انهمار دموع جديدة على وجهها، أحنت الوالدة رأسها للخلف كأن ذلك يخفف من حدة ألمها. ثـم أجهـدت الوالدة نفسـها لكـي تجلـس وكأنّ مجهود الوقـوف كان شـديداً عليها. وإجمالاً، اعتقدت أن ذلـك كان أداء بارعاً. وكنت واثقاً أيضاً من أن رون وسـتان ورَسِل وكيفن قد شاهدوا بعضاً من تمثيلياتها من قبل.

مدت الوالدة يدها المرتجفة بشـكل مبالغ فيـه إلى كيفن وقالت: «أهتـم؟ أوه، إنني أهتـم بوالـ... به». وصححـت الوالـدة كلامها. ثم قالت: «إنني أهتم. وهذه مشكلتي. فأنا أهتم كثيراً». وأنهت كلامها بأن كفكفت دموعها المنهمرة.

تعمـدت البقاء رزيناً. وقد سـبق أن ضغطت عليهـا كثيراً، وهكذا فلـم أرد أن أقول شـيئاً يعيد إشـعال الوضـع. ومع ذلـك، فقد فوجئت بأنني لم أستسـلم. ولم أصدق أننـي قد تمكنت من اختـراق دفاعاتها، ناهيك عـن مواجهتهـا واسـتجواب وضعهـا كزوجـة، فإما أننـي كنت محظوظاً بشـكل اسـتثنائي وإما أن الوالدة قد فقدت قبضتها على زمام الأمور.

بدّد كيفن التوتر قائلاً: «إذاً، هل تعوَّدت أن تعيش هنا؟»

وبالطبع، فقد اعتقدت أنه لا بد للوالدة من أن تكون قد أخبرته شيئاً عني وعن السبب في أنني لم أعد أعيش معهم. فيفترض بها أن تبرر رحيلي، ولكن مهما أحكمت سيطرتها على الأشياء، فلا بد من أن أجزاء من الحقيقة قد أفلتت منها. وسرعان ما ابتسمت لكيفن، فردّ الابتسامة بمثلها. وقلت له بثقة: «نعم. لقد تعوَّدت أن أعيش هنا، لكن ذلك حدث قبل أمد بعيد...».

فردت الوالدة رداً انتقامياً قائلة: «كلا، إنه لم يفعل. لا تصغ إليه! إنه... إنه كاذب. فهو ليس واحداً منا». ورفعت إحدى أصابعها لتؤكد على كلامها. ثم قالت: «أتتذكر ما قلته لك عن... عن الأشرار؟»

أمعنت النظر إلى عيني الوالدة وأنا أحدث نفسي قائلاً: «إنك على حق تماماً. فأنا لست مثلك».

وقبل أن تتمكن الوالدة من استئناف حديثها قاطعها كيفن قائلاً: «إذن، أتريد أن تتفرج على منزلي؟»

تملكني إحساس غامر بالفضول وأنا أجاوز الوالدة وأتبع كيفن إلى غرفة الطعام، فانعطفت حول الطاولة قبل أن أقف لأحدق بالأبراج الحمراء لجسر البوابة الذهبية، وبدأت ذكريات بعيدة من الطفولة تفيض في ذهني؛ فأخفضت نظري إلى الباحة حيث قضيت ساعات لا عد لها وأنا جالس فوق يديّ على الصخور كنوع من العقوبة لأيّ جريمة ارتكبتها. وتذكرت ارتجافي من البرد في الضباب وأنا بالكاد أرتدي أيّ ملابس والخوف الشديد الذي تملكني من أن أبعد يديّ وأفركهما بعضهما ببعض خشية أن تضبطني وأنا أفعل ذلك. وعندما شعرت أن الضعف قد بدأ ينال مني، محوت المشهد من ذهني. ثم تذكرت الأوقات الطيبة التي قضيتها بصحبة رون وستان في صغرنا ونحن نلعب بصندوق الرمل وكيف أن الوالدة في صيف أحد الأعوام قد علمتنا جميعاً كيف نلتقط حبل النجاة تحسباً لأي حادثة، على

حد قولها. ففـي ذلك الوقت مـن الماضي، بدت الوالدة مكرسـة جداً لكل ناحية من نواحي تربية أطفالها. وكنت لا أزال أسـتطيع أن أتخيل الوالـدة راكعة علـى ركبتيها ومرتدية قفـاز الأعمال الزراعيـة في يديها وهي تقتلع الأعشـاب الضارة من حقـل زهورها الذي تفتخـر به كثيراً وكيـف أنها تعوَّدت أن تملأ البيـت بنباتات السـحلبية التي كانت تبذل في سـبيلها عناية دقيقة. وحتـى الآن، ما زال باسـتطاعتي أن أرى بقايا ذكريات الماضي.

أشـارت الوالدة بيدهـا مبددة شـرودي وقالت: «هذا هو الشـلال الذي صنعه **سـتان**». وقـد جفلت من قولهـا. فقد كنت تعبـاً جداً حتى إنني لم أشعر بها وهي تدنو مني. ثم تابعت قائلة: «إنه بارع جداً بالعمل اليـدوي. وهو يحافظ على كل شـيء بحـال جيدة ونظـام ممتاز. وهو عامل بارع، كمـا أؤكد لك. وبعد أن أصبح **رونالـد** يخدم في الجيش، لـم أعد أعرف مـا أفعل. فأصبح **سـتان** رجل البيت الآن». واسـتطعت أن أسـمع من الخلف **رَسِل** وهو يتنهد من الإحباط، فعرفت من النظرة الخاطفـة التي ألقيتها عليـه أن هناك صراعاً على القوة بينه وبين **سـتان** الـذي تعرض وهو طفل لحمى شـديدة ولم يعد إلى سـابق عهده قطّ. وفي السـنوات الأولى، لطالما بذلت الوالدة جهداً كبيراً لتحمي **سـتان** بأن كانت تغـدق عليه الإطراء وتصفه بأنه شـجاع وقوي وذكي. ولكن حتى فـي أثناء طفولته، كان **سـتان** يغار من **رونالد**، الابـن البكر، الذي كان يتمتع بثقة الوالد في أثناء وجوده في العمل.

تابعـت الجولـة، فاقتادني **كيفـن** عبر غرفة المعيشـة ثـم إلى آخر الممر، حيث ملأت حواسي رائحة عرفتها منذ سنوات طويلة، ونظرت بشـكل خاطـف إلـى السـجادة المهترئة وتلـكأت قليـلاً أمـام الحمام، فتوقـف **كيفـن** ونظر إلـي بارتباك ثـم قال: «أتريـد الدخـول؟» فوقفت مسمراً عند الغرفة الصغيرة حيث كدت أموت تقريباً وأنا محبوس فيها

بعـد أن تناولـت جرعة الوالـدة المميتة من مـاء النشـادر والكلوركس. وحدقت بالمصرف في الجانب البعيد من الحمام حيث دعوت ليتدفق الهـواء المنعش مـن الفتحة قبل أن أتقيـأ حتى المـوت. وعندما التفتُّ نحو المرآة فوق المغسـلة، تذكرت النظر إلى الندوب الزهرية الجديدة على ذقني وإلى لساني الذي انقشر عنه الجلد بسبب ابتلاع ملاعق ماء النشـادر. وقد تعوَّدت أن أختلس الوقت لكي أنظـر في المرآة وأصرخ على نفسي بسبب أي خطإٍ اقترفته جعل الوالدة تحتقرني إلى هذا الحد. وقد كنت أكره كل شيء حيال نفسي، كمظهري وتلعثمي بالكلام وكل شيء. وفي ذلك الوقت من الماضي، وددت من أعماقي أن أنقل نفسي إلى الجانب الآخر من المرآة. ولكن بينما أنا أنمو وأزداد وعياً لوضعي كسجين الوالدة، أيقنت أنني لن أستطيع أن أتخلص من ذلك الشخص في المرآة، لذا، فإنني ما زلت أرفض النظر إلى نفسي في المرآة.

وسـألني كيفـن مجـدداً وهـو يقاطعنـي: «أتريـد الدّخـول إلـى الحمام؟»

فقلت بصوت متهدج: «كلا، إنني بخير».

ثم لمحت من الخلف إحدى ابتسـامات الوالدة التهكمية. فقالت لي بنبرة منخفضة: «هل هناك أي خطب؟»

وعندما مضينـا في طريقنـا نحو الأمـام، اقتادني كيفـن إلى غرفة النـوم التـي افترضـت أنها غرفتـه التي يشـاركها مـع رَسِـل. وكنت قد رأيتها للمرة الأخيـرة حين كان كيفن ينام في مهده. وبعد أن تعبت من الجولة، أومأت برأسـي ببسـاطة وأشـحت بوجهي. فقـال كيفن بفخر: «وهذه هي غرفة أمي». فخطوت نحو ملاذ الوالدة وأنا مازلت مندهشاً لمدى صغر حجم كل شـيء فيه. وحدقت بدهشـة بمـرآة زينتها حيث اكتست عطورها وتماثيلها، التي كانت أسيرة لديها في ما مضى، بطبقة من الغبار.

بينما أنا أستدير لأغادر غرفة نوم الوالدة لاحظت مجموعة من الصور الفوتوغرافية. كانت الصورة العلوية إلى اليسار صورة ملونة لرونالد وهو مرتد الملابس العسكرية الموحدة. ومن تعبير وجهه، لاحظت أنه قد بلغ مبلغ الرجال، وبدا مذهلاً باللباس الموحد، وكم شعرت بالفخر به. لقد نجا بنفسه. ثم جالت عيناي على صور المدرسة القديمة التي يظهر فيها ستان ورَسِل وكيفن، وفي وسط الصور المحيطة كانت هناك صورة بالأبيض والأسود للوالدة يوم زفافها. لقد بدت كاثرين رويرفا بيلزر مذهلة جداً. فقد كانت عيناها مشرقتين بالحب وبشرتها خالية من العيوب، وبدت متألقة كرمز للعروس الشابة التي لم تكن تطيق الانتظار لتعيش حياة ملؤها السعادة. وبينما أخذت أتأمل صورة الوالدة بإعجاب، أدركت فجأة أن الوالد لم يكن موجوداً في أي مكان بين مجموعة الصور. وعندما أمعنت النظر، اكتشفت أنني أيضاً قد أقصيت عنها. وفهمت الآن لماذا رفضت الوالدة أن تكون لها أيّ علاقة بوالدي. فكيف يمكنها أن تساعد الوالد إذا كان قد توفي بالنسبة إليها؟

التفتّ لأبحث عن الوالدة، لكنني وجدت أنها قد انسحبت إلى أمان مطبخها. ولم أستطع أن أفهم كيف يمكن لأحد الأشخاص أن يكنّ ذلك القدر من الكراهية، لكنني استطعت أن أتخيل فقط كيف صادقت على قصتها المختلقة. كم كانت تستطيع بسهولة أن تجعل كل شيء يؤرقها يتلاشى!

قال كيفن: «إذاً، ما رأيك بعائلتي؟» وعندما أشحت بوجهي عن مجموعة الصور، رأيت وجه رَسِل الذي يبتسم ابتسامة صفراء تُظهر الأمور كما ينبغي لها أن تكون. ففكرت في نفسي قائلاً: «ليكن ذلك».

فأجبت كيفن بابتسامة، قبل أن أسير مجاوزاً رَسِل، وقلت: «إنها جميلة».

في نهاية الممر، وجدت الوالدة واقفة وهي تنفخ دخان سيجارتها. فقالت بنبرة توحي بالاستخفاف: «إذن، أيمكنني أن أفترض أنك قد وجدت كل شيء أتيت لرؤيته؟» وعندما واجهتها، أصبحت شديد الاضطراب حتى إنني لم أقوَ على إجابتها. وعلمت أنه يجب عليَّ أن أغادر وأنه من العبث أن أحاول إقناع الوالدة بأن تذهب لمقابلة والدي. وعندما استشعرت الوالدة ضعفي أردفت قائلة: «إن رونالد في الجيش، كما تعلم، وهو يبلي بلاء حسناً هناك ويرسل لي كل ميدالياته». واستدارت الوالدة بعيداً ثم أخرجت صندوقاً مليئاً بالميداليات المنسقة. لكنني كنت مشلول الإحساس، فاكتفيت بالنظر في حين أنها أخذت تتبجح قائلة: «هذه الميدالية هي من أجل مهارته في الرماية... وهذه من أجل التدريب الأساسي... آه، وهذه... لست واثقة تماماً. إن هناك الكثير منها. ومن الصعب عليَّ أن... في أيّ حال، لقد تم تعيينه في ولاية ألاسكا. وهم لا يرسلون أي شخص إلى هناك. وهو لم يذكر شيئاً عن هذا، لكنني أعلم به. وهو أحد أفضل رجال الشرطة العسكريين الذين لديهم. وأنا فخورة بأن أحد أبنائي يخدم بلده. ولا يمكنك أن تتخيل كم أنا فخورة». ثم تنهدت الوالدة وهي تبالغ كعادتها.

«إنني في... سلاح الطيران».

فنظرت الوالدة بشكل خاطف من صندوقها الغالي بحيرة وكأن ليست لديها أيّ فكرة حتى، مع أنني كنت أرتدي لباس سلاح الطيران. وقالت: «آه، نعم، أليس هذا لطيفاً؟ إن الجيش لا يقبل بأمثالك، أليس كذلك؟ إذاً ماذا تفعل في سبيل حماية بلادنا؟»

فابتسمت بابتهاج وقلت: «إنني طباخ».

وحالما خرجت الكلمات من فمي شعرت أنني أحمق.

فقال رَسِل وهو ينفجر ضاحكاً: «طباخ؟»

وسألت الوالدة بسخرية: «ألم يلحقوك بسلاح الطيران لتصبح إطفائياً؟ ماذا حدث إذاً؟ هل طردوك منه أيضاً؟ لقد اعتقدت أن سلاح الطيران يتعلق بالطائرات وليس هناك طباخون».

واستمر الصمت الذي تلا ذلك إلى مدة تشبه الأبدية. ومن دون أن أتفوه بكلمة واحدة، أومأت برأسي كأني بذلك أشكر الوالدة على وقتها وعلى حسن وفادتها قبل أن أتوجه بمفردي إلى الخارج. واستطعت أن أشعر بأن العيون كلّها تتوجه نحوي وأنا أغلق الباب الأمامي خلفي، وعندئذٍ فقط انفجر كل من في غرفة المعيشة بالضحك. وعندما ركبت سيارة السيدة **تيرنباو** بهدوء، أطلقت نفساً عميقاً.

سألتني السيدة **تيرنباو** قائلة: «هل توجب عليك أن تفعل ذلك؟»

فقلت ببرود: «نعم، توجب علي ذلك. وليست لديها النية في أن تمد لوالدي يد المساعدة؛ ولم تكن لديها النية في ذلك على الإطلاق».

أجابت **أليس** قائلة: «يا إلهي. كيف يمكن لشخص كهذا...».

فقاطعت السيدة **تيرنباو** بأن رفعت يدي وقلت: «إنني آمل فقط أن تنال ما تستحقه. فهذا ليس منصفاً أبداً». وأجهدت نفسي لكي أتحكم بثورة أعصابي. واعتقدت أن رأسي سينفجر من موجة الكراهية التي شعرت بها. وعندما أدركت أن ولديها كانا يتجسسان علي عبر النّافذة، استعدت رباطة جأشي وأدرت محرّك السيارة وابتعدت بها. وقد اعتقدت أن الأمور ستكون مختلفة نوعاً ما، لكنني كعادتي، أخطأت خطأ أحمق في تعاملي مع الوالدة.

في صباح اليوم التالي، عدت إلى غرفة والدي. ولأنني كنت شارد الذهن فقد اصطدمت بأحد قساوسة المستشفى فأومأ برأسه من دون أن ينبس بكلمة واحدة وربّت على كتفي كأنني كلب ضال.

فكرت في ما عليَّ أن أفعله تالياً، وشعرت بحاجة ملحة إلى أن

أفعل شيئاً ما. فأردت أن أختطف والدي وآخذه إلى لعبة بيسبول أو أذهب معه في تمشية في المتنزه أو حتى أن أجلس معه في مؤخر حانة متواضعة ونحن نتبادل حديثاً مسلياً أو أن نذهب إلى أي مكان ما دمنا بصحبة بعضنا بعضاً. ولكن لم تكن هناك أيّ طريقة تمكنني من أن أفعل أي شيء.

غادرت مكاني، ومددت يدي إلى محفظتي الرقيقة وسحبت ورقة مجعدة قبل أن أجري اتصالاً هاتفياً بوالدة والدتي لأحيطها علماً بوضع والدي.

بعد أن وضعت سماعة الهاتف بوقت قصير، هرع الخال **دان**، شقيق والدتي، من المصعد. وبعد أن عانقني بحرارة، سحب كرسياً إلى جانب سرير والدي وهمس في أذنه محدثاً، فوقفت عند الباب إلى جانب **أليس** لكي أمنح الرجلين وقتاً خاصاً معاً، وكان ما فعلته هو الصواب بعينه، فبينما كان الخال **دان** يعانقني، أخذ يعتذر إليَّ بشدة، ويقول: «لم نعرف بشأنه. فلم يكن أحد على علم بحاله».

وبينما أنا أراقب الخال **دان** ووالدي، شعرت بالمودة التي لا بد من أنهما كانا يتشاركانها في الماضي. فقال **دان** بتذمر: «هيا، يا **ستيف**. هيا. يجب عليك أن ترتدي ثيابك. فلديَّ مشروع نزهة لك وهناك من ينتظرنا في السيارة. هيا، فلا يمكننا أن نتأخر». فكدت أخرج من جلدي بسبب جرأة ما قاله الخال **دان**. فمن بين كل ما سمعته، كان هذا أكثر ما أزعجني، خصوصاً حين تخيّلت والدي والخال **دان** يقومان بهذه النزهة. ومن خلال الرد الذي رأيته في عيني الوالد، أدركت المعنى الحقيقي لما قاله **دان**، وشعرت كم كنا أنانيين حين كنا نعتني بوالدي لكي نحميه من أي أذى. فخرجت أنا و**أليس** من الغرفة بهدوء حيث وجدت أريكة استرخيت عليها وأغمضت عيني وفكرت متأملاً بما أفعله.

وبعد مرور بعض الوقت أيقظني الخال **دان** بهزة من يده، وتوسل إليَّ حتى أذهب إلى البيت مع **أليس**. وعندما استرقت النظر إلى والدي، شعرت بأن حاجتي الضعيفة إلى الراحة هي نوعاً ما خيانة له. وأخذت مشاعر الذنب بسبب والدي والبهجة لرؤية خالي **دان** والغضب الذي ما زلت أشعر به بسبب الوالدة تصطخب داخل رأسي طوال الطريق إلى البيت حتى استلقيت ثانية، وهذه المرة على أريكة في بيت **أليس**.

في اللحظة التي غفوت فيها تقريباً، أيقظتني السيدة **تيرنباو**. فنهضت بسرعة وأنا أفكر في أسوإ الاحتمالات، ولكن قبل أن أهرع إلى المطبخ وأمسك الهاتف، أعلمتني **أليس** بلطف أن المكالمة ليست من المستشفى بل من جدتي، التي لم يكن التعامل معها عملاً هيناً قط. ففي أثناء طفولتي، كانت تجمع بين الوالدة والجدة علاقة حب وكراهية متوترة كنت ألاحظها أنا والصبية الآخرون كلما خاضت إحدى المرأتين جدلاً مع الأخرى. وعلى الرغم من أننا لم نكن مقربين على الإطلاق، فإنني لطالما شعرت وأنا طفل أن الجدة كانت حليفة سرية يمكنني الاعتماد عليها.

بذلت جهدي لكي أستجمع تركيزي وأنا أجفف دموعي. ولعلمي أن الجدة كانت تتقدم في السن، فقد تعمدت عندما اتصلت بها قبل ساعات أن أقلل من خطورة وضع والدي. وبسبب افتقار الوالدة التام إلى احترام والدي، شعرت فجأة وكأنّني أقوم بدور الوسيط بينهما، وكم شعرت بفخر عارم بسبب ذلك. فللمرة الأولى في حياتي، كنت مصدر عون حقيقي للعائلة. فذكرت نفسي ألا أخيف الجدة. ثم ابتسمت وقلت بصوت مبتهج: «جدتي! يسرني جداً أنك اتصلت. كل شيء على ما يرام. فوالدي نائم. وليس هناك حقاً أي تغيير بعد...».

فصاحت الجدة بعنف: «ما الذي يجري هناك بحق السماء؟ ما الذي تفعله؟»

فقلت لها متلعثماً: «ما الأمر؟ ما الخطب؟ إن والدي على ما يرام. وأنـا... أنا تركته لتـوّي». وعندمـا التزمت الجدة الصمـت على الجهة الأخرى من الخط تملكني القلق. فقلت: «لقد غادرت قبل ساعة. وأنا آسـف. لقد أردت فقـط أن آخذ قيلولة قصيرة. وقـد بحثت الوضع مع الممـرض فقال لي إن كل شـيء على ما يرام وإنه سـيتصل بي إن طرأ أي تغيير. وأقسـم على ذلك، فأنا لم أحظ بساعة نوم واحدة منذ عدت إلى هنا. إنني آسـف جداً». وشـعرت بجدار من الشـعور بالذنب ينهار عليَّ ويحطمني، وأيقنت أنه لا يتوجب عليَّ أن أغادر المستشـفى لكي أتمكـن من أن أسـترخي في حين أن الوالد يناضل في سـبيل كل نفس من أنفاس الحياة على بعد بضعة أميال فقط.

فقاطعتني الجدة قائلة: «ما الذي تثرثر عنه بحق السـماء؟ إنني لا آبه بشـأن والدك في هذه اللحظة. إنني أريد تفسيراً الآن حالاً. ما الذي فعلته؟ كيف اسـتطعت... فـي وقت كهذا؟ يا إلهـي... يجب عليك أن تدلي بتفسير لما حدث».

أصبت بحيرة تامة، فتوسلت إليها قائلاً: «ماذا؟ أرجوك، يا جدتي، هدئي من روعك. ما الذي فعلته؟ ما الذي...؟»

«لا تقاطعني. ولا تكن متكبراً جداً. فأنا سئمتك وتعبت منك ومن كل شخص يناقشني. وسـأكون أتعس مخلوقة إن توجب عليَّ أن أبقى هنا وحـدي وأتحمل... هذا!» ولـم أسـتطع أن أصـدق أذني. فصفعت جبينـي بيدي عقابـاً على جريمـة ارتكاب عمل شـرير آخر، وعضضت على لساني، وهيأت نفسي لوابل التهديدات القادم.

«إنك تعـرف تماماً ما فعلته عندما اقتحمـت منـزل والدتك عصر هذا اليوم وأخـذت تعنِّف وتهذي كرجل مجنـون وتهددها وتمزق كل شـيء تراه... وتلقي بالأشـياء... وتطالب بهـذا وذاك... وتتفحص كل غرفة مـن غرف المنـزل كأنك **الجنـرال باتون!** من حسـن حظك أنها

لم تطلب الشـرطة. من تظن نفسـك بحق السـماء؟ كيف تتصرف بهذه الطريقـة وفي هذا الوقت؟ هل هناك من يهتم بالطريقة... بالطريقة التي أشعر أنا بها؟» ثم توقفت الجدة لتجهش بالبكاء، وقالت: «إنني وحيدة تماماً هنا. وأنا لم أعد في مقتبل العمر. وإن عشت حتى أبلغ المئة من عمري... فأنا أشعر بخزي شديد بسببك، يا **ديفيد جيمس بيلزر!**»

كان كل ما اسـتطعت فعله هـو أنني هززت رأسـي بينما واصلت الجدة تعنيفي. وأيقنت أنه من العبـث أن أحيطها علماً بأنني في الواقع لم أهـدد الوالدة ولم أدمر منـزلها وحتـى إن التوقيت كان مختلفاً بيوم واحد، ولكن لم يكن أحد يسـتطيع أن يخبر الجدة شـيئاً، بالضبط كما هـي حال والدتي. فكل مـا أمكنني أن أجيبها به هـو أنني أخذت أقول بين الحين والآخر: «نعم، يا سيدتي» أو «كلا، يا سيدتي»، كلما ارتأيت أن الكلام يحتاج إلى إجابة. وبعد ساعة، وبعد أن كررت كلامها للمرة الألف، قاطعتها قائلاً: «يا جدتي. لقد ذهبت إليها البارحة وليس اليوم. وعندما تكلمت إلى والدتي، قبل أن تتصلي بي للتوّ، هل كانت... هل كانت ثملة؟»

استطعت أن أسمع صوت الجدة وهي تأخذ نفساً عميقاً من على بعد مئـات الأميال. لقد تعمـدت إزعاجها، ولم أحـاول أن أكون قليل الاحتـرام، لكننـي أردت بالأحـرى أن أهـدئ مـن روع الجـدة قبل أن تصاب بنوبة غضب. وعندما شعرت أنها على وشك أن تلين، اعتقدت أنه من الأفضل أن أعيدها إلى الحقيقة بسؤال مجفل كهذا. فقد توجب عليهـا أن ترى الوضع كما هو عليـه، أي بوصفه نوبة من نوبات هذيان الوالدة التي لا طائـل منها. فأصرت قائلة: «إنك تعلـم جيداً تماماً أنها كذلك! ثملـة؟ إنها دائمـاً ثملة. وأنا سـئمتها وتعبت جداً مـن اتصالها بي. إنني أهتم بشـؤوني الخاصة، كما تعلم، ولا أزعج مخلوقاً واحداً. وكل يوم يكون هناك شـيء يتعلق بها يتوجب علي أنا أن أهتم به. لقد

أخبـرت الجميع كما أخبرك الآن أنني لم أعد فـي مقتبل العمر. وليس الأمر سـهلاً علـي... ولكن هـل يهتم أحد بشـعوري أنا؟ هـل يفعلون ذلك؟»

كان شعور الجدة برثاء الذات شبيهاً تماماً بخطاب الوالدة الأناني الذي ألقته علي في اليوم الفائت. فقاطعتها بهدوء قائلاً: «يا جدتي؟ إن كانت الوالدة ثملة عندما اتصلت بك، فـإذاً ربما كان ينبغي عليك، ألا تكترثي لما قالتـه لك». ولم تكن الجدة بلهاء علـى الإطلاق بل، على العكـس من ذلك، كانـت ذكية وقوية. وقـد كان يبـدو عليها في بعض الأحيان أنها تستمتع بالحط من قدر ابنتها. وبينما أخذت بحذر أتجنب النقـاش مع الجـدة، أدركت حقيقة المشـكلة فجأة، وهـي أن اهتمامها ليس مركـزاً على الأزمة، موضـوع النقاش، بل عليها هـي وعلى كيفية شعورها في وقت المشكلة.

شعرت أنني مستنـزف القوى، ولكن قبل أن تمطرني الجدة بوابل آخـر مـن التوبيـخ والتقريع. قلت لهـا: «أصغـي إلي، أعلـم أن الوقت متأخر. لذا، سـأتصل بك في وقت لاحق. آسـف لأنّنـي قد أزعجتك. فيجب علي أن أذهب. وسوف أوصل تحياتك للوالد. إلى اللقاء».

وبينمـا كنـت أخفض السـماعة برفـق، تناهى إلى سـمعي صوت الجـدة تنفجر كالبـركان وتقول: «يا **ديفيـد جيمس بيلـزر!** لا تعتقد أنه يمكنـك أن تقفـل الخـط في وجهـي! إنني سـئمت وتعبت مـن جميع الذيـن يعاملونني معاملة سـيئة كأنني مخلوقـة ذليلة. يجـب أن تعتقد، كما أعتقد أنا، أنه ينبغي لشـخص مـا أن يكون طيباً بمـا يكفي ليراعي مشاعري...».

وبينمـا أنـا أجر قدمـي بتثاقـل عائـداً إلى أريكـة غرفة المعيشـة، صاحت **أليس** قائلة: «يا إلهي. إنك تبدو في حال مريعة!» ولأنني كنت أتجنب المرايا قدر استطاعتي، فقد استطعت أن أتخيل مظهري. وقالت

أليس: «إنك لم تنم منذ وقت لا يعلمه إلا الله. وأنت لا تصيب إلا طعاماً قليلاً جداً. والآن، وجهك وعنقك أحمران بلون الشمندر...». ووضعت السيدة **تيرنباو** يدها على جبيني وهزت رأسها بقلق ثم قالت: «والآن جبينك ملتهب بالحرارة».

عندما ذهبت **أليس** إلى الحمام، انفجرت قائلاً: «يا إلهي، ما مشكلتهم؟» ثم عادت لتوّها وأعطتني حبة أسبرين وكأساً من الماء. فابتلعت الأسبرين وكأس الماء دفعة واحدة. وقلت لها: «إنني لا أفهم. إنهم لا يكترثون لشيء، ولا أحد منهم يفعل ذلك. ولم تستفسر الوالدة والجدة حتى عن أحوال والدي. والآن...». ثم صحت بعدما أخذ إحباطي يتفاقم وقلت: «إن الأمر وكأن والدي غير موجود. هل الوضع شديد عليهما أم أنه ليس على ذلك القدر من الأهمية؟ لا أعرف. إنهما لم تسألا عنه ولا عن حاله، فلم تتفوها بأي شيء، ولم تقترحا علي أن تفعلا شيئاً. وطوال الوقت، كل شيء يتعلق بهما وبكيفية شعورهما وبألمهما. يا لهما من مثيرتين للشفقة! تباً!» وضربت ركبتي بيدي.

تمالكت نفسي بسرعة، إذ إنني لم أرد أن تعتقد **أليس** أنني مستاء منها. فقلت: «إنني آسف». وشعرت بطاقتي تتلاشى. فأردفت قائلاً: «إنني لا أعرف ما أفعل... أعني، بشأن والدي. إنني أتمنى فقط لو أن لي عائلة حقيقية يحب أفرادها بعضهم بعضاً أو يوارون كراهيتهم في الثرى لمرة واحدة ويفعلون الصواب، فهذا هو كل ما أريده».

صاحت **أليس** قائلة: «يا **ديفيد**! لقد تأخرنا. إن الساعة تجاوزتِ التاسعة. فقد استغرقنا في النوم». وقبل أن تتمكن من أن تفرغ من كلامها، نهضت عن الأريكة بسرعة ونفضت ملابسي المجعدة التي ارتديتها طوال الأيام الأربعة الفائتة وسارعت نحو الباب الأمامي. فوصلت أنا و**أليس** في وقت قياسي إلى المستشفى.

قابلت **ستيف** عند مدخل غرفة الوالد وأنا أعدو إلى آخر الممر.

فمد ستيف يده وحال بيني وبين الدخول. وقال لي: «يجب علينا أن نتحدث». واختلست نظرة إلى الوالد، ولاحظت أنه بدا في الحالة نفسها باستثناء تنفسه الشاق، لكنني علمت من ابتسامة ستيف المتكلفة كل ما يجب عليَّ أن أعرفه. فقال لي: «يا ديفيد، يجب عليك أن تدرك... أنهم أحياناً لا يستطيعون... ولن يرحلوا... حتى يعرفوا أن الأشخاص الذين يحبونهم على ما يرام... هل... تدرك ما أعنيه، يا ديفيد؟»

فهمت ما قاله تماماً، لكن اللحظة كانت شديدة القسوة علي. واستأنف كلامه قائلاً: «إن والدك، يا ديفيد، يرزح تحت وطأة ألم شديد. ويجب عليك أن تطمئنه أنك ستكون بخير. ويجب عليك أن تدعه يرحل. أتفهمني، صحيح، يا ديفيد؟» ولن يرحل حتى تفعل ذلك. خفف من معاناته. وهذا هو الشيء الصواب من أجله. وهذا هو الشيء المناسب لكي تفعله. فهو لن يرحل حتى...».

التفتّ إلى أليس وتوسلت إليها قائلاً: «هل يمكنك أن تدخلي وتتحدثي إليه، من فضلك؟» ثم أسرعت إلى نهاية الردهة حيث عثرت على مقعد خشبي. وتبادرت إلى ذهني ملايين الأفكار. فركزت على ساعتي الرخيصة وكانت تشير إلى العاشرة إلا عشر دقائق. فضممت يدي بعضهما إلى بعض ودعوت. وقلت: «إنني لم أطلب قط الكثير وأنت تعلم ما أعانيه، وقد اعتقدت أنني قد أتمكن من إنقاذه... وهكذا، فإن كان يمكنك أن تحقق لي هذا... وإن لم يكن هناك أمل في أن تتحسن حاله... إذاً خذه إلى جوارك، وخفف من آلامه. خذ والدي. آمين».

كفكفت دموعي وأنا لا أدري ما سأفعله في ما بعد. فجلوت ذهني من الأفكار وتوجهت في طريقي نحو غرفة والدي. كان هناك جمع غفير من الممرضات والمختصين وقد كانوا صلة الوصل الوحيدة

لوالـدي مع العالم الخارجي طوال الأشـهر القليلة الماضية. فأفسـحوا لي ممراً عندما خطوت داخل الغرفة. واسـتدارت **أليس** نحوي بعد أن ربتت على ذراع الوالد وقالت والدموع تملأ عينيها: «إنك رجل طيب، يا سـيد **بيلزر**. ليكن الله معك». ثم غادرت الغرفة. وهمس لي **ستيف** من الخلف قائلاً: «دعه يرحل». وتبعه الجميع خارجين من الغرفة.

بعـد أن أصبحت وحيداً الآن، لاحظت كم بـدت الغرفة ضخمة. فقد كانت السـتائر مفتوحة وخيوط أشعة الشـمس تتسرب عبر النوافذ. وإلى جانب السـرير، كانت قطع الأثاث الأخـرى والمعدات الطبية قد أزيلت. ووجدت الملاءة على سـرير الوالد نظيفة وجديدة، وبدا رداؤه جديـداً. وكان الصـوت الوحيد المسـموع هو تنفـس الوالـد المجهَد. وبعد أن ألقيت نظرة طويلة فاحصة، رأيت للمرة الأولى تحت الجانب الأيسـر مـن عنق الوالـد أن الضمـادة قد نزعـت من مكانهـا، وظهرت المنطقـة المسـودة حيث أكل السـرطان جلـده تقريباً. وحتـى في ذلك الوقـت، على الرغم من أنني وددت أن أخفف ألمه، فإنني لم أقوَ على أن أودعه.

أخـذت بيـد الوالـد المرتجفـة وأنـا واقـف إلـى جانب سـريره، واسـتطعت أن أشـعر بالضغط يتنامى مـن خلف عينـي، فقاومت لكي أدفن ألمي في أعماقي.

وقلت له كاذباً: «لديَّ... بعض الأخبار العظيمة. إن الطبيب يقول إن كل شيء سـيكون على ما يرام... وإنهم... يسـتطيعون أن يسمحوا لك بالخروج من هنا قريباً جداً». وأحسست جزئياً أنني شخص حقير. ومع ذلك، فكلما تحدثت بدا على قصتـي الخيالية أنها تصبح حقيقية. وقلـت بثقة وأنا أحـدق بوجه والدي: «إننـي لم أخبرك بهـذا من قبل، لكنني أملك بيتاً عند ضفاف نهر **رشـان**». وتوقفت وأنا أبتسـم لوالدي الذي بدا عليه أنه يفهم ما أقوله. ثم قلت: «ولديَّ جدران وأسـقف من

خشب الصنوبر. وهناك موقد حجري في غرفتك، وهي دائماً دافئة ومشمسة وفي غاية الجمال، كما أنها تحوي كل شيء، وتطلّ على النهر، وعندما تغرب الشمس يبدو الماء مصقولاً كالزجاج. وفي الليل، يمكنك أن تتنشق عبير الأشجار... إنها قطعة من الجنة، يا والدي... الجنة».

«أتتذكر تلك المرة حين كنت طفلاً وسمحت لي بأن أمشي بصحبتك صيف ذلك العام عند النهر... لقد قلت لي إنه يشبه الجنة وإنه يمكن لي ولك أن نعيش هناك... ونذهب لصيد السمك ونجلس عند الشاطئ أو نفعل أي شيء نريد فعله. وفي الصيف... يمكننا أن نذهب إلى **سان فرانسيسكو** للصيد ولطالما قلت إننا سنفعل. ويمكننا أن نكون كوالد وابن حقيقيين، وأن نبقى بمفردنا فقط».

«لقد نجحنا يا أبي! لقد نجحنا فعلاً! وسيكون كل شيء بخير. ويمكننا أن نكون معاً... وأن نعيش بسلام. فلدينا منزل حقيقي. ولن يكون هناك مزيد من الشجار والمتاعب. ولن يطردنا أحد. لقد نجحنا! وسيكون كل شيء على ما يرام. هدئ من روعك فحسب... وسأهتم بك... وسأعتني بكل شيء...».

أمسكت عن الكلام عندما شعرت بأصابع والدي المرتجفة تقبض على يدي. ولم يحدث قطّ طوال حياتي أن نظرنا كلانا، بعمق، بعضنا إلى بعض. لقد بدت عيناه الداكنتان واضحتين تماماً وهما تحدقان بعيني. وشعرت نوعاً ما بالخزي والوحدة والأسف والألم العميق في نظرة عيني والدي. وقلت له: «لطالما افتخرت بك، ولطالما كنت بطلي. وأقسم بالله إنني يوماً ما سأجعلك فخوراً بي، ولطالما أحببتك وسأحبك دائماً، يا والدي. والآن استرخِ... وسوف ألاقيك عند النهر».

استجمع والدي قوته وأجهد نفسه ليرفع رأسه ويقبلني، فعانقته

واضعاً يـدي على مؤخر عنقـه برفق قدر المسـتطاع. وهكـذا، جمعتنا الحياة سوياً كوالد وابنه. فرددت على ما فعله بأن ابتسمت وقبلته على جبينه. وبعد ذلك، كما فعل قبل سنوات عديدة صيف ذلك العام حين كنا معاً عند نهر رشان، غمزني بعينه قبل أن يفارق الحياة.

ضممت جسـد والدي لأطـول وقت ممكـن قبل أن أضع رأسـه برفق على الوسـادة البيضاء. وعندما نظرت إلى وجهه، شـعرت بالغباء كلياً لاعتقادي أنه كان يمكنني أن أنقذ حياته. وأحسست أن الوقت قد توقف عن المضـي وأنا أحدق بالرجـل الذي وددت منـذ أمد بعيد أن أكون معه. وبعد أن أغمضت عينيه، شكرت الله لسماحه لي أن أرافقه في لحظاته الأخيرة. ثم ربّتّ على وجهي بأطراف أصابعي وأنا أفكر أن والـدي لم يقبلني قط. ومهما كانت الهوة التي فرقت بيني وبين والدي فـي الماضي، فقد أصبحت الآن أحتفظ بذكرى أنني مكثت بجواره في أهم لحظات حياته. وذلك شيء سوف أعتز به إلى الأبد.

عندما خطوت خارج الغرفة، لاحظت أن سـتيف أدرك ما حدث، فطلـب رقماً علـى الهاتف كتب علـى ورقة كانت في يـده. ثم أعطاني الهاتف. فسألته وأنا ذاهل: «ماذا؟»

تمتـم سـتيف مـن دون أن ينظـر إلـيَّ بشـكل مباشـر قائـلاً: «إن والدتـك... تريـد أن تعـرف حالما يحـدث الأمـر... أي اللحظـة التي يفارق فيها الحياة».

أغمضـت عينـي واسـتطعت أن أشـعر بنفسـي منجرفاً علـى غير هدى. وفي أسـوإ لحظات حياتي، حافظت الوالدة، بكل عظمتها، على قبضة سيطرتها على الوضع. وكالعادة، لم تعتبرني حتى جديراً بامتياز الحصول علـى رقم هاتفها، لكنني كنت نوعاً مـا جيداً بما يكفي لأنفذ أعمالها الخسيسـة. وفي الجهة الأخرى من الخط، استطعت أن أسمع صوتها الأجـش، فبلعت ريقي بصعوبـة ونفذت مهمتـي. فقلت: «هذه

المكالمة الهاتفية هي لنعلمك أن زوجك، المدعو ستيفن جوزف بيلزر، قد فارق الحياة لتوِّه».

وتوقفت لثانية وأنا مندهش من لهجتي الجامدة وافتقاري إلى التعاطف، وعلى الرغم من أنني كنت أفخر بنفسي لتهذيبي، فإنني لم أحفل في تلك اللحظة بوالدتي أو بخططها الاستغلالية الأنانية. ولم تجفل الوالدة. بل قالت: «نعم، إن الوضع أفضل بكثير على هذا النحو، أليس كذلك؟...». وبعد لحظة انقطع الخط.

حدقت بالهاتف الذي بدا ملتحماً بيدي. انتزع ستيف الهاتف من بين أصابعي من خلف قسم الممرضات، وقال لي بابتسامة عريضة: «يجب علينا أن نتحدث. أتتذكر عندما قلت لك إنه لن يرحل حتى يصبح مستعداً؟»

بدأت الدموع الآن تتدفق كالسيل على وجهي، وكل ما استطعت فعله هو أنني أومأت برأسي موافقاً.

«إن والدك لم يكن مستعداً. بل صمد... وانتظر... انتظرك أنت».

فكررت كلامه قائلاً: «انتظرني أنا؟»

قال ستيف باقتناع: «نعم! من بين جميع الناس الذين قابلهم خلال حياته، لقد صمد والدك لكي يتمكن من أن يودعك أنت».

فتمتمت قائلاً: «ولكن... إنه لم... يكن يستطيع حتى أن يتكلم، ولا حتى بعينيه. ولم يكن يستطيع...».

أجاب ستيف وهو يأتي من خلف الطاولة، قائلاً: «إن هذا لا يهم. لقد كان يعلم ما يحدث. أصغ إليَّ بحرص، يا ديفيد. لقد صمد والدك بإصرار كما فعل أي شخص عرفته في تلك الظروف. وقد أمكنه أن يستسلم قبل وقت طويل. فقد كان يعرف النتيجة ويعلم أنه لن يخرج من هنا. فانتظر. انتظرك أنت!

سألني ستيف وهو يمسك بكتفي قائلاً: «أتعي ما أقوله؟»

قلت له: «نعم. إنني أدرك الآن. إنني أفعل ذلك حقاً». ومسحت دمعة عن خدي، وقلت: «إنني أقدر كل شيء فعلته أنت والجميع من أجله. فعلى الأقل...». وتوقفت لأنظر إلى أفراد الطاقم الصغير. وتابعت قائلاً: «لم يكن وحده. وأنا ممتن لأجل ذلك. إنني ممتن حقاً. شكراً لك. وشكراً لكم جميعاً».

وبعد أن صافحت الجميع، وفرت تقديري لستيف حتى النهاية. وكل ما استطعت فعله هو أنني أومأت برأسي. فقال لي قبل أن يعانقني: «لا بأس بذلك، يا رجل. إنني أتفهم شعورك». ثم مددت يدي إلى جيبي الخلفي، وسحبت قطعة باهتة من الجلد الأسود، وقلت بفخر: «إنها شارة والدي».

قال لي ستيف وهو يأخذ بيدي: «لقد كان يريدك أن تأخذها. وقد أخبرني بذلك».

«إنه الشيء الوحيد الذي ملَكه وكان له... ولا يستطيع أحد أن يأخذه منه». وتوقفت لأستجمع شجاعتي. وفجأة شعرت بحاجة تغمرني لأن أزحف إلى السرير وأتوارى عن أنظار الجميع وعن كل شيء وأنام إلى الأبد. فقلت بإصرار: «يوماً ما سأجعل والدي فخوراً بي».

فقال ستيف وهو يهز رأسه: «ليس عليك أن تقلق بهذا الشأن، يا ديفيد. فقد سبق أن فعلت ذلك. وقد قال لي ذلك بنفسه. فهو فخور بك. وقد أخبرني أنك قد نجحت... بالخروج من أي وضع سيئ عانيت منه.

«إن والدك في علياء السماء الآن. ويمكنه أن يراك». وأمسك ستيف عن الكلام في لحظة تأمل، ثم قال: «ربما لم يكن بجسده معك قط. لكنه هناك في الأعلى، سيكون معك... دائماً».

بعد أربعة أيام، وفي صباح ضبابي في أحد أيام الاثنين، ركنت

سيارة السيدة **تيرنباو** أمام دار العبادة نفسها التي اعتدت أنا ورون وستان أن نزورها مع عمتنا لفترة وجيزة في الماضي قبل أن نلتحق بالمدرسة. وعندما دخلت، اعتقدت أنني متأخر. فقد سبق أن بدأ الدعاء. وحاولت أن أبدو غير ملحوظ قدر المستطاع في لباس سلاح الطيران الزيتوني اللون. فمشيت مع **أليس** بخفة وسرعة إلى آخر الجانب الأيسر من الممشى قبل أن أدخل إلى أحد الصفوف الأمامية.

بينما أنا أدعو الله، لم أستطع أن أصدق أنني قد أخزيت والدي بحضوري متأخراً إلى جنازته. وبعد أن شكرت الله لتخفيفه ألم والدي، صببت اهتمامي على الدعاء. وبطريقة غريبة، شعرت بالبهجة لسماع الأحاديث الطيبة التي كان الآخرون يتحدثون بها عن والدي. فربما، كان باستطاعتي أن أتعلم شيئاً عنه، كما اعتقدت. ولطالما تساءلت عن ماضي والديَّ وأفكارهما وتطلعاتهما للمستقبل وكيف التقيا ووقعا في الحب ولماذا انقطع الود بينهما وكيف أنهما كزوجين كانا يملكان كل شيء ثم خسراه فجأة. وتساءلت بشكل خاص عن الحب الذي شعرت أنه جمع بينهما في الماضي. ولكن عوضاً من ذلك، بدأ رجل الدين يقرأ بعجلة لائحة من الإعلانات: «سوف تلغى خطبة مساء الأربعاء، لكن عشاء حواضر البيت سوف يقدم في الوقت المعتاد...». فاستدرت نحو **أليس** بامتعاض.

وعندئذٍ فقط لاحظت أنه لم تكن هناك باقات ورد ولا أكاليل ولا حتى تابوت من أجل والدي. فوكزت **أليس** بمرفقي، وقلت: «انظري».

انحنت السيدة **تيرنباو** نحوي وهمست قائلة: «لقد قالت والدتك إن رغبة والدك كانت أن تحرق جثته».

فانفجرت قائلاً: «مستحيل! إنه إطفائي! افهمي ذلك، إطفائي! والإطفائيون يخافون أن يحترقوا... كلا!» وقلت محاولاً أن أكبح

جماح غضبـي: «هذا خطأ. خطأ كبيـر. إن والدي لم يكـن ليرغب في ذلك!»

أجابت **أليس** بلطف: «أعلم ذلك، لكن الأوان قد فات، فقد سبق أن قامت...».

لـم أرد أن أعرف مصير والدي، فأشـحت بوجهي والتقيت بنظرة كـره من الوالـدة التي كانت جالسـة علـى الجانب الآخر من الممشـى بعيداً منّي ومن **أليس**. ومن النظرة التي رأيتها تعلو وجهها بدت غاضبة من وجـودي في المبنى نفسـه معهـا ومع أطفالهـا الأعـزاء الذين كان الملـل من المسـألة برمتهـا ينتابهم. فعـدت بتركيزي نحـو رجل الدين الذي تنحنح قبل أن ينشد الترنيمة الأخيرة.

وختم رجل الدين كلامه قائلاً: «امضوا بسلام».

تملكتنـي موجـة مـن الغضب. كيـف يمكنني أن أفشـل وأفوت مراسـم جنازة والدي؟ ولعنت نفسي لأنني أسـأت فهم وقت الجنازة. فانحنـت **أليس** فوقـي قائلـة: «يمكنني أن أقسـم إن والدتـك قالت إن الموعد هو السـاعة التاسـعة». وأومأت برأسـي وأنا أتحقق من ساعتي التي كانت تشير إلى التاسعة وبضع دقائق.

التفت رجل الدين بعيداً عن الحشـد ثم انحنى قبل أن ينـزل عن المنصـة. ولكن بعـد التغيير المفاجـئ في ملامح وجهـه، عرفت أنه لا بد من أنه قـد نظر إلى وجه الوالدة. فعاد إلـى المنصة مجدداً من دون أن يقطع سـيره وفتح ورقة في حوزته، ثم قال: «أرجو المعذرة. إن دار العبادة تود أن تعلن عن وفاة سـتيفن **بيلزر** الذي يرقد الآن بسلام. وقد كان إطفائياً متقاعداً في **سـان فرانسيسـكو**. وعاش بيـن عائلته المكونة من...». وتوقف ليقرأ ملاحظاته. ثم قال: «... عاش **ستيفن** بين عائلته المكونة مـن زوجته المحبة، **كاثريـن**، وأطفاله الأربعة: **رونالد** وسـتان **ورَسِل** و**كيفن**. لندعو من أجله».

وعندما أطرقت برأسي أدركت ما حدث وقلت في نفسي: هذا هو تأبين والدي: عبارة عن عشر كلمات أو عشرين كلمة. حياة كاملة تختصر بنفس واحد. فوالدي لم يستحق حتى وردة واحدة أو دعاء أو أي شيء. وفكرت في نفسي: كم هذا فارغ. لقد تم تلخيص حياته بأكملها بلمح البصر. ثم تذكرت أنه قال: أطفاله الأربعة. فقلت لنفسي: «يا إلهي! لقد فعلتها ثانية!»

ألقيت نظرة خاطفة غاضبة نحو الوالدة التي مسحت عينيها المحمرَّتين المتورمتين بمنديل أبيض نظيف. وكعادتها، لم تفتها الفرصة لتجعل نفسها محط اهتمام الجميع. وقد جلست محاطة بأطفالها لكي يراهم الجميع. لقد قامت السيدة بيلزر بدور الأرملة الحزينة حتى الصميم.

قاطع رجل الدين شرودي، وقال: «لتحظوا بالسلام».

وأجاب الحاضرون ثانية: «وأنت أيضاً».

«انتهت المراسم. ارحلوا بسلام».

وعندما وقفت، استمررت بتحديقي الدائم بوالدتي التي فقدت توازنها وهي تجهد نفسها للوقوف، واستطعت أن أسمع بعض اللهاث من الحشد. وبسبب عرضها المسرحي المبالغ فيه، توجهت الأنظار كلّها نحوها. واستطعت أن أسمع خلفي الناس وهم يهرعون نحو الأرملة، فهززت رأسي باشمئزاز.

ناداني أحدهم قائلاً: «ديفيد؟ ديفيد، هل تتذكر؟ هل تتذكرنا؟»

التفتّ إلى الزوجين العجوزين الواقفين أمامي، واستغرقت دقيقة لكي أدرك أنهما جيراننا القدامى، طوني وأليس. سألني طوني بلغة إنكليزية ركيكة، قائلاً: «إنك تتذكرنا، أليس كذلك؟» فاستطعت أن أتذكره وهو يدخن غليونه ويدفع جزازة العشب الخشبية على المرج حين كنت طفلاً. لكنني تذكرت شتاء ذلك العام، بعد أن كبرت، عندما

جعلتني الوالدة أتزلج من أول المبنى السكني إلى آخره من دون توقف في طقس قارس وأنا لا أرتدي إلاّ بلوزة قطنية مهترئة وسروالاً قصيراً فقط. لكن طوني حالما خطا خارج منزله، تدثر بسترة سميكة لكي يأخذ صحيفته المسائية. وكل ما استطعنا فعله هو أننا أومأنا بعضنا لبعض. فقد كنا كلانا نوعاً ما مدركين لحقيقة الوضع. وكنت قد رأيته للمرة الأخيرة قبل إنقاذي بأيام. وبسبب قرب المنزلين، كان يمكن للمرء أن يصعد الدرج الذي يؤدي إلى الباب الأمامي وينظر بسهولة من خلال نافذة المطبخ الصغيرة إلى منزل الجيران الذي يقع على بعد بضعة أقدام فقط. وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، ركلتني الوالدة بقدمها حين كنت ممدداً باسطاً ذراعي وساقي على أرض المطبخ. وللحظة، التقت عينا طوني بعيني، كان الدم يتدفق من فمي وأنفي. وكالعادة، أدرك ما حدث تمام الإدراك، لكنه عجز عن فعل أي شيء. فقد كانت الأمور مختلفة حينئذٍ.

قال طوني بفخر وهو يمسك بكتفي: «إنك على ما يرام الآن. أراك في ملابس سلاح الطيران. وأنت بخير». وكانت زوجته أليس واقفة إلى جانبه. ثم قال: «إننا فخوران بك. والجميع يعلمون أنك فتى صالح. ونحن جميعاً على يقين من ذلك. وسكان الجوار كلّهم يعلمون بشأن التحاقك أنت ورونالد بالخدمة العسكرية، إنكما شابان صالحان ولطالما كنتما كذلك».

شعرت بإحراج بالغ، فكل ما استطعت فعله هو أنني أومأت برأسي. فقال طوني: «تعال لزيارة طوني وأليس عندما يمنحك الجيش إجازة للذهاب إلى البيت».

قبل أن أتمكن من الإجابة، ظهرت مجموعة من الرجال مرتدين ملابس موحدة كحلية اللون. فبلعت ريقي برعب عندما خطت مجموعة الإطفائيين القادمة من محطة والدي أمامي. وللحظة، اعتقدت أنهم قد

ظنوني خطأ أحد أفـراد فريق الوالدة. وأخذ رجل، افترضت من مظهره القيادي أنه قائد المحطة، بيدي وهمس في أذني قائلاً: «لقد كان والدك رجلاً صالحاً وإطفائياً ممتازاً. لا تنس ذلك أبداً، يا بني».

فوعدته قائلاً: «نعم، يا سيدي. سأتذكر هذا، أيها الكابتن».

وسألني صوت من الماضي قائلاً: «وهل تتذكر عمك المفضل؟»

فخـرج مـن بيـن الحشـد العم لـي، رفيـق والـدي طـوال عمره، وعانقني. وواحداً تلو الآخر، أخذ الرجال الآخرون من محطة الإطفاء يحيونني. فبدوا وهم يفعلون ذلك أشبه بدرع يقيني من الوالدة.

وقلت من دون تفكير: «شكراً لك، يا لي».

«على ماذا؟»

فقلت وأنا أسـترق نظـرة خاطفة نحو الوالدة: «لأنـك... ١عترفت بوجـودي. لقد كنت موجـوداً عندمـا... رحل. ولكـن لا ينبغي لكم يا جماعة أن تقفوا معي. فأنا لا أريد أن أفعل شيئاً يثير غضبها».

«لتفعل ما يحلو لها. لا شـيء يسـتطيع أن يبعدنـا عنك. لقد كان والدك يحبكم أيها الفتية. وأنت، يـا ديفيد، يجب أن تعلم ذلك. وربما لم يعبـر عن هـذا بالكلمـات، وربما لـم يكن موجـوداً بقربكـم، لكنه لطالما فكر فيكم، أيها الفتية. والأمور وبحسب... لا تنجح دائماً. ولو أن رونالد هنا لقلت له الكلام نفسه. يجب أن تعرفوا أيها الصبية أن لا أحـد مثالي. وقد فعل والـدك أموراً لم أوافقه عليهـا، ولكن...». وأكد العم لي بإصـرار قائلاً: «لـم يكن والدك شـريراً. ومهما كانـت عيوبه، فهي ليست متعمدة أبداً. هل تدرك ما أرمي إليه».

فأومأت برأسي وقلت: «إنني أدركه تماماً. شكراً لك، يا لي».

انحنـى العم لـي نحـوي، وقال: «أصـغ إلـي. لقد أعطـى والدك خوذته لرونالد. هل أعطاك شارته؟»

فأفضيـت إليـه وأنا أتلفـت ورائـي لكي أتأكـد من أننـي آمن من

العيـون المتطفلة، وقلت: «نعم، لكنني لسـت واثقاً مـن أنه يفترض بي أن أحصل عليها. هل يفترض بي أن أعطيها لكم؟ ماذا أفعل؟» وبلعت ريقي بصعوبة، ثم قلت: «هل أعطيها إياها؟»

صاح العم لي قائـلاً: «لا تفعل ذلك في حياتـك. أصغ إلي. إنها طريقة والدك فـي التعبير لك كم أنت تعني بالنسـبة إليـه. لقد أراد من كل قلبه أن يمنحكم شـيئاً، أيها الصبيـة، ليعوضكم به عن كل الجحيم الذي عشـتم فيه. لقد تم الانتقاص من حقك كثيراً، يا ديفيد». وتوقف العـم لـي قليلاً لينظـر باتجـاه المنبر، ثـم قال: «إنني أتوقـع أن تعامل معاملـة مجحفة جداً قبـل أن ينتهي هذا الأمـر. فاحتفظ بها. وبالنسـبة إلى والدك... فإن هذه الشارة تمثل الرجل الذي كان يتوق ليصبحه في العمل وخارجه. هل تدرك ما أعنيه؟ وما لا تعرفه أمك لن يؤذيها. لذا، أبق فمك مغلقاً واحتفظ بالشارة. واجعل شركاءك بالاسم فخورين».

لقـد شـعرت كأنني بطول عشـرة أقـدام. وللحظة بهيجـة واحدة، أحسست أنني شخص حقيقي.

عندما خرجت من دار العبادة، ارتجفت من برودة طقس الصباح. ورأيت طبقة سـميكة من الضباب تحوم في الفضـاء، فقاطعتني الوالدة بلهجتها التهكمية الرنانـة قائلة: «أرجو المعذرة، يا سـيدة تيرنباو! إنني ألتمس لحظة لأتحدث فيها على انفراد مع الصبي».

وقـد عانت أليـس على مدى عدة سـنوات من توجيهـات الوالدة الصارمة المريضة حـول كوني عبئاً على المجتمع، بشـكل عام، خلال هذيانهـا الثمل في آخـر الليل. وسـئمت ذلك. وقبل أن تنفعل السـيدة تيرنباو، قاطعتها واقتدت الوالدة إلى جانب دار العبادة، وعندما أصبحنا وحدنـا في موقـف السـيارات، قبضـت الوالـدة علـى كتفـي وأدارتني نحوها. وقالـت: «من تظن نفسك بحق السماء؟ من الذي أعطاك الحق لتأتي إلى مناسبة رسمية كهذه».

وبعد أن استنـزفت مقاومتي برمّتها، عدت إلى وضعية الاستعداد السـابقة ورأسـي منحن وذراعـاي ملتصقتان على جنبـي. ثم اعترضت قائلاً: «أنت من اتصلت بي؟»

«إنني لا أتذكر أبداً أنني اتصلت بك... ولا أسـتطيع أن أتابع كل الأحداث... وإيـاك... إياك أنت من بين جميع النـاس أن تعارضني... ليـس اليوم... أيها التافه الصغير! إنني لا أقـول إنني اتصلت بك أو لم أتصل. وحتى لو فعلـت ذلك، فقد فعلته من بـاب اللياقة. وكان ينبغي لـك أن تتمتـع بالحكمة بما فيـه الكفاية لكي تدرك أنك لسـت موضع ترحيـب، ولكنك لا تتمتـع بذلك القدر من الـذكاء، أليس كذلك؟ وما الـذي تقصده باللـه عليك بأن تجعـل أولئك الرجال كلّهـم يلاطفونك كأنـك شـخص مميـز؟» وعندمـا ألقيـت نظـرة خاطفـة علـى الوالدة، استطعت أن أدرك مدى حدة استيائها.

وأردفت قائلةً بصـوت كالفحيح: «أصغ إلـي! لقد أحضرتك إلى هنا من قاعدة سـلاح الطيـران التافهة بسـبب طيبة قلبـي. ولم يتوجب علـي أن أفعـل ذلك، كما أؤكـد لك. لـذا، فابتعد عني وعـن أولادي! إنك تعلـم من أنت ومـا هي حقيقتـك. إنـك لا تنتمي إلينـا. فإياك أن تطـأ منـزلـي بقدمك علـى الإطلاق!» وهـذه المـرة لم يتوجـب عليها أن تسـتخدم إصبعها لكـي ترفع ذقني كما تعـوَّدت أن تفعل حين كنت سـجينها، بل رفعـت نظري من تلقاء نفسـي ونظرت إلى عينـي الوالدة الناريتين المحمرَّتين. ولـم تتراجع الوالدة عن موقفها، فانحنت بقربي، وقالـت: «أليس لديك شـيء مـن أجلي؟ ألـم يعطك هو شـيئاً قبل أن يفارق الحياة؟»

ففـردت أصابع يـدي اليمنى بعض الشـيء ومررتها علـى جيبـي الخلفي. وأصبحت أقل توتراً عندما تحسسـت الشكل الخارجي لشارة الوالد الغالية. ومن دون أن أرمش بعيني، نظرت إلى عيني الوالدة بمثل

نظرتها الباردة، وقلت: «كلا. إن الوالد لم يعطني أي شيء».

صاحت الوالدة قائلة: «إنك تكذب». وفي اللحظة نفسها شعرت بيدها تصفع وجهي. وتركت الدم من شفتي المجروحة يتقطّر على الرصيف وأنا محافظ على وضعيتي. فلم تعد إساءتها الجسدية تؤذيني بعد الآن. لقد كانت عدوانية الوالدة هي ما سيتسبب في هلاكها. فهي لم تعد تملك على الإطلاق أي سيطرة علي. وكان أسلوبها الوحيد لتسيطر عليَّ هو أن تضربني. لكن ذلك لم ينجح قط في أثناء طفولتي. وبالتأكيد لم يكن سينجح الآن. وقد عنى ذلك أيضاً أن الوالدة أصبحت يائسة جداً بحيث تلجأ إلى هذا النوع من المعاملة وخصوصاً على الملإ.

«لقد اتصلت بالمستشفى... وقد تفقدوا أشياءه. وقالوا لي إن الأوراق كانت بحوزته عندما دخل المستشفى. لذا لا تقف أمامي وتخبرني أن تلك الأوراق قد تلاشت من تلقاء نفسها! من الذي منحك الحق لأن تتخلص من ثيابه في النزل بالله عليك؟ لقد اتصلت وقالوا لي إنك قد أتيت إليهم وقمت بمجرد التبرع بها. إذاً، قل لي من أعطاك الحق لكي تذهب إلى هناك و...».

فقاطعتها قائلاً: «حقاً؟ لقد فعلت ذلك لأنك لم تزوريه وتعمدت ألا تمدي له يد المساعدة وامتنعت عن القيام بذلك وتركت والد أطفالك وزوجك وشخصاً عرفته لسنوات يتعفن على فراش الموت لأشهر. إنك لم تفعلي أي شيء للمساعدة، لكن كل شيء فعلته هو أنك جعلته يشعر أنه معزول وعديم القيمة». وتحدثت إليها بغضب وأنا أنفس عن حزني لمعاملتها السّيئة لوالدي، وقلت: «مهما يكن ما فعلته، فقد بذلت قصارى جهدي فيه. وعلى الأقل، فقد كنت أنا من تمتعت باللياقة لأن أمنح والدي جنازة ملائمة. ولا أعرف لماذا... تكرهين الجميع وكل شيء إلى هذا الحد!»

«هل تعتقدين أنك وحدك من عانيت في حياتك؟ إنك أصل تلك المعاناة كلها. وأنت من جعلت الجميع وكل شخص على الإطلاق يصبح كابوساً حياً. وقد لذَّ لك الاستمتاع بذلك، وتمتعت بحيازة كل شيء، لكنك أفسدته. ولست أنا ووالدي وجدتي والمدرسون والجيران وأصدقاؤك والعم دان ورون وستان ورَسِل أو كيفن من فعلنا ذلك. إنه ليس خطإي أنا، حتى وأنا طفل، وليس الآن! لقد استحق والدي ما هو أفضل من هذا. ومهما تكن كل الشجارات، غلطتك أو غلطته، فقد كان جديراً بالأفضل!»

تمتمت الوالدة بصوت منخفض قائلة: «لماذا أيها التافه المغرور...». ورفعت يدها ثانية لكي تضربني.

فأجبتها بحدة قائلاً: «إياك حتى أن تفكري في ذلك! واعلمي هذا». وقلت بصوت منخفض وواضح: «كل شيء فعلته لي ولوالدي وللجميع ستعود عاقبته عليك. وسيرتد إليك الألم والمعاناة والجحيم... وكل شيء!»

قالت الوالدة بتلعثم: «لا... لا تحاول أن تغير الموضوع. لقد أخبرني... أحد الممرضين... وقال إنه رآك... تبحث في جيوب سترته وتسرق الأوراق».

الأوراق؟ ولم تكن لديَّ حقاً أيّ فكرة عما كانت الوالدة تثرثر، إلا إذا قصدت أن تشير إلى ذلك اليوم الذي بحثت فيه عن شارته في المستشفى... فعثرت على مجموعة من الوثائق ودسستها في جيبي الخلفي إلى جانب محفظتي. لقد كان شغلي الشاغل هو شارة والدي. وكانت الفوضى والتعامل مع الوالدة والجدة وقلة النوم ناهيك عن حاجات الوالد كل هذا جعلني أنسى بغباء أن أطلع على الأوراق. ولأن كل ما عرفته...

ولا بد من أن تعبير وجهي قد فضح سرّي. فقلت متردداً: «نعم.

إنها في حوزتي. ولم أقصد... أعني أنني نويت أن أعطيك إياها...».

فأمرتني الوالدة قائلة: «اخرس وأعطني الأوراق اللعينة!»

استطعت فقط أن أخمن أن الأوراق تحوي بوليصة تأمين ضخمة حصل والدي عليها قبل سنوات. فأردت جزئياً أن ألقي بالأوراق في الهواء وأراقب الوالدة وهي تدب على يديها وركبتيها وأنا أمزق الأوراق إلى قطع صغيرة. وبعد سنوات تحملت فيها بؤس الوالدة وألاعيبها وعذابها، كنت الآن أملك شيئاً تريده أكثر من كل شيء وتتلهف للحصول عليه. لقد أصبحت الآن أملك السيطرة عليها. لكنني وقفت أمام هذا الحطام المثير للشفقة، وأدركت أن ما تخيلته ليس النتيجة التي تمنى والدي حدوثها. فقد كنت أملك أثمن جائزة، لكنني بمنعي للوثائق عنها سأتسبب نوعاً ما بالخزي لكرامة والدي. ومهما كان عدد المرات التي خططت فيها الوالدة لقتلي، فالتدني لمستواها أمرٌ لا أسمح لنفسي أن أبلغه أبداً.

قلت وأنا أنشر الأوراق وأعطيها لها: «تفضلي. إنها مجرد غلطة، وقد نسيت أنني أحملها. لقد حدث ذلك فعلاً. ولم أقصد أن أخفي شيئاً عنك. وقد أوشكت أن أعطيك إياها...».

انتزعت الوالدة الأوراق مني في لمح البصر. وكان الوقت الوحيد الذي تحركت فيه على الإطلاق بهذه السرعة قد حدث قبل سنوات عندما تعوَّدت أن تضربني. ثم أشرقت عيناها وتنفست الصعداء، وقالت: «والآن، أيها الشاب، إنني أملك بالفعل كل شيء سأحتاج إليه على الإطلاق».

فابتسمت وقلت لها: «أنت الخاسرة».

سألتني الوالدة وهي تتصفح الأوراق: «ماذا؟»

«طوال تلك السنوات، بذلت قصارى جهدك لكي تحطميني، لكنني ما زلت هنا. وقد أصبح والدي حراً أخيراً ورون في الخدمة

العسكرية. وسرعان ما سينتقل الصبية إلى حياتهم الخاصة. إنني شخص صالح، فأنا أبذل قصارى جهدي في كل شيء أتولى القيام به. وأرتكب الأخطاء، وأخفق، لكنني أتعلم من أخطائي ولا ألوم الآخرين على مشاكلي. وأعتمد على نفسي، ويوماً ما سترين أنني سأنجح في حياتي. وسواء أحفرت الخنادق أم طهوت الهمبرغر في مطبخ سلاح الطيران، فسوف أكون الأفضل. وبطريقة ما، لن أضيع حياتي سدى. وإن كنت قد علمتني أي شيء، فقد علمتني هذا الدرس». ثم التفت ورأيت الصبية يتجولون في الأنحاء على بعد مسافة مع مجموعة صغيرة من الراشدين. فاتخذت خطوة صغيرة إلى الأمام ووجهت إحدى أصابعي نحو وجه الوالدة المحمر، وقلت: «ابقي بعيدة عني. إن كل شيء فعلته للآخرين...». وأمسكت عن الكلام عندما بدأ صوتي يتهدج، وشعرت أن طاقتي قد بدأت تتلاشى. لقد كانت السنوات السبع الأخيرة قد دقت ناقوسها علي، فأخذت نفساً عميقاً، وأنزلت إصبعي وابتعدت إلى الوراء، ثم قلت: «إنني أدعو من أجلك كل ليلة، وأقسم بالله إنني أفعل ذلك. وقد تملكين أوراقك ومالك وأي شيء كان، ويمكنك أن تكرهي كل شخص وكل شيء على هذا الكوكب، لكنك أنت الخاسرة!»

وقفت الوالدة وفمها مفتوح على وسعه، وقبل أن أتركها، ضممت يديّ بعضهما إلى بعض، ثم انحنيت نحوها وهمست في أذنها قائلاً: «ليكن الله معك، يا سيدة بيلزر، لأن أحداً آخر لن يفعل ذلك».

بعد عشر ساعات، وعلى بعد ثلاثة آلاف ميل، عدت إلى ميدان **هيرلبرت فيلد** في **فلوريدا** لأكتشف فقط أن مزاجي الكئيب لم يكن يقارن بالمزاج السائد في القاعدة. فبعد أن هبط أسطول جوي من طائرات **كارجو سي** 130 المزود بتجهيزات خاصة، علمت أن الوحدة الجوية قد انخرطت بشكل مباشر في محاولة الإنقاذ الفاشلة للرهائن

الأميركيين المحتجزين في إيران. وكان خمسة من الرجال الثمانية، الذين فقدوا حياتهم عندما ضربت طائرة مروحية طائرة سي 130 مصادفة، قد تم تعيينهم في ميدان هيرلبرت فيلد. وما زاد في الطين بلة، أنني علمت أن الرجال قد ماتوا في اليوم نفسه الذي فارق فيه والدي الحياة.

استيقظت في ساعات الصباح الباكر من اليوم التالي لأكتشف أنني بالكاد أستطيع التنفس. فقد كان جانبا حنجرتي متورمين إلى حجم برتقالتين، وبعد فحص سريع في عيادة القاعدة، تم إسعافي إلى المستشفى لإصابتي بمرض كثرة الوحيدات. ولأنها كانت المرة الأولى التي أدخل فيها المستشفى في حياتي فضلاً عن التوتر الذي أحسست به لفقداني والدي، فقد استبد بي الرعب. وبسبب مرضي، فقد أعطيت الكثير من مسكنات الآلام. وعندما سرى مفعول الدواء، استطعت أخيراً أن أنسى نفسي والمشكلات التي عانيتها عن طريق النوم.

في أثناء الليل، حلمت أنني مستلق بجوار والدي. فحاولت أن أمد ذراعي نحوه لأمسك بيده، لكنني لم أستطع أن أتزحزح من مكاني. وأجهدت نفسي لكي أصرخ لوالدي وأقول له شيئاً، أي شيء، لكنني عجزت، كوالدي بالضبط، عن التفوه بكلمة واحدة.

الفصل السادس

استجماع القوة

بسبب مرضي الشديد، عولجت، لأكثر من أسبوع، بالكثير من المسكنات في سرير المستشفى. وبعد أن خرجت، وجدت نفسي بلا هدف واضح للمرة الأولى في حياتي. لقد كنت محطم الفؤاد بعد أن فقدت والدي. كان هدفي الوحيد الذي صبوت إليه طوال السنوات القليلة الماضية هو أن أبذل أقصى طاقتي وأوفر كل قرش ليساعدني على أن أشتري منزلي ثم أطوف في أنحاء **سان فرانسيسكو** إلى أن أعثر على والدي. ومن دون وجوده ليشاركني العيش في الكوخ في هدوء أشجار الغابة والصيد عند النهر والتحدث معه إلى جانب نيران المخيم الدافئة أو أي شيء قد يشابه الحياة العائلية العادية، بدا ذلك وهماً تاماً.

كنت قد اعتدت دائماً، وأنا طفل يرتجف خوفاً في الكراج، أن أعالج التحديات التي تواجهني بكبت مشاعري والتفكير في ما يمكنني أن أتعلمه من الموقف وفعل أي شيء لكي أحسن أوضاعي. ولطالما كنت أرسم الخطط النهائية وأحللها حتى أدق التفاصيل. وقد ساعدتني هذه الطريقة حتى تغلبت على الوالدة وخدمتني كدرع واق وأنا تحت وصاية أبوين بالرعاية وأوصلتني للالتحاق بسلاح الطيران. وما دامت هناك فرصة أو حتى بارقة أمل في نفق مظلم، فكل ما توجب علي فعله هو أن أجلو ذهني وأخلص نفسي من مشاعر رثاء الذات وأمضي نحو الأمام.

ومـع ذلك، فكنـت لا أزال أشـعر جزئيـاً أن أفضـل الخطط التي وضعتها لأصبح فارسـاً في نظر والدي لم تكن إلاّ قصـوراً في الهواء. ولأننـي ووالدي لم نقض إلاّ القليل من الوقـت معاً خلال حياته، فمن الواضح أننا لم نكـن على مودة كبيرة، لكنني لطالمـا اعتقدت أنني إذا تمكنت من أن أضع النقاط على الحروف، فإنني سأسـتطيع أن أسـوي التفاصيل الدقيقة لعلاقتنا في ما بعد. وقد أصبحت هذه العملية الدقيقة هوسـاً مفعماً بالشـعور بالذنب. فكيـف كنت أجرؤ علـى الخروج إلى الشـاطئ مع أصدقائي من سـلاح الطيران أو أن أشـتري الأسـطوانات الموسـيقية أو حتـى الثياب فـي حين أن والـدي كان يرتجـف برداً في مكان مـا. وقد تماديت في هـذا إلى حد أنني كنت لا أفعل شـيئاً على الإطلاق سـوى الاسـتيقاظ والعمل بجد والعودة إلـى الثكنة لكي أنال قسـطاً من النوم ثم إعـادة الكرة في اليـوم التالي. وكنـت كلما أخذت إجازة ليوم واحد، قمت بمجرد النوم أو مشـاهدة التلفزيون أو القراءة. لقـد كان فعل أي شـيء آخر يعنـي تبديد النقـود على أمـور بعيدة عن أهدافي. ومـع ذلك، فقد توجب عليَّ أن أعترف لنفسـي أن ذلك كان، بسـبب افتقاري للمهـارات الاجتماعية، فرصة لكي أجعل نفسـي أبدو مغفلاً أمام الناس. فحتى بعد أن أصبحت شـاباً فـي أوائل العقد الثاني من عمري، كنت أستمر بالتفوه بالأمور الخطإ في الوقت الخطإ، فكنت كلما انفعلت، زدت في الطين بلة بالتلعثم بشكل خارج عن السيطرة.

وتمكنت عن طريق التركيز على مستقبلي من أن أنبذ الحاضر.

انقضت الشهور ببطء، وتوصلت إلى الإدراك أنني قد استخدمت والدي كطريقـة للهرب من التعامل مع حياتي الجديدة كشـاب ناضج. والآن، وقـد مـات والـدي، توجـب علـيَّ أن أتعلـم كيـف أتعامل مع نفسي.

تغلبـت على حزني لموت والدي بالطريقـة الوحيدة التي أعرفها،

وهـي: العمل. فكنت أنهض وأهـرع إلى الثكنة لأغير ملابسـي قبل أن أتولى مناوبة كاملة كطباخ طعام سـريع في مطعـم محلي. وبعد مناوبة مدتها ثماني ساعات كنت أخرج من المطعم وأنا أملك الوقت الكافي فقط لأرتدي لباس سلاح الطيران الموحد المجعد وأتوجه إلى الميدان للعمل. وفي بعـض الأوقات، تعوَّدت أن أبقى بلا نـوم لعدة أيام، ولـم يكن ذلك يهمني فعلاً، فقد كرهت عملـي وحياتي. وبعد وقت قصير، حيـن كنت أخلد للنوم، كانت تراودني بعـض الكوابيس المرعبة والتي كانـت تؤخرنـي أحياناً عـن التوجه إلـى عملي في سـلاح الطيـران أو المطعم.

وعلى الأقل، لم أعد أعانـي من الكوابيس المتعلقة بالوالدة وهي تحاول أن تقتلني. وقد تعوَّدت دائمـاً أن تظهر في أحلامي وهي واقفة في نهايـة رواق ويكتنفهـا ضباب رمـادي. ولكـن الآن عندما توجهت الوالـدة نحوي لكـي تهاجمني، كنت أمشـي نحوها خطـوة بعد خطوة عوضـاً من الهـرب. وعندما ترفع السـكين فوق رأسـها، أمزق قميصي لأفتحـه وأقـول بصـوت كالفحيـح: «افعلـي ذلـك...! هيـا... افعلـي ذلك!» فيبقى السكين اللامع مسـمراً في مكانه إلى جانب وجه الوالدة الممتقـع. ثم أدنـو بضع خطـوات نحوها وأقـول لها هامسـاً: «اقتليني الآن أو اتركيني وشـأني!» وحتى على الرغم من أننـي ما زلت مرعوباً من الوالدة في الحياة الواقعية، فإنها لم تعد تسـيطر على أحلامي. لقد تملكني الرعب لوقت طويل، ومـع ذلك، فعندما توفي والدي، ازددت يقيناً، يوماً بعد يوم، أنني قد حررت نفسي أخيراً من قبضتها.

وسـرعان مـا اكتشـفت أن سـريتي قـد اختيـرت لكـي تطيـر إلى مصـر لتبنـي قاعـدة عسـكرية مؤقتـة هنـاك. وكان الرجـال جميعهـم، البالغ عددهم أربعمئـة رجل والذين تم تعيينهم فـي الوحدة، قد كلفوا بالمهمة. ووجدت نفسـي راغباً من أعماق قلبي في أن أشارك في تلك

المغامرة الاستثنائية. ولأنني كنت طياراً من مرتبة متدنية في السرية لأقل من سنة، فلم يتم أخذي في الاعتبار، لكن ضابطاً كبيراً مسؤولاً عن النواحي اللوجستية تكلم مع المشرفين عليَّ ليمنحوني فرصة، ففعلوا ذلك. وعندما تم اختياري أخيراً، شعرت ببهجة عارمة بحيث إنني أسرعت إلى المطعم الذي كنت أعمل فيه فاستقلت من عملي وحزمت أغراضي.

منحني التمرين المسمى: الشبح الفخور منظوراً مختلفاً عن كوني جزءاً من فريق عمل. وقد عملت كطاه في وسط الصحراء خارج القاهرة بالضبط لعشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة في حرارة ملتهبة كالفرن خلال النهار ثم في برودة قارسة في أثناء الليل من دون أي فترات استراحة. وأحسست بالفخر في أن أعمل جنباً إلى جنب مع الآخرين الذين كانوا يرهقون أنفسهم كل الإرهاق في جهد مشترك لكي نحقق مهمة عسكرية. وكنت كلما اختلست لحظات قليلة لنفسي، كنت أخطو خارج الخيمة الخضراء التي تلتهب بالحرارة وأتفحص السماء للبحث عن سرب طائرات **الشبح أف** 4 المقاتلة الأميركية وهي تتسابق فوق رأسي وتتباهى أمام الطيارين المصريين إما عن طريق استعراضات الهبوط وإما عبر الاندفاع بطائراتهم بسرعة الصوت لتهز الأرض كالانفجار البركاني. وقد كانت الصدمة تقريباً تجعل خيمة الطهو تنهار وتبعثر القدور والأواني وكل المعدات في الاتجاهات المختلفة. وخلال الأوقات الأكثر هدوءاً، تعوَّدت أن أقف خارج الخيمة لكي أتأمل ألوان السماء الزرقاء الفاتحة والبرتقالية قبل أن تغرب الشمس خلف كثبان الرمل البنية المنقطة. وفي أوقات أخرى قبل الفجر بقليل، وعندما يملأ هدوء غريب معسكر القاعدة، كنت أحدق بطبقة الضباب الرقيقة قبل شروق الشمس وأراقبها بينما تجعل ملاءة من اللون الأرجواني الضباب يتبخر. لقد كنت في وسط العالم،

فشـعرت بالراحة لئلا يتوجـب عليَّ أن أقلق بشـأن المسـتقبل أو أبقى أسير الماضي. فقد عثرت أخيراً على شيء من السلام.

بعد رجوعـي من **مصر** مباشـرة، اتصلت **بأليس**. وبالـكاد منحتها فرصة للـكلام. فبدأت أثرثر لها عن مغامراتي وعملي لسـاعات مرهقة في معسـكر القاعدة وزيارتي للأهرامات وعن **أبو الهول** والعدد الهائل من البطاقات البريدية التي أرسلتها إليها وإلى **هارولد**. وأخيراً، قاطعتني لتخبرني أن خالي **دان** قد توفي. فاختصرت المحادثة، واتصلت بجدتي لكـي أتمكن مـن الحصول علـى رقم هاتف جيـن، زوجـة خالي **دان**. وكالمعتاد، لم أعرف ما أتوقع منها. لذا، أخذت نفساً عميقاً بانتظار أن أعرف مزاجها الحالي. ولم أكن مسـتعداً لنبرة صوت جدتي الضعيفة. فطوال سنوات معرفتي بها حتى وأنا طفل في منـزل الوالدة، لم أسمعها قط وهي تبدو واهنة إلى هذا الحد. فقلت بهدوء: «إنني آسف جداً لما سمعته عن خالي **دان**».

واسـتطعت أن أسـمع عن بعد آلاف الأميال خارج حـدود مدينة **سـولت ليك سـتي** صوت الجدة وهي تجهش بالبـكاء. وبعد أن بكت لبضع دقائق، بدأ أسلوبها يتغير. ومع أنني أردت أن أتحدث إلى الجدة عبر الهاتف، فقد أيقنت أنني مسـتمعها الأسـير. فبدأت تقول: «لا أحد يعـرف ما معنى أن يفقد المرء أطفاله وأن يعيـش وحيداً تماماً. لا أحد يعرف هذا الشعور».

فصحت قائلاً: «ماذا؟ هل تقولين إنها توفيت؟ أتوفيت أمي؟»

تنشـقت الجدة، وقالـت: «مـن الممكن لهـا، بالتأكيـد، أن تكون كذلك على حد سواء. فأقل ما يمكنها أن تفعله هو أن تزور والدتها».

«إذاً هي على قيد الحياة؟ إنني آسف، فقد أسأت الفهم. واعتقدت أنك قد قلت لتوِّك...». وأمسكت عن الكلام.

«إنك تعلم جيداً، أيها الشاب، أن أمك باعت ذلك المنـزل لأحد

الأجانب... ودعني أخبرك أنني سمعت أنها قد حظيت بمبلغ جيد من جراء ذلك أيضاً. لقد بيع ذلك المنزل بسرعة مدهشة. وهل عرضت عليَّ أي شيء؟ كلا بالتأكيد! لم تعرض عليَّ قرشاً أحمر واحداً، ناهيك عن أن تمنح كلمة طيبة واحدة لأمها...».

ثبت نفسي محاولاً أن أجلو الأفكار في ذهني. فلم تكن لديَّ أي فكرة عن أن الوالدة قد انتقلت من المنزل، ولم أكن أكترث لذلك فعلاً. فكل ما أمكنني أن أفكر فيه هو إخوتي وإن كانوا آمنين ولا يزالون يعيشون معها. وربما كانوا يملكون حتى فرصة جيدة للسعادة. وأفقت من شرودي ببطء متسائلاً كيف تحول مجرى الحديث. وقد كنت على دراية بالقواعد الضمنية للتحدث إلى الجدة، وهي: دعها تتحدث بصخب كما تريد ولا تسألها أبداً عن رأيها ولا تقاطعها أبداً، وفضلاً عن كل شيء، لا تطرح عليها أيّ سؤال. فأي سؤال قد تترتب عليه نتائج رهيبة. فقلت لها: «جدتي، إنني آسف، ولكن... هل يمكنني الحصول على رقم الخالة جين؟ إنني أريد أن أقدم لها تعازي فحسب، فقد كنت مسافراً لفترة من الوقت، ولا أريدها أن تعتقد أنني...».

قالت الجدة: «إنني لا أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أجده. ولا أعرف ما عليَّ أن أفعله». وبعد توقف طويل، أطلقت تنهيدة تعبة، وقالت: «وإن لم يكن ذلك كافياً، أيمكنك أن تصدق أنها قد استقرت هنا؟» واستطعت أن أسمع الجدة وهي تنقر الهاتف بأصابعها، ثم قالت: «هنا من بين كل الأماكن؟ ولم تتمتع حتى باللياقة لأن تأتي لزيارتي ولو لمرة واحدة. إن كانت تنتظر مني أن أتوجه نحو منزلها وأنحني أمام جلالتها فيمكنها أن تنتظر إلى الأبد! إنني لست في حاجة إلى هذا، كما أؤكد لك».

أومأت برأسي موافقاً بشكل آلي وأنا واقف في كشك الهاتف الضيق، وأجبت قائلًا: «نعم، يا جدتي. إنني أتفهم شعورك». ومع

ذلـك، فكلما فكرت فـي الأمر، بدا لـي انتقال الوالدة إلـى قرب مدينة سولت ليك ستي غير منطقي على الإطلاق. وتذكرت وأنا طفل صغير أن الوالدة قد روت قصصاً لي ولرون وستان عن مدى احتقارها لولاية يوتا وشـتائها القارس ولما كانت تدعوه مجتمع الالتزام الداخلي. ولم أعتقـد يوماً أن الوالدة قد تنتقل، من بيـن كل الأماكن، إلى جانب أمها التي تعوَّدت الوالدة أن تعاملها بحقد مرير.

وتذكـرت وأنا أقبض على السـماعة تغيير موقـف الوالدة الفوري كلما مرت الجـدة لزيارتنا. فحتى وأنا جالس أسـفل الـدرج في القبو، كنت أسـمع بوضـوح طريقـة الوالـدة الفريدة مـن نوعها فـي التصرف باستسـلامية بعض الشـيء وبقلـة تعاطف فـي آن. لقـد كان يبدو على الوالدة أنها تحاول أن تسترضي الجدة ولكن إلى حد معين فقط. فكلما كانت الجـدة تحـاول الوصول إليهـا، كانـت الوالدة ترفضهـا وترفض العروض كلّها التي كانت تقدمها لهـا. وكلما كانت الجدة تغادر البيت كانت مشـكلة كبيرة تحـدث. وكنت أنا دائمـاً متنفس غضـب الوالدة. والآن، وأنـا متكئ على إفريز كشـك الهاتـف المعدني، لم أسـتطع أن أتذكر تعبيراً واحداً عن الحب والتعاطف تبادلته المرأتان في ما بينهما. ولم أسـتطع، وأنـا أجهد نفسـي لكي أفهم مـا كانت الجـدة تقوله، إلا أن أربط بين الأم والابنة اللتين اسـتهلكهما كلتيهمـا كرههما المتبادل، واللتين كانتا مع ذلك انعكاساً لصورة بعضهما بعضاً.

من خلال الكتب التي درسـتها عن علم النفس والتطور البشري، استطعت فقط أن أعتقد أن شرب الوالدة وسلوكها الانتقامي ومعاملتها لي، كلها عوامل مرتبطة نوعاً ما بماضيها.

نال تنفس الجدة المجهد انتباهي، فقالت وهي تلهث: «ولا أعرف أبداً ماذا أفعل حيال سـتان. إنني أكلفه ببعـض المهمات وأدفع له مالاً بالطبع، لكنني أعلمك أنني لن أكون قربه إلى الأبد. ولقد أخبرته مراراً

وتكراراً أنه يجب عليه أن ينهي تعليمه المدرسي وينال شهادة المدرسة الثانوية، وقلت له مراراً وتكراراً إنني سأسدد أجر معلم خصوصي من أجله. وربما تعتقد أنه كان ليصغي إلي، لكنه عندما سيصبح وحده من دون أي مال، فسوف ترى أنه سيأتي إليَّ جرياً، وربما تعتقد مع كل ما فعلته من أجله...».

توجب عليَّ أن أتدخل وأمنعها من التقليل من قيمة أخي الأصغر، **ستان**، الذي كان معوَّقاً بشكل طفيف بعد أن عانى من حمى شديدة وهو طفل صغير. فقاطعتها قائلاً: «إنني آسف بشأن **ستان**، يا جدتي، ولكن هل يمكنك، رجاء، أن تعطيني رقم هاتف الخالة **جين**؟» وعندما امتد الصمت لوقت طويل على الجانب الآخر، علمت أنني قد ألححت عليها كثيراً، لكنني علمت أيضاً أن أبسط الطلبات يواجه دائماً بجدار من المقاومة. وبعد تنبيهات لطيفة عدة، استسلمت الجدة أخيراً. فأغلقت السماعة وأنا أشعر أنني مستنزف كلياً. وشعرت أنه ينبغي لي أن أرسل لجدتي بطاقة بريدية أو بعض الزهور أو ربما أن آخذ إجازة لأزورها. لقد ظللت بمنأى عن العائلة لوقت طويل بحيث إنني لم أكن واثقاً مما أفعل أو كيف كانت نواياي ستقابل. وقد أردت لسنوات أن أفعل الصواب وأعوض عن سنوات الضياع. وكالعادة، غمرني الشعور بالذنب ولم أكن واثقاً كيف سأواصل حياتي. فخطوت خارج كشك الهاتف، وأخذت بضعة أنفاس عميقة لكي أصفي ذهني. وحدثتني نفسي أنه من الواضح أن الجدة كانت تعاني وقتاً عصيباً، لكنني استغرقت كثيراً بالتفكير في حزنها بحيث إنني كدت أنسى أمر خالي **دان**.

عندما فكرت في محادثتنا، أدركت أن الجدة لم تقل شيئاً عن الخالة **جين** وكيف كان أطفالها يتكيفون مع الوضع. وعندما سألتها عن إخوتي، تجاهلت السؤال. فكما حدث مع أمي تماماً، تحول

اهتمام الجدة إلى نفسها وإلى أحزانها هي.

كان التحدث إلى الخالة جين مختلفاً تمام الاختلاف عن التحدث إلى الجدة قبل دقائق. فقد بدت أكثر اهتماماً بمشاعري من اهتمامها بخسارتها. فأخبرتها، محاولاً أن أبعد تفكيرها عن الخال دان، عن رحلتي إلى مصر وآمالي في أن ألتحق بالكلية لأنجح في حياتي. فقالت لي: «لقد سبق أن فعلت ذلك، يا ديفيد. فقد كان دان فخوراً بك ونحن جميعاً كذلك أيضاً. فلا تضغط على نفسك كثيراً وعش حياتك. خذ وقتك واستمتع بعض الشيء». وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، تذكرت طبيعة خالي كرجل عنيد يعيش حياةً كحياة الرياضيين ويتعاطى الشراب كما كانت والدتي ووالدي يفعلان تماماً. وتذكرت وأنا طفل أنني نظرت بتركيز إلى عينيه وشعرت أنه كان، كالوالدة تماماً، شخصاً ذا مزاج متقلب يمكن له أن ينفجر في أيّ لحظة. وبينما أخذت الخالة جين تتحدث إليّ بصراحة أكثر عبر الهاتف، شعرت أن زواجها من دان وحياتها التي عاشتها معه لم تكن سلسة فعلاً. وقالت لي: «لم يكن الأمر سهلاً على الجميع في ذلك الوقت من الماضي، يا ديفيد. فقد اختلفت الأمور منذ ذلك الحين... كالشرب وكل شيء. وقد اعتبر ذلك شيئاً طبيعياً عندئذٍ. فقد كانت تلك الأيام تدعى أيام الشرب والورود».

وأكدت لها قائلاً: «إنني لا أحاول أن أتطفل. إنني أريد فقط أن أكون على علم لكي... لكي لا أصبح مثل...».

استطعت تقريباً أن أرى الخالة جين وهي تومئ برأسها موافقة. وقالت: «إنني أدرك ما تعنيه. لا تكن سريع الانتقاد. فكما قلت لك، كانت مرحلة مختلفة في ذلك الحين بالنسبة إلى والديك ووالديهم من قبلهم. ومهما تكن المشكلات التي عانيناها، فقد تجاهلناها. وواريناً مشكلاتنا في صدورنا. وتمنى الكثير منا آمالاً كبيرة في أن الأوضاع

التي عشناها أو الطريقة التي نشأنا بها لم ولن نورثها إلى أطفالنا. وقد صعب الأمر علينا جميعاً. وإن استطعتم أيها الأطفال أن توقفوا تلك الحلقة المفرغة، فذلك هو كل شيء نستطيع نحن الكبار أن نتمناه على الإطلاق. وليست هناك ضمانات في الحياة، لذا تعلم من أخطاء الآخرين، واستمتع بما تحظى به قدر ما تستطيع، ولا تجعل ذلك يستهلكك مثل... هدئ من روعك فحسب ودع الحياة تمضي».

من وجهة نظري، اختصرت الخالة جين كل شيء في جملة واحدة. فأخذت بعد ذلك أعيد في ذهني كل كلمة من حديثنا حتى بعد أشهر. ولم تكن الخالة جين تعرف، لكن كلماتها: «لا تجعل ذلك يستهلكك» كانت آخر كلمات قالها الوالد لي قبل أن ألتحق بسلاح الطيران. فقد قال: «افعل ما يجب عليك أن تفعله. ولا تصبح مثلي». وساعدتني زوجة خالي على أن أدرك أن ما حدث بيني وبين الوالدة كانت له أسباب أعمق من الشرب والمعاملة السيئة. وتمكنت فقط من أن أخمن أي قلق اعتمل في أعماق الوالدة أو حتى الجدة. ولم أبحث عن طريقة لأنحى باللائمة على أي واحدة منهما، بل تملكني الحزن للوضع الذي لا بد من أنهما قد عاشتاه خلال طفولتهما.

لقد تذكرت الآن بوضوح، وأنا طفل قبل التحاقي بالمدرسة عندما تعوَّدت أن أناديها يا ›مي، أنها كانت تغدق عليَّ وعلى رون وستان الحب والرعاية وكل شيء تهواه أنفسنا. وفي بعض الأوقات، حين كانت الجدة تغادر بعد إحدى زياراتها، كنا جميعاً نحتفل كأن الجدة ما زالت شخصية مسيطرة في بيت الوالدة. فحالما كانت تغادر، كانت الوالدة تصبح قادرة على أن تفعل ما تريده. وفي إحدى المرات، عندما صممت الجدة على ألا تسمح لنا الوالدة بأن نلعب لعبة التويستر خشية أن نلوي أذرعنا في أوضاع تسبب كسر العظام، فردت الوالدة الملاءة البلاستيكية ولعبت معنا في اللحظة التي انغلق

فيها الباب. وقالـت بتودد: «لا تكترثوا لها. فهي لا تعرف كيف تلعب. لنستمتع بوقتنا!» وعندما فكرت في ذلك الوقت من الماضي، اعتقدت أن حفرة سـوداء ما مـن ماضي أمي قد سـيطرت عليهـا وامتصت منها الطيبـة كلّها وسـلبتها أي فرصـة تملكها فـي أن تسـتعيد طفولتها. وقد دعوت، وأنا صبي نائمٍ في سـرير عسكري، لأن تعود أمي وتنقذني من الوالدة. واعتقدت فعلاً أن أمي ستسـتيقظ من غفلتهـا يوماً ما. وحالما تفعل ذلك، سنعيش جميعاً حياتنا إلى الأبد كعائلة سعيدة ومثالية.

بطريقة غريبة، بدأت أشعر بنوع من الشفقة على الوالدة. وتساءلت في نفسي: هل عاشت طفولة سعيدة؟ هل شعرت الوالدة بالاستياء من الجدة بسبب الطريقة التي نشأت عليها؟ وإن كان ذلك صحيحاً، فربما أصبحت الوالدة شخصاً مكروهاً لأنها لم تعالج قضاياها العالقة؟ وربما تكون الوالدة قد أدارت ظهرها لماضيها وهي تأمل أن تحظى بالأفضل في مسـتقبلها. لقد كنت في أوائل العقد الثاني من عمري وأعلم مسبقاً أنه ما لم يحدث تغيير جذري، فمن المرجح أن الطريقة التي ينشـأ بها شـخص ما هي الطريقة نفسـها التي يربي عليها أطفاله. وبالنسـبة إليَّ، لم أرد من ذلك أن ألوم الوالـدة أو أوجه إصبع الاتهام لجدتي، ولكن أن أضمـن حريتي فـي أن أعيش حياة خاليـة من التعاسـة واليأس. لذا توجـب علـيَّ أن أتأكد من أنـه مهما كان السـبب الذي دفـع أمي نحو الهاوية فهو لم يكـن ليدفعني إليها أيضاً. وكنـت لا أزال مرتبكاً. ومما يدعو للاسـتغراب أيضاً، أنني كنت لا أزال أتـوق لأن تتقبلني الوالدة. أمـا الآن، فـكل مـا اسـتطعت فعله هـو أن آخـذ بنصيحـة الخالة جين وأمضي في حياتي.

بعد عاميـن أمضيتهما في العمـل كطباخ، تمت إعـادة تعييني في قسـم تمريـن السـرية، وهو ما مكننـي من العمـل في جـدول دوام من السّـاعة التاسـعة حتى الخامسـة. فلم يعـد يتوجب علـيَّ أن أنهض في

الساعة الثالثة صباحاً لكي أعمل من عشر ساعات إلى أربع عشرة ساعة في اليوم ناهيك عن قيادة السيارة لساعة إلى موقع العمل؛ فرحبت بهذه الفرصة، وكان توقيت تكليفي توقيتاً مثالياً. ولأنني وددت من كل قلبي أن أصبح فرداً في أحد طواقم الطيران، فقد توجب عليَّ أن آخذ دروساً في الكلية. فعندما عملت طباخاً، لم تكن هناك فرصة لأن آخذ وقتاً حتى لأسجل اسمي. أما الآن فقد أصبحت أملك الوقت كلّه الذي يلزمني.

كانت محاولتي لكي أطور نفسي من خلال مناهج الكلية بعد ساعات العمل العادية أمراً مسبباً للإحباط. وفي أثناء دراستي في المدرسة الثانوية قبل أن أتركها، لم آخذ قط شيئاً يجاوز الرياضيات الأساسية. لذا، فقد كان علم الجبر الأساسي أمراً يفوق قدرتي على الإدراك. وقد وجدت حتى أبسط القواعد، مضاعف العدد السّلبيّ يساوي عدداً موجباً، شديدة الصعوبة حتى أستوعبها. كذلك لم أستطع أن أفهم المنطق، وحتى بعد أن شرح المدرس لي المعادلة، فقد بقيت غير منطقية بالنسبة إليَّ كالأسطوانة المكسورة. ولأنني لم أستطع أن أطبق أبسط القواعد، فقد كنت أستغرق ساعات وأنا أحاول أن أحل مسألة واحدة إلى أن أوشك على أن أخبط رأسي بالطاولة.

ولأنني ما زلت أخطئ في لفظ الكلمات في بعض الأوقات وأتلعثم عندما أنفعل، فقد بدأت أقضي ساعات أمام المرآة وأنا أدرس الطريقة التي أشكل بها شفتي حين يخرج الصوت من بينهما. وبسبب قلة ثقتي بنفسي، فقد شعرت بالرعب من الفتيات. وكنت أفتقر إلى أي لياقة اجتماعية، وهكذا، فنادراً ما كنت أخرج مع أصدقائي. ولطالما عرفت نوعية الشخص الذي كنته والمكان الذي أنسجم فيه. ولطالما كان الوضع بالنسبة إليَّ هكذا. فقد تعوَّدت أن أحلل الوضع والسيناريوهات المختلفة وأتخذ قراراً بالمشكلة التي بين يدي وأفقد

الأمل في اللحظة التي تبدو فيها المشكلة ميؤوساً منها. فكانت حياتي بسيطة جداً.

لقد أصبحت متأخراً جداً في صفي بحيث إن الشيء الوحيد الذي تعلمته هو كيف ألعن نفسي لغبائي. لقد شعرت أنني أحاول أن أصبح شخصاً أعلم في أعماقي أنني لن أكونه. وقد ظننت أن الكلية هي أهم شيء، وبينما بدا على الجميع أنهم يستوعبون المواد فقد شعرت أنني تائه تماماً. ولطالما افتخرت بنفسي لمعرفتي حدودي وطاقاتي، لكنني أصبحت الآن متورطاً بعمل يفوق قدراتي بأشواط بعيدة. وفي وقت متأخر من مساء أحد الأيام، سألت نفسي بصوت مرتفع قائلاً: «من أحاول أن أخدع؟» فضربت بكتاب الرياضيات على الجدار وغادرت الصف.

في بادئ الأمر، شعرت بالراحة. فقد تحررت من الضغوط التي كانت تحطم عقلي في الصف، فأصبحت أقضي أمسياتي بقراءة كتب مثل: التحليق العملي الذي ألفه ربان طائرة يو 2 **غاري باورز** والذي أسقطت طائرته في **روسيا**. وكانت طائرة يو 2 من إنتاج المهندس نفسه، واسمه **كيلي جونسون**، الذي صمم طائرة **أس أر** - 71. وبينما أنا أدرس كتباً أخرى تتعلق بالطائرات الفريدة من نوعها التي صنعها ذلك الساحر الطيراني المشهور، كان **جونسون** قد شكل قسمه الخاص المدعو **الأعمال المخادعة**. فأدركت أنه لكي أحظى بأدنى فرصة في أن أصبح فرداً في أحد طواقم الطيران، يتوجب عليَّ أن أعود إلى الكلية. ولكي أؤكد على هذا، اتصلت بعامل عاتق الطائرة الذي يعيد تعبئة طائرة **بلاكبيرد أس أر** - 71 وسط الجو، ويدعى الرقيب **دي كيه سميث**. فقال لي إن سلاح الطيران لا يتطلب دروساً متقدمة في الرياضيات فحسب، بل إن الفرص، لكي أصبح عامل عاتق طائرة هي فرص ضئيلة حقاً. وكان الذين يتقدمون لتلك الوظيفة يكافحون من

أجلها بحدة وضراوة. فأصبحت المسألة ببساطة تتعلق بمقدار رغبتي بتلك الوظيفة من كل قلبي وكم أنا راغب في أن أواصل العمل لكي أحقق حلمي.

تطلب الأمر مني محاولتين أخريين ومدرساً يتمتع بصبر كبير لكي أخطو خطواتي الأولى في المادة حتى استوعبت في أحد الأيام كل شيء يتعلق بالجبر وأصبح كل شيء منطقياً جداً. وأصبحت، فعلياً، أستمتع بحل المعادلات. وقد اعتبرت الرياضيات علماً مطلقاً، لا مجال للشك والارتياب فيه، وتعلمت أن أترك الأمور تحدث ثم أرى ما إذا نجحت في منتصف الطريق. لقد كان كل شيء يساوي قيمة ما. وفي الرياضيات، كما هي حياتي، لم تكن هناك أي مساحات رمادية.

عندما ألقيت بالعقبة الأولى خلف ظهري، كرست جهودي لدراسة علم الجبر المتقدم ثم جربت دراسة علم المثلثات. وكان مدرسي مذهلين، فبدأت أبني لنفسي قاعدة جيدة لتساعدني على استيعاب المعادلات المعقدة بسهولة نسبية، وبدأت ثقتي بنفسي تزداد قوة. لقد كنت أعيش في ولاية فلوريدا التي تأخذ بالأنفاس، فدللت نفسي بشراء دراجة نارية ضخمة وخضعت للتأهيل المكثف وتقدمت رسمياً للوظيفة كفرد من أفراد طواقم طيران النخبة. كانت لديَّ وظيفة مدهشة، حتى إنني أتممت تدريباً صارماً في القفز المظلي، وبذلت قصارى جهدي ببطء شديد لكي أطور نفسي، وأخذت جهودي تثمر للمرة الأولى في حياتي. لقد أصبحت الحياة عظيمة، فشعرت كما كان شعوري عندما دخلت في وصاية والديّ بالرعاية في بادئ الأمر بأن كل يوم هو هدية ثمينة.

في أحد الأيام، وبشكل غير متوقع، في الأيام الأخيرة من شهر أيار من العام 1983، تلقيت رسالة من أخي رَسِل. ولأنني لم أكن على

اتصال مباشر مع جدتي لثلاث سنوات تقريباً، فإنني تساءلت كيف عرف **رَسِل** عنواني. وعندما قرأت الرسالة بسرعة، توجب عليَّ أن أجبر نفسي على أن أتباطأ لكي أستوعب كل كلمة. لقد شعرت بالبهجة لأنني أسمع خبراً عن أحد إخوتي وأتواصل مع فرد حقيقي من أفراد عائلتي. ولكن بينما أدركت فحوى الرسالة، شعرت بمعدتي تنقلب. فقد أكدت رسالة **رَسِل** على ما أطلعتني عليه الجدة قبل سنوات أن الوالدة بعد وفاة والدي قد انتقلت لتعيش خارج مدينة **سولت ليك ستي** بالضبط. وقد كتب **رَسِل** أيضاً أن مركز حقد الوالدة الرئيسي كان موجهاً نحو الوالد قبل وفاته. ومع أنها كانت شريرة في أثناء عيشي في منزلها، فقد بدا عليها أنها قد وصلت إلى مستويات جديدة من الكراهية. وبعد رحيل والدي وانتقالي من المنزل، بدا **رَسِل** كأنه قد تحول إلى هدف لغضب الوالدة.

تذكرت ذاك اليوم وأنا طفل تحت الرعاية، يوم قابلت **رَسِل** في مدرسة قريبة. فتيقّنت من كل شكوكي من النظرة الغريبة التي تعلو وجهه. وبينما أنا أنعم بالأمان بين ذراعي الدولة الحامية، لا بد من أن الوالدة قد جعلت إخوتي يعيشون في جحيم. وقد عشت مع الوالدة لاثنتي عشرة سنة فقط، في حين أنه توجب على إخوتي أن يتعايشوا مع كراهيتها حتى بلغوا الثامنة عشرة على الأقل.

تحول مجرى تفكيري إلى **ستان**. لقد كتب **رَسِل** في رسالته أنه قلق على **ستان** الذي أصبح معتمداً مادّيًا على الوالدة ويمقت وضعه الآن. وقد كان ذا كبرياء ويريد أن يتمتع بالاستقلالية. فتساءلت في نفسي قائلاً: ماذا لو حدث مكروه للوالدة أو الجدة؟ ماذا سيحل **بِستان**؟ وماذا بوسعي أنا أن أفعل؟

وحتى أخي الأكبر، **رون**، الذي تزوج مؤخراً، لم يصبح بمنأى عن متناول قبضة الوالدة. فقد ذكرت الرسالة أنه على الرغم من أن

رون وزوجته **ليندا** قد سكنا في ولاية **كولورادو**، فإنهما كانا على بعد مكالمة هاتفية فقط، ما يعني المنفعة للوالدة. ولم يكن من الصعب أن يتخيل المرء الوالدة، وهي في إحدى نوبات ثمالتها، تتصل في وقت متأخر من إحدى الليالي لتتحدث بصخب لساعات. ولمعرفتي أن **رون** كان لا يزال شرطياً في الشرطة العسكرية، فقد استطعت أن أتخيله ينال ساعات قليلة من النوم قبل أن يتوجه إلى العمل. وفكرت في نفسي: إن هذا الرجل المسكين عرضة للمتاعب في كلتا الحالتين. فمتى يحظى بلحظة سلام على الإطلاق؟ كيف يسع **رون** أن يطلع **ليندا** على حقيقة الوالدة وماضي العائلة؟ وإذا استمرت الوالدة على نمطها هذا، فمن المرجح أنها كانت تصفي صورتها أمام **ليندا** وتؤدي دور الأم المحبة المفرطة السخاء التي تعيش حياة مثالية. وعلى الرغم من أن تظاهر الوالدة نجح معها لسنوات، فقد كان بالكاد يبدو عليها أنها تستطيع أن تستمر بأداء التمثيلية بعد الآن.

فكرت في المستقبل، وعاهدت نفسي على أنني إن أقمت علاقة بأيّ امرأة، فإنني سوف أحميها من العلاقة المثيرة للاشمئزاز التي تربطني بالوالدة. وحتى لو كان ذلك يعني أن أناقض كل قيمي التي حافظت عليها وأن أكذب. ولكي أنال فرصة للمستقبل مع أيّ امرأة مميزة، فيجب عليَّ أن أواري ماضيّ في الثرى.

ذكرت رسالة **رَسِل** على الأقل أن **كيفن**، أخي الأصغر، لم تكن لديه فكرة عمّا حدث أو ما يحدث حوله الآن. وبالنسبة إلى **كيفن**، فنمط حياة الوالدة والجحيم المترافق معه طبيعي تماماً. وبطريقة غريبة، شعرت أن **رون** و**رَسِل** وحتى **ستان** كانوا يبذلون قصارى جهدهم لحماية أخيهم الأصغر. ولو حدث أي مكروه **لكيفن**، فربما كانت الجدة ستعرض عليه ملجأ آمناً. وعندما أعدت قراءة الرسالة، بدأت أشعر بندم عميق، فقد كنت بالمجمل، ومن دون شك، الأوفر حظاً.

وختمت الرسالة بجملة إيجابية. فقد كان رَسِل سيلتحق قريباً بقوات المارينز. وبدا فخوراً بأن يلتحق بقوة النخبة. وقد شعرت أن صداقاتها الحميمة وقيم الواجب والشرف السائدة فيها ستخدم رَسِل جيداً. فالابتعاد إلى أقصى مسافة عن الوالدة سوف يفيد رَسِل. فابتسمت لمجرد التفكير في تلك الفكرة. فقد نجا ثلاثة منا، وكان الاثنان الآخران في طريقهما نحو النجاة.

على الرغم من ذلك، ومع مرور الأسابيع، فإن رسالة رَسِل بدأت تقض مضجعي. فكل ليلة، كنت أفتح الأوراق التي احتفظت بها وأعيد قراءتها. لماذا كتب لي رَسِل بعد كل تلك السنوات؟ ما الذي يريده حقاً؟ ماذا بوسعي أن أفعل له على الإطلاق؟ وبعد سنوات من العمل بغباء في مشروعي اليائس، بدأت الآن أتخذ خطوتي الأولى في حياتي. ومع أنني ما زلت متلهفاً للحصول على أجوبة لماضيّ، فإنني كنت جزئياً لا أكترث البتة لذلك. وبعد سنوات من شعوري بعدم القيمة التام، أصبحت الآن الشاب الذي يملك الدراجة النارية الفخمة والفرصة لكي يصبح فرداً في أحد طواقم الطيران. وبالمجمل، اعتقدت أنني شخص صالح، فقد كنت أعمل بجد وأعتمد على نفسي وأحيا حياة هادئة وأنأى بنفسي عن المتاعب وأفعل كل ما بوسعي لكي أطور نفسي. لقد كنت أملك كل شيء يسعى إليه أي شخص. وبمرور الوقت، بدأت طفولتي شيئاً فشيئاً تصبح وهماً لا وجود له.

في إحدى الأمسيات بينما أنا أقرأ رسالة رَسِل، توصلت إلى إدراك الحقيقة. فعلى الرغم من أنني كنت أعرف أن إخوتي لا يزالون مجبرين على العيش في نمط حياة الوالدة، فإنني بقيت، تماماً كما فعل والدي في أحد الأوقات، سلبياً حيال الوضع. فلم أراسل أي واحد منهم أو أتصل به أو حتى أرسل له بطاقة بريدية لمناسبة ذكرى الميلاد. وبعد سنوات من محاولة الانسجام مع المجتمع، كنت أنا

من أصبح منعـزلاً عن العالم وعديم الوجـود. وأردت أن أمزق الورقة بالطريقة نفسـها التـي كدت أمزق بهـا أوراق تأمين الوالـد. ولو فعلت ذلك، لن تعود رسـالة رَسِل موجودة لكي تتسـبب لي بوخـز الضمير. كنت سـأنقذ نفسي بعدم الانسياق وراء التفكير في الماضي، فأغمضت عينـي وقبضت على الرسـالة، وأخذت نفسـاً عميقاً وأنا أتصور نفسـي أمزق الرسالة إلى أشلاء صغيرة. وفجأة، بدأت يداي ترتجفان وغمرتني موجة من الشـعور بالخزي، ففتحـت عيني وأجهشـت بالبكاء ومررت أصابعي على طول الأوراق. فبعد عشـر سـنوات قضيتهـا منفياً، كانت رسالة رَسِل هي الشكل الوحيد من أشكال التواصل بيني وبين عائلتي. وربما شكلت الرسـالة خطاً مفتوحاً غير مرئي بيني وبين إخوتي. وأقل مـا أمكنني القيام بـه هو أن أحتفظ بهـا. أما الآن فكل ما اسـتطعت أن أفعله هـو أن أعيد وضع رسـالة أخي بين أوراق أحـد كتبي وأدعو من أجل مستقبل أفضل.

بعد ثلاثة أشهر، أخذت إجازة من الخدمة العسكرية للمرة الأولى منذ سـنوات. وبعد زيارة قصيرة لآل تيرنباو، ركبت دراجتي النارية من منطقـة بي آيريا من دون توقف متوجهاً نحو مدينة سـولت ليك سـتي. وعلـى الرغم مـن أنني كنت سـأقيم مـع الجـدة، فإنني أضمـرت النية فـي أن أقضي أطول وقت ممكن مع إخوتي. وإذا سـار كل شـيء كما خططـت له، فإنني سـأقابل الوالدة وجهـاً لوجه. وكنت طوال الأشـهر القليلـة الأخيـرة التي مـرت على رسـالة رَسِـل، قد عقدت مـع الجدة هدنـة قصيرة. وعلى الرغم مـن أنني ما زلت في بعـض الأوقات هدفاً لجدالاتهـا، فإنهـا أصبحـت تعاملني كراشـد قـادر على اتخـاذ قراراته بنفسه. ولكن قبل رحلتي، عندما أخبرت جدتي بما أنوي فعله، عرفت من ردها التهكمـي أنني قد أزعجتها. ولـم أدرك ما قلته بحيث تسـببت فـي غضبها. وبينما أنـا أقترب من ولايـة يوتا، تمنيت فقـط ألا تتدخل

الجدة لمـرة واحدة. وربمـا كان قضائي الوقت معها سيسـاعدني على التقـرب منها، لكنـه ربما كان فقط سيسـلط بعض الضوء على السـبب الذي جعل الوالدة تؤول إلى هـذا المآل. وهكذا أصبحت الأجوبة في متنـاول يدي، وأيقنـت من أمر واحد وأنا أسـرع بدراجتـي النارية نحو الشـمس، وهو أنني كنت متوجهاً إلى قلب طفولتي وأن حياتي ستتغير إلى الأبد.

الفصل السابع

الحملة الإصلاحية الحمقاء

بحلول الوقت الذي عثرت فيه على منـزل الجدة في وسط مكان العربات المقطورة، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل. فقرعت الباب مراراً، ولكن بسبب تأخر الوقت كانت قد أوت إلى الفراش. ولأنني شعرت بالإنهاك الشديد من القيادة بلا توقف من كاليفورنيا والإحباط من الترقب المتنامي، فإن كل ما استطعت فعله هو أنني فردت كيس النوم المربوط على الدراجة النارية ونمت على أحد كراسي الفناء.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على صوت انـزلاق الباب. وكنت لسنوات قد تخيلت تحيتي للجدة بعناق حار كما رأيت في الكثير من الأفلام، ولكن قبل أن أتمكن من فتح سحاب كيس النوم، وقفت الجدة فوقي ويداها مسنودتان على وركيها. وقالت لي من دون أن تسألني: «إذاً، أرى أنك قد وصلت». فقلت لها وأنا أتثاءب وأفرك عيني: «إنني آسف. فقد كان الطريق طويلاً». وابتسمت وأنا واقف بجانب الجدة ثم انحنيت نحوها بارتباك لكي أعانقها، وظننت للحظة أنها قد أجفلت، فعانقتها بلطف ولففت ذراعي الطويلتين حولها. وعلى الرغم من أنها قد حيتني بالتحية نفسها، فإن عناقها لي بدا آلياً وليست له أيّ دلالة عاطفية. وعندما سحبت الجدة نفسها بعيداً، تركتها ثم تبعتها إلى منـزلها المتحرك. وأعادتني رائحة غامرة إلى الأيام التي جلبتني فيها الوالدة مع رون وستان إلى شقة الجدة

في سـان فرانسيسـكو حيث كنا نمضي اليوم بأكمله ونحن نزين شجرة ذكرى الميلاد الصُنعية. وفكرت في نفسي قائلاً: يا الله. لا بد من أنني كنت في الخامسة أو ربما في السادسة من عمري. وبعد تلك السنوات كلّها، لاحظت أن الجدة تملك قطع الأثاث نفسها مرتبة بالنظام المثالي نفسـه. فوقفت وفمي مفتوح في حين أخذت أصابعي تتحسس البيانو. لقد كان الدخول إلى منـزل الجدة أشبه بالعودة بالزمن إلى الماضي.

كانـت الجـدة لا تـزال أشـبه بزوبعة من النشـاط وهي فـي العقد السّـابع مـن عمرهـا. فأخذتنـي إلـى المخبـز المحلـي لنشـتري بضعة أرغفـة مـن الخبز الـذي مضى يـوم كامل على خبـزه، ثـم أخذتني في جولة قصيرة، في أنحـاء المدينة حيث جعلتني قيادتها المتقطعة أشـعر بالغثيان. لقد كانت تضغط على دواسـة البنـزين وتوجه السـيارة باتجاه في حين أنها تديـر المقود باتجـاه مختلف كلياً. وبعد النـزهة، جلسـنا خارجاً في فناء منـزلها لنتناول الغداء.

ولأي سـبب كان، لم أسـتطع أن أحمل نفسـي على الاسـترخاء. فكل ما اسـتطعت التفكير فيه هو ألا أقول أو أفعل أي شـيء من شأنه أن يجعل الجدة تسـتاء مني. لكن زيارتي حتـى الآن لم تكن ترقى إلى تمنياتـي. فلم أسـتطع حتـى أن أطيل النظر فـي وجه الجـدة لأكثر من بضع ثوان. ووجدت نفسـي أشـيح بوجهي عنهـا كلما تحدثـت إليها. وبينما أنـا أتناول بعض الطعـام، أدركت أنني مرغوب منهـا. فلقد كان تواجدي برفقة الجدة، شـخصياً، مختلفاً كل الاختلاف عن علاقتنا عبر الهاتف. وشعرت أمامها بأنني طفل جدير بالشفقة.

أصبح الوضع لا يطاق. فتنحنحت، وبادرت بالحديث بأن سألتها قائلاً: «أما زلت تمضين وقتاً طيباً بلعب الغولف؟»

فعرفت من إشـراق عيني الجدة أنني قد فتحت الحديث بالسؤال المناسـب. فقالت: «لقد لعبت الأسـبوع الماضي جولـة مع جنرال من

قاعـدة **هيل آيـر** الجوية، وهـو ضابط برتبة جنرال، وسـألته مـا إذا كان يعرفك، ولكن أعتقد أن هناك الكثير من الجنود...».

فصححت كلامها قائلاً: «الطيارين».

أمسكت الجدة عن الكلام وهي تمسك بشطيرة في يدها ونظرت إلى عيني بفتـور. وبعد صمت طويل، اعتذرت لهـا. فقالت: «على أي حال، ينبغي لك أن تأخذ وقتك وتـزور أكاديمية الطيران في **كولورادو سـبرينغز**. نعم، يجب عليك أن تذهب. فلديَّ خارطة هنا في مكان ما. الآن، أيـن وضعـت الخارطـة؟» وعندما وقفـت لتغادر، مسسـت يدها مصادفة. وقلت: «لا بأس. سـنعثر عليها لاحقاً». فنهضت الجدة بلمح البصر ودخلت بصخب إلى البيت. واسـتطعت من الخارج أن أسمعها وهي تنقب في بعض الأدراج بحثاً عن الخارطة الضائعة. وبعد دقائق، عادت الجـدة إلى الفناء والإحباط بادٍ عليها. فقالت: «سـيتوجب علينا أن نذهـب إلـى جمعية مالكـي السـيارات الأميركيـة. فأنا أذهـب إليها طوال الوقت. والفتيات هناك لطيفات جداً».

فجعلت فكرة الركوب مع الجدة مرة أخرى معدتي تنقلب. فقلت لها: «إنني آسف، يا جدتي. لم أقصد أن أكبدك ذلك العناء كلّه، لكنني لسـت ذاهباً إلى أي مكان قـرب الأكاديمية. وإجازتي هـي لبضعة أيام فقط. فالوقت المتوافر لديَّ هو فقط لأعود إلى القاعدة».

فأجابت الجدة بحدة: «إذاً فافعل ذلك، أيها الشاب».

كدت أوقع شـطيرتي. ونظرت إلى عينيها، فحدجتني بنظرة باردة قاسية أخرى. واستغرقت لحظة حتى أدركت فداحة خطإي. ولم أحاول على الإطلاق أن أكون قليل التهذيب أو الاحترام، بل حاولت فقط أن أوضح لها أمراً هو بالنسـبة إليَّ واضحٌ وضوح الشـمس. فالسفر لأكثر من اثنتي عشرة ساعة في اليوم على دراجة نارية بين ولايتين لثلاثة أيام يعني أنني بالفعل لا أملك الوقت الكافي لأيّ رحلات جانبية.

وفـي محاولة مني لكي أصلح موقفي، غيـرت مجرى الموضوع، وقلت: «على أي حال، لقد تسـلمت رسالة قبل شهرين من **رَسِل**. وقد سمعت أنه سيلتحق بقوات المارينـز. لا بد من أنك فخورة، يا جدتي. فثلاثة من أحفادك هم في أفرع مختلفة من الخدمة العسكرية».

فصاحت الجدة قائلة: «**رَسِـل**؟ دعني أخبرك شيئاً عن **رَسِل**! لقد اقترض صندوقي المعدني. فأعرته إياه... ليذهب مع إحدى الجماعات إلـى **هـاواي** ويقوم بقطـف الأناناس مـن أجل الحصـاد... أو أيـاً كان مـا يفعلونه هنـاك. وأنا لا أفهـم لماذا لا يـؤدي أولئك النـاس عملهم بأيديهم. وإذا سألتني رأيي، أقول لك إنها ليست أكثر من مجرد إجازة. وفي الماضي، حين كان المرء يعمل، فهو لم يكن بالتأكيد يؤدي عمله هناك بين أشجار النخيل، بل كان العمل شاقاً ويستغرق اليوم بطوله».

«وعلـى أي حال، منذ عاد وهو فخور ومغتر بنفسـه، كما يمكنني أن أضيـف، أنه قال لي إنني سـأحصل على صندوقي فـي المرة التالية لأنـه نسـي أن يحضـره أو كان منشـغلاً جـداً. وبحلـول الوقـت الذي حصلت فيه على الصندوق اللعين، وجدته في حالة مريعة. وأؤكد لك أن تلك ليست الحالة التي كان الصندوق عليها عندما أقرضته إياه!»

جلسـت وكل عضلة من عضلات وجهي مسمرة في مكانها. ولم أسـتطع أن أصدق الثـورة العارمة التي تسـببت بهـا. إذ إن كلام الجدة تدفق مـن فمها بحقد مرير. فجلسـت وأسـندت ظهري إلى الكرسـي، وسـألت نفسي ما إذا كان ثمة أي موضوع أو أي شخص آمن لنخوض حديثـاً عنه. لكنهـا تابعت حديثهـا قائلـة: «إن الصندوق عديـم الفائدة بالنسـبة إليَّ الآن. ولا بد من أنك تعتقد مثلـي أنه ليس كثيراً أن أطلب استعادة صندوقي في الحالة التي أقرضته إياه بها».

فقاطعتها بفتـور قائلاً: «يا جدتي! لقد سـافرت كثيـراً في حياتك وتعرفيـن كيف هـو الأمـر، فالأشـياء تتعرض للوقـوع. وقـد احتفظت

بذلك الصندوق لسنوات، وأنا واثق بأن **رَسِل** لم يعرف قيمته بالنسبة إليك». وهززت كتفي ثم قلت: «إنه لا يستطيع أن يحول دون ما قد يحدث عندما يتم تحميل الصندوق من طائرة إلى أخرى في كل أنحاء **هاواي**».

فقالت بسخط: «هذا لا يهم. لقد أنفقت مالاً طائلاً لقاء ذلك الصندوق. وكان ينبغي له أن يعتذر، فربما كنت سأتقبل ذلك بدلاً من خيانته. فأنا لا أستطيع أن أطيق كاذباً ولن أفعل ذلك!»

أردت أن أذهب إلى جدتي وأعانقها لكي أُبعِدَ عنها الإحباط. فأنا لم أستطع أن أصدق أنها قد أصبحت مستاءة إلى هذا الحد بسبب شيء من توافه الأمور. وقلت لها: «ربما شعر **رَسِل** بالإحراج. وربما خشي أن يعيد إليك الصندوق بعد أن عاد من **هاواي**». ثم سألتها برقّة محاولاً ثانية أن أخفف من حدة الموقف قائلاً: «هل تعتقدين أن ذلك هو السبب في أنه تجنبك؟»

فأجابت الجدة وكأنّها توصل إلي رسالة رمزية، وقالت: «لا يهم. وإن لم يكن المرء يستطيع أن يفي بوعده، إذن، فليبقِ فمه مغلقاً».

ففهمت تلميحها، وتنهدت محاولاً أن أصفي ذهني. ثم ابتسمت لأغير الموضوع قائلاً: «إن المكان يبدو رائعاً. هل قلت إن **ستان** يعتني بالمكان من أجلك؟ إنه يقوم بعمل رائع...».

«**ستان**؟ دعني أخبرك شيئاً عن **ستان**». وبلمح البصر، استهلت جدتي خطبة تقريع أخرى. فقالت: «لقد قلت له أن ينهي المدرسة لكي يتمكن من أن ينجح في حياته، وقلت له ما يجب عليه أن يفعله، وعرضت عليه المساعدة على القراءة إن هو لم يحظ بتعليم جيد في المدرسة...». ثم قالت بسخط: «لا أعرف ما الذي سيحل به. إذ إنه سيتاح له أن يعمل فقط كعامل توصيل للبيتزا في مثل هذه الحالة. ويجب عليه أن يذهب إلى المدرسة ويتعلم مهنة ما. ويمكنني أن

أخبرك ما لن أفعله: إنني لن أتحمل مسؤوليته».

وطفح الكيل. فلم أعد أحتمل. ومن دون أن تلاحظني، أطبقت قبضة يدي من تحت الطاولة. وقلت لها ببرود: «إن ستان معوّق عقلياً يا جدتي. وهذا ليس ذنبه».

أجابت قائلة: «إنني أعي ذلك تماماً. وهذا لا يعني أنه يمكن لستان أن يتجول طوال حياته لطلب الإحسان من الآخرين». وقد بدأت الآن على الأقل تتحدث عن ستان كأنه إنسان حقيقي.

«هناك حدود لإدراكه وفهمه. أيمكنك أن تتخيلي كيف هو الشعور عندما يقرأ المرء شيئاً ولا يفهمه؟ وليس هذا فحسب، بل ينسى أي شيء قرأه أيضاً؟ صدقيني، فأنا أعرف هذا الشعور، وبعض هذه الأمور مخيفة جداً. وبصراحة، إنني أعتقد فعلاً أنه محرج. وأظنه يعلم أنه سيتوجب عليه أن يعمل بجد حتى ينقصم ظهره بقية حياته. وأنا... وأنا...». وتلعثمت قائلاً: «لا أعرفه جيداً، لكن... ستان... إن كبرياءه يمنعه من الاعتراف بذلك».

ومضت عينا الجدة وقالت: «إنك لا تعرف شيئاً عنه أو عن أي شخص آخر في ذلك الموضوع! وكما قلت لك، إن كنت لا تعي ما تقول، إذن، ينبغي لك أن تبقي فمك مغلقاً». وأمسكت عن الكلام للحظة كأنها تريد بذلك أن تحقق تأثيراً ثم قالت: «وفضلاً عن ذلك، يجدر به أن يتواضع بعض الشيء».

بدأت مراجل غضبي تغلي. فعلى الرغم من أن المرأة التي كانت أمامي هي قريبتي وسيدة عجوز أكنّ لها كل الاحترام، فإنني بدأت أمقتها فعلاً لحقدها. وقبل أن أقول شيئاً، طلبت الإذن للذهاب إلى الحمام حيث رششت الماء البارد على وجهي. وعندما ألقيت نظرة نادرة على وجهي في المرآة، لاحظت أن عيني كانتا لا تزالان محمرّتين من القيادة المرهقة لستمئة ميل على دراجة نارية من دون

حماية مـن الرياح والمطر. وعندما فركت مؤخـر عنقي بمنديل الوجه، عدت بتفكيري إلى الجدة، ولم أسـتطع أن أدرك السـبب في أن كل ما كانت تتفوه به كان مفعماً بالحقد. لقد بدت طريقة كلامها ونبرة صوتها أشبه بنسخة بالكربون عن الوالدة.

وبعد لحظة واحدة، أدركت الرابط بينهما. وقلت في نفسـي: «آه، يا الله!»

خرجـت مـن الحمـام، وتفحصـت غرفة جلـوس منــزل الجدة. وبمـا أنها كانـت غرفة مميزة من حيـث دقة التفاصيـل، فإن كل غرض سـواء أكان صغيـراً أم كبيـراً كان موضوعاً بطريقة مدروسـة، لكنني لم أسـتطع أن أعثر على صورة واحدة لوالدتي. وفضـلاً عن صور مبعثرة لأحفادها، لم تكن هناك أيّ صورة لزوجها، الذي قيل لي قبل سنوات إنه قـد توفي حين كنـت صغيـراً، أو أيّ صـورة لأيٍّ مـن أقاربها. فلم يسـعني عندها إلا أن أعتقـد أن قلة الصور هي بالضبـط ما لاحظته في غرفة نوم الوالدة عندما زرتها قبل وفاة والدي.

أفزعتنـي جدتي عندما دخلـت عبر الباب الجـرار، لقد أوحى لي مظهرهـا أنها لـم تكن راضية عـن تطفلـي. وعندما جلسـت على أحد الكراسـي، اسـتطعت أن ألاحـظ من تعبيـر وجههـا أنها مسـتاءة مني. فتحسسـت أصابعي صـورة **لرونالد** وهـو مرتد زيه العسـكري، وكانت الصورة نفسـها التي رأيتها في منــزل الوالدة قبل سـنوات. فقلت لها: «أخبرينـي عن أمـي، أعني وهي طفلـة صغيرة. هل كانت سـعيدة على الإطلاق؟»

رفعت الجدة رأسـها بسرعة، وتحدثت بانفعال لبعض الوقت قبل أن تضـع إحدى يديها تحـت ذقنها، وتقول: «سـعيدة؟» وتهدج صوتها وهـي تجهد نفسـها لكي تمسـك بزمام أعصابهـا. وقالـت وكأنّه ينبغي علـيَّ أن أعرف كل شـيء: «لم يكن أحد سـعيداً في ذلـك الوقت من

الماضي. فقد كانت الظروف قاسية طوال الوقت. وأتذكر وأنا طفلة صغيرة...».

وواصلت الكلام، وانتظرت بصبر حتى تفرغ من حديثها. وبعد أن دقت ساعتها الأثرية معلنة الساعة الثانية، قاطعتها، وقلت: «نعم، ولكن، ماذا عن أمي؟ هل تدركين أنني لا أعرف شيئاً أبداً عن أمي؟»

«لقد كانت صعبة الإرضاء، ولا تقدر شيئاً حق قدره أبداً. وقد تظنها ستبدي شيئاً من الطيبة لمرة واحدة». وتوقفت الجدة قليلاً ثم نظرت إلى الأعلى، وقالت بلهجة من يدَّعي معرفة كل شيء: «لقد قلت لها إنها لم تكن ستتخرج من كلية التمريض قطّ».

«لم تتخرج؟ لكنني كنت أعتقد أن هذه هي الطريقة التي التقت بها والدي، أعني، في أثناء عملها كممرضة».

«لقد عملت في الصيدلية التي تقع في الطرف المقابل لمحطة الإطفاء. ولطالما كانت على هذا النحو؛ تواقة لإثارة الإعجاب. ولطالما اعتادت أن تتباهى ولا تتقبل أبداً وضعها الراهن فعلاً». ثم قالت الجدة بتذمر: «إنها لم تر الأمور على حقيقتها».

أصبت بدهشة كبيرة. فقد تشبعت ذاكرتي بفكرة أن حلم حياة أمي هو أن تصبح ممرضة لكي تساعد الآخرين عند الحاجة. وتذكرت وأنا طفل أنه كلما خدش طفل ركبته أو جرح مرفقه كانت أمي، الجارة الممرضة، دائماً حاضرة للمساعدة. وبدأ رأسي يدور. هل هناك أي شيء حقيقي في حياتي؟ هل يجب أن تكتنف الأسرار كل شيء؟ لماذا ثمة الكثير من الأكاذيب؟

ثم قالت الجدة من دون انقطاع: «لقد قلت لها مراراً وتكراراً إنها لن تصبح ممرضة، ولم تصغ إليَّ قطّ. لم تفعل ذلك ولن تفعله أبداً. ولم تكن تقدر شيئاً بذلته من أجلها على الإطلاق. وحتى الآن، كل ما تفعله هو الاتصال بي، ولا أعرف لكم مرة في اليوم، وهي ثملة.

وأحياناً أقوم بوضع السماعة وأبتعد».

فسألتها بلطف قائلاً: «ولكن ما رأيك؟ ما الذي تعتقدين أنه أودى بأمي إلى الحال التي هي عليها الآن؟ هيا، يا جدتي، لا بد من أن شيئاً في ماضيها...».

أمرتني الجدة وهي تصوب إصبعها نحوي وتنحني نحو الأمام قائلة: «إياك حتى أن...! إنني لم أسئ معاملتها قط! وربما صفعتها بضع صفعات قوية على جسمها. وربما حرمتها من بعض الوجبات عندما لم تقدر قيمتها، لكنني لم أسئ معاملتها قط!» وصفعت الجدة ظهر إحدى يديها بالأخرى بقوة بحيث إنني اعتقدت أنها ستنكسر. ثم قالت: «وإن سألتني رأيي، أقول لك إن الأمور كانت هينة بالنسبة إليها».

«إن ما يدعوه الناس الآن إساءة معاملة... لقد كانت الأوضاع مختلفة في ذلك الوقت من الماضي. وعلى أيّ حال...». وبدأت تهدأ. فاعتدلت في جلستها لتجلس على طرف الكرسي، ثم قالت: «ليست لديَّ فكرة عما كان يحدث حينئذٍ. فليست تلك مشكلتي. وما يحدث في بيت شخص ما يبقى بين جدران بيته. ولا علاقة لأحد آخر به. وأنا لا أرى أيّ حاجة في فتح باب المشاكل. فلا فائدة ترجى من هذا لأحد». واعتبرت الجدة كأنه يفترض بي أن أذعن لرأيها.

وكل ما أمكنني فعله هو أنني أومأت برأسي موافقاً. فقد سمعت الرسالة التي أرادت الجدة أن توصلها إلي. والأهم من ذلك، هو أنني فهمتها.

وبعد أن ساد الصمت للحظة، أعلنت قائلة: «لقد كنت أنا من اتصلت بالخدمات الاجتماعية قبل أن يتم إخراجك من البيت».

فجلست وأنا مصعوق من تحول مجرى الموضوع، وقلت: «إنني لا أفهم. أنا...».

«لا تتصرف بسذاجة. إنني أعرف كل شيء يتعلق بالمرأة التي أتت لزيارة المنزل عندما ألبستك أمك وأخذت تتباهى بك. ومن تعتقد أنه قد اشترى لك تلك الدراجة في ذكرى الميلاد الماضي قبل أن تخرج من المنزل؟ إن أمك بالتأكيد لم تفعل ذلك. فقد ابتاعت أمك دراجات لكل الصبية باستثناء كيفن لأنه كان صغيراً جداً. وقالت ببساطة، إنها قد نسيت أن تبتاع لك واحدة وبحلول الوقت الذي تذكرت فيه ذلك كانت قد جاوزت الميزانية المحددة، أو أن هذا هو ما قالته. وأعلمك أنه لم يكن يتوجب عليَّ أن أشتري لك دراجة، وقد دفعت ثمنها بطريقة يعجز ذهنك عن إدراكها».

شعرت أنني مصعوق من هول المفاجأة. فمن بين جميع الناس، كانت جدتي، التي قالت بعناد لتوِّها: «ما يحدث في بيت شخص ما ينبغي أن يبقى بين جدران بيته»، هي من اتصلت بالسلطات أول الأمر. وبينما أنا جالس أمامها، لم أصدق ما سمعته أذناي.

وقد تذكرت تلك الدراجة أيضاً. فحين كنت طفلاً في منزل الوالدة، كانت مقتنياتي الوحيدة تتكون من ملابس مهلهلة تعوَّدت أن أغسلها يدوياً في مغسلة القبو. وحتى على الرغم من أنه قد سمح لي أن أركب الدراجة الحمراء لبضع مرات فقط في الشتاء، فإن بهجة الحرية كانت لا تضاهى. وليست لديَّ فكرة، لكنني لطالما اعتقدت في ذكرى الميلاد في العام 1972 أن الوالدة قد تعاطفت معي، فانهارت واشترت الدراجة.

ابتسمت وشكرت الجدة على اتصالها بالخدمات الاجتماعية، والتي لطالما عرفت، كما عرف الجميع، كيفية المعاملة التي كنت ألقاها. وفي إحدى زياراتها، وجدتني واقفاً أمام مرآة غرفة النوم وأنا أصرخ على نفسي قائلاً: «أنا صبي سيئ! أنا صبي سيئ!» مراراً وتكراراً. وكانت الدموع تسيل على خدي وأنا أعترف بمدى أسفي

لأنني أثرت استياء أمي. وفي وقت آخر، أمسكت جدتي، وهي المرأة الانضباطية الصارمة جداً، بوجهي بين يديها وقالت: «إنك أكثر طفل يرثى له قابلته في حياتي! توقف عن الشعور بالأسف على نفسك وحقق شيئاً ما!» وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف أن ما يحدث معي هو خطأ. فقد اعتقدت ببساطة أنني صبي سيئ.

وعلى الرغم من أن الرغبة تملكتني لكي أنهض وأعانق الجدة شكراً لها على كل الأوقات التي ساعدتني فيها بصمت، فإنني لزمت مكاني. ومع ذلك، لم تخرج كلمة واحدة تعبر عن التعاطف أو الأسى لما حدث في الماضي من بين شفتي الجدة. فهي لم تعبر لي قط عن أسفها لموت والدي أو لما يرزح تحته إخوتي من ظلم أو لأي شيء عانيته على يد ابنتها. وفكرت في نفسي قائلاً: ربما كانت الحياة، من وجهة نظر الجدة، زاخرة بالمعاناة. فلا يمكن للمرء أن ينهمك في رثاء الذات، ولكن بالأحرى يجب أن يبذل أقصى طاقته لكي يتمكن من التخلص من أيّ ظروف سيئة يعانيها مهما كان صغير السن. وأعتقد أنه سوف يزداد قسوة من جراء ذلك.

ترى ما الذي جعل الجدة على ما هي عليه؟ ما الذي جعل قلبها يقسو؟ ربما توجب عليها أن تتحلى بالصلابة لكي تتدبر أمرها في تلك الأوقات. وحتى لو لم تكن حقودة، فهي على الأقل، امرأة معتمدة على نفسها.

وربما بعد أن كرست الجدة معظم حياتها الراشدة وهي تكافح كأرملة وتربي طفلين، فقد خارت قواها وسئمت قسوة الحياة. وربما كان ذلك أحد الأسباب في أن والدي قد نصحني قبل أن ألتحق بسلاح الطيران عندما طرحت معه موضوع طفولتي، وقال لي: «من الأفضل لك أن تنساها، وأن تنسى الأمر برمّته كأن شيئاً لم يكن». وفي ذلك الوقت، اعتقدت أن والدي أراد أن يأمرني بتجاهل سر العائلة،

لكنه ربما أراد أن يحميني من السعي وراء قضية خاسرة. وربما لهذا السبب أصبح والدي رجلاً مهزوماً. فمهما حاول جاهداً، فقد ذهبت جهوده أدراج الرياح. واعتقدت أن هذا ربما كان السبب في أن الجدة أشارت إلى الماضي على أنه باب الشرور وأنه حالما ينفتح فستتبع ذلك معاناة بشرية لا يمكن كبحها. وفي النهاية، لا شيء سيتغير. فبدأت عروق رأسي تنتفض من العبء. وقلت لنفسي: إنني ربما أفكر أكثر مما يجب.

وأعلنت وأنا أقف وأفرد ساقي قائلاً: «سأذهب لأقابلَ رَسِل. فينبغي لي أن أتغيَّب ليومين فقط».

قالت الجدة: «آه، كلا، إنك لن تذهب! لن تذهب إلى هناك. فأنا لا أريدك أن تراها».

فصححت كلامها بهدوء معتقداً أنها أساءت الفهم، وقلت: «لا بأس بذلك، يا جدتي. إنني لست ذاهباً لأرى الوالدة بل أنا ذاهب لأرى رَسِل فقط. وكل شيء مخطط له، فلن تعرف الوالدة». وطمأنتها قائلاً: «كل شيء على ما يرام حقاً».

فقالت وهي تغص بالكلمات: «إنك لن تراها، وأنا أمنعك. فأنت لست هنا، ورون بعيد، ولا أحد يعرف شيئاً، وأنا وحدي في هذا العالم، فكل ما تفعله هو أنها تتصل بي طوال الوقت ليلَ نهارَ؛ ويدهشني أنها لم تتصل اليوم. وأنا لا أبادر بفعل أي شيء، بل هي من تفقد السيطرة على أعصابها وتتمادى في ذلك ثم تجعل أمها تعاني وضعاً كالجحيم. وإذا وصل إليها خبر أنك هنا فسوف تثير المتاعب. وسأكون أنا من سيتوجب عليها أن تدفع الثمن!»

كل ما استطعت أن أفعله هو أنني هززت رأسي. ولم أقصد أن أؤذي أحداً، ولكن خلال زياتي القصيرة إلى هنا، تم استجواب كل حركة من حركاتي وكل نية من نواياي وفحصها. ومن جديد، أصبحت

عالقاً بيـن إرضاء جدتـي وزيـارة أخي الذي لـم أتكلم معه منذ عشـر سنوات. فغمرتني موجة مألوفة من الشعور بالذنب.

واسـيت جدتي قائلاً: «لا تجعلي ذلك سبباً لمعاناتك، يا جدتي. وإذا اتصلـت أمـي وأخذت تثرثـر كعادتهـا اقطعي الخط ببسـاطة، ولا تسـمحي لها أن تزعجك، بل قومي بمجرد إغلاق السـماعة والابتعاد. ولا أقصـد أن أكـون قليل الاحتـرام، ولكـن اتركي الوالـدة تمكث في عالمها الصغير الخاص بها. واخرجي للعب الغولف، وسـتكونين على ما يرام. فالأمر مجرد لعبة بالنسبة إلى الوالدة إن جاريتها فيه».

«إنك لا تدرك، ولا أحد يـدرك، الجحيم الذي تجعل أمها تعيش فيه...».

عندئذٍ، شعرت أنني أتعرض للاستغلال. فقد كنت، كرجل ناضج مسـتقل، قد سـئمت توخي الحـرص الشـديد في كل موضـوع أطرحه وأمهد له الطريق وأنا أتوسـل تقريباً للحصول على الإذن للقيام بشـيء يسـتطيع أيّ شـخص طبيعي أن يقـوم به بـكل حرية. فقلت لهـا: «لقد وعدت رَسِل. ويجب عليَّ أن أراه».

وفي غضون ثانية تحولت نبرة صـوت الجدة من اليأس التام إلى الحقد المرير، فقالت: «رَسِـل، رَسِـل، رَسِـل! إنه لا يسـتحق أن تضيع وقتـك من أجله. فأنـا لا أرى أيّ فائدة ترجى من ذلك. وليسـت هناك حاجـة فـي أن تقطـع كل تلك المسـافة لكي تـراه فقط، فليسـت هناك منفعـة تعود عليـك من هـذا. وإذا سـألتني رأيـي، فهو لا يسـتحق أي مجهـود تبذله من أجله. وهذا هو ما أعتقده. وأنا لسـت أملي عليك ما تفعله، ولكن إن كنت تريد...».

وقفـت أمام الجدة وأنـا أنتظرها لكي تأمرنـي أن أبقى، وقد كنت سـأفعل ذلك ومـن دون تـردد، كما تعـوَّدت دائمـاً أن أفعـل تماماً إن وُوجهـت بأمر يتعلق بمشـاعر الآخرين، واسـترضيتها بـأن أبقيت فمي

مغلقاً ودست على كبريائي ونسيت الأمر. وبعد أن ساد الصمت قليلاً، أمسكت بخوذة الدراجة النارية، وقلت: «لا بأس، يا جدتي. إن هذه ليست نهاية العالم. فهي مجرد زيارة لأخي».

بعد دقائق قليلة، كنت أوجه دراجتي النارية عبر متاهة من أعمال تصليح الطرق وأنا أحرر ذهني من ازدراء الجدة. وركنت الدراجة في طريق مورلبيري وي حيث أخذ رَسِل مؤخراً، بسبب الوالدة، على يد بعض الأصدقاء. فصعدت في الرواق وأنا لا أعلم ماذا أتوقع من الزيارة. وبدأت دقات قلبي تتسارع من الخوف حتى فتح شاب طويل ذو نمش على وجهه الباب وحياني بعناق سريع. وبعد أن تبادلنا التحيات بسرعة، قفزَ رَسِل على مؤخر الدراجة النارية، وأسرعنا لكي نجد مكاناً نتعرف فيه بعضنا إلى بعض.

وعلى بعد أقل من ميل واحد، ركنت دراجتي النارية إلى جانب صالة للعب البلياردو. وكان الدخول إلى مكان كهذا مع أحد إخوتي حلماً من أحلام حياتي في أن أوثّق صلتي بهم. فدخلت الصالة الطويلة ونظرت إلى عيني الساقي وصفعت راحة يدي على الطاولة مبرزاً عشرين دولاراً، وقلت بصوت مرتفع: «شيء من الشراب من أجل أخي، جندي المارينز الاستثنائي. وأيضاً شراب لجميع الحاضرين على حسابي!»

فساد الصمت المطبق الصالة. ولأنني لم أكن متعوّداً الجلوس في الأماكن العامة، فقد اعتقدت أن رد الفعل كان طبيعياً، وحتى ربما دلالة على الاحترام. واستطعت أن أشعر برَسِل يجذب قميصي. فقلت له بنبرتي الواثقة: «هيا، يا رجل، هدئ من روعك. إنها على حسابي». والواقع، أنني كنت مفلساً، لكنها كانت فرصة لا تحدث سوى مرة في العمر. فابتسمت وربّتّ على كتف رَسِل وأنا أشعر أنه هارب آخر من السجن وسجين حرب أعيد إلى وطنه وشاب يتخذ خطواته الأولى

نحو حياة الراشدين. نعم، إنها لحظة فخر بالفعل.

همس أخي مقاطعاً تركيزي قائلاً: «يا ديفيد؟»

فقاطعته قائـلاً: «هيا، يا رجل. لا تقلق. لقد بلغت الثامنة عشـرة، أليس كذلك؟ لا تقلق، فسوف يخدمونك. وأنا أعرف كيف أتصرف في مثل هذه الأماكن. ادفع لهم بقشيشـاً وسوف يقدمون لك كل ما تريده. هيا، يا رجل، هدئ من روعك. فأنت تعيش مرّةً فقط». وأخذت أنصح رَسِـل وأنـا أهزّ كتفـه. ولمرة واحـدة في حياتـي، تخليت عـن حذري واستمتعت باللحظة الراهنة، وأصبحت شخصاً عادياً لا يعاني المشاكل خارج قوقعته. ثم قلت: «هيا، يا رجل، لا تكن مفسداً للذات».

صـاح رَسِـل قائـلاً: «أصـغ إلـي، يـا ديفيـد. إنهـم لا يقدمـون الشراب».

فأوشـكت أن أجيبه، لكنه قاطعنـي قائلاً: «إن هذه مدينة سـولت ليك ستي في ولاية يوتا. أتدرك ما أعنيه؟»

وبينما أخـذ أخي الأصغر يعلمنـي عن العـادات المحلية، أكدت نظرة السـاقي على خطـإي الفاضح. وعرفت من وجـه الرجل المحمر المشـدود أننـي قد تخطيـت حـدودي ثانيـة. فتمتمت للرجـل العجوز وقلـت لـه: «إنني آسـف جـداً فعـلاً. ولـم أقصـد أن أكـون وقحـاً، يا سـيدي». وشـعرت أن كل الأدرينالـيـن الذي في جسـمي قد تلاشـى. فطلبـت زجاجتـي كوكاكولا بـأدب. وتركت بقشيشـاً سـخياً. وأخذت طاولة فـي المؤخر بعيداً عـن النظرة القاسـية لعمال البنـاء الذين كانوا يلعبون البليياردو.

اعترفـت قائـلاً: «مـا زلـت أتعلـم الواجبـات الاجتماعيـة، كمـا تلاحظ».

فوبخني رَسِل قائلاً: «إنك لا تخرج كثيراً، أليس كذلك؟»

قلت له بعد أن أخذت جرعة من الكولا: «مرحى!» وحان الوقت

لتغيير مجرى الحديث. فقلت له: «إنني لا أستطيع أن أتخطى ذلك حتماً، يا رجل. إنك تبدو في حال رائعة. إذاً، كيف هي الأمور؟»

فتنهد رَسِل وقال: «إنها أفضل. فقد أصبحت الآن خارج ذلك المنزل!» ففهمت المعنى الذي قصده على الفور. وقال: «ليست لديك فكرة عنها، يا رجل! ولا أقصد أن الأمور كانت سهلة لدى وجودك، ولكن صدقني، فقد كانت أفضل حالاً، وقد أصبحت أسوأ بكثير الآن». وكان رَسِل على أهبة الاستعداد لكي يبوح بكل ما لديه. فقال: «لقد تعوَّدت أحياناً أن تطاردني في أنحاء المنزل. فكنت أقول لها إنها إن مستني بسوء حتى فإنني... إنني لم أستطع أن أحتمل أكثر». ثم قال بتنهيدة عميقة: «وإن لم تكن في حالة هياج، فهي تتذمر باستمرار عن كل شخص وكل شيء في كل ثانية من اليوم».

«وعندما تنتهي من إلقاء تقريعها لي، تتحول إلى الجدة وحتى إلى رون وزوجته ليندا. ولا أحد في مأمن منها. إن رون لا يتلقى اتصالاتها حتى، لكن أمي لا تفهم ذلك أبداً». ثم توقف رَسِل لبعض الوقت لكي يستجمع أفكاره، وقال: «ويعتقد ستان أنه هو رجل البيت. أعني، ما الذي سيتمكن من فعله؟ إنه عاطل عن العمل. وهو على يقين بأنه يحتاج الوالدة من أجل المساعدة المالية ويكره هذا الوضع. وإذا حدث أي مكروه لها، فلن ينجو على الإطلاق. فهو يعتقد فعلاً أنه من يصلح الأمور» وابتسم رَسِل.

فأجبته وأنا أفكر في ما قالته لي الجدة وقلت: «إنني أدرك ذلك».

«إنني لا أحاول أن أقلل من شأنه، لكن بعض اختراعاته الكهربائية كادت تشعل عدة حرائق في الطابق السفلي من المنزل. وأمي، بالطبع، تعتقد أنني ورون نظلمه، لكن ستان لا يستطيع أن ينجز نصف الأشياء التي تعتقد أمي أنه يستطيع القيام بها. وهي ثملة جداً بحيث إنها لا

تعرف أن تفرّق، وستان لا يدرك حقيقة الأمور. وليست هذه غلطته، لكن أمي تغدق عليه حبها إلى حد خانق».

سألته قائلاً: «ماذا عن كيفن؟»

«إنه يشرب الكثير من الكوكا كولا طوال الوقت حتى إنه فقد كل أسنانه تقريباً».

فقلت له: «ماذا؟ هذا مستحيل».

«إنك لا تدرك الحقيقة، يا صاح. إن الوضع برمّته طبيعي بالنسبة إليه. فكيفن طفل. وهو غافل عما يجري حوله. ولا يعي أي شيء آخر».

وكلما وصف لي رَسل الوضع أدركت مدى دقة وصفه. وقد كنت أنا فعلاً الأوفر حظاً. لقد كنت متنفس غضب الوالدة وأنا طفل، وحالما أخذت بعيداً عنها، أصبحت نفسياً كحيوان جريح يهاجم كل من يعترض طريقه. وكان الفارق الوحيد هو أن إخوتي قد أصبحوا أكبر سناً وأكثر إدراكاً بحيث لم يعد بإمكانهم أن يتحملوا إساءة معاملة الوالدة الجسدية لهم، ولكن لسوء الحظ، ما زال عليهم أن يتحملوا العذاب النفسي وأسلوب الحياة المدمر للذات.

ومع ذلك، فقد بدا من غير الواقعي بالنسبة إليَّ أن تتمكن الوالدة من أن تحوِّل كراهيتها كلّها ضد أطفالها، الذين لطالما شعرت بالخوف عليهم. فحين كنت صبياً صغيراً يعيش في الظلام، كنت أعرف ما أتوقعه من الوالدة إلى حدّ أستطيع التنبؤ بمزاجها. ولم يبقني تفكيري المسبق عندما كنت أتخطاها بخطوة أو اثنتين على قيد الحياة ويزودني بدرع واقية فحسب، بل أصبح أسلوب حياة بالنسبة إليَّ. وقبل أن يولد كيفن، لم أكن واثقاً قط ما إذا كانت الوالدة ستقوم فجأة بمهاجمة رون أو رسل أو حتى ستان. وقبل أن أرحل عن المنزل، بينما أنا جالس على يدي في القبو، تعوَّدت أن أنكمش لدى سماعي إخوتي

وهـم يدخلون مـن الباب الأمامـي إلى المنــزل كأنهـم يدخلون حقل ألغـام. فمع كل خطوة كانت الوالدة تسـتطيع ومن دون إنذار أن تنفجر وتنشـر غضبها الشـبيه بالقذيفة في كل اتجاه. وقبل أسابيع من إنقاذي، أصبحـت بارداً جـداً في داخلـي ومهووسـاً تقريباً بالكراهيـة نحو رون وسـتان وخصوصاً رَسـل الذي تعوّد أن يكون جندي الوالدة النازي ذا الدماغ المغسول، لكنني في الوقت عينه كنت أتلو الأدعية لسلامتهم.

بينما أنـا جالس أمام رسـل الآن لم أسـتطع أن أتخيـل الكابوس الأسـود الذي جعلت الوالدة إخوتي يعيشـونه. وكل ما اسـتطعت فعله هو أننـي تمنيت أن مـا عانوه، أيـاً يكن، لن يؤثر سـلباً في مسـتقبلهم. وكل ما اسـتطعت أن أسمعه في رأسـي، كالأسـطوانة المكسورة، هو: «ثلاثـة ناجون، واثنان فـي طريقهم إلـى النجاة». وقد عانـى كل واحد منهـم على يد الوالـدة أكثر مما كان مـن الممكن أن أعانيـه حتى على الإطـلاق. لكنهم كانـوا أقوياء بالفعل، فـي حين أن الحظ قـد حالفني وتـم إنقاذي.

فقلت وأنا أغص بالكلمات: «إن كان هذا يعني شيئاً... فأنا آسف بشـأن كل شـيء. فهذه ليسـت طريقة سـليمة للحياة. وربما اعتدت أن أثير جنونها وأنـا طفل، لكنها...». وأضفت بندم قائـلاً: «لم تكن دائماً هكذا». وابتسمت للذكريات البعيدة قبل أن يُولدَ رَسِل. فلطالما أحبت أمـي أطفالهـا واعتزت بهـم وأخذتهـم في نزهـات ربيعية فـي المتنـزه ومغامـرات تخييـم لأسـبوع تحـت النجوم ورحـلات عظيمـة إلى نهر رَشان. كما أنها تعوَّدت أن تزين بيتها بالأضواء والشموع والزينة خلال موسـم ذكرى الميلاد. واعترفت قائلاً: «لقد عشنا أوقاتاً طيبة. وبالنسبة إليّ، فهذا يكفي أحياناً لأن يساعدني على المضي في حياتي».

قال رَسِل: «إنني لم أستطع قط أن أفهم ما الخطأ الذي يمكن أن تكون قد ارتكبته. فكل ما أسـتطيع أن أتذكره منـذ طفولتي هو أنك...

كنت دائماً واقعاً في المتاعب. وإن كان سبب ضربها لك هو...». ثم قالَ رَسِل بصوت خافت: «وصيف ذلك العام... أتذكر عندما... رمت السكين عليك أمامي تماماً...».

فعدت بذهني إلى الماضي وتذكرت رَسِل طفلاً صغيراً متعلقاً بساق أمي وهي تهتز بلطف. عندها كانت الوالدة تترنح ثملة. فانتزعت سكيناً وصاحت أنها ستقتلني إن لم أنهِ غسيل الصحون في الوقت المحدد. في ذلك الوقت، أيقنت أنها لم تعنِ ذلك. وبعد ذلك، وبينما أنا أستعيد وعيي في الحمام والدم يتدفق من صدري، أعلنت الوالدة، ما خيب أملي، أنها لن تأخذني إلى المستشفى أبداً خوفاً من كشف السر. ومع ذلك، فقد أدركت مرمى كلامها، ثم قلت بصوت مدوّ: «لقد كانت حادثة». فجفلت جماعة الرجال المحيطين بطاولة البلياردو.

فهز رَسِل رأسه وقال: «هذا مستحيل. لم تبدُ لي كحادثة».

كيف كان يمكنني أن أخبره أنني أعتقد أن الوالدة لم تنوِ حقاً أن تطعنني؟ وقد اعتقدت أنها كانت، من وجهة نظر الوالدة، مجرد لعبة محترفة تلعبها لكي تتحقق من إحكام سيطرتها علي. فقد أصبحت الوالدة وحشاً مهووساً بالسيطرة تحاول أن تسيطر عليَّ من خلال تهديدها وألاعيبها المخيفة. وقد أمكنها أن تهددني بأيّ طريقة تخطر في بالها، ولكن بسبب الطبيعة الغريبة لألاعيبها المستمرة، فقد توجب عليها أن ترفع من مستوى تهديدها في بعض الأوقات بحيث إنها وصلت بي إلى شفير الموت. وقد تطورت من كوني فرداً مبعداً من أفراد العائلة حتى أصبحت أدعى الصبي ثم أصبحت أدعى الشيء. وعندما أصبحت راشداً، اعتقدت أن الوالدة تعوّدت أن تستخدم تلك الشعارات لا لتهينني فحسب، بل نوعاً ما لكي تبرر معاملتها لي وتحمي نفسها من الانهيار بسبب حقيقة أنها كانت أماً تعامل ابنها بوحشية.

فرك رَسِل يديه بعصبية، وقال: «لقد سألتها عن تلك المرة التي

كنت فيها في غرفة النوم فأخذت تضربك ضرباً مبرحاً. لقد استرقت النظر من الباب... وعندما خرجت الوالدة من الغرفة، أذكر أنني رأيتها تمسح يديها... كأنها قد أنهت غسل الصحون لتوِّها. وسألتها عن سبب ضربها لك، فقالت من دون أن ترمش بعينها: «إن أمك تحب الشيء وتريده أن يصبح صالحاً».

فكاد نفسي أن ينقطع وأنا أتخيل المشهد.

ثم تابع رَسِل قائلاً: «وبرحيل والدي، أصبح حالها أسوأ. وإن لم تكن أمي تنتقدني أنا فهي تتحدث عبر الهاتف مع رون أو ليندا أو جدتي... وهذا المنوال لا يتوقف أبداً».

قاطعته مغيراً مجرى الحديث، وقلت: «أيمكنك أن تتحدث إلى ستان وتخبره أنني أسلم عليه؟ فحين كنا أطفالاً، قبل أن تولد أنت، وقبل أن تسوء الأمور، تعوَّدنا أن نكون مقربين بعضنا من بعض. وقد أنقذني رون وستان بضع مرات».

أومأ رَسِل برأسه قليلاً، وقال: «إن الأمر فحسب... أن ستان يعتقد أنه يعرف كل شيء وأنه رجل المنزل، فلا يمكنك أن تملي عليه أي شيء».

قلت: «نعم. قل له إنني أسلم عليه. وهل يمكنك أن تتحدث إلى رون؟»

فتردد رَسِل ثم قال: «يمكنني أن أعطيك رقم هاتفه».

«أفضِّل أن تتصل به أنت أولاً. وأعلم أن هذا يبدو غباءً، لكنني محرج بعض الشيء، ولا أعرف لماذا. أعني أنني لم أره منذ سنوات... بعد أن تزوج... وأصبح في الجيش. ولا أريد أن أفعل شيئاً قد يربكه». وجعلتني أنفاسي المبهورة أتوقف للحظة لكي أستجمع أفكاري. ثم قلت: «يا رجل! يا لها من عائلة. ويا لها من خسارة. لكننا نحن تمكنا على الأقل من أن نخرج على قيد الحياة».

قال رَسِل مبتسماً: «إذاً، السؤال المهم هو: هل ستقابل أمي؟»

فبلعت ريقي بصعوبة، وتمتمت قائلاً: «لا أعرف. فأنا أريد ذلك بشكل غريب، وأعلم أن هذا يبدو غريباً نوعاً ما، لكنني... لا أعرف». وتوقفت ثم قلت: «ولا أستطيع أن أشرح هذا».

صاح رَسِل قائلاً: «إذا ذهبت لرؤية أمي فسوف تغضب الجدة، يا رجل».

فضحكت وقلت: «لقد سببت لي الجدة الكثير من الارتباك بسبب مقابلتي لك. فالأمر كأنه... إن لم يكن الشيء فكرتها هي، فلا ينبغي للمرء أن يقوم به. أعني أنني أشعر بما يجول في خاطر الجدة وأعلم أنها قد بذلت الكثير من أجلنا ونحن أطفال وكل شيء، ولكن لا يسعني إلا أن أعتقد أنه عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع أمي، فهي لا تمد لنا يد العون على الإطلاق».

فقاطعني رَسِل قائلاً: «إنك لست هنا لتشهد ما يحدث، يا رجل. وأنا لست أتهم أحداً، لكن الأمر كأنهما تغذيان إحداهما غضب الأخرى. وكلما استطاعت كل واحدة منهما أن تجعل الأخرى تعيسة، شعرتا أن عالمهما يصبح أكثر إشراقاً».

أومأت برأسي موافقاً وأنا أقبض على زجاجة الكوكا كولا.

ثم سألني رَسِل مجدداً: «إذاً، هل ستراها؟»

فقلت وأنا أشعر أن شجاعتي قد خانتني: «إن الأمر لا يستحق العناء. وربما في المرة القادمة...». وتلاشى صوتي.

فأجاب رسل قائلاً: «نعم. إنني أتفهم شعورك. ربما في المرة القادمة».

ثم تجاذبنا أطراف الحديث في مواضيع شتى، إلى أن أوصلت **رسل** بعد عدة ساعات. وعندما عدت إلى منزل الجدة، أبدت لي **لامبالاتها**. وفي اليوم التالي، جعلت وضعنا يتفاقم أكثر عندما أخبرت الجدة **أنني**

قد دعوت رسل إلى الرحلة التي خططنا للذهاب فيها إلى حدود ولاية آيدَهو. وبعد ساعات، أثرت امتعاضها ثانية عندما تسوقت في إحدى المكتبات واشتريت رواية لكيفن، فنفد صبر الجدة، وأعلنت أنها قد سئمت وخرجت من السوق وهي تشتعل غيظاً. لقد استأت من أجلها، عندما أوصلتني ورسل إلى آيدَهو وقدمت لنا غداء نزهة شهياً، لكنني مع ذلك شعرت أنني أتعرض للاستغلال ثانيةً. ولكن مهما يفعل أي شخص، إن أرادت الجدة الذهاب، فيجب على الجميع أن يغادروا في الحال.

كل ما أمكنني فعله هو أنني وقفت في الصف واشتريت الكتاب وأسرعت للحاق بها لأنني شعرت أنه كان بوسعها أن تغادر وتخلفني وراءها. وكنت بطريقة ما أوصل للجدة رسالة، وهي أنني سأجلها وأتعامل معها بكل تهذيب، لكنني لم أعد طفلاً يمكن لها أن تأمره كما يحلو لها. وعندما دخلت سيارة الجدة، بينما كان المحرك يدور والجدة تقبض على المقود، أمسكت بكتاب كيفن بيدي بفخر.

في فترة العصر الأخيرة التي قضيتها في بيت الجدة، اتصلت هاتفياً بمكتب سلاح الطيران الذي يشرف على طلب تدريبي الشامل حتى أصبح فرداً في أحد طواقم الطيران. ومع أن إجازتي العسكرية كانت مشوبة بالقلق، فإنني شعرت على الأقل أنني أملك فرصة مواتية في أن أحقق حلم حياتي. فعندما ميز الرقيب صوتي، وبدت نبرة صوته إيجابية، قال لي: «آه، نعم، الرقيب بيلزر. لقد رأيت ملفك وهو هنا أمامي. ابق على الخط... نعم، آه، انتظر دقيقة». واستطعت أن أشعر بانفعالي يتنامى. ثم قال: «لقد كنت تلاحقني لفترة من الوقت، أليس كذلك؟ الآن، ها هو...». ثم أعلن بفخر قائلاً: «كل شيء يبدو منظماً... آه، انتظر ثانية».

فانقبض قلبي، وأصبحت لهجة الرقيب رقيقة وهو يقول: «لا أعرف كيف أقول هذا، ولكن يبدو كأن ثمة خطأ ما. فقد ذهبت

أوراقك بطريقة ما إلى إعادة تعبئة الوقود الأرضي وليس الجوي. لا تقلق، فهذا يحدث طوال الوقت...».

فقاطعته قائلًا: «أرجو المعذرة، يا سيدي. ماذا يعني هذا؟ إنه خطأ قابل للإصلاح، أليس كذلك؟ أعني، يمكن لك أن تصلحه، ولا سيما أنه ليس خطإي أنا؟»

فأجابني قائلاً: «إنني آسف. فأنا أعلم كم أنت تريد هذا من كل قلبك، ولكن في الوقت الذي تسلّمت فيه أوراقك، كان الأوان قد فات وقد شغلت المواقع. وقد فوّتّ لتوِّك الموعد النهائي، ولكن لا تقلق. إذا كان هذا يواسيك، فأنا أعلم أنه في غضون ثمانية أو تسعة أشهر ستكون لدينا دفعة أخرى من المواقع الشاغرة لنملأها. ولا أستطيع أن أعدك بشيء، ولكن يمكنني أن أنصحك أن تعيد تقديم طلبك مباشرة في مكتبي حالما تعود. ويجب علي أن أتعامل بإنصاف مع جميع المتقدمين، لكنني أستطيع أن أضمن لك أنك ستحظى بفرصة عادلة».

فتوسلت إليه قائلاً: «لكنني، أيها الرقيب، لا أملك ثمانية أشهر، فسوف تنتهي مدة التحاقي في غضون ستة أو سبعة أسابيع! ولا أفهم ما يحدث. لقد فعلت كل شيء، ودرست مادة الرياضيات وحتى المثلثات، ودرست الطائرات من الداخل والخارج. ولديَّ تقارير تقدم سنوية جيدة، وقد حزت ميداليات، والتحقت بالكلية، ولديَّ حتى رسالة من كيلي جونسون». وأخذت أنتحب كالمغفل. ثم قلت: «لقد أردت هذا منذ وقت طويل. ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟»

«إن خدماتك ليست موضع شك، بل هي قوية. ولو أن هناك موقعاً شاغراً، لأعطيتك إياه. ولكن ليست هذه هي القضية الآن. وأنا آسف. فأنا أقدر شعورك، ولكن ليس هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك».

تسمرت في مكاني وأنا لا أزال أقبض على الهاتف. لقد اعتقدت اعتقاداً جازماً أنني أملك الفرصة المواتية. واعتقدت هذه المرة أن

عملي الجاد وإصراري كانا سيحققان لي ما أريده. فمنذ توفي والدي، عثرت على كل شيء أستطيع أن أركز جهودي عليه وعلى حلم حياة أستطيع أن أحققه من أجل نفسي. ولمدة أشهر في الثكنة، في أيام الجمعة والسبت، بينما يستمتع الشبان الآخرون بوقتهم في شرفة البناء خارجاً، تعوَّدت أن أدلي ساقي من الشرفة نفسها وأعمل على استيعاب معادلتي الرياضية الأخيرة. وفي أنحاء السرية، اكتشفت أن النظراء الذين لا أعرفهم حتى كانوا يشجعونني، وأنا مجرد طباخ، لكي أنجح وأصبح فرداً في أحد طواقم الطيران.

وعندما أتت الجدة باتجاهي، استطعت أن ألاحظ أنها لم تكن سعيدة. لقد تذكرت أنها ألقت عليَّ محاضرة لكي أختصر المكالمة الهاتفية، وها أنا قد تحدثت مع الرقيب لمدة عشر دقائق على الأقل، وهذا ما اعتقدت أنه أطول من المدة المحددة بتسع دقائق. وفضلاً عن كوني مهذباً جداً ومراعياً لشعور الجدة، فقد شعرت أن زيارتي لها لم ترق إلى ما تخيلته. وشعرت بصدق أنني لا أعرف هذه القريبة، وهي لا تعرفني.

فقالت الجدة بحدة: «الهاتف».

نظرت إلى يدي التي تقبض على الهاتف، وشعرت أنني بارد كالثلج، وقلت: «آه، نعم، إنني آسف». وسرعان ما نظرت عيناي إلى الأرض بينما كنت أعيد وضع السماعة في مكانها. وظلّت الجدة واقفة إلى جانبي وكأنها تنتظر تقريراً.

فسألتني قائلة: «إذاً؟»

هززت رأسي كأنني جرو تعرض للتوبيخ، ثم قلت: «آه... آسف. ليس شيئاً هاماً. بل إنها أمور تتعلق بسلاح الطيران فحسب، وليست على شيء من الأهمية على الإطلاق». وقد وددت أن أخبرها وأن أضم جسدها الضئيل وأبث لها أحزاني، وليس بالضرورة لكي أنتحب على فشل حملتي الإصلاحية العقيمة الأخيرة، ولكن بالأحرى كطريقة

أتعـرف بها إلى جدتي كشـخص حقيقي وأتعرف إلـى آمالها وأحلامها وما يقلقهـا وتجارب حياتها وهي طفلة وشـابة وأرملة ربّت طفلين في أوقـات عصيبـة. لقد كان هنـاك الكثير ممـا يعجبني فيهـا. فجدتي هي واحدة من الناس الذين يعتمدون على أنفسهم في المصاعب. وبطريقة ما، فمـا زلت أعتقـد أنني وإياهـا وجهان لعملـة واحـدة. وكان هدفي الوحيـد مـن قضاء بضعة أيـام معها هـو أن أوطد معرفتي بهـا. وطوال حياتي، كنـت أعتقـد أن أي موضوع حسـاس كان سـيوارى في الثرى علـى الفور. وعندمـا كبرت، ما زلت لا أعرف شـيئاً عـن والديّ وعن حياتهمـا. ومع ذلك، فبينمـا أنا واقف إلى جوار الجـدة، أيقنت أن كل ما كان باسـتطاعتنا أن نفعله هو أن نثرثر مـن دون هدف وأنا أرجو ألا يقرب أحدنا موضوعاً لا مجال للخوض فيه.

تنهدت الجدة لتخفـف التوتر، ثم قالـت: «إذاً، هل أخبرتك أنني قـد لعبـت الغولف مـع ضابط من قاعـدة **هيل آيـر** الجويـة؟ أعتقد أنه جنـرال... وفي أي حال...». وهكذا قمت أنـا وجدتي بقتل الوقت في أمسيتي الأخيرة حتى خلدنا أخيراً إلى الفراش.

فـي وقـت مبكر مـن صبـاح اليـوم التالـي، حزمـت كيـس نومي الأخضر الكبير وحقيبة ظهري العسـكرية على دراجتي النارية. وبسبب إصـرار الجدة الذي لا يلين، أخذت علبة قهوة تحتوي على بسـكويتها المصنوع منـزلياً. وبعد أن عانقت جدتي عناق وداع خالياً من العاطفة، انطلقـت علـى متن دراجتـي. وبعد سـاعات في ظـل الحـرارة اللاهبة أصبح فيها جسدي مخدراً وجافاً بسـبب الأميال التي لا نهاية لها على الطريـق بين الولايتين، وكان الشـيء الوحيد الذي فكـرت فيه هو أنني أردت أن أصل إلى قاعدتي في **فلوريدا** حيث يمكنني أن أبدأ إجراءات خروجي. فقد كنت سأودع سلاح الطيران بلا رجعة.

الفصل الثامن

التغييرات

نجحت بالعودة من يوتا إلى هيرلبرت فيلد في فلوريدا بشق الأنفس. إذ إن سلسلة الدراجة قد تمددت كثيراً بسبب تجوالي عبر البلاد بحيث إن كل أسنان العجلة المسننة الخلفية قد انفصلت عنها وكادت تتركني مهجوراً في تكساس في أثناء موجة حر لاهب. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى ولاية مسيسبي أصبح إطار عجلتي الخلفي مجرداً من المطاط. وكل ما استطعت فعله هو أنني تجاهلته. فقد توجب عليَّ أن أنفق ما بقي من نقودي على ملء خزان الوقود وأنا لا أتوقف عن تلاوة الدعاء لأقطع كل ميل من الطريق.

بعد ساعات من دخولي القاعدة، بلغت الضابط المسؤول عن إجراءات خروجي من الجيش. ولسوء حظي، لم أكد أصل أمام طيار شاب معين حديثاً وعصبي ومرتبك حتى أعلمني أنه يجب علي أن أبلغ رئيس القسم. يا للروعة! وفكرت في نفسي قائلاً: عظيم! والآن ماذا؟ وقد شعرت أنني خائر القوى وعلى أهبة الاستعداد لأن أتشاجر مع الشخص التالي الذي أقابله. وبينما أنا أمشي بغضب عبر الممرات، شعرت أنني قد تعرضت للخيانة. فبعد أربع سنوات من الخدمة، لم تُكافأ أي من جهودي. ولم يكن الالتحاق بسلاح الطيران لكي أصبح إطفائياً شيئاً أكثر من مجرد نكتة سخيفة. فقد عملت بجهد، كما فعلت منذ سنوات طويلة، ولكن هذه المرة من مستنقعات فلوريدا إلى صحراء مصر. ومن أجل ماذا؟ ولم أكن أمانع أن أؤدي واجبي، لكنني

تمنيت لو أن الحظ يكون حليفي ولو لمرة واحدة فقط.

وكلما كنت أشعر بمراجل غضبي تغلي، كنت أحاول أن أتجاهل كبريائي. لقد عملت طباخاً، لكنني في الواقع كنت طباخاً عمل إلى جوار الأهرامات العظيمة. وكانت الفرصة قد سنحت لي في أن يعاد تعييني لأعمل في مكتب أتلقى فيه التقدير لجهودي. وقد أهّلني ذلك، وأنا متسرب من المدرسة الثانوية، لأن أرتاد الكلية. وقد ادخرت حفنة من الدولارات. ولمدة أربع سنوات، منحني سلاح الطيران بيتاً لآوي إليه. وبالمجمل، ما الذي كان لديَّ لأتذمر بشأنه فعلاً؟ وهكذا فلم أحظ بالفرصة الذهبية لكي أصبح فرداً في أحد طواقم الطيران. ويا له من أمر هام! فما كان يهمني فعلاً هو أنني بذلت ما في وسعي، وشعرت بالرضا لمعرفتي أنني لم أتراجع. فقد تعرضت لبعض المحن القاسية ولم أستسلم قط. وبحلول الوقت الذي أرشدني فيه موظف الاستقبال إلى مكتب القائد، عدت إلى طبيعتي السابقة. فوقفت منتصب القامة وألقيت التحية العسكرية قائلاً: «الرقيب بيلزر يقدم نفسه، يا سيدي!»

نهض سيد مهذب أسود البشرة طويل القامة من خلف مكتبه المعدني الرمادي، وحافظ على ابتسامة صغيرة في حين أن عينيه كانتا تجولان متأملتين لباسي الموحد المكوي. ثم قال: «اجلس. إذاً...». وتوقف القائد ثم قال: «هل نحن متفقان؟»

«سيدي؟»

«أما زلت تريد أن تصبح فرداً في طاقم الطيران؟»

لم أكن واثقاً من مغزى سؤاله، فقلت: «أريد ذلك... أعني، كنت أريد ذلك، لكنه لم يعد...».

قاطعني قائلاً: «إن النقطة الجوهرية هنا هي الطريقة التي تم فيها تسيير طلبك. وقد ارتكب سلاح الطيران خطأً. وقد عانيت من مشكلة من جراء ذلك». ثم قال النقيب بفخر: «إذاً، لدي اقتراح أقدمه لك. إن

سلاح الطيران راغب في أن يمنحك تمديداً لفترة التحاقك، ويمكنك أن تستغل هذا الوقت لإعادة تقديم أوراقك. وإذا تم قبولك كفرد في طاقم الطيران، يمكنك أن تعيد الالتحاق. وإذا لم يحدث ذلك، يمكنك أن تغادر. ولكن عليك أن تدرك أن حصولك على تمديد لا يعني في حال من الأحوال أنك قد حصلت على موقع كفرد في الطاقم، لكنك...». ثم قال بابتسامة خبيثة: «ستملك القدرة على أن تتابع أوراقك. وسوف تخوض الكثير من الأعمال الصعبة، وفي النهاية ليست هناك ضمانات، لكن هذا عرض منصف».

وهكذا، حصلت لتوّي على فرصة ذهبية واتتني من المجهول. فقلت: «سأقبل بالصفقة!»

هرعت إلى مشرفيّ وأعلمتهم بمدى حسن حظي. ومن دون تردد، قاموا بتغيير برنامج عملي لكي أتمكن فعلاً من الإشراف على الأوراق الضرورية التي يجب أن تبدأ من نقطة الصفر. فأمضيت الأسابيع القليلة الأولى وأنا أجري في أنحاء القاعدة لأجمع الاستمارات الصحيحة وأسلمها في المكتب المناسب. وإن حالفني الحظ، فسأكون قد أتممت جمع التواقيع والأوراق اللازمة في تلك الفترة الإضافية التي حصلت عليها. ثم توجب عليَّ أن أجمع الاستمارات الإضافية التي تتطلب مزيداً من التدقيق بالترتيب المناسب إلى أن عدت أخيراً إلى مكتب النقيب وأوراقي كاملة.

بدأ الضابط قائلاً: «لقد سمعت خبراً من الرقيب بلو، وهو الرجل الذي يتولى أمر طلبك الخاص. ويقول إنه قد يحظى بمواقع شاغرة قريباً نوعاً ما». وهذه المرة ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: «وسوف أشرف على نوعية الأوراق وأمنحها موافقتي وأرسلها. وفي غضون أسبوع، ينبغي أن تتلقى مكالمة من الرقيب بلو».

حييته قائلاً: «شكراً لك، أيها النقيب».

فـردَّ علـيَّ التحية، وقـال: «وكمـا قلت لـك، لقد ارتكب سـلاح الطيران خطأ. فعانيت مشكلة من جراء ذلك».

* * *

مرت الأسـابيع ببطء من دون أن أسـمع كلمة واحدة. وقد أردت من كل قلبي أن أتصـل بالرقيب، لكنني خشـيت أن يقضي إزعاجي له على فرصتي. فشغلت نفسي قدر المستطاع وأنا أحاول جاهداً أن أبعد تفكيري عن موضوع الأوراق. وبعد أسـبوع آخر، استسلمت واتصلت به. فبادر الرقيب بلـو بلا اكتراث قائلاً: «إنني أتوقـع اتصالك. فقد كنا نعاني مشـكلة...». فشـهقت وأنـا أنتظر السـماء لتنطبق علـي. ثم قال: «إنك لن تصدق هذا، ولكن يبدو أن أوراقك قد ذهبت إلى إدارة إعادة تعبئة الوقـود الأرضي ثانية». وعندما توقف تسـاءلت عمـا يجب عليَّ فعله. فبعد كل ما عانيته لـم أكن لأستسلم وأنسحب. وتابع الرقيب بلو قائلاً: «على أي حال، كما قلت لك، كنا نعاني مشكلة».

فقلت له وقد لاحظت تشديده على كلمة كنا: «كرر ما قلته».

«دعني أقول لك هذا: لقد تعلموا من أخطائهم. فوصلت الأوراق فـي الوقـت المحـدد. والآن». وأضاف قائـلاً: «لدينا مشـكلة أخرى». فانقلبت معدتي. ثـم تنحنح الرقيب وقال متلعثماً: «يبـدو... يبدو أنني لن أتمكن من أن أحقق لك الحصول على قاعدتك المطلوبة».

فأدركـت ما يرمي إليه بسـرعة، وقلت باهتياج: «سـوف أقبل بأي شـيء لديك. أي شـيء! حتى مينوت!» وكنت أعرف أن قاعدة مينوت الجويـة تقع فـي أقصى ولايـة نـورث داكوتا وتشـتهر بفصول شـتائها القارسة.

فأعلمني قائلاً: «لا يمكن ذلك».

وقمـت بحسـاب المدة فـي ذهنـي. إذ إنني لـن أحظـى بالفرصة لأن أعيـد تقديم أوراقي ثانيـة، لأن الوقت قد تداركنـي، ولم تعد لديَّ

خيارات أخرى. وفجأة فكرت في طريقة أخرى. فقلت: «ماذا لديك؟»

«إن أفضل ما أستطيع أن أقدمه هو...». واستطعت أن أشعر بانفعال الرقيب بلو المكبوح. وبدأ شعر ذراعي يقف، ثم قال: «... هذه القاعدة في ولاية كاليفورنيا شرقي سلسلة جبال سييرا نيفادا».

فصحت قائلاً: «قاعدة بيل؟»

«موطن طائرة سليد. تهانينا! وحالما تصبح فرداً من الطاقم، سوف تحظى بوظيفة عامل عاتق طائرة في طائرة أس أر - 71 المعروفة باسم سليد. وقد كنت أنتظر مكالمتك فحسب».

عندها غمرتني مشاعر البهجة والفرح. فشكرت الرقيب بلو شكراً جزيلاً. وعندما أغلقت السماعة، ضممت يديّ بعضهما إلى بعض. وعندما هدأت، تلوت الدعاء شاكراً الله على رعايته.

بعد عشرة أشهر في صيف العام 1984، توقفت طائرة بلاكبيرد أس أر - 71 في وضعية الحوم وهي تطير تحت طائرة إعادة تعبئة وقود من طراز كيه سي 135 كيو بعشرة أقدام وخلفها بأربعين قدماً. وكانت بانتظاري، بعد أن أصبحت عضو طاقم عُيِّنت حديثاً، لكي أؤدي دوري في المهمة. فوقفت وأنا أحدق من الزجاج الذي لم يحمني فحسب على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم، بل منحني مشاهدة لا محدودة لكل ما هو حولي على مسافة مترامية الأطراف. فأخذت نفساً عميقاً لكي أستجمع شجاعتي، وانتابني شعور مميز بالحاجة إلى أن أمد يدي عبر الزجاج وألمس طائرة البلاكبيرد حين كانت كلتا الطائرتين تتوجهان في طريقهما جنوباً في سرعة تجاوز خمسمئة ميل في الساعة في مسار مخصص لإعادة تعبئة الوقود فوق نهر سالمون الأزرق في ولاية آيدهو. ولم يكن المشهد الخلاب أو حسن حظي الذي هيأني لأصبح فرداً في برنامج سلاح الطيران المميز يتمتع بكل الأهمية بالنسبة إليّ، لكن الأهم من ذلك كلّه هو أن تلك هي رحلتي الجوية

المنفردة الأولى. لقد بدأت أحقق حلم طفولتي. ولم أعد بعد الآن معذباً أو مقيداً في محيط مظلم وأنا أرجو بيأس أن أتمكن من التحليق بعيداً عن الخطر. وبعد سنوات قضيتها في التضحية، تحول مجرى حياتي إلى الأفضل. وللمرة الأولى في حياتي بدأت أشعر براحة حيال نفسي. ولطالما أيقنت في قرارة نفسي، وأنا طفل، أن جهودي ستكلل بالنجاح إن سنحت لي الفرصة. والآن، أصبحت حياتي كلها تسير في المسار الصحيح ولم أعد أشعر بالخزي. فقد أصبحت شخصاً حقيقياً، وصار باستطاعتي أن أخفف من حذري وأن أهدئ من روعي وأعيش حياتي.

أرسلت باللاسلكي لطائرة **أس أر** - 71 مستخدماً إشارة الاتصال الخاصة بها تليها الإشارة الخاصة بي، فقلت: «من **آسبين** 31 إلى **بانديت** 27. أنت جاهز للاتصال».

فقال الطيار في قمرة الطيران: «مرحباً، أيها الطيار. اجعل **كيلي جونسون** فخوراً بك».

فابتسمت وقلت: «حوِّل». وبالنسبة إليَّ، لم يكن في الإمكان ما هو أفضل مما كان!

الآن، بعد أن أصبحت فرداً في طاقم الطيران، صرت أعيش مغامرة في كل يوم. فكلما زررت بدلة الطيران، شعرت كأنني شبيه ببطلي من أيام الطفولة، **سوبرمان**، وعلى أهبة الاستعداد لكي أنقذ العالم من مصير يتهدده. وكان لباسي الأخضر الموحد هو ما أخذني إلى أماكن حلمت بها فقط وأنا طفل سجين لدى الوالدة. لقد كنت مقدراً لحقيقة عملي في منظمة فريدة من نوعها تنطوي على إحساس الشرف والصداقة الحميمة. وكلما كنت أنهمك أكثر في عملي كعامل ملء وقود الطائرة، كنت أصبح أكثر اعتزازاً بوظيفتي، ويتنامى في داخلي إحساس بالفخر. فقد أصبحت فرداً في عائلة.

كانـت مهنتي الجديـدة تتضمن مسـتوى جديـداً من المسـؤولية. ففضـلاً عن الطيـران لمرتين، وأحيانـاً لثلاث مرات في الأسـبوع، كان يتوجب عليَّ وعلى طاقمي في أي سـاعة من النهار أو الليل أن نقضي اليوم السـابق ونحن نخطط لأدق التفاصيل من مرحلـة ما قبل الطيران قبـل إقـلاع الطائـرة وحتى إطفـاء المحـرك بعـد الهبوط. وسـرعان ما تعلمت خطورة الوظيفة. فإن طرأت أيّ مشكلة سياسية أو عسكرية في أي مـكان في العالم، كانت طائـرة **البلاكبيرد** ستسـتخدم لتجمع صوراً حقيقية مـن مكان الحـدث لتوضع بين يـدي الرئيس فـي غضون أربع وعشـرين سـاعة، إن كانت هناك حاجة إلى ذلـك. وكان النموذج **كيو** من طائرة **كيه سي** 135 هو الطائرة التي تزود طائرة **بلاكبيرد** بوقود **جيه بي** 7 الفريد من نوعه، الأمر الذي يمكن طائرة **أس أر** - 71 من أن تتم مهمتها. وقد استخفني الطرب لمعرفتي أن حقائبي كانت محزومة وأنه يمكن لي أن أستدعى لكي أطير إلى غروب الشمس في أيّ لحظة.

ولأننـي لـم أكن أنام قط في الأمسـية التي تسـبق الرحلـة الجوية، فقد كنـت أعود خائر القوى بعـد إحدى المهمات التـي تنفذ في وقت متأخـر من الليل، وأنهار في بركة السـباحة في المجمع السـكني. ومع ذلك، فإن الابتسـامة لـم تكن تفارق شـفتي وكنت أتأمـل النجوم التي كانت قبل ساعات تبدو قريبة بما يكفي لألمسها بيدي.

لقد كنت أعيش حياة رائعة وأملك شـقتي الخاصة حيث لم يكن مـن الممكـن أن يطردني أحد أو يشـعرني أنني لسـت موضع ترحيب. وقـد اسـتطعت أن أخلد للفراش مبكـراً كما أريد مـن دون أن أتعرض للإزعاج كمـا كان يحدث معـي وأنا طيار أعيش في مهجع عسـكري. وقـد حافظت على شـقتي ذات غرفة النـوم الواحدة نظيفـة وبراقة. أما مـن الناحية الماليـة، فإنني بالـكاد اسـتطعت أن أتدبر أمـري، وما كان ينقصني فـي الراتب عوضته بسـلام النفس. وشـعرت بالفخـر أن بيتي

الأول كان مفروشاً بشكل كامل وثمنه مدفوع من مدخراتي المالية. وقد تضمنت حياتي أيضاً صديقين مقربين التقيتهما وأنا طفل بالرعاية، وهما **ديف هاورد** وجيه دي ثوم. وكانا لا يزالان يعيشان في **بي آيريا**. فتعوَّدت أن أقود السيارة لكي أتسكع معهما خلال العطلات الأسبوعية عندما يتسنى لي ذلك. كما أنني حافظت على علاقة وطيدة مع **أليس وهارولد**، فكنت أتصل بهما عدة مرات في الأسبوع. وتملكني شعور أنني أملك أكثر مما يمكن أن يتمناه أيّ شخص آخر.

وعلى الرغم من شعوري الجيد حيال نفسي، فإن شيئاً ما استمر يقض مضجعي. وخلال الأوقات النادرة التي تعوَّدت أن أقضيها في مجمع الشقق، كلما كنت أذهب إلى بركة السباحة، لم أستطع أن أسترخي كجيراني الذين كانوا يتشمسون ويأكلون ويشربون ويسبحون أو يحتفلون بأنهم قد تخطوا أسبوعاً آخر من العمل. وقد عرف عني أنني \الصبي الطيار الأخرق النحيل الشاحب الذي يرتدي سروالاً قصيراً وكنزة بلا أكمام والشبيه بدودة كتب تلتهم أكواماً من كتيبات الطيران التقنية. وعلى عكس غالبية من رأيتهم بجانب البركة، فلم أكن لطيفاً ورائعاً أو شخصاً قوياً لديه عدد هائل من الوشوم على جسمه، ولم أكن أشرب حتى أفقد الوعي أو أدخن كالمدخنة أو أتعاطى العقاقير يومياً لكي أخفف من ألمي أو أثرثر بلا توقف عن الظلم الذي تلقيته على أيدي الناس، ولم أكن أتلقى المساعدة الفيدرالية، ومع ذلك، فلم أشعر بحال جيدة بما يكفي حيال نفسي لأكون واحداً منهم.

التقيت **باتسي** للمرة الأولى عند البركة. وعلى الرغم من أنها كانت تتسكع مع مجموعة صاخبة من الأصدقاء، فقد بدت مختلفة عنهم. فهي لم تبدُ مشاكسة أو عديمة الهدف كالآخرين. وقد شعرت بالارتباك، بينما أنا أطالع أوراقي، كلما التقت عيوننا، لكنني شعرت بالإطراء لأنها نظرت إلي. ولأنني لم أستطع قط أن أطيل النظر،

فإنني غضضت بصري على الفور نحو أوراقي. وفي غضون أيام، أصبحنا نلقي التحية بعضنا على بعض بشكل عابر. وفي عصر أحد أيام الجمعة، أخبرت باتسي عندما صادفتها أنني كنت ذاهباً إلى بي آيريا. فأشرقت عيناها، وقالت: «في سان فرانسيسكو؟ أيمكنني أن آتي معك؟»

ترددت. فلم تطلب امرأة من قبل أن تذهب بصحبتي. فقلت متلعثماً: «إنني لست ذاهباً إلى المدينة، ولكن...».

«سوف تسدي إليَّ معروفاً بذلك. فأولئك الأشخاص يثيرون جنوني». وأشارت باتسي إلى مجموعة صغيرة من الناس عند البركة. وقد كانوا يتحركون بعنف ويصيحون بأعلى أصواتهم. ثم أضافت بلطف: «إنني لست شبيهة بهم حقاً».

فأجبتها أخيراً قائلاً: «حسناً. لنذهب».

في اليوم التالي، انضمت باتسي إلي عندما قدت السيارة نحو الجنوب لكي أزور آل تيرنباو، ولم أستطع أن أصدق مدى سهولة التحدث إليها. فقد تلاشى كل خوفي في غضون دقائق. حتى إنها كانت تغذي حسي الفكاهي بأن جعلت تضحك على كل شيء تفوهت به. وفي غمرة شعوري بالضياع، أدركت مدى شعوري بالوحدة. وإلى جانب الثرثرة العادية، لم يسعني أن أتجاهل كم بدا عليها أنها مهتمة بي. ثم سألتني باتسي عندما التزمتُ الصمت للحظة قصيرة قائلة: «إذاً. ماذا تعمل؟»

فأجبتها بشكل تلقائي: «أنا عامل عاتق طائرة».

«ماذا؟»

فقلت مفسراً كلامي: «آه، اعذريني. فأنت ربما لا تعرفين هذا. إنني عامل عاتق طائرة... أي إنني أزود الطائرات بالوقود في وسط الجو من أجل سلاح الطيران».

فقالت باتسي وهي تومئ برأسها بأدب: «آه، نعم، فهمت». لكنني علمت من نظراتها أنها لم تفهم قصدي. ثم قالت: «إذاً فما هذه البدلة الخضراء التي أراك ترتديها؟»

«إنها بدلة طيران».

فقالت: «إن الأمر مجرد... لقد كان بعضنا يحاول أن يكتشف حقيقتك. فأنت لا تخرج ولا تستمتع بوقتك. وأنا لا أعرف أي شخص يكتب أو يقرأ هذا الكم من الكتب». وبدأت أتخيل كلمة أخرق مطبوعة على جبيني وهي تستأنف كلامها قائلةً: «وأنت تخرج وتعود في كل الأوقات، لكنك دائماً بمفردك. والمرة الوحيدة التي رأيتك فيها بصحبة شخص آخر هي حين كنت مع أشخاص آخرين يرتدون بدلات خضراء. إن الأمر فقط... لقد اعتقد بعضنا أنك...».

فهززت رأسي وأنا لا أعي ما ترمي إليه. وقلت: «ما الذي تحاولين قوله؟»

فغطت باتسي فمها، وقالت: «أوه، تباً! إنني لم أقصد أن... إن الأمر فقط... إن بعضنا، ولست أنا، قد عانوا من وقت عصيب محاولين اكتشاف حقيقتك».

فصعقت من فحوى قولها الذي يوحي بأنني إن لم أكن أسهر خارج المنزل وإن كنت أمضي وقتي وحيداً فأنا أعتبر غير طبيعي إلى هذا الحد. وقلت لها: «إن الشبان الذين رأيتهم معي هم من الرجال الذين أعمل معهم على متن الطائرات».

واستطعت أن ألاحظ أن باتسي قد شعرت بالإحراج. فهي لم تود أن تجرح شعوري على أيّ حال. واستطعت فقط أن أدرك أنني بدوت غريباً في عالمها. وقد شعرت لسنوات عديدة، مما يدعو للاستغراب، بالفضول لأن أكتشف كيف هو الانخراط في المجتمع.

قطعنا عدة أميال بصمت حتى خففتُ من التوتر بأن بادرت

بالثرثـرة مرة أخـرى. وحتى بعـد أن اعتـذرت لأنني عرضتهـا لموقف غريب، شـعرت أن باتسي قد كونت رأياً سـلبياً عني. وحتـى بينما كنّا نسـتعيد القوة الدافعة لمحادثتنا، اكتشـفت أن باتسـي، علـى الرغم من طيبتهـا معي، لم تكـن تهتم بما يجري فـي العالم كالسياسـة ومحيطها المحلـي أو أي شـيء يجاوز حدود فيلـم إنديانا جونـز الأخير أو آخر ألبوم غنائي لفرقتها المفضلة.

وبعد عدة سـاعات، عندما رأتني أليس مع باتسي، أشرقت عيناها فرحاً. وعندما عانقتني، همسـت في أذني قائلة: «الحمد لله أنك تواعد فتـاة أخيـراً. فقد بدأ القلق يسـاورني بشـأنك». ثم التفتت نحو باتسـي وهي لا تزال ممسكة بيدي، وقالت: «إذاً، منذ متى وأنتما معاً؟»

فتراجعت باتسي إلى الوراء وقالت: «أوه، لقد التقينا للتو».

شـعرت فجـأة بالحماقـة لاصطحابـي امـرأة لا أكاد أعرفهـا إلى منـزل والـدي مـن دون أن يكـون بيننا حتـى موعـد. أما أليـس، التي كانت لا تزال تشـع سـعادة، فقد جلسـت بيني وبين باتسـي وهي تدير رأسـها يميناً وشـمالاً لكي تبقي مجرى المحادثة مستمراً. وكانت كلما اسـتدارت نحوي، أخذت تبتسـم بخبث وترفع حاجبيها. فشعرت أنني مراهق مرتبـك وأنا أحاول أن أكون لطيفاً مع أمي، وأحمي باتسـي من الشعور بالملل في الوقت عينه، وقد تمنيت ألا يزل لسان أليس وتبوح لباتسي بشـيء عن ماضيّ. وبعد أن ثرثرنا بعض الشيء، استأذنت لكي أقضـي بعض الوقت مـع هارولد. وعلـى الرغم من أنني قـد رأيته قبل بضعة أشـهر، فإنني فوجئـت بأن هارولد قـد بدا لي أكبر بسـنوات من عمـره الحقيقي. إذ إنه بدا واهناً جداً. وبذل جهداً جباراً ليجري أبسـط محادثـة معي. كانت عيناه شـاردتين، ويحاول أن يبـذل قصارى جهده لكي يواري يديه المرتجفتين. وبعد بضع دقائق، استسـلمت وأمسكت يديـه بين يـدي. وقضينـا الوقت الباقـي بصمـت. وفي أعمـاق ذهني،

تبادرت إلي بكل جلاء صورة والدي الحقيقي وهو يعاني.

وعندما هممت بالمغادرة برفقة **باتسي**، همست **لأليس** وأنا أعانقها مودعاً، وقلت: «ما خطب والدي؟»

فأطرقت بعينيها نحو الأرض، وقالت: «آه، لا شيء. لقد أصيب **هارولد** بالأنفلونزا، وقد كان يعمل بجهد كبير؛ وقد ضرب موعداً مع الطبيب في الأسبوع القادم. أصغ إلي، لا تقلق، بل استمتعا بوقتكما أنتما الاثنين. وأريد أن أخبرك شيئاً آخر». ونظرت **أليس** إليَّ وإلى **باتسي**، وقالت: «أنتما الاثنين تبدوان مناسبين بعضكما لبعض».

فهمست لها ثانية قائلاً: «ليس الأمر كما تتصورين. فقد التقينا قبل بضعة أيام فقط. اتفقنا؟»

قالت أمي: «إن سألتني رأيي، فإن إحساساً جيداً يتملكني في ما يتعلق بكما أنتما الاثنين».

فقلت **لباتسي** ونحن نبتعد: «عليك أن تسامحي أمي. فأنا أعتقد أنها تؤدي دور الخاطبة». ولم أرد من **باتسي** أن تكوِّن انطباعاً خاطئاً. وأضفت قائلاً: «وفضلاً عن ذلك، فإنني أعتقد أنها قد شاهدت فيلم **عازف كمان على السطح** مراراً وتكراراً». وقد كنت أشير إلى الخاطبة اللجوجة التي تظهر في الفيلم، لكنني استطعت أن ألاحظ أن **باتسي** لم تفهم الدعابة.

ثم سألتني **باتسي** قائلة: «إذاً، هل هما والداك الحقيقيان؟»

فأجبت على الفور: «حسناً، نعم». ولكن بعد لحظات من الصمت، تنهدت قائلاً: «إنهما هكذا بالنسبة إليَّ. وهما والداي بالرعاية. ووالدتي الحقيقية... تعاني مشكلة في تعاطي الكحول. وقد تعوَّدت أحياناً أن تقسو عليَّ بالكلام. وأحياناً...». ثم أمسكت عن الكلام على أمل ألا أخيف **باتسي**. فلم تكن لديَّ النية في أن أطلعها على حياتي السابقة. وقبضت على مقود السيارة وأنا أخشى أن تفتح **باتسي** باب

السيارة فجأة وتولي هاربة. ولم أكن قد كشفت عن طفولتي قط لأحد هكذا من قبل، ناهيك عن خطورة مرض الوالدة المعقد.

منذ وقت طويل، استسلمت لحقيقة أن ماضيّ كان سيمنعني على الأرجح من أن أتواجد بصحبة أيّ امرأة. وحتى وأنا في سن الثالثة والعشرين، وبكل الحظ الذي حالفني لأحقق ما حققته على الرغم من كل الظروف، فقد كانت ثقتي بنفسي معدومة. فتعوَّدت أن أخشى النساء حتى الموت وأشعر أنني لا أستحق حتى أن أنظر إليهن لأكثر من بضع ثوان، أو حتّى أن أتحدث إلى إحداهن. ولهذا السبب شعرت أنني مغمور ومرتبك ومسحور مع ذلك من اهتمام باتسي بي.

وجدت نفسي أثرثر عن الطريقة التي أصبحت فيها طفلاً بالرعاية. وعلى الأقل، كنت أتمتع بما يكفي من المنطق بحيث إنني مسست سطح الحقيقة فقط. ولأن ماضيّ ملوث بوحول الأكاذيب والخداع، فإنني كنت أقدر قيمة الصدق فوق كل اعتبار آخر. وأيقنت أنه إن توجب عليَّ أن أرتبط بعلاقة مع امرأة ما فمن المهم أن أتوخى الصدق معها قدر المستطاع، وفي الوقت عينه، أن أحافظ على ستار أحمي به تلك المرأة من الألم والإحراج اللذين قد أتسبب بهما لها. لقد علمت أنني كنت أخطو فوق خيط رفيع، وبذلك أصبحت الآن أعيش كذبة حقيقية. فأنا تعوَّدت أن أفعل ذلك لبعض الوقت في سلاح الطيران وخصوصاً خلال التقييمات النفسية الشاملة التي خضعت لها لكي أصبح فرداً في طاقم الطيران. وقمت ببساطة بتحريف ما كنت أراه ضرورياً لكي أحمي موافقتي الأمنية، وكنت آمل فقط ألا يلحق ذلك الضرر بي أو بأي شخص آخر. وكان آخر شيء أريده هو أن أتسبب بالألم لأي شخص كان.

واعترفت باتسي قائلة: «أعلم هذا الشعور... فقد كنت منبوذة في عائلتي».

وتابعت لتشرح لي كيف أنها قد تعرضت، وهي طفلة، للإجحاف وشعرت أنها غريبة بين إخوتها وعانت مشكلة في الانسجام مع والدتها المستبدة. وشعرت وهي مراهقة أن الطريقة الوحيدة للتخلص من وضعها تكمن في الهرب. وقالت لي: «لقد أصبحت صديقة لأحد الشبان، وكان كلانا يعمل لكي نتدبر أمرنا. وأعلمك أننا استمتعنا بوقتنا كثيراً». وبينما أخذت **باتسي** تفصح عن مكنونات قلبها لي، لم أتمكن فقط من أن أشبه شعوري بالانعزال بشعورها، بل أصبح السبب في طريقة عيشها وتسكعها مع تلك المجموعة الصاخبة يبدو مبرراً في نظري. وشعرت أن **باتسي** كانت أيضاً تسعى لأن يتقبلها الآخرون. ثم تنهدت قائلة: «لكن عندما فارق والدي الحياة، توجب على والدتي أن تبيع المنزل وتنتقل إلى شقة صغيرة، فعاودت الانتقال للعيش معها لكي أساعدها، إذ لم يكن أي شخص آخر ليمدنا بيد المساعدة. وها أنا أنام على الأريكة الآن. ومهما أثارت جنوني، فأنا الوحيدة التي تعتني بها».

وحتى على الرغم من أنني استطعت أن أشعر بامتعاضها، فإنني أدركت أن **باتسي** كانت تمس سطح الحقيقة أيضاً. فقلت لها: «إنني آسف حقاً. فلا أحد يستحق المعاملة السيئة». ثم توقفت للحظة وقلت: «لقد فارق والدي الحقيقي الحياة أيضاً».

فهبت **باتسي** قبل أن أتمكن من إكمال فكرتي، وقالت: «إن الأمور اللعينة تحدث طوال الوقت. وهذا هو شعاري».

أطلقت ضحكة من دون تفكير، إذ إنني لم أكن قد سمعت بذلك التعبير من قبل، وأحسست برسالة **باتسي** اللاشعورية التي تقول بتجاهل كل المشكلات التي تعترض طريقها.

وعلى طول طريق العودة إلى البيت، ثرثرت و**باتسي** بلا توقف. ولم أكن قد تواجدت قط برفقة امرأة لتلك الفترة الزمنية المطولة في

حياتي. لذا، لم أرد لوقتنا معاً أن ينتهي. وفي وقت متأخر من المساء، ذهبنا إلى شقتي فأريتها منزلي الجديد بفخر. وكانت **باتسي** الشخص الأول الذي يدخل عالمي. فجلسنا على الأريكة ونحن نرتشف الشراب ونصغي لموسيقى الجاز. وتحير ذهني ما بين أن أتمنى لها ليلة سعيدة أو أن أواصل الحديث معها. وغمرتنا دهشة عارمة بأننا قد أعجبنا بعضنا ببعض.

كان الأسبوع التالي أشبه بدوامة. فمن بين كل الناس، أصبح لديَّ صديقة، وأخذ كل شيء يسير معي بشكل جيد. لقد كنت مفتوناً بعملي، وللمرة الأولى في حياتي، أبدت امرأة رغبتها في أن تبقى بصحبتي وتهتم بي. وأصبح إحساسي لدى عودتي إلى البيت بعد رحلة مرهقة لأقضي الوقت مع **باتسي** أكثر من مبهج. وقد تعوَّدت **باتسي** أن تفاجئني عندما تطهو العشاء أو تترك لي رسالة داخل حقيبة غدائي لأكتشفها وأنا في الطائرة. وقد عشقت اهتمامها بي، وبدأت أشعر أن حياتي قد أصبحت مكتملة.

عندما توجب عليَّ أن أسافر إلى خارج البلاد لأسابيع في أحد الأوقات، تطوعت **باتسي** للعناية بمنزلي وسقاية نباتاتي وإطعام سلحفاتي، واسمها **تْشَك**. لكن الخوف كان قد تملكني بعض الشيء لأنني تعوَّدت أن أتوخى الحذر أكثر من اللازم، وشعرت أن الأمور تتطور بسرعة كبيرة. وقد أيقنت أنني تورطت في علاقتي معها، ومع ذلك فقد تمكنت من أن أحكم قبضتي على نفسي. فلطالما عشت وحيداً، ولم يرد أحد أن يكون برفقتي على الإطلاق، ناهيك عن أن يجدني جذاباً بما يكفي ليمنحني وقته كله. فأعطيت **باتسي** مفتاحاً إضافياً شرط أن تقوم بمجرد مراقبة شقتي.

عندما عدت إلى البيت بعد بضعة أسابيع، استقبلتني **باتسي** عند الباب. وعندما فردت أمتعتي، لاحظت أن مساحة خزانتي قد امتلأت

بثيابهـا وأن رف الحمام قـد امتلأ بأدوات زينتها. وبينمـا أنا واقف عند مدخل غرفة النوم، هرعت باتسـي إليَّ وأخذت تعانقني وتنشـج قائلة: «إنني لسـت كما تتصور! فأنا لم أخطط لحدوث ذلـك، لكن أمي تثير جنوني! ولدينا هنا شـقة كبيرة. وقد سـئمت العيش في ظل سـيطرتها. وأنـت تعلـم كيف هي تلـك الحياة. وفضلاً عـن ذلك، فأنـا هنا معظم الوقت فـي أي حال. لقد افتقدتـك كثيراً، وأنت لسـت كالآخرين. فما الذي ننتظره؟ إنك تعرف شعوري تجاهك، أرجوك؟» وبدأت تنتحب.

لم تكـن باتسـي عاطفية إلى هـذا الحد مـن قبل. لـذا، أردت أن أجلسها وأشـرح لها بهدوء وبشـكل منطقي أننا الآن نفكر في الانتقال للعيش معاً، وأن هذا لم يعد موعداً لفيلم أو عشـاء رومانسي أو علاقة عاطفيـة. وفي أثناء وجودي خارج البلاد، فكـرت في أن أجعل الأمور بيني وبين باتسـي تهـدأ، ولكن بينما أنـا بصحبتها، سـئمت تحليل كل تفصيل من تفاصيل حياتي، فحين نظرت إلى عينيها المتعبتين، أدركت كم افتقدتها، وعندما خفّ نشـيجها، قبلتني على خدي وقالت: «أحياناً يكـون هذا صعبـاً. وقد سـئمت الخضـوع للآخريـن، وأن تملـى عليَّ أفعالي دائماً. ومهما فعلت، فهو ليس جيداً بما فيه الكفاية».

لطالمـا أزعجتني الطريقة التي كانت باتسـي تعامـل بها في بعض الأوقات. وقد بدت أمها، واسمها دوتي ماي، لطيفة جداً عندما التقيتها للمـرّة الأولـى، لكننـي اسـتطعت أن ألاحـظ كـم كانـت تتفحص كل تحركات باتسـي عـن كثب وتصحح لهـا توافه الأمور. وعندما سـألت باتسي عن سبب تصرف أمها بتلك الطريقة، لوَّحت لي بيدها، وقالت: «إنها طريقتها بمراقبتي. فهي تخاف أن أخفق وأتعرض للمتاعب ثانية. فقد تعوَّدت أن أكون متهورة جداً وأنا أصغر سناً».

في إحدى المرات، وقبل أن يتوجب عليَّ أن أسافر خارج البلاد، هرعـت باتسـي إلى شـقتي وهي تخبرنـي أن أمهـا وإخوتها قـد أمعنوا

فـي توبيخها ثانية. وقبل أن أتمكن من مواسـاتها، اقتحـم أفراد عائلتها المنـزل واحداً تلو الآخر من دون أن يقرعوا الباب. وأخذوا يصرخون على باتسـي بأعلى أصواتهم قبل أن يهاجموا بعضهم بعضاً. حتى إنني قد عثرت علـى واحد منهم وهو يلتهم كل شـيء اسـتطاع العثور عليه في ثلاجتي وآخر وهـو يبحث في أدراج مكتبي فـي غرفة النوم. وبعد أن طردت الجميع باسـتثناء باتسي علمت أن هذا النوع من الثوران أمر شائع في عائلتها.

أدركت مدى صعوبة معيشـة باتسـي في شـقة والدتهـا المزدحمة التي تحوي غرفتي نوم. ولأن والدة باتسـي كانت تشـغل إحدى غرف النوم ويشـغل أخوها وصديقته الغرفة الأخرى، اضطرت باتسـي للنوم على الأريكـة في غرفة المعيشـة. وكان أخوها، علـى الرغم من ذلك، يقضي وقته بركوب الأمواج والتجوال في الأنحاء في شاحنته الباهظة، التي اشتراها بعد أن ربح نزاعاً قانونياً، أو بالاستمتاع بوقته. ولأن دوتي ماي كانت تعاني ألماً في وركيها، فإن باتسي شعرت أنها الوحيدة التي يتوجب عليها أن تعتني بتنظيف الشـقة والقيام بالطهو وتنفيذ عدد كبير مـن المهمات التي تكلفها أمها بها. وقد فسـرت لي باتسـي في إحدى المرات قائلة: «الآن تعرف سبب ذهابي للسهر خارج البيت».

فأجبتهـا قائلاً: «إذاً لِـمَ لا تحصلين على وظيفـة وتدخرين بعض المال وتنتقلين من المنـزل؟»

«وظيفة؟ أيّ وظائف؟ لقد حاولت بضع مرات، ولكن لماذا أكبد نفسـي هذا العناء؟ فأفضل ما أسـتطيع أن أحظى به هو أن أعمل نادلة. ومن يريـد أن يعمل في وظيفة كهـذه؟ وفضلاً عن ذلـك... فأنا أعاني ألماً في ظهري. وأمي تعطيني المال عندما أحتاج إليه». وهزت باتسـي كتفيها وكأن الأمر ليس على قدر من الأهمية.

لم أصدق أذني حينئـذٍ. فطوال حياتي لم أفكـر قط في ألا أعمل

لكي أعيل نفسي. وعانيت وقتاً عصيباً لكي أفهم أساليب حياة عائلة باتسي وطريقة معاملتهم لها، لكنني عندما فكرت في عائلتي، قلت في نفسي: من أكون أنا لكي أحكم عليهم؟ وعلى الأقل، فقد أشارت لي باتسي قائلة: «أعلم أننا في بعض الأحيان نتجادل، ولكن إن أخطأ أي شخص منا مع الآخر، فأنا أقول لك ما سنفعل: إننا سنعاقب ذلك الشخص»... وفكرت حينئذٍ في أن عائلة باتسي ربما لم تكن غريبة الأطوار إلى هذا الحد لكن معاييري عالية جداً.

أمسكت بجسد باتسي المرتجف، فهمست قائلة: «إن سمحت لي بالانتقال، فسوف تتركني أمي وشأني، وسوف يتوجب عليها ذلك، عندها سأصبح سعيدة وسوف ترى، سنكون سعيدين جداً». فتألم قلبي من أجل باتسي، وأيقنت أنها تستحق ما هو أفضل من هذا. وفكرت في نفسي أننا، بسبب ماضينا، ربما سنشكل زوجين مناسبين وسنتحلى بقوة كافية لكي نواجه أيّ عاصفة. وقلت لنفسي: فضلاً عن ذلك، فلا أحد يعاملني جيداً على الإطلاق بقدر ما تفعل باتسي.

فقلت لها بصوت متهدج: «حسناً. لنفعل ذلك. لننتقل للعيش معاً».

ولفرط انفعالها، كادت باتسي أن تسحق أضلاعي. وقالت: «شكراً لك، شكراً لك، شكراً لك! أخيراً لدي منزل الآن!» وامتلأت عيناها بالدموع من جديد، وبلعت ريقها بصعوبة قبل أن تنفجر قائلة: «أحبك، يا ديفيد. لقد أحببتك منذ وقت طويل. أحبك فعلاً. فأنت الرجل الوحيد في حياتي».

تسمرت في مكاني ولم أقوَ على النظر إليها. وكل ما استطعت أن أفعله هو أنني احتضنتها. ومر الوقت ببطء، ومع ذلك لم أستطع أن أفتح فمي. فقد كانت هناك امرأة بين ذراعي وأصبحت الآن جزءاً مهماً من حياتي. وقد صارحتني بمكنونات قلبها للتوّ. وأنا...

ولم أستطع أن أتفوَّه بتلك الكلمة، واحتقرت نفسي لذلك السبب، فكيف يمكنني أن أسمح بدخول شخص ما إلى منزلي وليس إلى قلبي؟ لكنني فكرت، بعد كل شيء فعلته باتسي من أجلي وبعد كل ما عانته في حياتها، أنها تستحق ما هو أفضل. تنشقت باتسي وقالت وهي تكفكف دموعها: «لا بأس. إنني أتفهم شعورك فعلاً، لكنك يوماً ما ستفعل ذلك. ويوماً ما ستحبني».

لاحقاً، في ساعات الصباح الأولى، كنت ممدداً وأنا مستيقظ وباتسي تشخر بجانبي. وكان جزء من السبب في أنني لم أستطع النوم هو تغيير المنطقة الزمنية بعد أن سافرت بالطائرة عائداً من إنكلترا. لكنني أدركت السبب الحقيقي لأرقي، وهو ضميري المذنب الذي يقض مضجعي. لقد أصبحت الآن أعيش مع امرأة. فنقبت في أعماق قلبي، ولم أعرف ما إذا كنت سأتمكن على الإطلاق من أن أكنّ لباتسي المشاعر القوية نفسها التي يبدو عليها أنها تكنّها لي. فكيف يمكنني أن أكون بارد العواطف هكذا في حين أن باتسي تتألق بالفرح؟ هل السبب في أنني قسوت على نفسي لسنوات طويلة لكي أعيش فلم أستطع أن أكسر تلك القاعدة؟ أم أن السبب في أنني لم أرد ذلك؟ ومهما حاولت جاهداً، لم أستطع أن أعثر على جواب. وكان الشيء الوحيد الذي تيقنت منه هو أنني تعمقت في وضع لا أفهمه تمام الفهم. وكل ما أمكنني فعله الآن هو أن أقوم بما يلزم لأحترم ما التزمت به.

في عصر اليوم التالي اتصلت بأليس. وبعد أن أخبرتها عن رحلتي إلى الخارج، استبد بي القلق كثيراً. وقلت متلعثماً: «يا أمي... أنا وباتسي... قررنا أن نعيش معاً الآن. ما رأيك بهذا؟»

واستطعت أن أسمع أمي تأخذ نفساً عميقاً، ثم قالت: «أعتقد أنكما قد فكرتما في الموضوع بجدية».

فقاطعتها قائلاً: «أوه، نعم. لقد فكرنا كثيراً».

«وهل هي تبادلك المشاعر نفسها التي تكنها لها؟»

فشعرت أنني محطم، وبلعت ريقي قائلاً: «نعم. إن **باتسي** تعاملني معاملة رائعة... وقد عانت بعض الأوقات العصيبة أيضاً». وأمسكت عن الكلام. فقد بدأت أتفوَّه بأي شيء أستطيع التفكير فيه لكي أخفف من وطأة الخبر. فقلت: «إنني آسف يا أمي، فأنا أعلم أنك لا توافقين على هذا، وأنا أحترم رأيك ورأي والدي كثيراً، ولم أكن أريد أن أعيش كذبة في حياتي». وتوقفت منتظراً لأن تنتقدني **أليس**، فلم أسمع حتى صوت تنفسها. فقلت: «يا أمي، يا أمي، هل ما زلت على الخط؟»

«نعم، ما زلت. إن الأمر فقط...». وتوقفت. وعندما فعلت ذلك، كرهت نفسي، وكل ما استطعت فعله هو أن أنتظر القنبلة لتنفجر، ثم تابعت قائلة: «الأمر فقط... لقد أخذت **هارولد** إلى الطبيب...».

شعرت بموجة من الراحة أن مجرى الحديث قد تحول عني وعن **باتسي**. فقاطعتها قائلاً: «إذاً، إنها الأنفلونزا، أليس كذلك؟ وكل ما على والدي أن يفعله هو أن يبقى في البيت وينال قسطاً من الراحة لبعض الوقت؟»

فقالت **أليس**: «إن **هارولد** مصاب بالسرطان، يا **ديفيد**. وقد تحدد موعده لكي يتلقى العلاج، ولكن... إن الطبيب يقول إن المرض متقدم جداً. ويجب عليه أن يقاومه، لذا كل ما يمكننا فعله الآن هو أن ندعو طلباً لشفائه. وأنا سعيدة من أجلكما، ولكن لنبقِ الأمر طي الكتمان».

عندما أغلقت السماعة، التفت نحو **باتسي** وأطلعتها على الخبر. وما لم أخبرها به هو مدى شعوري بالخزي، وفكرت في تلك الأمسية بمدى أنانيتي. فقد كان كل شيء أتحدث عنه يتعلق بطيراني ومغامراتي حول العالم وشقتي وصديقتي التي تعيش معي، أنا، أنا، أنا. وفي صباح اليوم التالي، بعد أن عدت من العمل، جلست مع **باتسي**، وقلت: «لقد فكرت في الأمر، وأعتقد أنه ينبغي لي أن أذهب في العطلات

الأسبوعية وأقضي بعض الوقت مع والدي».

ردت عليَّ **باتسي** قائلة: «أتفهَّم ذلك. وتذكر أنني قد فقدت والدي أيضاً». فأومأت برأسي موافقاً. وقالت لي: «أصغ إلي، لدي فكرة عظيمة. يمكنني أن أذهب بصحبتك! ويمكنني أن أساعد **أليس**. وبهذه الطريقة يمكننا أن نقضي الوقت معاً».

ولم يكن جوابي هو ما ودت **باتسي** أن تسمعه، فصاحت قائلة: «لكنني بالكاد أراك الآن، ماذا عنا؟»

«عندما فقدت والدي، لم يستطع حتى أن يقول لي وداعاً. ولم يكن هناك أحد إلى جواره». وتوقفت وأنا أتخيل والدي وحيداً في غرفته وهو مغطى بملاءات سرير المستشفى البيضاء. ثم قلت: «عندما أتيت أول الأمر إلى آل **تيرنباو** كطفل بالرعاية، لم يكن أحد، أعني لا أحد، ليأخذني إلى منزله. وسوف نحظى بوقت معاً، لكن هذا شيء يتوجب علي أن أقوم به. وهو الشيء الصواب الواجب فعله».

فأومأت **باتسي** برأسها وقالت: «أتفهَّم هذا». ومدت نفسها لكي تعانقني، ولكن بحلول الوقت الذي لاحظت فيه ذلك كنت قد نهضت أصلاً وابتعدت عنها.

حين لم أكن مسافراً خارج البلاد، جعلت من كل عطلة أسبوعية تقريباً يوماً أقضيه مع آل **تيرنباو**. وتعوَّدت أحياناً أن آتي بعد مهمة في عصر أيام الجمعة وأنا مرتد بدلة الطيران المبللة بالعرق. وحين لم يكن **هارولد** يأخذ قيلولة طويلة، كنا نجلس معاً في شرفة محاطة بالستائر كان هارولد قد صنعها قبل بضعة أشهر. وبالنسبة إلى شخص لم يكن قد تحدث إليَّ كثيراً وأنا مراهق، فها هو الآن يقص عليَّ قصصاً عن الوقت الذي خدم فيه في الحرب العالمية الثانية كسائق للضباط وعن عودته إلى الوطن من **أوروبا** عندما بكى هو والمحاربون الآخرون لدى رؤيتهم تمثال الحرية. وبينما ظلّ بعض أصدقائه الجنود في **نيويورك**

لكـي **يحتفلـوا**، اسـتقل **هارولـد** أول قطار عائـداً إلى **ميـزوري** وتناول صندوق عدة النجارة وتجوَّل من منـزل إلى آخر للبحث عن عمل. أما بالنسـبة إليَّ، فإن مـا كان يقوله لم يكن على قدر مـن الأهمية فما كان يهمني هو أنّنا نقضي وقتاً طيِّباً معاً. وحدث خلال تلك الأوقات، بينما كان نسيم عليل يهب على الشـرفة، أنني و**هارولد** حققنا شيئاً لم نفعله قط أنا ووالدي الحقيقي. لقد حققنا رابطة بين أب وابنه.

وبمرور الأشـهر، لاحظت أن **هارولد** أخذ ينهار ببطء. وفي تلك الأوقات، انضمت **باتسـي** إلي، وتوجب عليها أن تخفي صدمتها لرؤية مظهـر **هارولد**. تركتها مع **أليس**، وجلسـت مع **هارولـد** وكان النوم قد أخذ يداعـبُ جفونه. وعلمنـا جميعاً أن السـرطان قد انتشـر كثيراً وأن العلاج الكيميائي لم يكن يساعد على شفائه. وقد قاوم **هارولد** المرض نوعاً ما، لكـن قوته وتعاونه وعينيه باتت تخذلـه جميعها إلى درجة أنه لـم يعد قادراً على أن يقود شـاحنته أو يقوم بأعمـال النجارة. وعندئذٍ، أيقن أن النهاية باتت وشيكة.

وكان **هارولد** خلال إحدى زياراتي في يوم السـبت قد قال: «لقد أردت أن أبني ذلك المنـزل من أجل **أليس** في **نيفادا**. وقد توجب عليَّ أن أنتظر حتى أتقاعد».

فأومأت رأسي موافقاً، وقلت: «نعم».

«لم يعـد هناك وقت الآن». وتوقف وهو يفـرك يديه المتصلبتين، ثم قال: «إذاً... ما الذي تريده أنت؟»

فقلت من دون تفكير لشدة إحراجي: «معذرة؟» فطوال السنوات التي عرفته فيها، لم يطرح عليَّ **هارولد** سـؤالاً شـخصياً كهذا. فقلت متلعثماً: «إنني أحب الطيران. ولطالما تمنيت منـزلاً عند ضفة النهر. وعندما توفي والدي، تمنيت نوعاً ما أن نتمكن أنا وأنت من أن نبنيه معاً».

«كلا!» وتهدج صوته وهو يمسك يدي بين يديه، ويقول: «ما الذي تريده فعلاً؟»

والتقت عيوننا، بالضبط كما التقت عيناي بعيني والدي قبل أن يفارق الحياة. فانحنيت مقترباً منه وهمست في أذنه قائلاً: «أياً يكن المكان الذي أعيش فيه أو مهما بلغ ما أملكه أو أفعله، إنني أريد أن أعيش بسعادة فحسب».

قال **هارولد**: «نعم». وأحكم قبضته على يدي. ثم قال: «لقد عثرت على هدفك. وحققت شيئاً مهماً في حياتك. فقم بعمل صالح، وابذل قصارى جهدك في ما تقوم به، وافعل ذلك الآن».

وفجأة ارتخت قبضته وتراجع رأسه إلى الوراء، فجزعت للحظة واحدة. وبحلول الوقت الذي هرعت فيه **باتسي** و**أليس** من الشرفة، كان **هارولد** قد استعاد وعيه، وعدل وضعية عنقه وابتسم قبل أن يستغرق في النوم، ولم أستطع قط التحدث إليه مجدداً.

وبعد بضعة أيام، اتصلت بي **أليس** وهي تكبح دموعها لتقول لي إن **هارولد** يعاني سكرات الموت. فهرعت و**باتسي** إلى سيارتي وأسرعنا بشكل متعرج عبر مرور ساعة الازدحام حتى ركنت السيارة بصخب أمام منزلي القديم. وعندما عبرت الباب الأمامي، علمت أن الأوان قد فات من النظرة التي رأيتها تعلو وجوه الجميع. فجاءت **أليس** إلي وقالت ببساطة: «إنني آسفة، يا **ديفيد**... فقد فارق الحياة للتوّ».

في الجنازة، تلقيت العلم الأميركي ثم ذهبت لأقدمه إلى **أليس**. وقلت وأنا واقف إلى جانبها: «من بين الرجال الذين عرفتهم كلّهم، كان **لهارولد** أعمق تأثير فيّ». وفي أثناء التأبين، حاولت أن أبقى قوياً، لكنني فقدت السيطرة على نفسي كلياً عندما أنزل تابوت **هارولد** المصنوع من خشب البلوط في قبره. وبينما أخذت مجموعات من الناس تمشي بتثاقل إلى السيارات، وجدت نفسي أقف وحيداً وأشعر

بالغضب، وعندما نظرت إلى السماء الزرقاء الداكنة ارتجفت أوصالي، وكل ما استطعت أن أفكر فيه قائلاً في نفسي كان: لماذا؟ لماذا **هارولد**؟ إنه رجل قضى ربيع عمره وهو يعيش ويعمل عملاً صالحاً كل يوم بيومه. وقد أوشك على التقاعد عندما خسر كل شيء، في حين أن شخصاً بارد العواطف وحاقداً يبدو أنه يكره الجميع وكل شيء، وأن عاطفته تدمر كل شيء قريب منه كأن ذلك ضرب من التسلية، كوالدتي، يبقى على قيد الحياة من دون أن يتوجب عليه أن يحرك ساكناً. وشعرت بهذا يجاوز أي شكل من أشكال المنطق. **فهارولد** لم يكن يتعامل مع الآخرين بعنف ولم يرفع صوته قط. وقد عاش حياة شريفة، وتولى رعاية أطفال نبذتهم عائلاتهم. لماذا؟ وعندما شعرت بنفسي أسقط فجأة على ركبتي، جاء **ديل**، وهو صهر **أليس** وشخص أكن له احتراماً كبيراً، وعانقني حتى هدأت مراجل غضبي.

بعد أسابيع من وفاة **هارولد**، ظللت حريصاً على الاتصال **بأليس** بضع مرات في الأسبوع والسفر لمقابلتها كلما تمكنت من ذلك. وقد شعرت أنني متعلق **بأليس** وأنني أريد أن أكون موجوداً إلى جانبها. فكنا نقضي الوقت ونحن نمشي في الأسواق التجارية. وحين كنت أصطحبها لتناول العشاء، كنت أضحكها باعترافي لها ببعض **قصصي** المتهورة التي لم تسمع بها وأنا مراهق تحت وصايتها. وعلى الرغم من ذلك، فإن أهدافي لم تكن إيثارية كلياً. فقد اعتبرت صحبتي **لأليس** طريقة أتوارى بها من بعض مشاكلي الخاصة.

قالت **أليس** وهي تربّت على رأسي خلال إحدى زياراتي: «**إنك** تبدو تعباً. هل تحاول أن تخسر بعض الوزن؟»

فكذبت عليها قائلاً: «إنه الطيران. فهو يسبب فقدان سوائل الجسم. وأحياناً يصعب علي أن أنال قسطاً من الراحة قبل **إحدى** الرحلات الجوية. وهذا هو كل ما في الأمر».

فألحت **أليس** قائلة: «وكيف تجري الأمور بينك وبين **باتسي**؟»

فأومأت برأسي، وقلت: «جيدة. جيدة فحسب».

فأجابت **أليس** قائلة: «إنك معها منذ... أقل من سنة وتقول إن الأمور جيدة فحسب؟ إنني لست واثقة جداً من ذلك».

ولأنها كانت حزينة على موت زوجها، لم يكن هناك مجال لكي أخبرها أنني اكتشفت خلال ذلك الوقت كم الفرق شاسع بيني وبين **باتسي**. فحتى بعد مضي أحد عشر شهراً على علاقتنا، لم أشعر أنني أبادلها مشاعرها نفسها. ولم أستطع أن أفهم سبب انعزالي. لقد كنت جزئياً لا أثق بها كما اعتقدت أنه ينبغي لي أن أفعل. وقد وجدت نفسي أستشيط غضباً بسبب أتفه الأمور. ومع ذلك، فعندما قضيت أسابيع خارج البلاد في إحدى المهمات، اشتقت إلى **باتسي**. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كنت أشتاق إليها للأسباب الصحيحة؟

كنت كلما عدت إلى البيت من مهماتي الطويلة، كانت الأيام القليلة الأولى تبدو رائعة. فقد تعوَّدنا أن نخرج لتناول العشاء والشراب في حانتها المفضلة أو لمشاهدة أحدث الأفلام. ولكن في غضون أسبوع، تتلاشى البهجة ويبدأ الإحباط بالازدياد. وكنت كلما سافرت خارج البلاد، كانت **باتسي** تدّعي أنها قد حصلت على وظيفة. ومع ذلك، فلدى عودتي، لم تكن **باتسي** تطرد من وظيفتها فجأة من دون سبب واضح فحسب، ولكن دائماً من دون أن تتلقى أيّ أتعاب. ولم أستطع قط أن أكتشف ما كان يحدث في وظائفها. وعدة مرات، حين كنت أعرض على **باتسي** أن أساعدها بالتحدث مع رؤسائها بخصوص المال الذي يدينون به لها، كانت نوعاً ما تنسى أسماء رؤسائها، وإذا تذكرت فعلاً، يكونون نوعاً ما قد لاذوا بالفرار من المنطقة. وفي إحدى المرات ألححت عليها بالسؤال لأحاول معرفة المكان الذي كانت تعمل فيه، فأجهشت **باتسي** بالبكاء وتشاجرنا.

أخذ منوال حياتنا يتكرر دائماً. وكانت الدهشة تعتري باتسي إذا أنا تذكرت أزماتها المستمرة التي تعوَّدت أن تنساها خلال فترة قصيرة من الوقت. فبدا لي كل شيء كأنه كذبة مفضوحة، لكنني لم أستطع أن أدرك السبب في تلفيقها قصصاً معقدة كتلك. ولم أستطع أن أجد طريقة أخفف بها عن باتسي. وكان جزء من السبب هو أنني وددت من أعماقي أن أصدقها. فقد كنت على يقين راسخ أن باتسي امرأة رائعة. ولكن كلما حاولت أن أثق بها، كان موقف غريب ما ينشأ بيننا.

كما أننا تعوَّدنا أحياناً أن نتشاجر بسبب عدم خروجي من المنزل بما فيه الكفاية. وقد أدركت أن باتسي كانت تحب أن تخرج وتستمتع بوقتها، لكن حياة السهر ليست من النوع الذي يناسبني، كما حاولت أن أبين لها. وفي بعض الأحيان، كان الشجار ينتهي بخروج باتسي غاضبة من الشقة فقط لتعود ثملة بعد بضع ساعات وتدخل متعثرة إلى الحمام وتتقيأ. وإذا حاولت أن أجعلها تتمدد في السرير، كانت تنتحب وتقول إن أحداً لا يحبها وإن الجميع يحاولون استغلالها. ولمرات عديدة قبل أن يغمى عليها من الإسراف في الشراب والإرهاق، كانت تقبض على يدي وتنتحب قائلة: «لا تتركني، أرجوك. لقد تركني الجميع... أرجوك لا تتركني أنت أيضاً».

وبسبب قلقي على باتسي، كنت دائماً أجلس إلى جانبها حتى تستغرق في النوم. وفي بعض الأحيان، بسبب تأخر الوقت، لم أكن أستطيع النوم. وكل ما كنت أتمكن من القيام به هو أن آخذ حماماً، وأزرر بدلة الطيران، وأقود سيارتي لكي أذهب في رحلتي الجوية، وأدعو ألا أفقد تركيزي وأقترف خطأ خطيراً في أثناء المهمة.

وحين عودتي إلى البيت، في وقت متأخر من عصر أحد الأيام أو مبكراً في المساء، كنت أجد باتسي محرجة نوعاً ما ويبدو عليها وكأنها قد نهضت لتوِّها من السرير. ترى ما الذي جعلها تفرط في الشرب

لدرجة أن تفلت زمام أمورها؟ لا بد من أن شيئاً ما كان يقلقها. وقد أيقنت أنني أشكل جزءاً من السبب. وبينما أخذ الوضع يتفاقم، كان يصيبني إحباط شديد أحياناً إذا حاولت باتسي بكل إخلاص أن تسوي الأمور بيننا. ففي بعض الأوقات، كنت أنأى بنفسي عنها وأتجاهلها لأيام، وعلى الرغم من أنني أردت أن أصدقها وهي تقول: «لن يحدث هذا مجدداً». فإن تلك العبارة بدأت تضجرني.

كانت محاولة اكتشاف الحقيقة قد زادت الأمور سوءاً. وكان همي الوحيد هو أن أمنع تكرار ما حدث وأن أبذل أقصى طاقتي لأخفف من وطأة آلامها. ولأنني شهدت والديّ وهما ينهاران أمام عيني، فلم أكن لأسمح بأن يحدث هذا لشخص آخر. وأياً يكن ما يزعج باتسي في المقام الأول، فقد تعوَّدت أن تجيبني إجابات مراوغة مثل: «أوه، لا شيء». «لقد تشاجرت مع أمي». «لقد قابلت صديقة قديمة». «لقد أزعجني أحدهم. الأمر ليس مهماً. لا بأس».

وبعد بضعة أشهر لم نحرز فيها أي تغيير، واجهت باتسي في إحدى الأمسيات، فقلت لها: «هذا يكفي! ليست الأمور على ما يرام؟ إننا نعيش معاً... وعندما تأتين إلى هذا البيت على هذه الحال ويتوجب عليَّ أن أعتني بك، يصبح هذا شأني أنا. وأنا أشعر أحياناً أنك تتوقعين هذا مني. وأنا أدرك أنني أتناول بضعة كؤوس من الشراب، ولكنني ألتزم حدودي وأتحكم بزمام الأمور. هل لديك أيّ فكرة كم مرة تخليت عن استراحة الطاقم قبل الرحلة فقط لكي أعتني بك؟ هل تدركين أنه إذا اكتشف سلاح الطيران أنني لم أنم قبل الرحلة فسوف أطرد؟ ومن الممكن أن أعاقب!»

وانفجرت باتسي بنبرة حقودة قائلة: «أوه، أيها المسيطر المثالي يا من تعتبر نفسك أفضل من الآخرين...».

فقاطعتها وأنا أبذل جهدي لكي أفسر كلامي. فقلت: «كلا!»

علي مولا

ولم أحاول أن أعاملها باستبداد، ولكن بعد أشهر قضيتها وأنا أتجاهل الوضع، توجب عليَّ أن أفصح عن مكنونات صدري. فقلت: «من أين أتيت بهذا؟ إنني لست مثالياً في أيّ حال من الأحوال. وأنت تعلمين أنني لست كذلك. فأنا فقط لا أعيش هكذا. وهذا الوضع برمَّته يعتبر مشكلة بالنسبة إليَّ... وإذا كان ذلك يجعلني أفضل من الآخرين... فليكن ذلك. وأعتقد أنك تعلمين أن تعاطي والدي للشراب قد دمر عائلتي». وأخذت أتنفس بمشقة وأنا أرفع إصبعي، وأقول: «إنني لا أستطيع أن أمر بذلك الوضع ثانية، ولن أفعل ذلك. أما بالنسبة إلى بعض الأشخاص، مثل أصدقائك، فأنا أعلم أن هذا جيد وأنه جزء من حياتهم اليومية، ولا أكترث لذلك؛ ولست أفضل من أي شخص آخر، ولكن هذا ببساطة لا يناسبني». وبدأت أهدأ، فقلت لها متوسلاً: «هذا ليس أسلوب حياتي. ويجب عليك أن تسيطري على هذا، من فضلك».

فأجابتني باتسي بعنف قائلة: «أنت لست والدي! ولا يمكن لأحد أن يملي علي ما أفعله! لا أنت ولا أمي ولا عائلتي ولا أحد يستطيع ذلك! طوال حياتي تعوَّد الجميع أن يتأمروا علي. وليست لديك فكرة عن الأوضاع الصعبة التي مررت بها! إنني سأفعل ما أريد وقت ما أريد. لماذا تكترث لما يحدث لي؟ إنك حتى لا تستطيع أن تتفوه بتلك الكلمة. وأنا أعلم أنك لا تحبني».

ففاجأت نفسي بأن أجبتها قائلاً: «كيف يمكنني أن أحبك ونحن نعيش هكذا؟ إنني أريد أن أتقرب منك، ولكن كيف يمكنني ذلك إذا كنت لا تطلعينني على ما يزعجك؟»

وكان أملي الوحيد هو أنني إذا نقبتُ عميقاً بما يكفي أو عالجت الموضوع بطريقة مختلفة، فربما كنت سأتمكن أنا وباتسي من أن نجد حلاً لمشاكلنا. وقد أصبحت أتوق لأن أعيد الأمور إلى وضعها

الصحيح. ولكن لسوء الحظ، كانت شجاراتنا تختتم عادة بهروبها من الشقة. وفي بعض الأوقات، حين كانت **باتسي** تعود في وقت متأخر من الليل، وتدخل البيت، كانت تستلقي في السرير بجانبي وتلف ذراعيها حولي، وكنت قد تعوَّدت أن أتظاهر بالنوم وأبعدها عني ثم أنقلب إلى الطرف الآخر من السرير. ولم أعرف السبب في ذلك، ولكن كلما كانت **باتسي** تحاول أن تلطف التوتر بيننا، كان يبدو عليَّ أنني أدفعها بعيداً عني.

لقد استطعت، من خلال الأجزاء الصغيرة التي باحت بها **باتسي** لي، أن أسبر غور القليل من طفولتها الصعبة. واعتقدت فعلاً أن تجاربنا السيئة قد تقربنا بعضنا من بعض. وكان ماضينا سيجعلنا نقدر قيمة المستقبل. وقد أيقنت أن **باتسي** تتألم في أعماقها، ولكن مع أنني تأثرت من أجلها، فقد علمت أنها تحارب نفسها.

في معظم الأحيان، كانت **باتسي** هي من تحاول التعويض علي. وأحياناً، بينما أنا أطير على ارتفاع تسعة وعشرين ألف قدم كنت أفتح غدائي لأجد رسالة استغرقت ساعات لتقول فيها ما لم تستطع أن تعبر عنه شخصياً. وكنت أعود إلى البيت وأجد الشقة مرتبة بشكل خال من العيوب وهناك عشاء فاخر بانتظاري. وإذا ما هدأت الأمور بيننا، لم يكن هناك أحد ألطف أو أكثر عذوبة من **باتسي**. حتى إنني ارتبت في أنها تعي قدراتها. وعندما تواجدت **باتسي** إلى جانبي خلال الأوقات العصيبة مع **هارولد**، أصبحت مديناً لها لأنها واصلت مساعدتي. وقد اعتقدت أن معالجة المطبات الصغيرة في الطريق هي بالضبط ما يجب أن تكون عليه العلاقة. وظننت طوال سنوات طويلة قضيتها وحدي أنني لست جديراً بأن أكون بصحبة أي شخص. أما الآن فقد واتتني الفرصة لذلك، وإن كان هذا هو الثمن الذي يجب عليَّ أن أدفعه، إذن، فليكن ذلك.

عندما رأيت **أليس** في المرة التالية، ظللت أكرر في ذهني ما أعانيه أنا و**باتسي**. وبعد أن أصبحت فرداً في طاقم الطيران، فقدت تركيزي وبدأت أعيش حياة مفرطة بعض الشيء. فقد بدأت أخرج إلى الحانات وأنفق المال، للمرة الأولى في حياتي، أكثر مما أدخر لمستقبلي. وبدأت أضرب عرض الحائط بسنوات قضيتها في ضبط النفس. ولكن مهما تكن مشكلاتي، فإنني أنا وحدي الذي تسببت بها لنفسي. لذا، توجب عليَّ أن أكون على يقين من ذلك.

وما أحزنني، هو عندما أدركت أيضاً أنني لا أستطيع أن أترك **باتسي**.

سألتني **أليس** بحذر قائلة: «هل العلاقة طيبة بينك وبين **باتسي**؟»

فأشحت بوجهي لكي أتجنب النظر إلى أمي بالرعاية، وتلكأت قليلاً، ثم أومأت برأسي وقلت: «هل تمانعين إن قضيت الليلة هنا؟» ثم تثاءبت قائلاً: «إنها رحلة طويلة بالسيارة... وقد أردت فقط أن نقضي بعض الوقت معاً».

أومأت **أليس** برأسها. وشعرت من تعبير وجهها أنها قد فهمت مغزى قولي.

كانت العطلة الأسبوعية التي قضيتها مع أمي قد منحتني فرصة لكي أنال قسطاً من النوم كنت في أمس الحاجة إليه وإلى بعض الوقت لكي أجلو الأفكار في ذهني، ولكن في غضون أيام من عودتي إلى البيت، نشأت مشكلة أخرى بيني وبين **باتسي**. فبعد أن عشنا معاً لمدة عام تقريباً، كان المال الذي استغرقت سنوات لأدخره قد نفد تقريباً. فمنذ أن انتقلت **باتسي** إلى المنزل، بدأت أنفق أكثر مما يدفع لي سلاح الطيران، لذا، توجب عليَّ أن أسحب من مدخراتي لكي أتدبر أمري. وتعوَّدت **باتسي** دائماً أن تدعي أنها ستساعدني، وأيقنت أنها قد عنت ذلك في وقته، لكن المدخرات لم تكف أبداً. وبعد أن فكرت

في ما إذا كان يجب عليَّ أن أفتح الموضوع أم لا، فعلت أخيراً، فثار جحيم مستعر من جراء ذلك. ولم أحاول أن أبدو مقتراً، لأنني أردت لباتسي أن تنعم بالسعادة وكنت لأمنحها أي شيء في متناول يدي، ولكن مع الحاجة إلى تسديد أجرة المنزل ومواد البقالة والأغراض الأساسية ووقود السيارة فقط، لم يعد في وسعي أن أواصل أكثر من ذلك. وقد تشاجرنا في إحدى المرات لأنني لم أستطع أن أدفع لها ثمن جهاز تلفزيون ناهيك عن الاشتراك بالمحطات التلفزيونيّة المتنوّعة لكي تتسلى بها في أثناء سفري بالطائرة طوال اليوم أو إلى خارج البلاد لأسابيع في بعض الأحيان.

وفي نهاية صيف العام 1985، جلست أخيراً لكي أشرح لها وضعي بالكامل، فاستاءت باتسي، وقالت بغضب: «ما الأمر؟ إنني أعلم أنكم أنتم الطيارين تجنون مالاً وفيراً».

«كرري ما قلته؟» ولم أستطع أن أصدق ما سمعته أذناي. هل كانت باتسي جاهلة إلى هذا الحد بمدى الصعوبة التي عانيتها في فتح الموضوع، ناهيك عن إعالتي لها طوال ذلك الوقت؟ فهززت رأسي وقلت لها: «ما الذي تتحدثين عنه؟ مالاً وفيراً؟ إنني مجند في الجيش! وأجني خمسة وسبعين دولاراً أو ربما مئة دولار زيادة في الشهر!»

هزت باتسي رأسها وهي مرتبكة، وقالت: «مجند؟ ماذا يعني هذا؟»

عندئذٍ، أدركت سوء التفاهم. فلا بد من أن باتسي قد اعتقدت، لأنني أركب الطائرات في سلاح الطيران، أنني ضابط يجني أكثر بثلاث أو أربع مرات من الجندي الملتحق بالجيش. وقد كان الضباط يستحقون ذلك لأنهم قد تخرجوا من الكلية وخضعوا لتدريب تقني مكثف. وتساءلت في نفسي قائلاً: كيف يمكن لها أن تكون ساذجة حيال مسألة بهذه البساطة وخصوصاً أنها قد عاشت في مكان قريب

من قاعدة جوية طوال حياتها؟ كيف يمكن لها ألا تعرف؟

وبينما أنا أفكر في الأمر، سألت نفسي: هل أنا أتعرض للاستغلال؟ فقبل سنتين تقريباً، عندما دخلت القاعدة الجوية أول الأمر، حذرني أحد المدرسين الذين حضرت حصصهم من احتمال تعلق النساء المحليات بالجنود الملتحقين، ولا سيما أفراد طواقم الطيران. وفي الواقع، لقد ضحكت بملء فمي غيرَ مصدقٍ كلياً. لكنني الآن، بينما أنا أتأمل موقف **باتسي** القاسي...

كنت على يقين أنها ليست من تلك النوعية من الناس. فقد كانت ببساطة مستاءة لأنه لا بد من أنها قد اعتقدت أنني أدّخر الكثير من المال. وفضلاً عن ذلك، فإن **باتسي** ذكرت لي مدى سوء أوضاعها وأوضاع عائلتها منذ وفاة والدها. ومنذ ذلك الوقت الذي قضيناه معاً، علمت أن **باتسي** امرأة عاطفية لديها بعض الجوانب الفظة في شخصيتها إن واجهها موقف صعب. وعرفت أيضاً أن **باتسي** امرأة رائعة، لذا، شعرت بالامتنان للطيبة التي عاملتني بها وخصوصاً خلال مرض **هارولد**. وهكذا، كما اعتقدت، فإن أنا استطعت أن أخفف أي توتر نشأ بيننا، فيمكننا أن نكون أفضل حالاً بكثير. وقد أردت، كما فعلت **باتسي**، أن أساهم في نجاح حياتنا. ولكن في بعض الأحيان أيقنت أنه يمكنني أن أكون بدوري ضيق التفكير جداً، وليست **باتسي**. وتنفست الصعداء عندما طمأنتني **باتسي** أنها ستساعدني. فقبلت كلمتها من دون تردد.

ولأننا كنا نعيش في شقة ضيقة، على مقربة من أم **باتسي** التي تثير جنونها، فقد قررنا أن ننتقل إلى شقة أجمل وأوسع على بعد بضعة أميال. وقد شعرت أنني شخص سيئ لأنني صدقت تأكيد **باتسي** التام على أنها ستساعدني بالفعل بتسديد أجرة المنزل والأغراض الأخرى. ولبضعة أشهر، بدا كل شيء على ما يرام، وخصوصاً أنني لم

أعد أسافر إلى آسيا أو أوروبا، وقد تلاشى توتر باتسي وتوقف تعاطيها للكحول. وأصبحت شجاراتنا شيئاً من الماضي. كما أنها عثرت على وظيفة كنادلة الأمر الذي جعلها تشعر أنها ذات قيمة، وهذا بدوره جعل ثقتها بنفسها تزداد. وفضلاً عن كل شيء، كانت باتسي تحب أن تعيش بمنأىً عن سيطرة أمها.

ولكن لدى عودتي من مهمة أخرى خارج البلاد اكتشفت، بعد أن كدت أستجوب باتسي لأحصل على جواب، أن بعض الفواتير كانت مستحقة الدفع منذ أشهر. فقلت لها: «ماذا حدث للمال؟»

فترددت باتسي، ثم قالت: «لقد أنفقت شيئاً منه».

«شيئاً منه؟ لقد كان هذا المال مخصصاً من أجل...».

فقالت باتسي مراوغةً: «هدئ من روعك. سأسدد لك المال. ما المشكلة؟ إن الكثير من الناس يتخلفون لأشهر عن دفع فواتيرهم».

فانفجرت قائلاً: «كلا. ليس أنا، ليس الآن، ليس على الإطلاق! لقد وعدتهم بأن أدفع!»

فقالت باتسي بغضب وهي ترفع حاجبيها كأنها توصل إليَّ رسالة: «كلمات...؟ إنك لا تستطيع حتى أن تقولها!»

فقلت في نفسي: ماذا؟ فلم تكن لمشاعري تجاهها أيّ علاقة بأزمتنا الأخيرة.

«إنني لا أفهم حقاً لماذا تعاني من نوبة سيئة كهذه. ما المشكلة. اهتم بالأمر فحسب. فلطالما كنت تفعل ذلك. إنني أعرف أنك تملك المال، لذا انسحب فقط. وأراهن على أن الكثيرين من زملائك في سلاح الطيران يتأخرون في الدفع. تخطى هذا. فهو أمر عادي».

«إنها تدعى التزامات مالية. ويمكن لهم أن يطردوا من الخدمة. وإن لم أفِ بالتزاماتي، فيمكنني أن أفقد موافقتي. ومن دون موافقتي،

لا أستطيع أن أركب الطائرة، وهو ما يعني أنني سأطرد. وأنا لا آبه بما يحدث للآخرين. ألا تفهمين ذلك؟ إنني أفي بالتزاماتي. ولطالما كنت أفعل ذلك وسأفعله».

«حقاً؟ سنرى ذلك».

شعرت أنه قد تم استدراجي ثانية إلى طريق ملتو آخر من دون معالجة أساس المشكلة. وأخذ رأسي يدور بسبب مشاعري المضطربة. وقد توجب عليَّ دائماً أن أنتزع المعلومات من باتسي وأن أكتشف مصير مدخراتنا. فشعرت أنني تعرضت للاستغلال وكأن ثقتي هي شيء تستطيع أن تلجأ إليه كلما شعرت بالحاجة إلى ذلك.

ظلت باتسي واقفة ويداها على وركيها. وقالت: «إنك قاس جداً. هل تعتقد أنك مثالي. إنك... إنك لست والدي!»

علمت أن تلك الجملة كانت قادمة. فكلما كانت تشعر بالغضب كانت تذكر اسم والدها. فحاولت أن أستعيد هدوئي وأن أهدئ من روعها. فقلت: «أصغي إلي، من فضلك. إنني لا أحاول أن أتصرف كوالدك ولا أن أتأمر عليك وأتحكم بك. وإن فعلت ذلك، فأنا مخطئ، وأعتذر حقاً، وكل ما أحاول أن أفعله...».

«إنك تتصرف كأنني طفيلية... لكنني أمنحك شيئاً في المقابل! فأنا أمكث في البيت من أجلك، وأعتني بأشيائك، وأطعم سلحفاتك الغبية، وأطبخ لك الطعام، وأوضب لك الغداء، وأكتب لك الرسائل، وأحبك. وأنت، أيها المثالي، يا من تسألني أين ذهبت نقودك، لا تستطيع حتى أن تقول تلك الكلمة. إنها مجرد كلمة واحدة». ثم تقدمت باتسي إلى الأمام وهي تلوح لي بإصبعها.

«إن النساء لا يتهافتن عليك. فعندما التقيتك، كنت مجرد مغفل نحيل مهووس بالقراءة تطالع عند بركة السباحة». وتوقفت باتسي للحظة، ثم قالت معلنة كأنها اكتشفت حقيقة: «إنني بصحبة مغفل.

أنا بصحبة مغفل. وأعلمك أنني أستطيع أن أكون بصحبة أي شخص. لقد كنت مع أحدهم من قبل. ويمكنني أن أكون بصحبة شخص آخر بلمح البصر! إنني أرى رفاقك في سلاح الطيران ينظرون إلي، وأعلم ما يريدونه مني. إنك تعتني بي جيداً، ولكن لماذا لا تستطيع أن تقول تلك الكلمة؟»

فأجبتها بغضب قائلاً: «لماذا لا يمكنك أن تشعري بالمسؤولية؟» فبالنسبة إليَّ، كل شيء هو إما صحيح وإما خطأ. وليست الحياة بالنسبة إليَّ معقدة إلى هذا الحد. وعندما أرى مشكلة ما، عوضاً من تجاهلها على أمل أن تختفي من تلقاء نفسها، أواجه الموقف بعزيمة وإصرار. وفي الوقت عينه، أتأكد من أن أبذل كل ما بوسعي لكي أحول دون ظهور المشكلة مرة أخرى. وبرأيي، إن الناس الذين يستمرون بتجاهل مشكلاتهم، هم يخدعون أنفسهم. وإن مسألة خطيرة غير محلولة قد تجذب المرء إلى مستنقع سحيق عاجلاً أم آجلاً. وهذا أحد الدروس الكثيرة التي تعلمتها من العيش مع الوالدة».

كنت أتشاجر مع باتسي كلما عدت إلى البيت، وتوصلت إلى معرفة أنها تعتقد أن كل شيء يتعلق ببساطة بالمال وأن كل ما عليَّ فعله هو أن أعالج الموقف. لكن مشكلتنا الحقيقية هي أنني لم أكن أثق بها بقدر ما أردت أن أفعل. وفي بعض الأحيان، في خضم شجار عنيف، وددت ألا تكون لي أيّ علاقة بها. ولكن في أثناء وجودي خارج البلاد، كنت أشعر بحنين يجذبني إلى باتسي وأنني قد قسوت عليها جداً. وقد علمت أنني كنت أثير جنونها بسبب فرط حساسيتي. وبدأت أعتقد، بعد أن أعدت التفكير في كل شجاراتنا، أن معاييري ربما كانت عالية فوق اللازم. فبعد كل ما عانيته، كانت باتسي الوحيدة التي أظهرت أيّ عواطف على الإطلاق. وقد أدركت في قرارة نفسي أنني لا أستحق ما هو أفضل من هذا.

ولكن على الرغم من أنني أردت أن أثق بها، في حين أن الخداع مستمر والمواجهات آخذة بالتفاقم، فإنني لم أستطع قط أن أثق بالمرأة التي كنت أتمنى أن أحبها.

ولأننا كنا متأخرين جداً في دفع أجرة المنزل، فقد انتقلنا من المجمع السكني إلى شقة أصغر حجماً وأقرب إلى القاعدة. وحاولت أن أنفصل عن **باتسي**، لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على فعل ذلك. وكلما أوشكت على أن أشرح لها أننا شخصان مختلفان جداً، أخذنا كلانا نبكي ونتصالح ونحن نعاهد بعضنا بعضاً على أننا هذه المرة سنسوي الأمور بالفعل.

وبحلول ذكرى الميلاد عام 1985، بينما أنا أوصل **باتسي** إلى منزل ابنة **أليس**، كان الشعور الذي راودني طوال السنة الماضية قد تلاشى. فبينما نحن في طريقنا إلى **بي آيريا**، صرخت في وجهها حتى بكت وأغرقت فستانها الجديد كلياً قبل لحظات فقط من وصولنا إلى منزل **ماري**. لقد أصبحت مؤخراً تافهاً وبارداً وسريع الغضب، وقد أتت مشاعري هذه نتيجة لشعوري تجاه نفسي، لكنني بدأت أنفس عنها مع **باتسي**. وحتى بعد أن ثرت عليها ولمتها على مشاكلي كلّها، لم تتفوه بأيّ كلمة. وبعد أن ركنت السيارة، أخذت بيدي وهي تقول إنني كنت أقلق كثيراً وتطمئنني أن كل شيء سينجح. وعلى الرغم من الأمور كلّها التي كرهتها حيال **باتسي**، فإنها كانت في بعض الأحيان تتحملني وأنا أحارب نفسي.

بعد ساعات، عندما عانقت **أليس** مودعاً، انحنت **باتسي** قربي وهي تهمس في أذني قائلة: «أوه، لقد نسيت أن أخبرك أن **أليس** قادمة معنا. فهي سوف تقضي بضعة أيام مع أمي. وقد كانت **أليس** تتطلع لحدوث هذا منذ وقت طويل».

وعرفت من النظرة على وجه **أليس** أن هذه كذبة أخرى. ولسبب

ما لم أستطع أن أفهمه، شعرت أن باتسي قد بدأت تستغل، من بين كل النـاس، أمي بالرعاية. لكنني، بعد أن انفجرت غاضباً في وجه باتسي قبل ساعات فقط، اعتقدت أنني ربما كنت شديد الارتياب ثانية. فعلى الرغم من كل شيء، فإن أليس ودوتي ماي، أم باتسي، كانتا صديقتين منذ وقت طويل، وتعوَّدتا الذهاب معاً في رحلات إلى مدينة رينو. وقد مكثت أليس في شقة دوتي ماي لأسابيع في بعض الأحيان. وكان أكثر ما يخيفني هو أن تتورط أليس في عالمي وعالم باتسي الغريب.

فقلت لباتسي بهدوء وأنا أحاول أن أسبر غور نواياها الحقيقية: «إن أمي لا تملك حتى حقيبة سفر».

فقالت باتسي مبتسمة: «هدئ من روعك. إنك تقلق كثيراً. وإن كان لا بد لك من أن تعرف، فأنا أخطط لإقامة حفلة ذكرى ميلاد مفاجئة لك. وقد أرادت أليس أن تأتي معنا». فشعرت كأنني مغفل كبير. وفجأة، بدا كل شيء منطقياً. وفي الأسابيع القليلة الماضية، شعرت أن باتسي كانت تنوي فعل شيء ما إلى حدّ أن رفاقي في السرية قد أخذوا يتصرفون بغرابة. فعلمت أنه يجب علي أن أخفف من حذري. وقالت باتسي وهي تقبلني: «سوف أحظى بثقتك. وسترى ذلك».

بعد يومين، استيقظت على صوت رنين الهاتف، فنهضت بسرعة وأنا معتقد أنها مكالمة طارئة من السرية. وكان هذا يعني أنه يجب عليَّ أن أذهب إلى القاعدة في أسرع وقت ممكن. فارتحت لدى سماع صوت باتسي المرح على الجهة الأخرى من الخط. فصاحت قائلة: «إنني في المستشفى، يا ديفيد!»

فقلت لها: «أوه، يا الله. هل أنت على ما يرام؟» ولم أكن مستيقظاً تماماً، بحيث إنني لم أدرك حتى أن باتسي قد غادرت في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم.

فقالت بمرح: «اهدأ، إنني بخير، أصغ إلي. إن أمي وأليس معي... ولدي خبر رائع لك...». واستطعت أن أسمع من بعيد صوت أليس ودوتي ماي وهما تحاولان أن تتكلما بصوت أعلى من صوت باتسي، وتقولان: «إنهما سعيدتان لأنهما ستصبحان جدتين!»

صحت وأنا أهز رأسي لأصفي ذهني، وقلت: «ماذا؟»

فأعلنت باتسي قائلة: «سوف نرزق بطفل، يا ديفيد!»

الفصل التاسع

هدية السماء

لم أتقدم لطلب يد **باتسي** بعرض زواج رومانسي، بل أعلنت أنا و**باتسي** خطوبتنا في مطعم مكسيكي محلي. وبينما نحن هناك، ولأنني شعرت بالخزي يغمرني بسبب الحمل، فقد أخذت أقدم الاعتذارات **لأليس** على إحدى الطاولات حين كانت **باتسي** تثرثر مع أمها على الطاولة الأخرى. وبعد ساعة قضيتها بالعبوس أمام أمي بالرعاية، تناولنا نحن الأربعة العشاء. وبعدئذٍ، نهضت **أليس** و**دوتي ماي** لتعلنا زواجنا الوشيك للغرباء الذين كانوا يستمتعون بعشائهم والذين صفقوا بحرارة وأنا أتلوى من الارتباك على كرسيّ. ولأنني كنت سأسافر خارج البلاد لأقضي شهراً هناك، فقد حددت أنا و**باتسي** موعد الزفاف في الأسبوع الثاني من شهر شباط.

بعد أيام، عندما حلت ليلة رأس السنة، كنت ما زلت أغلي بمراجل الذنب والغضب، ليس من **باتسي**، بل من نفسي. فبعد سنوات قضيتها في ضبط النفس وبذل أقصى طاقتي لأبني حياة طيبة، تخليت عن حذري، ولم أكن أملك الشجاعة الكافية لأواجه **باتسي** وأقطع صلتي بها إلى الأبد. ومع ذلك فقد بدأت أشعر جزئياً أنني قد شجعتها على هذا. ومع أن **باتسي** مثيرة للأعصاب وعديمة المسؤولية، فإنني أنا من تمسك بها.

وبالفعل، لم يكن اعتقادي مهماً ولا كيفية شعوري أو تحليلي الوضع. فالنقطة الأهم هي أنني و**باتسي** كنا سنصبح والدين، ونحن

شخصان عاشا طفولة مشابهة ولكن في الوقت عينه ينظران إلى العالم كراشدين بطرائق مختلفة.

فمنذ أن اتصلت بي باتسي قبل أيام من المستشفى، كان الشعور بالخوف قد تملكني. ولم يكن ذلك أمراً يتعلق بالتخلي عن الأبوة، بل بتحمل المسؤولية. فطوال حياتي، لطالما شعرت أنني منبوذ ووضيع. وهكذا، كيف يمكنني الآن وأنا راشد أن أتخلى عن طفلي؟ وفضلاً عن ذلك، بسبب معرفتي جيداً أن هناك احتمالاً كبيراً أن يسيء الأشخاص الذين تعرضوا لإساءة المعاملة معاملة أطفالهم، فقد ملأني الرعب أكثر. ومع أنني أطلعت باتسي على طفولتي، فما خفي كان أعظم. فلقد عاهدت نفسي قبل سنوات أن أحمي المرأة التي سأتزوج بها. وقد حافظت على عهدي بأن واريت ماضيّ في الثرى. وما عقّد الوضع أكثر، هو أنني توصلت إلى الإدراك بعد أن عشت مع باتسي كم يمكنني أن أكون تافهاً ومحباً للجدل. وإن لم يكن ذلك كافياً، فقد كانت نسبة الطلاق مرتفعة بين أفراد طواقم الطيران. وبينما أخذت تلك الأفكار تصطخب في رأسي، أصبحت مهتماً بفكرة وحيدة وهي أن أفعل ما هو صواب لطفلي.

وها أنا هنا مستلق في السرير بجانب زوجتي المستقبلية، التي سأقضي بقية حياتي معها، قبل ساعات من بداية السنة الجديدة. ومع ذلك، فلم أكن أثق بباتسي، ناهيك عن مبادلتي إياها الحب الذي تدعي أنها تكنه لي. لم أكن أقصد حدوث ذلك فعلاً، ولكن في بعض الأحيان، كانت مشاعري تتحول إلى تمثال حجري أصم. ففي العالم الخارجي، كنت أتمتع بمهنة عظيمة، لكنني في داخلي، وبعد سنوات قضيتها في كبح مشاعري لكي أبقى على قيد الحياة، أصبحت كالإنسان الآلي. وسألت نفسي: كيف يمكنني أن أرعى طفلي بالحب والتشجيع في حين أنني لا أكاد أكن أيّ مشاعر لخطيبتي ومشاعر أقل

من ذلك لنفسي؟

كانت **باتسي** أكثر تفاؤلاً بكثير. وصاحت قائلة: «لطالما أردت أن أنجب طفلاً. إن أحفاد والدتي كلهم صبية. فربما، سننجب فتاة. وسيكون هذا رائعاً جداً. فيمكنني أن ألبس الطفلة وأحممها. ولن أبقى وحدي أبداً. وستكون هذه الطفلة الاستجابة لدعائي. إن هذه الطفلة ستجعل حياتي مكتملة. وسوف نصبح سعيدين جداً».

وبينما أخذت **باتسي** تثرثر، شعرت أنها تفتقر إلى الجدّية ولكل ما ينطوي عليه إنجاب طفل من مسؤولية. فقبل أيام فقط، كنا نتجادل للمرة الألف. أما الآن فقد كان كل شيء سيصبح وردياً وحالماً بسبب حملها. ولم يسعني إلا أن أفكر: كيف يمكن لشخص يشق طريقه بصعوبة دائمة في حياته أن يتدبر أمر تربية طفل؟

عندما أبعدت **باتسي** عن تفكيري، تحولت أفكاري إلى الشخص الوحيد الذي توجب علي أن أعلمه بزواجي الوشيك. فأمسكت بسماعة الهاتف وهي ترتجف في يدي وطلبت رقم الوالدة الخاص. وعلى الرغم من أن رقم هاتفها كان في حوزتي سراً لسنوات، فإن هذه هي المرة الأولى التي أتصل فيها بها منذ جنازة والدي. فحبست أنفاسي وأنا أتساءل لماذا أفعل ذلك، فلا شيء سيتغير. إذ إن الوالدة ما زالت تكرهني ولطالما كانت ستفعل ذلك. لكنني ما زلت أشعر برغبة غريبة في استحسانها. فاعتقدت أن السنوات التي مضت وقدوم موسم العطل وخبر زواجي الجيد ربما كانت سترقق قلبها. وهززت رأسي لأنسى تلك الفكرة، ولكن قبل أن أغلق الخط، سمعت صوت الوالدة الأجش. فقالت وهي تسعل: «نعم، مرحباً؟»

فبلعت ريقي بصعوبة وقلت: «**سيدة بيلزر؟**»

واستطعت أن أسمع على الجهة الأخرى من الخط صوتها المكتوم وهي تقول: «نعم، ومن المتصل؟»

«سيدة بيلزر، معك ديفيد». وشـعرت بالفزع لجزء من الثانية قبل أن أكمل الجملة، فقلت: «ديفيد بيلزر».

صاحت الوالدة بغضب: «وكيف حصلت على هذا الرقم؟»

فقلت بهدوء قدر الإمكان: «لقد اتصلت فقط لكي أتمنى لك سنة سعيدة. و... آه، أردت أن أخبرك، آه، أنني... سوف... أتزوج».

وبعد ثوان من الصمت المطبق، قالت: «حسناً، هذا جيد».

لم أكـن واثقاً مما عنتـه الوالدة، أو ما إذا كانت قد سـمعت فعلاً ما قلتـه لها للتوّ. فقلـت: «لقد قلت إنني سـأتزوج... بعد رأس السـنة بقليل».

فقالت الوالدة: «والشيء نفسه لك».

«شـكراً لك... لكنني سـوف...». وبينما أنا أحاول عبثاً أن ألفت انتباهها، سـمعت صوت إغلاق الخط. وكل ما استطعت فعله هو أنني اتـكأت على خشـب السـرير وأنـا لا أزال أقبـض على الهاتـف بيدي. وخـلال أيـام قليلة، أصبحـت حياتي تسـير علـى غير هـدى وأفكاري مشـتتة في ألـف اتجاه مختلـف حتى قبل منتصـف الليل ببضـع دقائق عندما اسـتغرقت أخيراً فـي نوم قلـق. وكانت آخر فكرة لـي عن العام 1985 هي كم شعرت أنني غير جدير بأن أصبح والداً.

تزوجت أنا وباتسـي في منتصف شهر شباط في دار عبادة صغيرة في المدينة حيث نشـأتْ هي. ولم يحضر أي شخص من أفراد السرية - عائلة سـلاح الطيـران الخاصة بـي - إلى الزفاف. وبعـد أن أعطاني بعضهـم أعذاراً قبل الحفل، علمت عن طريق الإشـاعة أنهم لم يؤيدوا قراري. وكانت إحدى زميلاتي الطيارين مستاءة جداً بحيث إنها ثبتتني على أحد الجدران قبل أيام من الزفاف، وقالت الملازم: «هذا أمر مهم جداً، يا بيلزر. وأعلم سبب قيامك بهذا، وكلنا نعلم ذلك، وهناك شيء ينبغـي لك أن تعرفـه... وليس من السـهل عليَّ أن أقولـه، فأنت بمثابة

أخ لـي... ولا أقـول إن خطيبتك مشـردة، لكنني رأيت أشـخاصاً على شاكلتها من قبل».

وبحلول ذلك الوقت أصبح شـعوري بالإحبـاط لا يطاق. فقلت: «ألا تعتقدين أنني أعرف؟ يجب علي أن أفعل هذا... وأنت لا تعرفين، أعني أنها مسؤوليتي».

«إنك تقيد نفسـك بهذا كثيـراً، يا بيلزر. وليس عليـك أن تتزوج. ويمكنـك مـع ذلـك أن تبقـى والـد الطفـل وأن تـراه وكل ذلـك». ثم حذرتنـي قائلة: «من الأفضل لك أن تفكر في الطفل وفي ما سـيحدث إن لم ينجح زواجكما».

قبضت علـى ياقة زميلتي العضوة في طاقم الطيران وأنا أستشـيط غضبـاً ودفعت بها على الجدار. وقلـت: «ألا تفهمين؟ إن كل ما أفعله هـو التفكير في الطفل؟ ما الذي تريدين أنت والآخرون مني أن أفعله؟ إنني أراكم جميعاً تنظرون إلي وتتحدثون من وراء ظهري وتقولون إنني مغفـل لفعلي هذا. وأنتم تعتقـدون أن الأمر كأنني متـورط في الزواج. لكنكم جميعاً مخطئون! فأنتم لا تعرفون الحقيقة وتعتقدون أنه يمكنني أن أحزم أمتعتي وأخرج من المنـزل وأهرب؟ إنني لا أستطيع ذلك!»

«أعلـم أن الظـروف ضـدي، لكنكـم لا تعرفونني. فقـد انتصرت علـى الظروف من قبل. وسـوف أجعل ذلك ينجح، وسـترون. وفضلاً عن ذلك، فإن باتسي تحبني. إنها تحبني فعلاً».

انحنـت زميلتي لتعانقنـي، وقالـت: «الآن، من تحـاول أن تقنع؟ ليس عليـك أن تفعل هذا. اطلب مني شـيئاً... ويمكنني أن أجمع بقية الطاقم فنختطفك ونأخذك إلى رينو. وسـنجعل ذلك انتشـاراً عسكرياً، فقد خططت لكل شـيء. فكر ملياً، وسـنكون على بعـد مكالمة هاتفية منك».

بلعت ريقي وقلت: «شـكراً، يا ليزا. هذا هو ألطف شيء قاله لي

أحدهم على الإطلاق».

لقد تلقيت الجواب نفسه من **ديفيد هاورد**، صديقي منذ الطفولة وأنا طفل بالرعاية، والذي عارض زواجي بشدة بحيث إنه رفض أن يحضر حتى بعد أن توسلت إليه ليكون إشبيني. وبسبب الإحباط، قلت بتذلل من دون تفكير: «حباً بالله، إنني أتوسل إليك أن تساندني، أرجوك؟»

وقد عرفت أنا و**ديفيد** بعضنا لأكثر من عشر سنوات. وكان من أفضل الأصدقاء الذين حظيت بهم. فتنهد بعمق، وقال: «أعلم أن الكثير من الأمور تحدث بسرعة، لكنني شعرت بقرب حدوث هذا. هل تعلم أن **باتسي** قد تبجحت تقريباً أمام صديقتي أنها ستفعل أي شيء لتتزوجك؟»

فتجاهلت قول **ديفيد**، وقلت: «هيا، يا رجل، إنك تنظر إلى الأمر من الزاوية الخطإ. لقد كانت تعني ذلك... بطريقة رومانسية».

فأجابني **ديفيد**: «إنني لا أحاول التقليل من قدر **باتسي**، لكن ليس الأمر أنك كنت تبقى خارجاً طوال الوقت عندما يتعلق الأمر بالمواعدة. وأنا أعلم ما تحاول أن تفعله بحياتك وأحترمه، ولكن، يا رجل، ماذا سيحل بالطفل وأنتما تتشاجران طوال الوقت؟ أنت تعلم كيف سيكون الأمر. لقد كان والدي هكذا. وماذا حدث؟» وبعد لحظات قليلة من الصمت، تابع قائلاً: «إنني آسف، يا رجل. فأنا لا أستطيع أن أساندك في هذا. وأنا أحبك، يا أخي، ولكن...».

فقلت بسرعة: «هيه، يا رجل. إنني أدرك ما تعنيه». وسرعان ما فكرت ثم حاولت للمرة الأخيرة، فقلت: «أعلم أنكما لا تنسجمان معاً، لكن **باتسي** فعلاً سيدة عظيمة وبارعة...».

فقاطعني **ديفيد** قائلاً: «ألا تدرك ما أعنيه؟ هل تصغي إلى نفسك؟ إنكما مختلفان كاختلاف الزيت والماء. ومرة أخرى، إنني لا أقلل من

قدر **باتسي**، لكنني أعلم إلى أين سيؤول هذا الوضع برمته».

وانتزعت **باتسي**، التي اكتشفت أنها كانت تجهد نفسها لتصغي للحديث، سماعة الهاتف من يدي، وقالت: «إننا لسنا بحاجة إليك أو نريدك في زفافنا. لذا... ارحل!»

كانت تحذيرات **ديفيد** و**ليزا** لا تزال ترن في رأسي عندما أتت **باتسي** وهي تمشي الهوينى على طول الممشى في حفل الزفاف. وحدقت إلى يساري في الجانب المخصص للعريس من دار العبادة. وباستثناء ابنة **أليس**، **ماري**، وصهرها، **ديل**، وحفنة من الآخرين، كان الجانب فارغاً تقريباً. أما جانب **باتسي** فقد كان مليئاً بالأصدقاء والأقارب وكل شخص تقريباً من البلدة. وقد أخذوا جميعاً يبتسمون بسعادة بينما توجهت **باتسي** في طريقها نحو رجل الدين. ووقف صديق واحد على الأقل من أصدقائي، وهو **جيه دي ثوم**، إلى جانبي ليكون إشبيني. وكان التوتر الشديد قد نال مني في أثناء تبادل العهود بحيث إنني أوقعت خاتم **باتسي** على الأرض. وفي حفل الاستقبال لاحقاً، ابتسم أحد أشقاء **باتسي** ابتسامة عريضة وهو يصفعني على ظهري ويقول معلناً على الملإ: «لديك عائلة الآن!»

خلال وقت قصير، حالفني أنا و**باتسي** الحظ لننتقل إلى مساكن القاعدة العسكرية. وقبل أن أنطلق في مهمة طويلة خارج البلاد، كنا قد حددنا قواعد حياتنا. وفاجأتني بأن أعلنت بإصرار أنها قد أقلعت عن التدخين والشرب. ومن تلك اللحظة فصاعداً، ادعت **باتسي** أنها ستبذل قصارى جهدها لكي تهيئ الظروف الصالحة لطفلنا. وقالت: «لقد تزوّجت بك، يا **ديفيد**. ويمكنني أن أتخيل رأيك بي، لكنني تزوجتك طوال الحياة. وسوف أفعل ما هو صواب من أجل طفلنا. لقد عانينا من طفولة سيئة، لذا دعنا نفعل ما هو صواب من أجل طفلنا. ولكن اعلم هذا، إنني أحبك، يا **ديفيد**. وليس هذا بسبب الطّفل، بل علمت

منذ اللحظة التي رأيتك فيها أنك الشخص المناسب لي. فلا مزيد من الشجار والخروج للسهر والتنقل في الأنحاء. لقد انتهى كل هذا».

شعرت بالراحة لأن باتسي قد أصبحت جادة حيال كونها أماً. وفي بعض الأحيان حين تكون الأمور مستقرة بيننا، كنت أشعر أنها تحبني، ولكن الآن بعد أن أصبحت زوجها، كان همي الوحيد هو أن أضمن أنني سأبذل ما في وسعي من أجل طفلنا. فقلت لها: «أريد أن أتأكد من أن طفلنا لن يعامل بالطريقة التي عوملنا بها. وأريد أن أفعل الشيء الصواب من أجله».

عانقتني وقالت باكية: «أحبك، يا ديفيد».

فأخذت نفساً عميقاً وأغمضت عيني قبل أن أجيبها قائلاً للمرة الأولى: «وأنا... أيضاً أحبك».

همست باتسي قائلة: «شكراً لك، يا ديفيد، شكراً لك. سترى أن الطفل سيغير كل شيء. وستصبح كل الأمور على ما يرام. سوف ترى».

حين لم أكن مسافراً خارج البلاد، تعوَّدت أن أكرس كل لحظة لإعادة بناء منزلنا. فأخذت أقضي ساعات وأنا أعيد ترتيب الأثاث وأضع الحلي الصغيرة في المكان المناسب لكي تنال أكبر قدر ممكن من الضوء. فقد أردت لمنزلنا أن يكون واسعاً ودافئاً. وكم كنت فخوراً عندما اشتريت جزازة عشب وأدوات حديقة أخرى. فكنت أستيقظ بعد شروق الشمس مباشرة في صبيحات أيام السبت لأقضي أطول وقت من اليوم وأنا أجز العشب وأقلب التربة وأقص النباتات وأسقي الأزهار وأزرعها لكي أجمل حديقتنا. لقد بدأت أشعر أنني زوج يؤمن احتياجات عائلته. وبذلت قصارى جهدي لكي أفكر في المستقبل وأحاول أن أعتني بكل شيء يساعدني على أن ألطف كل مشكلة تنشأ بيني وبين باتسي. وحالما تمت تسوية أمر كل الفواتير،

بدأت أحـرص على أن تتلقى باتسـي معظم مدخراتنـا. وبمرور الأيام، بدأت مخاوفي الأولى تتلاشى.

في يوم قبض الرواتب، كنت أهرع إلى المجمع التجاري وأطوف الممـرات كافـة التي تتعلـق بحاجيـات الأطفـال. ومع مرور الأشـهر، اشـتريت ألعاباً ودمى محشـوة وأي شـيء أعلم أن الطفل يسـتمتع به. وعندمـا لم يعد هناك شـيء من أشـياء اللعب لأشـتريه، بـدأت أقضي الوقـت بالبحث عـن عربة الأطفـال والمهـد والثياب المثاليـة مع أنني كنت أعلم أن الطفل لن يرتدي بعض السراويل القصيرة والكنـزات إلاّ بعد مضي سنوات، لكنني لم أستطع أن أسيطر على انفعالي. وبينما أنا خارج البـلاد، ولأن ميزانيتي كانت ضيقة جـداً، فقد تخليت عن بعض الوجبات لكي أشتري للطفل دمية تمساح محببة صفراء أسميتها وولي. وكلما كنت أفعل المزيد من أجل الطفل كان قلبي يزداد دفئاً.

وعندما سـألني أحد أفراد سـريتي ما إذا كنت أريـد صبياً أو فتاة، جاء ردي الفوري بأن قلت: «أريد طفلاً سـليم الجسم له عشرة أصابع في يديه وعشـرة أصابع في قدميـه». وفي أوائل فصـل الربيع، طمأنني أطباء سـلاح الطيران أن الجنين كان سليماً معافى وأنه صبي. وشعرت بسـعادة غامرة لهذا الخبر، ولكن بسـبب حظي السـيئ توجب علي أن أعتقـد أننا لم نكن قد تخطينـا مصاعبنا بعد. وما لـم أحمل الطفل بين ذراعي، فلن أقتنع أن كل شيء سيكون على ما يرام.

منـذ وضعت أنا وباتسـي قواعد حياتنا، انسـجمنا بشـكل أفضل. والآن كلمـا كنـا نختلـف، ونتشـاجر، تعـوَّدت أن ألجـأ إلـى الحديقـة وأتمشـى فيها حتـى يهدأ كلانا. وقـد أيقنت أنني أنا الذي كنت أشـعل فتيل الجدل في أكثر مـن نصف المرات. وكانت باتسـي دائماً هي من تبادر للمصالحة. لكنني على الرغم من ذلك لم أثق بها بقدر ما شعرت أنـه ينبغي لـي أن أفعل. وقـد أصبحت أنـا وباتسـي الآن نعيش كزوج

وزوجة. وكل ما توجب علينا أن نفعله هو أن ننتظر ولادة طفلنا.

في شهر حزيران من العام 1986، توجب عليَّ أن أحضر دورة طيران مدتها ستة أسابيع. وكان موعد ولادة باتسي في آخر شهر تموز، وهكذا، فقبل كل رحلة جوية كنت أمرّ على مكتب الإدارة لأعطيهم إشارة نداء الطائرة وترددها في حال وجود أيّ أخبار طارئة. وفي أيام الجمعة، وبعد يوم طويل، كنت أقوم برحلة الثلاث ساعات بسرعة قصوى وأنا أدعو لئلا تكون باتسي قد بدأت المخاض بعد. ومرت الأسابيع ببطء، ومع ذلك لم يولد الطفل. وحتى بعد أن انتهت مدرسة الطيران، وعندما أكد الأطباء لباتسي أن كل شيء طبيعي، ساورني القلق أن يكون هناك شيء خطأ. وأخيراً، في منتصف شهر آب، دخلت باتسي المخاض. وكنا نعرف لأشهر أن طفلنا صبي، لكننا لم نقرر الاسم الذي سنطلقه عليه. وبينما كانت باتسي تدفع في الكرسي المتحرك إلى غرفة الولادة، أمسكت بيدها وانحنيت وهمست لأسألها ما إذا كان باستطاعتنا أن نسمي الطفل ستيفن جوزف، فسألتني بضعف: «لماذا؟ أليس هذا اسم والدك؟»

فتوسلت إليها قائلًا: «نعم، لكنها فرصة أخرى، أي فرصتي لكي أعيد الأمور إلى نصابها، أرجوك؟ إن هذا سيجعل ضميري أكثر صفاء». ابتسمت باتسي وهي تضغط على يدي. وبعد وقت قصير، كنت، إلى جانب الطبيب، الشخص الأول الذي يحمل طفلي: ستيفن جوزف بيلزر.

كان ستيفن صغيراً جداً ورقيقاً بحيث إنني اعتقدت يقيناً أنه سينكسر إن أتيت بأيّ حركة خاطئة. وكان باستطاعتي أن أحمله إلى الأبد، لكن الممرضات أصررن على أن أعهد بطفلي إلى رعايتهن. وبعد ساعات، في منتصف الليل، تمددت على سريري وأنا أشكر الله لأن ستيفن كان بالفعل موفور الصحة والعافية. وقبل أن أستغرق في

النوم، بدأت أشعر بعبء خفي يرهق كاهلي، فقد أصبحت الآن والداً.

بعد أسبوع فقط، في يوم سبت جميل، خرجت أنا وباتسي في أول نزهة عائلية. وقبل حلول الظهر، مع أشعة الشمس التي تخللت الأشجار الباسقة، ركنت السيارة إلى جانب المنزل نفسه حيث تعوّد والدي أن يأخذ العائلة في إجازات قبل وقت طويل عند طريق ريفرسايد. لقد سبق لي أن خرجت مع باتسي في نزهات لا تعد ولا تحصى إلى نهر رشان، وكنا نبقى أحياناً لساعات قليلة أو حتى دقائق معدودة في بعض الأوقات. ولطالما كنت أضجرها كثيراً بحديثي المستمر عن أملي بالعيش هناك يوماً ما. ومع ذلك فلم أستطع أن أفسر لباتسي سبب تعلقي الشديد بتلك المنطقة. وعندما احتضنت ستيفن بين ذراعي، جلست على جذع الشجرة القديم المهترئ حيث تعوَّدت أنا وإخوتي أن نلعب في ما مضى. وبينما كان ستيفن نائماً بعمق، همست وأنا أهدهده قائلاً: «يوماً ما سنعيش هنا. سنعيش هنا عند النهر». ولم يسعني إلا أن أتذكر حلمي السخيف عن علاقتي بوالدي في المكان نفسه الذي كنت فيه مع ابني. ووعدت ستيفن قائلاً: «سوف أضع الأمور في نصابها بالنسبة إليك. وكل ما أفعله هو من أجلك، وسوف أحقق كل شيء من أجلك أنت، وليشهد الله على هذا».

كان عصر ذلك اليوم عند النهر أكثر من مجرد نزهة عائلية. فمنذ ذلك اليوم، بدأ قلقي يهدأ. ومنذ أن ولد ستيفن، أصبحت شديد الارتياب، ليس كوالد أحافظ عليه فحسب، بل لوجود مخاوف أخرى بدأت تقض مضجعي مثل مرضه وارتفاع حرارته ليلاً وحصوله على جميع الحقن المناسبة في الوقت المناسب. وعندما عدنا إلى بيتنا في قاعدة بيل آير الجوية، اكتشفت طرائق لا حصر لها يمكن لابني أن يؤذي بها نفسه مصادفة، مثل وضع أصابعه في مأخذ الكهرباء والسقوط عن الدرج أو حتى الاختناق بملاءة سريره. فسألت نفسي:

«كيـف يمكنني أن أحميـه مـن هـذه الأخطـار كلّهـا طـوال الوقت؟»

وبينما نحن عند النهر، علمني ستيفن درسي الأول من دون أن يدرك ذلك، وهو أن أبذل كل ما بوسعي عندما تطرأ مشكلة ما، وأن أهدئ من روعي قليلاً وأغض الطرف عن بعض الأمور. وأدركت أنني لن أستطيع أن أحمي كل ناحية من نواحي مستقبل ابني وأصلحها وأسيطر عليها، ناهيك عن مستقبلي أنا.

منـذ تلك اللحظـة فصاعـداً، لم يعد يمـر يوم واحد مـن دون أن تعتريني فيه دهشـة تامة بسـبب سـتيفن، مثل كيفية اسـتلقائه ونومه في حضنـي ونعومة جلده والأصـوات الرقيقة التي تخرج مـن فمه. وحين كنت أعود من رحلة في وقت متأخر من الليل، تعوَّدت دائماً أن أمشي علـى رؤوس أصابعي إلى غرفته وأنسـى الوقت وأنـا واقف فوق مهده لكي أتأمله وهو نائم. وكلما فعلت ذلك، ومرّت لحظات قليلة لم يأت فيها بأيّ حركة، كنت أعتقد أن ستيفن قد مات! فينقبض قلبي وأنا أمد يـدي إلى المهـد وأنتزعه منـه. وتأتي مكافأتـي بعد لحظـة عندما يملأ صياح سـتيفن مسـامعي كالموسـيقى. فكنـت عندئذٍ آخذه إلـى غرفتي وأجعله ينام على صدري.

فـي الصباح، وعندمـا تكون باتسـي لا تزال نائمـة، كنت أحرص على أن أسـتيقظ باكـراً لأقضـي الوقت مع سـتيفن وأصغي إليـه أيضاً وأراقبه وهو يمص أصابعه أو يزحف عبر الملاءات على طول السرير. وقـد فتنـت بابتسـامته الدائمة وبالأمـور الصغيـرة التي تضحكـه. وفي بعـض الأوقات، تعوَّدت أن ألعب معه كثيراً بحيث أتأخر عن التخطيط للمهمات في العمل. وفي السـرية، كنت قد أريت الجميع أكداسـاً من الصور قبل أن أعلقها على قائمـة مواعيدي. وهكذا فمهما بَعُدَ المكان الذي أطير إليه كان سـتيفن يبقى برفقتـي. وبعد العمل، كنت أهرع إلى البيت وأمر على باتسـي بسرعة لأسـلم عليها قبل أن ألعب مع ستيفن.

وبحلول الوقت الذي أصبح فيه يجلس في عربة المشي، بدأت أطارده في جميع أنحاء المنـزل وهو يهـرب مني ويضحك بأعلى صوته. وقد سـررت عندما تعلم كيـف يزيد من سـرعته برفع سـاقيه الصغيرتين ثم الانحناء في عربة المشـي قبل الانعطاف بسـرعة. وأكثر من مرة أبقيت بصـري مثبتـاً عليه بدلاً مـن الجدار في آخـر الممر حتـى ارتطمت به. وفي نهاية يوم شـاق، تعوَّدت أن أقرأ لستيفن كتب الدكتور سوس وهو يشـير بأصابعه إلى الصور. وعلى الرغم من أنه كان صغيراً جداً بحيث لا يفهم المعنى، فلم أكترث لذلك ما دمنا بصحبة بعضنا بعضاً.

قبل ذكـرى ميـلاده الأولـى، أصبحت غرفة سـتيفن، التـي كانت فارغـة في السـابق، مسـتودعاً فعليـاً للألعاب. فقـد كان يملـك أكواماً مـن الحيوانات المحشـوة بحيـث إنني تعـوَّدت أن أملأ المهـد بأكمله حتـى الحافة ثم ألقيه فيه بلطف. فكان يختفي، ليظهر إلى السـطح بعد لحظـات وهو يضحك لكـي ألقي به ثانية. وبالنسـبة إلـيَّ، لم يكن أي شيء كثيراً إذا ما أدخلت السعادة إلى قلب ستيفن.

منحت باتسـي سـتيفن كل مـا لديهـا، فحرصت علـى أن تحممه وتغمـره بمرطّـب الأطفـال، وكلمـا أطعمتـه، كانـت السـعادة الغامـرة تملؤهـا، فكانـت تبتسـم بفـرح لأقل الأشـياء التـي يفعلهـا، وكلما كنا نختلـف كزوجيـن، كان كل ما يتوجب علينا أن نفعلـه هو أن ننظر إلى سـتيفن ليختفي قلقنا. وفي بعض الأحيان تعـوَّدت أن تمازحني بقولها إنني أقضي وقتي مع سـتيفن أكثر مما أقضيه معها هي، فأدركت مرمى كلامها. ولم أكن أملك الشجاعة الكافية لأعترف لها أنني للمرة الأولى في حياتي أصبحت شغوفاً بعواطف لم تتملكني قطّ من قبل. فمن دون أي تردد، كان ابني سـتيفن الشـخص الأول والوحيد الذي عشقته. لقد أحببته حباً لا حدود له من أعماق قلبي وروحي.

الفصل العاشر

مصدر الشر

بحلـول صيـف العـام 1987، وقبـل ذكرى ميـلاد **سـتيفن** الأولى بأسـابيع فقط، أخذت إجازة من الخدمة لنقوم برحلتنـا العائلية البعيدة الأولـى. وكانـت وجهتنا هي مدينة **سـولت ليك سـتي** فـي ولاية **يوتا**. ولأن **باتسـي** كانـت تتذمر مـن بقائها محبوسـة فـي البيـت، ولأنها قد انسـجمت بشـكل جيد مع الجدة، وهذا ما فاجأني، فإننا قررنا أن نقوم بالرحلة. وقد شـرحت **لباتسـي** بحرص أن الجدة هـي ربما لطيفة على الهاتف ولكن يمكنها مع ذلك أن تكون محبة للسيطرة والإغاظة حالما تتواجد شـخصياً مع أحدهم، لكن **باتسـي** لم تكترث لذلك. فاعتقدت أننـي شـديد الارتيـاب. وحالمـا وصلنا إلـى هنـاك، أيقنـت أن الجدة كانت سـتدفعني أنا **وباتسـي** إلى الجنون، لكن الجدة، منذ أن تزوجت وأنجبت **سـتيفن**، وهي تعاملني معاملة غير مسبوقة، فقد كانت تستمتع على الهاتف بسماع كل تطورات نمو **ستيفن**. إلا أنني ربما كنت شديد الحذر بسبب زيارتي الأخيرة لها.

وكان لديَّ سبب خفي آخر يدفعني للسفر إلى **سولت ليك ستي**. فقد تبـادرت إلى ذهني على مدى سـنوات أسـئلة كثيـرة، والآن بدأت أشعر أنني على أهبة الاستعداد لكي أطرحها. وفي كل يوم كان **ستيفن** ينمـو فيه أمـام عيني، لم أتصور كيف يسـتطيع شـخص ما، ولا سـيما إحدى الأمهات، أن يختلق طرائق يهين فيها إنسانية طفله ويعذبه. ومع أنني تشـوقت لأن أختم فصول الماضي من أجل نفسي، فإنني شعرت

كوالد الآن أنني مدين بذلك لستيفن.

عندما اصطحبت باتسي ستيفن إلى بيت الجدة في وقت متأخر من صباح يوم دافئ، قدت سيارتي **التويوتا** إلى منزل الوالدة وركنتها على بعد بضعة منازل. وقبل أن أترجل من السيارة، توقفت لكي أتمالك شجاعتي، وتفقدت ساعتي لأتأكد من أنني لست متأخراً، وأن كل شعرة في رأسي هي منسقة في مكانها الصحيح لكي أعطي انطباعاً جيداً عن نفسي. وتساءلت للمرة المئة ذلك الصباح ما إذا كنتُ أريد أن أمر بتلك التجربة، وشعرت جزئياً أنها مغامرة ميؤوس منها. وكنت على يقين من أن الوالدة لم تكن ستعترف بخطئها أبداً وتطلعني على سبب إلحاقها كل ذلك الأذى بي. وبعد الطرائق التي لا حصر لها والّتي عذبتني بها الوالدة والكم الهائل من الشراب الذي تناولته طوال تلك السنوات، فمن المرجح أنها لن تتذكر حدوث ذلك كله. وحدثت نفسي قائلاً: ولكن إن استطعت أن أخرج من هناك ببعض المعلومات، فربما سيكون ذلك كافياً لكي يطهرني. وإن تمكنت من أن أدخل بيت الوالدة من دون أن أنكمش منها مرتعداً وأن أظهر نفسي كشخص ذي عقل راجح وتفكير مستقل ومسؤول كما أحاول أن أكون، عندئذٍ بحلول وقت مغادرتي، كنت سأعلم في أعماقي أن أحداً لن ينظر إليَّ بعد الآن على أنني شيء عديم القيمة. وبعد سنوات من عدم الثقة بذاتي وبقدراتي، بدأت أشعر أنني لم أعد بحاجة لأن أثبت قيمتي للوالدة بعد الآن. ومن بين كل الاختبارات التي خضعت لها، ربما كانت رؤية الوالدة الاختبار النهائي بالنسبة إليَّ.

بينما كنت أصعد إلى المنزل، لاحظت كم بدا العشب ذابلاً وخالياً من الحياة وكم بدت الشجيرات مفرطة في النمو وغير مشذبة. ومن بين المنازل الأنيقة في الشارع، ظهر منزل الوالدة الكئيب المقوض كمنزل شاذ المظهر. فحدثتني نفسي: وقبل سنوات، كان

منزلها مكاناً مثالياً بين غيره من المنازل. وبعد أن قرعت الباب، استنشقت شيئاً من رائحة نتنة. وعندما انفتح الباب، كدت أسقط على الأرض من بشاعة الرائحة. وقبل أن أتمكن من أن ألتفت برأسي، ابتسمت الوالدة بسرعة، وقالت: «نعم... في الوقت المناسب. ادخل». فارتبكت، واعتقدت أن الوالدة كانت تتصرف كأن رؤيتي لها هي أمرٌ يتكرر حدوثه كل يوم. وقبل أن أتمكن من أن أبادرَها بالتحية، استدارت الوالدة واتجهت نحو الدرج. وعندما تبعتها عدة درجات، بدأت رائحة كريهة غامرة تسيطر على حواسي. فغطيت فمي، وأنا أعتقد أن جزءاً من الرائحة يأتي من الدرج الذي اهترأ إلى حدّ أنه لم يتبق منه شيء إلاّ الخشب المجرد. وأياً كان ما يغطي ذلك الدرج، فقد أصبح على الحواف واكتسى بطبقة من شعر القطط والكلاب. كذلك كان للجدران لمعان غريب بسبب البقع الصفراء والبنية التي تشكلت نتيجة تدخين الوالدة المتواصل على ما يبدو.

وبعد أن أراني أخي الأصغر، كيفن، الذي أعتقد أنه أصبح في السادسة عشرة بحلول ذلك الوقت، غرفته بفخر، عدت إلى غرفة المعيشة لأجلس إلى جانب الوالدة. وبدا على كيفن أنه يحوم في أنحاء الغرفة بتوتر في حين كنت أبذل أنا والوالدة جهداً جباراً لكي نتجاذب أطراف الحديث معاً. وبعد بضع محاولات، جفّ خلالها ريقي، كل ما استطعت أن أفعله هو أنني أخذت أومئ برأسي حين كانت الوالدة تدلي بملاحظة عابرة. وبدأ توتر بارد يملأ الغرفة. ولسبب غريب، لم أشعر بالخوف أو حتى بالخشية ولو قليلاً منها. ولم أستطع أن أحول بيني وبين التحديق المستمر بها. فمنذ جنازة الوالد قبل سبع سنوات، لم تكتسب الوالدة وزناً كثيراً فحسب، بل إن وجهها بدا الآن ممتلئاً وذا جلد سميك. وذكرتني ملامحها القرمزية بوالدي عندما عثرت عليه في إحدى الحانات على الطرف المقابل للشارع من محطة الإطفاء في

سان فرانسيسكو قبل أن ألتحق بسلاح الطيران. وكانت أصابع الوالدة متورمة وترتعش كل بضع دقائق. فأخذت أتململ على كرسيّ محاولاً أن أفكر في شيء أبادر به بالحديث. لكن مظهر الوالدة عبر عما كان يجول في خاطرها. فقد خلفتها السنوات التي قضتها في حب الانتقام امرأة مهزومة ووحيدة، كما أن السيطرة التي كانت الوالدة في ما مضى تلوح بها للآخرين كالسيف كما تشاء وتهوى قد تلاشت الآن.

نال الضجر من كيفن، فخرج من الغرفة ونزل الدرج خارجاً من المنزل. وقبل أن يغلق الباب الأمامي، رفعت الوالدة رأسها بسرعة كأنها تريد أن تتأكد من أن المكان أصبح آمناً، فتمتمت قائلة: «أريدك أن تعلم أنها كانت حادثة».

عندما أدركت أنني أصبحت بمفردي مع الوالدة للمرة الأولى منذ ذلك اليوم في شهر آذار قبل أن يتم إنقاذي منذ أكثر من أربعة عشر عاماً، شعرت بالضعف يتملكني، فلم أستطع أن أصدق أنني جالس فعلاً على بعد أربعة أقدام من المرأة التي حاولت قتلي. وقد فاتني سماع عبارة الوالدة، فاعتذرت لها قائلاً: «أرجو المعذرة؟ حادثة؟»

تنهدت الوالدة كأن صبرها قد سبق أن نفد مني. فقالت رافعة صوتها: «أريدك أن تعرف أنها كانت حادثة!» وأومأت لي أنه ينبغي لي أن أستوعب رسالتها المشفرة. وكل ما تمكنت من فعله هو أنني أومأت برأسي. وساد صمت غريب بعد ذلك. فرفعت حاجبي، وحاولت أن أحمل الوالدة على تفسير قولها، لكنها ابتسمت ابتسامة عريضة. وفجأة، أدركت مرمى قولها. فقبل سنوات في صيف أحد الأعوام وأنا طفل، انتزعت الوالدة سكيناً خلال إحدى نوبات غضبها وهددت بأن تقتلني. وفي ذلك الوقت من الماضي، تيقنت من حالة الوالدة وترجح ذراعيها أن تهديدها كان يتخطى حدود الوضع الطبيعي. وبينما أنا جالس أمام الوالدة الآن، تصورت الرعب الذي كان في عينيها عندما

انزلق السكين من قبضتها قبل أن تطعنني. وتيقنت نوعاً ما، حتى في ذلك الوقت من الماضي، من أن الوالدة لم تنوِ قط أن تقتلني. ولطالما شعرت أنها إحدى ألاعيبها التي جاوزت حدها.

تمالكت شجاعتي، ثم انحنيت من الكرسي، وقلت: «نعم، حادثة! لقد كنت على يقين من ذلك. ولطالما علمت أنك لم تقصدي... أن تقتليني». وعندما خرجت الكلمات من فمي، استطعت أن أتخيل شكل طفل صغير فاقداً وعيه على أرض المطبخ المنقطة والدم يتدفق من صدره بينما تقف الوالدة فوقه وتمسح يديها كأن شيئاً لم يكن. وفي ذلك الوقت من الماضي، اعتقدت أن الطعن كان سيوقظ الوالدة من جنونها الحاقد ويشعرُها كم أصبحت جنونية، وكانت إصابتي ستحول الوالدة الشريرة إلى أمي المحبة الجميلة التي تعوَّدت أن أتلو الدعاء من أجلها؛ وعندئذٍ فقط كان يمكن أن يلتمّ شمل العائلة بطريقة ما كإحدى نهايات القصص الخيالية.

والآن، وأنا جالس مع الوالدة في غرفة معيشتها القذرة، تساءلت عن سبب تعلقي بها. فكلما فكرت في الوالدة، وجدت نفسي باستمرار أحاول أن أثبت لها أنني لست ذلك الطفل المتوحش المتمرد الذي يستحق التأديب، كما أن الوالدة أدخلت بدورها في رأسي مرات عديدة، أنني إنسان ذو قيمة. وبسبب قلة ثقتي بنفسي، حتى وأنا في وصاية أهلي بالرعاية، لطالما حاولت أن أكشف النقاب عما يمكنني أن أفعله لكي أثبت قيمتي للوالدة محاولاً أن أحقق شيئاً استثنائياً بحيث يمحى سجل أعمال طفولتي من الوجود. وعندما أصبحت راشداً أدركت تماماً أنني أصبحت رجلاً مستقلاً ومؤهلاً تقريباً. فلم أتحول من طفل بريء إلى رجل ناضج عملي متزوج وفرد منتخب من أفراد طاقم طيران في سلاح الطيران فحسب، بل أصبحت أيضاً والداً لصبي رائع كنت أغدق عليه الحب الحقيقي في كل لحظة من لحظات

اليوم. وكنت أعلم أن أمامي طريقاً طويلاً لأمضي فيه، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بمسائل الثقة. وكان الخزي الذي ملأني بسبب ماضيّ لا يزال يجعلني أرتاب بنفسي. وشعرت جزئياً، وخصوصاً في حضور الوالدة، أنني مصدر الشر وأنني فاشل. وكان تلويح الوالدة بعصاها السحرية لتتقبلني سيجعل قيمتي الذاتية تنمو.

ومع ذلك، فعندما اتكأت واسترحت على كرسي، أدركت أنني لست على خطأ. فأنا لم أجعل الوالدة ترتكب تلك الأمور في حقي. ولم أجبرها، أو أستفزها، لتطعنني. والآن، بعد مرور ستة عشر عاماً على الحادثة، ما زالت الوالدة عاجزة عن أن تحمل نفسها على أن تعتذر لأنها كادت تقتلني في إحدى المرات أو لأيّ إساءة أنزلتها بي خلال تلك السنوات كلّها. وقد جعلت تلك العبارة الوالدة تبدو كأنها هي ضحية ما حدث.

لم يمحُ إسراف الوالدة في الشرب ذاكرتها، فقد كانت تعرف بالضبط ما فعلته. ولم تبدِ أيّ دلالة على الندم، ما لم يكن طرح الوالدة للموضوع هو طريقتها الهزيلة في طلب الغفران. وإن يكن ذلك صحيحاً، فهل شعرت الوالدة بأي شعور بالذنب؟ هل أظهر ما قالته ذرة عاطفة؟ هل هي تكترث لما حدث؟ لو أنني أستطيع فقط أن أنزع طبقات الحقد التي تغطيها...

سألتها بإخلاص حقيقي وبلطف قائلاً: «ماذا حدث؟» ولكن قبل أن تتمكن الوالدة من أن تجيب، وجدت نفسي أتفوّه بسلسلة من الأسئلة، فقلت: «لماذا أنا؟ أعني، ما الذي اقترفته لأجعلك تكرهينني؟»

تنحنحت الوالدة وهي ترفع رأسها، ثم قالت: «يجب عليك أن تدرك أن الشيء كان سيئاً، يا ديفيد». وظلّ تفسير الوالدة المجرد من العاطفة مشوباً بالغموض. فهززت رأسي وأنا أتصرف كأنني لم أسمع

مـا قالته. وقـد أردت متعمـداً أن أحمـل الوالدة على أن تكـرر كلامها لكي تعرف بالضبط مـا قالته لتوِّها. فكررت الوالدة تبريرها، وهي تزفر بتوتر، واضعة المزيد من التأكيد على **الشـيء** و**ديفيد** كأنهما شـخصان منفصـلان. ومع ذلـك، فقـد اعترتني دهشـة بالغة بحيث إنني لم أحر جواباً. وزادني تفصيل الوالدة حيرة. فقالت: «يا **ديفيد**، لقد كان **الشيء** دائماً يحاول أن يسـرق الطعام، وقد استحق أن يعاقب. وكانت للصبية الآخرين حصتهم من الأعمال المنـزلية أيضاً، وقد كنت لأطعم **الشيء** حالما يفرغ من أعماله... لكن... **الشيء** تعوَّد دائماً أن يسرق الطعام». وأومأت الوالدة ثانية برأسـها كأنـه يجدر بي أن أتفق معهـا. ثم قالت: «وعندما تفكر في الأمر لا يصعب عليك أن تفهمه، يا **ديفيد**».

ظننت لسـنوات أننـي إذا ما واجهت الوالدة وأنا راشـد، فسـوف يتوجب عليها أخيراً أن تدرك خطورة المشـكلة. وأنـا لم أقصد قط أن أكون محباً للانتقام. وأصبحت نوعاً ما قلقاً من أن تصاب الوالدة بنوبة قلبيـة في اللحظة التي تدرك فيها خطـورة أعمالها. لكن الوالدة أخذت الآن تبـرر أعمالهـا منطقيـاً وتحرص علـى كل كلمة وتجعـل معاملتها **للشـيء** لا تبدو أكثر من تأديب والدة لطفلها المتمرد. فلم تكن معاملة **الشيء** بوحشية مبررة فحسب، بل ضرورية أيضاً.

«ولكن لماذا أنا؟ هل كنت سيئاً حقاً؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟»

فقالـت الوالـدة: «أوه، مـن فضلـك. إنـك قـد لا تتذكـر، لكنك تعوَّدت دائماً أن تقحم نفسـك في كل شـيء. ولم تستطع قط أن تبقي فمك مغلقاً. وكنت من أول البيت إلى آخره أسـتطيع أن أسمعك دائماً وأنـت تصرخ أكثـر من **رون وسـتان**. وقـد لا تتذكر هـذا، لكنك كنت طفلاً يستحيل التحكم به».

جعلتنـي شـهادة الوالدة أتذكـر ذلك الوقـت وأنا فـي الرابعة من عمري وأشـعر بالرعب حتى مـن أن أتكلم. وعندما تعـوَّدت أنا وأخي

أن نلهو في غرفتنا، وكنت أصبح متحمساً جداً، كان رون يغطي فمي لكي لا يصل صوتي إليها. وفي ما بعد، أصبحت مكبوح المشاعر إلى حدّ يتوجب عليَّ أن أقف أمام الوالدة وذقني على صدري بانتظار أن تعطيني الإذن بالكلام لكي أتمكن من أن أسألها ما إذا كنت أستطيع أن أذهب إلى الحمام. وغير مرة، كانت الوالدة وهي واقفة فوقي تقول متأملة بصوت مرتفع: «إنني لا أعرف ما تريده مني». وحتى عندئذٍ شعرت أنني مقيد الحركة. وقبل أن أطلب إذنها، كانت تفرقع أصابعها كإنذار كأنني حيوان أليف. فتصطك ركبتاي بعضهما ببعض ويترنح جسدي، فكنت أبلل ثيابي، وهو ما يؤجج نيران غضب الوالدة أكثر.

هل كانت تلك طريقة الوالدة في تأديبي في البداية؟ وربما استعصى عليها أن تتولى أمري، أو ربما كانت الوالدة لتختار بسهولة إما رون وإما ستان، ولم يكن ذلك على قدر من الأهمية، أو ربما اختارتني الوالدة لسبب بسيط كصوتي المزعج.

لم أستطع أن أفكر إلا في ستيفن. وعندما فعلت ذلك، أصبح شكل الطفل الممدّد على أرض مطبخ الوالدة في بركة من الدم فجأة ابني. وعندما رأت الوالدة رد فعلي أشرق وجهها من السعادة. فسمحت لها مرة أخرى أن تجعل مشاعري تتأزم.

أردت أن أقفز وأصرخ في وجه الوالدة المتشنج قائلاً: لقد كنت لعبة لتعبثي بها! وعبداً بإمرتك! لقد أهنتني وحرمتني من اسمي وعذبتني حتى الموت، لأن... لأن صوتي كان مرتفعاً جداً؟

ظلت مراجل الغضب تغلي في داخلي وأنا أتنفس بصعوبة، وقلت لنفسي: هل تدركين ما أستطيع أن أفعله بك الآن في هذه اللحظة؟ يمكنني أن ألف يدي حول عنقك المتورم وأعتصر الحياة من جسمك أو أن أجعلك تعانين ببطء شديد. ولست لأقتلك على الفور، بل سأجردك من جوهر حياتك. يمكنني أن أفعل ذلك حقاً. فبوسعي أن

أختطفها وآخذها إلى فندق قذر وأحبسها في إحدى الغرف وأحرمها من كل أساسيات الحياة العادية كالطعام والماء والضوء والحرارة والنوم والتواصل مع الآخرين، وأحيل حياتها إلى جحيم. وبعد ذلك، يمكنني أن أقول للشرطة إنني... قد غضبت... بسبب مرض نفسي ما أصبت به جراء المعاملة التي تلقيتها وأنا طفل. لقد كان بوسعي أن أتخلى عن كل شيء لمرة واحدة... وأصبح مثلها.

سرى في داخلي شعور بارد كالثلج. وحذرت نفسي قائلاً: يا إلهي! وعندما بدأ معصمي يرتجف، تساءلت في نفسي: هل أنا مجنون؟ أم أن أفكاري طبيعية إذا ما أُخذ ما مررت به في الاعتبار؟ وفجأة توصلت إلى هذا الإدراك: هذه السلسلة تربطني بوالدتي، وهي امرأة أصبحت مسكونة لأي سبب كان بالكثير من الغضب بحيث إن هذا الشعور تنامى مع مرور الوقت حتى أصبح سرطاناً يمتد من جيل إلى الجيل التالي... ليصل إلى ابني بلمح البصر. فكان يمكنني أن أصبح شبيهاً بالشخص الذي أمقته أكثر من الجميع.

أغمضت عيني ومحوت فكرة الانتقام وغسلت مشاعر الكراهية التي أكنها للوالدة. ولم أستطع أن أصدق مدى حدة غضبي، فأخذت نفساً عميقاً بطيئاً وصفيت ذهني قبل أن أرفع وجهي وأحدق بعيني الوالدة. وقلت لنفسي وأنا في صفاء ذهني: «إنني لن أصبح مثلك أبداً!»

كم بدت الوالدة مختلفة بالنسبة إليَّ الآن. ففي طفولتي، كانت أمي من بعض النواحي أميرة تذكرني بشخصية سنووايت بابتسامتها المشرقة وصوتها اللطيف وعبير شعرها وهي تحتضنني بين ذراعيها. وقد تعوَّدت أن أراقب أمي وهي تشع سعادة عندما تضحك حين كنت أنا ورون وستان نتنافس لنحظى باهتمامها. والآن، كانت الوالدة جاثمة وجسمها ملتحم بكرسيها وماضيها محبوس معها، كما كان والدي

قبل سنوات، أما في هذه الأيام فقد أصبحت حياتها تتألف مما تراه من خلال جهاز تلفزيون. فكانت طريقتها للتحكم عبارة عن قطعة من البلاستيك تستخدمها لتغير محطات عالمها، وأي ضوء ينير عالمها قد خبا تماماً، لقد أصبحت الوالدة أسيرة سجن فرضته على نفسها. ومهما كان الألم الذي تمنيته لها قبل لحظات، فهو لا يقارن بالسجن الذي زجت نفسها فيه.

جعلني تغيير لهجة الوالدة أستفيق من شرودي. فقالت: «ربما لن تعتقد ذلك بمجرد النظر إلي، لكنني وإياك وجهان لعملة واحدة».

هززت رأسي وقلت: «أرجو المعذرة؟»

بدا على الوالدة أنها تبذل جهداً لكي تسيطر على شهيقها، فقالت وهي تتنهد: «إنك تعتقد أن الحياة سهلة جداً... لكنني... قبل أن أحمل برون... تعرضت للإجهاض». وأمسكت عن الكلام فجأة كأنها تريد أن تحدث تأثيراً. ولم أعرف ما إذا كانت صادقة أم أنها تحاول ثانية أن تغذي المأساة. ولم أكن واثقاً من رد فعلي. وفجأة أصبح وجهها أحمر كالدم، وقالت: «إنك تعتقد أن كل هذا الكوكب يدور حولك! ديفيد، ديفيد، ديفيد! هذا هو كل ما تعوَّدت أن أسمعه طوال سنوات: ديفيد فعل هذا. ديفيد فعل ذاك، أطعمي الصبي، لا تعاقبي الصبي، في كل يوم منذ ولدت!» وتنامى توترها فأشارت بإصبعها في وجهي، وقالت: «ودعني أخبرك شيئاً آخر: لقد كان أولئك المدرسون، مدرسوك في المدرسة، هم من تدخلوا في شؤوني! ولم يكن الأمر يعنيهم في شيء! فما يحدث في بيت شخص ما ينبغي أن يبقى بين جدرانه! ولكن يجب أن أقول لك هذا: لقد علمت تلك المدرِّسة التافهة، السيدة موس، درساً عندما تسببت بطردها من تلك المدرسة. لقد طردت من هناك بسرعة كانت لتجعل رأسك يدور من فرط الدهشة».

وتابعت الوالدة قائلة: «إنك لا تتذكر ذلك، ولكن حين كنت

في السادسة أو ربما في السابعة عبثت بأعواد الثقاب يوماً ما و... أحرقت ذراعك. وفي أي حال، ذهبت إلى المدرسة في أحد الأيام وهناك بعض العلامات على ذراعك. وقد كانت تلك المعلمة المدعوة موس من الوقاحة بمكان ما لأن تتهمني... إننا نعرف ما حدث، أليس كذلك؟»

فقلت لنفسي: «نعرف جيداً تماماً». لقد أخطأت الوالدة في تذكر وقت الحادثة بسنتين. فقد كنت في الثامنة عندما أحرقت الوالدة ذراعي بالموقد. وعندما أرسلتني إلى المدرسة في اليوم التالي، ادعت قائلة إن الصبي قد عبث بعود الثقاب. وحتى في ذلك الوقت من الماضي، أدرك الجميع حقيقة وضعي. ولا بد من أن الوالدة قد اعتقدت نوعاً ما أنها لم تكن تستطيع أن تتكتم على السر فحسب، بل أن تتخلص من جميع من يتحدون سلطتها.

«وكان ذلك المدير، بيت هانسن، يتصل بي كل يوم! وقد وصلت إلى مرحلة حيث إنني كل مرة كان الهاتف يرن فيها... كنت أعلم من المتصل. فكنت أخشى أن أرد. وإن لم يكن شيء ما قد حدث فلا بد من أنه شيء آخر. فكانوا يقولون لي: إن ابنك قد فعل هذا أو ذاك وكيف أنه قد تورط في عراك أو شدّ شعر أحدهم أو سرق الطعام أو الثياب أو أي شيء وقع تحت يديه. كل يوم!... إن ذلك يصل إلى مرحلة تدفع المرء للشرب. لست أنا السبب في ذلك، بل أولئك المدرسون! فقد كانوا دائماً ينبشون القصص ويحشرون أنوفهم في شؤون الناس الآخرين». ثم قالت الوالدة كأن حياتها تعتمد على ذلك: «لقد كانوا هم السبب!»

وتابعت الوالدة قائلة: «إنك تعتقد أنك وحدك من يعاني مشاكل! ليست لديك أيّ فكرة عن الوضع. فليس من السهل أن تربي المرأة أربعة صبية وحدها تماماً وهي بالكاد تملك المال الكافي للعيش

ولديهـا زوج نادراً ما يأتـي إليها ثم يتركها. صدقنـي، يمكنني أن أقص عليك قصصاً عن والدك!»

فقاطعتهـا ببـرود قائـلاً: «إيـاك أن تفعلـي ذلـك!» ثـم أخفضـت صوتـي وقلت: «لقد كان زوجك. وأنت لـم تقومي حتى بالدخول إلى المستشـفى مرة واحدة ولم تتمتعي باللياقة الكافية لأن ترسلي له بطاقة بالبريد. ومن بين كل الأمور...».

قالـت الوالدة: «إنني لسـت بـاردة العواطف إلى هـذا الحد. فقد أرادني أن... أن أقبل بعودته إلى البيت قبل أن يدخل المستشفى. حتى إننا قد تناولنا الغداء معاً. وقد أوشك أن يتوسل إلي».

فقلـت مـن دون تفكير: «إنـك تحبين هـذا، أليس كذلـك؟» وقد اقتربـتُ من الحافـة، وأصبحـتُ على بعد نفـس واحد مـن أن أخبرها فعلاً أنها مخطئة، لكنني تحكمت بزمام غضبي. وكان آخر شـيء أردته هـو أن أتورط في لعبة من ألاعيب الوالدة. فهززت رأسـي وقلت: «إن اسـمه سـتيفن! ولا بد من أنك كنت تعرفين أنه يحاول الوصول إليك. أكنت تعلمين أنه مريض وجعلته يتوسل إليك؟»

«أوه، من فضلك! كفاك من المشـاعر الزائفـة. لقد قلت لوالدك، وأنـا أقول لـك الآن: إنني لم أكن لأعيـده مقابل كل الشـاي الذي في الصين. فليست لديك فكرة...». وأمسكت الوالدة عن الكلام.

لم تكن الوالـدة تعرف أن الضابط غوردون هتشينسـن قد سـمح لي في اليوم الذي ختمت فيه أوراقي قبل أسـابيع من التحاقي بسـلاح الطيـران ببضـع سـاعات لأقـرأ فيها ملفاتـي التـي تتألف مـن مجلدين منفصلين بسـماكة أكثر من عشـر بوصـات. فقضيت اليـوم بكامله وأنا أراجـع مواعيـن ورق مـن الأوراق الرسـمية والاسـتمارات المتنوعـة وحتـى الأوراق القانونيـة. وقد ادعى أحـد التقارير أن أحـد الموظفين الاجتماعيين قد قام، بعد أن تـم إخراجي من المنـزل، بعدة محاولات

لزيارة والدتي إلى حدّ التوسل إليها لتفتح الباب. وقوبلت المحاولات كلّها بأعذار متعددة من الوالدة وصلت إلى حد التهديد. وفي إحدى المرات، خبطت الباب في وجه أحد الموظفين الاجتماعيين قبل أن تضحك في الجانب الآخر من الباب. وفي ذلك الوقت من الماضي، وأنا مراهق والتقرير بين يدي، لم أستطع أن أصدق مرارة حقدها وكيف تعوَّدت أن تنجو بفعلتها دائماً. فاستدرت إلى السيد هتشينسن، وسألته كيف تمكنت الوالدة من أن تنجو من العقوبة في حين أنه قد توجب على الحكومة أن تتدخل وتنقذ إخوتي وتعتقل الوالدة أو تمنحها بعض المساعدة النفسية. إنني لم أكن عديم العواطف، لكنني شعرت أنه إن قال لي كل موظف من موظفي الخدمة الاجتماعية كم كان وضعي فظيعاً قبل أن أوضع تحت الوصاية، فقد توجب على إخوتي ألا يعيشوا الوضع السيئ نفسه.

قال لي غوردون: «أتفق معك، يا ديفيد، ولكن في ذلك الوقت من العام 1973 كانت الأمور مختلفة. فلم توجه إلى أمك أيّ اتهامات قط. ولم نستطع أن نتهمها بالاعتداء أو الأذى المتعمد على قاصر أو التقصير في تأمين المعيشة أو، في تقديري، الشروع بالقتل. يجب أن تفهم أنه لم يكن هناك الكثير من قوانين بي سي لتحمي الأطفال في ذلك الوقت من العام 1973. وحتى الآن، ونحن على عتبة الثمانينيات، هناك عدد كبير من الناس الذين ينكرون ذلك تماماً أو يعتقدون أن الآباء لا يفعلون شيئاً سوى تأديب أطفالهم. صدقني إن الأمر برمَّته سوف ينفجر في وجوهنا. وسوف يكبر هؤلاء الأطفال ويثورون ويحدثون فوضى على كل شيء وكل شخص ويلوثون أنفسهم بكل مادة معروفة للبشر ويضربون أطفالهم. ثم في نهاية المطاف، عندما يواجه هؤلاء الناس القانون، فهم إما سينحون باللائمة على المجتمع بسبب أعمالهم وإما يدعون أنهم قد تعرضوا للإساءة وهم أطفال،

وهـذا بالطبع هو ما أودى بهم إلى هذا المصير. وعندئذٍ سيكون هناك احتجـاج عنيف مـن المجتمع لتغييـر القوانيـن بهدف حمايـة الأطفال مثلـك. انتبه لكلماتي، سـوف يحـدث هذا. وقـد قطعنا مسـافة كبيرة، ولكن ما زالت أمامنا طرقات لنقطعها».

فاستفسرت منه قائلاً: «ما هي قوانين بي سي؟»

«إنها قوانين العقوبات. ولهذا السبب لم نستطع أن نخرج إخوتك أو حتى أن نوجه إلى والدتـك أي تحذير. وهكذا، فالمهم، كما تقول، أنهـا قد نجت بفعلتها. أما مـن ناحية أخرى، فبسـبب قضايا كقضيتك، أصبحـت هنـاك الآن قوانيـن تتعلـق بالتبليـغ عـن الإسـاءة والتدخـل والأعمـال. وقد حـدث الكثيـر في السـنوات السـت الماضيـة منذ تم إخراجك».

تعمقت أكثر في الملف، وقرأت مقابلة نـادرة أجريت مع الوالدة قبل جلسة استماع المحكمة. وصادفت اسـتمارة قانونية تنص على أن أحد الأسـباب في أنهـا ربما تكون شـديدة الاضطراب هـو أنها كانت تشـك في أن زوجها قد أقام علاقة غرامية مع امرأة من أعز صديقاتها. وتضمـن دفاعها أيضاً كم كان من الصعب عليهـا أن تربي أربعة صبية، وقد صحح التقرير أنهم خمسـة، والقلق يتملكها ما إذا كان زوجها في العمل أم الله وحده يعلم أين، كلما تعوَّد والدي أن يتوارى عن الأنظار لأيام ليذهب للشـرب مع أصدقـاء له من العمل. وقـد جعلها وجودها وحدها مـن دون أحد ليخفف عنهـا، كما ادعت الوالدة، تبدأ الشـرب وتفلت قبضتها على نفسها أكثر من عادتها بقليل.

بينما أنا أمسح العرق الجاف عن جبيني، كنت ما زلت عاجزاً عن الإدراك حتى الآن وأنا راشـد، وبعد ثماني سـنوات من قـراءة الوثائق، أن والـدي كان على علاقة غرامية. وبعد أن أصبحت شـخصاً ناضجاً، أدركت تماماً أن أي شخص هو قادر على فعل أي شيء. وهكذا، بينما

استمرت الوالدة بتأدية دور الضحية العاجزة في مأساة حياتها التي لا تنتهي، شعرت أن تهمة العلاقة الغرامية كانت عذراً شريراً آخر تشبثت به لسنوات طويلة.

كررت الوالدة كلامها ولكن هذه المرة بعينين محمرتين. فقالت: «ما زلت تجهل أيّ فكرة عما عانيته. أتعتقد أنك قد عانيت وضعاً صعباًَ؟» وتنهدت ثم قالت: «في الماضي، تعوَّدت أمي، المرأة التي تمكث معها، وأنا طفلة، أن تحبسني في الخزانة لساعات. لقد كانت تفعل ذلك بالتأكيد!» وأعلنت الوالدة وهي تَشَرقُ بالدمع قائلة: «وأحياناً لم تطعمني... لأيام. وفي ذلك الوقت من الماضي، لم يكن الوضع كما هو الآن حيث لدى الأطفال برنامج غداء في المدارس. وإن لم يكن ذلك كافياً، فلم يمض يوم واحد من دون أن توبخني وتتأمر عليَّ وتملي علي ما أفعله وكيف أفعله وأي أصدقاء أستطيع أن أستقبلهم لزيارتي وأي أصدقاء لا أستطيع ذلك». ثم صاحت قائلة: «إنها والدتي! أيمكنك أنْ تتخيل ذلك!»

كنت أتكئ بذقني على يدي فأومأت برأسي، وقد استطعت في الواقع أن أفهمها. وبينما أخذت الوالدة تجهش بالبكاء، بدت ضائعة في الوقت وهي تعيد عيش إساءة معاملتها على يدي جدتي. ولم يسعني إلا أن أفكر، ما إذا كان ما قالته الوالدة صحيحاً، أنها قد اقترفت بدورها الأمور نفسها في حقي، ولكن لأمد أطول بكثير وبطرائق حقودة ومفرطة.

ومع أنني وددت لو أصدق أن نحيب الوالدة كان مخادعاً نوعاً ما، فإنني شعرت أن اعترافها بطريقة غريبة منطقي تماماً. فمما تعلمته في حياتي، أن الناس مثل الوالدة يسيئون معاملة أطفالهم بالطريقة نفسها التي أسيئت فيها معاملتهم. فهم يصبحون على ما هم عليه نتيجة للبيئة التي عاشوا فيها.

ولكن قبل سنوات قليلة فقط، خلال صيف العام 1983، وعندما زرت الجدة، أكدت لي أنها لم تكن قد أساءت معاملة الوالدة بأيّ طريقة وهي طفلة. ففكرت في نفسي قائلاً: أيمكن أن يكون ذلك، بحسب معايير الجدة أو حتى المعايير الاجتماعية خلال ذلك الوقت، مجرد تأديب صارم وليس إساءة معاملة؟

وتساءلت في نفسي قائلاً: ما لم تكن الوالدة مرواغة بما فيه الكفاية لتلفق قصة عن طفولتها حتى تبعد اللوم عنها وتحوله إلى والدتها، فهل يشكل تحريرها نوعاً ما أيّ مسؤولية؟

تدخلت بلطف قائلاً: «أعلمك أنني قد تحدثت إلى الجدة و... إنني لا أشير بإصبع الاتهام لأحد... لكنها أصرت على أنها لم تقم، في ظل أيّ ظروف، بإساءة معاملتك».

سعلت الوالدة وهي تشيح بوجهها، وقالت: «عد إلى المصدر. أنت تعلم طبيعتها. فمن ستصدق؟»

كررت بيني وبين نفسي: المصدر. عد إلى المصدر. وفي تلك اللحظة بالذات، لم أكن واثقاً مما فعل كل شخص للآخر ولماذا. وفكرت في نفسي: ربما تكون الجدة مستبدة. فعندما توفي زوجها، تاركاً لها طفلين لتربيهما خلال فترة الركود الاقتصادي، توجب على الجدة أن تصبح صارمة. وفي أثناء فترة شباب الوالدة، ربما كانت تتوق للاستقلال وتحاول أن تخرج عن سيطرة الجدة. فأصبحت في وقت لاحق مدمنة على الشرب ثم تزوجت وأنجبت أطفالاً وهي لا تزال تكن بعض الحقد... الذي أخذ ينهش في صميم روحها. وبينما أنا أحك صدغي بأصابعي، شعرت أنني مرتبك كلياً. وفكرت متأملاً في نفسي: ولكن، بالنتيجة، هل ذلك على قدر من الأهمية فعلاً؟ إن همي الوحيد هو أن أجعل كل يوم يمضي وأنا أحاول أن أصبح أفضل شخص أستطيع أن أصبحه وأن أتأكد من أن ابني لن يتعرض أبداً لأي

شيء سوى لبيئة آمنة ومليئة بالحب.

تخيلت ابني، ستيفن، بشعره الأشقر البراق وابتسامته الجميلة وهو ما جعلني أتوق لأن أسترد أمي التي لطالما تشوقت إليها. وأردت أن أهبط على ركبتي وألف ذراعي حول خصر الوالدة كأنها لا تزال مرتبطة بروحي بحبل السلامة. وبالحصول على عفوها، كنت سأتمكن من أن أحرر نفسي من ارتباطي بالماضي وأن أختم ذلك الجزء من حياتي إلى الأبد.

كبحت نفسي قبل أن أستسلم لمشاعري الحمقاء التي لطالما أردت أن أفصح عنها، وشعرت لسنوات أنني كنت إما أحاول أن أثبت قيمتي وإما أستسلم للأمل العابث بأن يحبني أحدهم كأن قبول الناس الآخرين لي يشكل الأهمية كلها.

وعلى الرغم من أنني لم أشعر بأيّ كراهية أو مشاعر سلبية ضد الوالدة، وأنا محاط بأشياء من ماضينا المشترك، فإن ذلك لم يجعلني أشعر بشيء سوى الشفقة على المرأة التي كانت أمي في ما مضى.

نهضت واقفاً فجأة، وقلت: «شكراً لك لسماحك لي بالزيارة... يا سيدة بيلزر».

تغير تعبير وجه الوالدة كأنها شعرت بحزن عميق. فقالت وهي تبتسم متوسلة تقريباً: «هيا الآن. من أجل الأيام الخوالي، ناديني... ناديني يا أمي».

لم أتعمد أن أظهر عدم الاحترام، ولكن توجب عليَّ أن أزود نفسي بدرع واقية. وكل ما استطعت فعله هو أنني مددت يدي وكررت قائلاً: «شكراً لك على وقتك».

توسلت الوالدة قائلة: «رجاء؟» وأمسكت بيدي، ولكن هذه المرة كانت لمحة من صوت أمي من الماضي موجودة في صوتها. فحبست أنفاسي، واستطعت أن أشعر بأصابع يدي اليسرى ترتجف

وأنني بـدأت أصاب بالدوار. وأردت أن أنهار بيـن ذراعيها وأن أحدق بعينيها وأعانقها كأن حياتنا تعتمد على ذلك. وبعد لحظة، وعلى الرغم من قصر المسافة بيننا، علمت أنني والوالدة كنا نبتعد بعضنا عن بعض كبعد السماء عن الأرض.

أومأت الوالدة إيماءة صغيرة برأسها، وتركت يدي بعد أن تفهمت موقفي. ومع ذلك، فلم أستطع أن أتزحزح من مكاني. وقلت: «إن كان هذا يعني شيئاً، فالشـيء الوحيد الذي أستطيع أن أمنحك إياه هو هذا: أنت». وقلت وأنا أشـير إليها والدموع تنهمر مـن عيني: «أنت جعلتني قوياً. وبسببك أنت... أحببت الحياة أكثر».

فأمالت الوالدة رأسـها جانباً، ومن تعبير وجههـا، عرفت أنني قد أصبت وتـراً حساسـاً، فأخذت الوالـدة نفسـاً عميقاً، وشـعرت بالتوتر يتنامى داخلي، ولكن بعـد دقيقة تركت الأمر يمضي. فأومأت برأسـها قليلاً وفهمت مجاملتي.

بينمـا أنا أنزل الـدرج المؤدي إلى الباب، انفجـرت الوالدة قائلة: «يا ديفيد!» فالتفت ويدي لا تزال على مقبض الباب، وقلت: «نعم؟»

فسألتني قائلة: «هل تحب ابنك؟»

فشـعرت أنني أختنق والضغط يتنامى خلف عيني، وقلت: «نعم! من كل ذرة في كياني!»

فصاحـت الوالـدة قائلة: «تذكر فقـط أنني في الماضـي قد فعلت ذلك... وأحببت ابني أيضاً».

ولـم أستطع أن أمنع نفسي من الارتجاف وأنا في السيارة. وسرى شـعور بارد خلال جسـدي، وحالما ابتعدت عن منـزل الوالدة، قربت السيارة إلى الحاجز، وفتحت الباب، وتقيأت.

الفصل الحادي عشر

مسألة شخصية

لـم يمر يـوم واحد علـى زيارتي للوالـدة مـن دون أن أفكر فيها. فكلما وجدت نفسـي وحيداً، كانت أفكاري تتجـه إليها. وكان غالباً ما ينتهـي بي الأمر وأنا أتسـاءل مـا إذا تدخل أحدهم في وقـت مبكر بما فيه الكفايـة ونقب عميقاً للبحث عن جذور المشـكلة، فربما عندئذٍ لم تكن الأمور لتـؤول إلى هذا المآل. وبينما أخذ سـتيفن ينمو أمام عيني ليتحول من طفل في أول مشيه إلى صبي صغير، أصبحت حقيقة وضع الوالدة تطاردني. وشـعرت أنني ممزق بين الحياة التي أعيشها مع ابني وبين غياهب سـجن الوالدة كأنني يوماً ما من دون إنذار كنت سـأنضم إلـى عالمها، كأنني مهما فعلت ومهما حاولـت جاهداً فمن المقدر لي أن أصبح نسـخةً عنها. وشـعرت أنني، لكي أحمي ستيفن، يجب عليَّ أن أصبح شخصاً أفضل وأن أبذل المزيد في سبيل تلك الغاية.

ومـن ناحية مـا، لم يصبـح سـتيفن ببطء متنفسـاً لي، بـل منقذي أيضـاً. ففي أثناء وجـودي في العمل، تعـوَّدت أن أعتصر كل دقيقة من وقتـي لأتمكن مـن أن أقضيهـا مع ابني. فكنـت أهرع عائـداً من رحلة طيران لأخلع بدلـة الطيران المبللة بالعرق وأسـتحم ثم أسـرع خارجاً لأتفـرج على سـتيفن وهو يلعـب ببركة السـباحة الصغيـرة. وعندما لم يلعب بالماء، تعوَّد أن يلعب البيسـبول. فكان يرتدي سرواله القصير ذا الألوان البراقة وكنـزة ويلعب حافي القدمين ممسكاً بكرته البلاستيكية الكبيرة الحمراء ويصرخ أنه قد حان الوقت للعب البيسبول. ولأنني لم

ألعب قط بالكرة أو بأيّ لعبة أخرى مع أبي، فقد تملكتني رهبة شديدة لأبسط الأشياء التي كنت أنا وستيفن نقوم بها معاً. وحال غروب الشمس، بينما كانت باتسي تثرثر مع صديقاتها في الطرف المقابل من الشارع، كنت أقذف كرة بطيئة منخفضة إلى ستيفن، فكان يسدد الكرة من منتصف حديقتنا وعبر الشارع لتعبر من فوق رأس باتسي وتستقر على بعد بضعة أقدام خلفها. وبينما يدور ستيفن في نصف دائرة ويده تضرب الشجرة، أو دفاع سيارتنا أو أي شيء يعتقد أنه يمثل القاعدة، كنت أصيح لأخبر باتسي عن إنجاز ستيفن.

ولأن باتسي قد فاتتها على ما يبدو مشاهدة ضربة ستيفن الضخمة، فقد عبرتُ الشارع لكي أخبرها عنها ولكي ألتقط الكرة. وعندما وصلت إلى الشارع الجانبي حيث كانت باتسي واقفة، أمسكت إحدى صديقاتها، واسمها ديبي، ابنتها الحديثة المشي من ذراعها وجذبتها نحوها بقوة قائلة: «اتركي الكرة. إنها ليست لك! أيتها التافهة الغبية! من الأفضل لك أن تسمعي الكلام وإلا صفعتك!»

انحنيت وشكرت الفتاة الصغيرة، كيتي، وهي تضع الكرة في يدي. واستطعت أن أراها وهي تكبح دموعها. فربَّتّ على رأسها والتفت إلى ديبي وقلت: «إن كيتي فتاة ظريفة فعلًا!» فنظرت ديبي إليَّ نظرة عدوانية قبل أن تنفخ في وجهي ثم في وجه باتسي. فأمسكت بزمام نفسي من دون أن أندفع كثيراً، وكل ما استطعت فعله هو أنني ابتسمت لكيتي ومشيت عائداً إلى ستيفن وأدخلته البيت.

في وقت متأخر من تلك الليلة بينما أنا مستلقٍ في الفراش، ظلت الحادثة المتعلقة بكيتي تنهشني في الداخل. وعلى مدى أشهر، سمعت ديبي وهي تضرب كيتي ثم صوت كيتي وهي تبكي. وفي بعض الأوقات، حين كنت ألعب في الخارج مع ستيفن، تعوَّدت أن ألمح ديبي بين فترات نفث دخانها المتواصلة وهي تصرخ بالكلمات

النابيـة على كيتي وهـي تلعب. فذكرتني كيتي بنفسـي وأنـا طفل لأنها تعوَّدت دائماً أن تسـتجيب بحنـي كتفيها. ولكن كلما لعب سـتيفن مع كيتـي، كانت ديبـي تبـدو لطيفة جداً معـه. وعندما طرحـت الموضوع على باتسـي، اتفقت معي فـي الرأي في ما يتعلق بسـلوك ديبـي، لكنها تجاهلت الموضوع قائلة: «إن ديبـي تتحدث بصوت مرتفع فحسـب». ولأن مهمتـي القادمـة إلـى اليابـان كانـت بعد بضعـة أيام فقـط، فإنني توسلت إلى باتسي أن تبقي عينها على كيتي.

ومع أن قلبي ظلّ مشـغولاً بكيتـي الصغيرة، فقد بـدأ عقلي يفكر في رحلتي الطويلة. وكما تعوَّدت أن أفعل في الليلة السـابقة للمغادرة، بعـد حـزم أمتعتي، جلسـت مـع باتسـي لأتأكـد من أنهـا سـتتولى أمر كل الفواتيـر وأنهـا تملك المال الكافـي لتحتفظ به من أجل أي شـيء إضافـي. وادخرت الأهـم حتى النهايـة، فقبل لحظات مـن التوجه إلى البـاب احتضنت سـتيفن بين ذراعـي وهدهدتـه حتى نـام على صوت الموسيقى من جهاز الستيريو الخاص بي.

لم أفكر في كيتي حتى مضت سـتة أسـابيع عندمـا ركبت الطائرة عائـداً من اليابـان. وبينما أنا أقـرأ إحدى الصحـف، صادفـت مقالاً عن زوج أم قتل ابن زوجته عن طريق الخطإ ثم دفن جثته. وعندما انتقلت العائلـة بعد سـنوات، أخرجـت الأم وزوجها رفات الطفـل ووضعوها في صندوق السـيارة. ودافع الرجل عن نفسه في المحكمة قائلاً إنه لم يعانِ من مشكلة في تعاطي العقاقير غير القانونية وفي المزاج المتقلب فحسب، بل كان ضحية إساءة المعاملة على يد والده. فتمتمت لنفسي بصوت مرتفع قائلاً: «أيمكن لأحد أن يصدق هذا؟ سـيزج هذا الرجل فـي السـجن لعشـر سـنوات لقتلـه الصبي، وهـو مـا يعني أنه سـيطلق سراحه في غضون خمس سنوات، أو ربما ست سنوات لحسن السيرة والسلوك... فقط لأنه تعرض لإساءة المعاملة؟ يا الله!»

كان ضابط أعلى رتبة من سريتي واقفاً إلى جانبي وهو يصغي إلى ما قلته. وبعد أن أجرينا محادثة عن المقال، اقترب مني الرائد **ويلسن** ليخبرني أن زوجته تتطوع بالعمل مع أطفال تعرضوا لإساءة المعاملة وهم الآن تحت وصاية أهل بالرعاية. وقال لي: «إن هؤلاء الأطفال يتحدرون من مجتمعات قذرة، ولن تصدق القصص التي تخبرني بها زوجتي عنهم. إنها قصص ينفطر لها الفؤاد. ومن الواضح أنك لم تولد في تلك الأماكن، ولكن إن واتتك الفرصة فربما يمكنك أن تفعل شيئاً ما، وأن تتحدث إلى الأطفال وأن تضحكهم، أو أي شيء. إن أتفه الأمور يمكنها أن تعني الكثير لهم». وربّت الرائد **ويلسن** على كتفي وأضاف قائلاً: «إن أولئك الأطفال لا يملكون شيئاً. وأنت، يا **ديفيد**، تستطيع أن تحدث تغييراً هاماً في حياتهم».

قبل أن ينهي الرائد **ويلسن** كلامه، كنت قد اتخذت قراري مسبقاً. وفي الأشهر القليلة الماضية اتفق أنني كل يوم كنت أقرأ شيئاً يتعلق بإساءة معاملة الأطفال أو أشاهده على التلفزيون أو أراه مباشرة من جارتي كأنه أصبح هناك فجأة عدد هائل من الأطفال الذين يتعرضون للمعاملة الوحشية. ومنذ ولادة **ستيفن**، ازددت حساسية ووعياً، ولكن بينما واصل الرائد **ويلسن** الحديث، أدركت أن الموضوع لطالما كان يكتنفني من كل الجوانب، لكنني تجاهلته. فقلت وأنا أعاهد نفسي: «نعم، أيها الرائد، بوسعي أن أفعل شيئاً. إنني أتصور كيف هي حقيقة الأمر... بالنسبة إليهم». وأضفت لنفسي قائلاً: «إنه أمر يتعلق بالوقت».

في غضون بضعة أشهر، وقبل ذكرى ميلاد **ستيفن** الثالثة، وجدت نفسي تقريباً أتطوع لكل شيء في أنحاء ولاية **كاليفورنيا** كافة، يتعلق بالأطفال الذين يتحدرون من عائلات مضطربة. وبدأت بالتحدث إلى المراهقين الذين يعيشون ضمن عائلات بالرعاية عن موضوع الانغماس في ماضيهم السلبي وكنت أثني عليهم للتغلب على أوضاعهم السيئة

بعزيمتهم القوية. فكنت أسـألهم قائلاً: «إن اسـتطعتم أن تقوموا بذلك وأنتم أطفال من دون أيّ مسـاعدة وأي شـهادة جامعية وأي تدريب أو إرشـاد، فبالتأكيد تسـتطيعون بعد أن أصبحتم الآن شـباناً أن تحققوه؟» فقاطعني مراهق يمثل دور الشـاب الفظ وسـألني قائلاً: «هيه، يا رجل، ما الـذي تعرفه أنت؟ إنك لسـت واحداً منـا، يا رجل، بـل أنت طيار، فمـا الذي تعرفـه؟» فالتزمت الصمت للحظـة لكي أصوغ رداً مناسـباً، وقلـت: «حسـناً، ليس لي الحـق في أن أملـي عليك ما تفعـل. وقد لا أعـرف بالضبط حقيقة ما مـر به كل واحـد منكم، لكننـي أعرف كيف أضع نفسـي في مكانكم لبعض الوقت». وهكـذا، فلكي أجعل حجتي أقوى، شـعرت أن الضرورة تحتم علي أن أبوح ببعض أجزاء طفولتي. وقد شعرت أنني مدين لهم بهذا القدر. وكلما كنت أقدم لهم توضيحاً، كنـت أخبرهم دائماً ما تعلمتـه من الوضع الذي جعلني شـخصاً أقوى وأفضل. وقد تعوَّدت دائماً أن أتحـدث من قلبي وأعامل كل مجموعة منهم علـى أنهم شـبان وليسـوا أطفـالاً وأن أمنحهم الاحتـرام الكامل وأتحداهـم لكـي يطوروا أنفسـهم. ولـم تكن فكرتـي تتعلق قـط بأنني ضحية أو أنني أكشف عن سر مظلم في سبيل تعاطف الآخرين، لكنها كانت فكرة تتعلق بالمرونة.

أخذت أستقي المزيد من ماضيّ. وبينما بدأت أعمل مع الراشدين المتخصصيـن بالعمل مع الشـباب المعرضين للخطر، عرضت أسـباباً تتعلق بتصرف الأطفال الذين يتحدرون من عائلات مختلة وظيفياً بهذا الشكل وأفكاراً محتملة لتطوير حياة الأطفال الذين يعانون من متاعب. وما أخافني، أنني اكتشـفت موظفين في هذه المنظمـات كانوا نادراً ما يتلقون أي إطراء، وهكذا، كنوع من الاحترام والتكريم، كنت أثني على الأشخاص الذين يبذلون قصارى جهدهم ليحدثوا تغييراً هاماً في حياة الأطفال.

قبـل أن أفكـر فـي الموضـوع أكثـر، بـدأت أتخطى إحـدى أكبر مخاوفي. فقـد بدأت أتعلم أن أتحدث إلى الجميع في أي وقت وعلى أي مسـتوى. وأصبحت منهمـكاً بجهـودي بحيث إننـي انتصرت على عـبء ضخم لطالما قضَّ مضجعي مذ كنت طفلاً في مرحلة الحضانة. لكن ذلك لم يحـدث بين ليلة وضحاها. فقبـل المحاضرة وأنا وحدي في السـيارة، كنت أتحدث بصوت مرتفع بمسـتويات ونبـرات مختلفة إلـى أن يختفي صوتـي تقريباً في بعـض الأحيان. وفي البيـت، بعد أن أضع سـتيفن في السـرير، كنت أتسـلل إلى الحمام وأغلـق الباب لكي لا أزعج نوم باتسي، ثم أقف أمام المرآة لساعات في كل مرة وأراقب كيفية انفراج شـفتيَّ عندما أحاول أن ألفظ كلمـات معينة. وفي العمل، بدأت أفتح كتيب تعليمات الطيران لكي أتعلم كيفية لفظ الكلمات ذات المقاطع الطويلة. وقد طورت أيضاً طريقة أستبدل بها إحدى الكلمات بشـكل فـوري إذا مـا نال منـي التوتـر ولـم أسـتطع أن ألفظها بشـكل صحيـح. وأحياناً قبل لحظـات من البرنامـج، كان انفعالـي يتفاقم إلى حدّ أستأذن وأهرع إلى الحمام لكي أتقيأ. ولكن سرعان ما تعلمت ألا آكل شيئاً قبل أن ألقي المحاضرة. وبين فترات برنامج الطيران ومهمتي الحاليـة، كنـت أبقى أحيانـاً من دون طعـام لأيام. وفي بعـض الأحيان كنـت لا أزال أتلعثـم، لكنني عثـرت نوعاً مـا على هدوئي واسـتفدت من أفكار الجمهـور وتركت الأمـور تجري وحدها. وفـي حال أصبح الموضوع جدياً جداً، كنت أقلد بعض الشـخصيات المضحكة مرة بعد أخرى مع محافظتي على تركيزي على الفكرة الأساسية.

كلمـا كان أولئك الأشـخاص يشـكرونني لجهودي، كنـت أنفتح أكثر وأحـاول أن أصل إليهـم بكل ما أملكـه. وبـدأت أرى مكاني في العالم والتغيير الذي أستطيع أن أحدثه لكي أخفف معاناة أحدهم بدلاً من أن أدير لها ظهري كما فعلت مع كيتي الصغيرة. ولسنوات، لطالما

تمنيت في أعماقي أن شيئاً ما أو شخصاً ما لم يكن ليحل مشكلة الأطفال الذين يتعرضون للمعاملة الوحشية فحسب، بل أيضاً جروح الناس الراشدين الذين تعوّدوا أن ينحوا باللائمة لأزماتهم الحالية على ماضيهم. وكما فعل والدي قبل سنوات، تخيلت أيضاً أنني إن غضضت الطرف عن الحقيقة فقد كانت ستختفي بشكل سحري. والآن، بعد أن أصبحت والداً، لم يعد ضميري يسمح لي بأن أتجاهلها.

ازدادت أسفاري إلى حدّ أنني كنت بعد إحدى الرحلات الجوية الليلية أصعد سيارتي في الواحدة فجراً وأقودها ست ساعات من دون توقف حتى أصل في الوقت المحدد لكي أقضي اليوم في مؤتمر للمراهقين. وفي أوقات أخرى، كنت آخذ إجازة وأقوم بجولة في الجزء الجنوبي من الولاية لأتحدث إلى طلبة الجامعة الذين يدرسون الآثار النفسية لإساءة المعاملة. وكنت دائماً أعتمد على وسائلي الخاصة. وكلما كان يعرض عليَّ المال أو الإقامة أو حتى الوقود، كنت أرفض وأطلب أن يحوَّل ذلك إلى المنظمة عوضاً منّي. ومع أنني عانيت صعوبات مالية، فإنني اعتقدت أنه من الخطإ أن أتقاضى المال. وبالنسبة إليَّ، كان تغيير موقف شخص ما إلى الأفضل مكافأة كافية.

بينما ازدادت نشاطاتي، بدأ الكشف عن مشكلات طفولتي لسلاح الطيران يصبح حقيقة لا مفر منها. وشعرت أنني سأفقد رخصتي إن افتضح أمري. وكلما كنت أتلقّى رسالة من إحدى الوكالات التي أعمل لديها، كنت أجيب بلامبالاة أنني أقوم بمجرد مد يد المساعدة. وحتى عندما تلقيت جائزة من زوجة الحاكم، تسلمتها باتسي نيابة عني، لم أفصح عن أي شيء لأحد من سريتي. وبدأ السفر الطويل والشهرة عبر الولاية تدق ناقوسها علي. وبدأت أشعر أنني عالق بين عالمين مختلفين. وإن توجب عليَّ أن أستمر، فقد توجب عليَّ أن آتي بطريقة جديدة تساعدني على أن أبقى في مكان محدد فضلاً عن أن

أشتت الانتباه عن نفسي.

بعد أن قمت بالمساعدة كموظف خدمة اجتماعية متطوع، تم تعييني كموظف بدوام جزئي في إصلاحية الأحداث. فقمت باستغلال الفرصة لأعمل بشكل مباشر مع المراهقين الذين عاشوا أوضاعاً صعبة كالتي عشتها وأنا في مثل سنهم. وقد أحبت باتسي عملي لأنه حال دون سفري المتواصل في أنحاء الولاية كافة، كما أنه أضاف إلى دخلي. لكن باتسي استشاطت غضباً عندما تبرعت بمال مكافأتي لمنظمة محلية. وسألتني قائلة: «هل تعلم كم هو ذلك المبلغ؟»

فبررت عملي في ذلك الوقت قائلاً: «لا يهم. فهو الشيء الصواب الواجب فعله. وفضلاً عن ذلك، فأوضاعنا المادية جيدة».

فقالت باتسي بغضب متأجج: «أوه، حقاً؟ إنك ربما تعيش في عالمك الأخلاقي الرفيع، لكنني أعيش في العالم الحقيقي!» ومع أن الدهشة قد اعترتني مما قالته، فقد كانت على حق. ومع أنني قد تحققت معها من كل خطوة قمت بها، فإنني، في الواقع، قمت بالإنفاق من مدخرات العائلة على قضيتي. ففي غضون سنة، وفضلاً عن تكاليف السفر كلها، فإنني مولت مسابقة في التوعية عن إساءة المعاملة وزودتها بجوائز وشهادات للأطفال الذين شاركوا فيها. وخلال ذكرى الميلاد، تجولت في أنحاء البلدة وجمعت أكواماً من الحلوى ومئات القصص الفكاهية وحتى شجرة ذكرى ميلاد ضخمة للأطفال في إصلاحية الأحداث. ولأنني تيقنت من حقيقة الوضع بالنسبة إلى بعضهم، فإنني رغبت في أن أضيء عالمهم بالفرح ولو ليوم واحد فقط.

ومع أن باتسي استاءت مني، فإنها كانت تتمتع بقلب رقيق. إذ عندما نفدت مني جوارب ذكرى الميلاد للأطفال في إصلاحية الأحداث، لم تقم باتسي بخياطة جوارب بديلة من القماش يدوياً

فحسب، بل قضت اليوم بكامله وهي تعد الكعك للأطفال وللموظفين. لكنني كنت علـى دراية تامة بالتأثيرات الأخـرى التي تتعرض لها، فقد تعوَّدت أن تتسـكع مـع زوجـات أخريات مـن المجمع السـكني يبدو عليهن أنهن يتذمرن من كل شـيء في حياتهن ومن أن سـلاح الطيران مدين لهن لكل التضحيات التي بذلنها. وحين كان المد يجرفها، كانت باتسـي تطرح الموضوع للنقاش أكثـر من مرة إذ إنّني أثرت اسـتياءها. وقد تفهمت إحباطها نوعاً ما بسبب بقائها وحيدة في أثناء غيابي، لكن عائلتها، علـى عكس بعض صديقاتها، كانت على بعد بضع دقائق فقط فضلاً عن كل شيء ترغبه وتهواه نفسها. وفي إحدى المرات، اعتقدت أنها قد جـاوزت حدها، فقلت لها بإصرار: «حسـناً، نحن لا نعيش في قصر، لكننا نملك بيتاً جميلاً لا يتوجب علينا أن ندفع أجرته. والفواتير الوحيـدة التي يتوجب علينا دفعها هي فواتير السـيارة والوقود والتأمين والطعـام، وأنت لا تعمليـن خارج المنــزل، ولديك طفـل جميل. لذا أخبريني، كم يمكن للوضع أن يكون سيئاً؟»

فأجابت باتسـي بغضب قائلة: «إنك لا تعلم كيف هو الوضع. إنه أحياناً يدفعني للجنون. إنك... إنك دائماً خارج المنـزل في الطائرة أو الله وحده يعلم أين، وأنا أدعمك في نشاطاتك... في مساعدة الأطفال، وإدخال السرور إلى أنفسهم، أو أياً يكن... لكنني قد اعتقدت أن ذلك سيكون مختلفاً. إنني... إنني أريد شيئاً أكثر فحسب، وهذا كل شيء».

في ذلك الوقت، اعتقدت ببساطة أن باتسي ضجرة. لقد بدا على مزاجها أنه يتغير على أسـاس يومي. إذ إنني لم أكـن أدرك أنها أرادت أن توصل إليَّ رسالة جوهرية. كانت باتسي قد انضمت إليَّ في إحدى رحلاتي الطويلة إلى القسـم الجنوبي من الولاية لألقي سلسـلة أخرى مـن المحاضـرات التطوعية لطلبـة الجامعـة. وقد كنت علـى يقين في أعماقـي أن وقتنـا معاً، من دون عائق من سـلاح الطيـران أو إصلاحية

الأحداث أو الوكالات التي أعمل لصالحها أو إزعاج عائلة باتسي، كان سيمنحنا الوقت الكافي لكي نحل المسائل التي كانت لا تزال تعتمل في أعماقنا. لقد أردت أن أكشف جزءاً من ماضيّ لكي أتمكن أخيراً من أن أصبح صريحاً ومنفتحاً مع باتسي. واعتقدت أن التكتم على ماضيّ ربما كان يتعارض مع قدرتي على الوثوق بها. وبسبب مغادرتنا في الساعة الثالثة صباحاً، نامت باتسي حتى وصلنا إلى وجهتنا. وقبل دقائق من مغادرتي النزل لأذهب إلى حرم الجامعة، مرضت باتسي فجأة وتخلفت عن الذهاب، وبحلول الوقت الذي عدت فيه تلك الليلة، تعافت باتسي وأصبحت مستعدة للخروج للتسكع. وبسبب القيادة لوقت طويل، واليوم المرهق، ورحلة العودة إلى البيت من أجل رحلة جوية مع سلاح الطيران، كنت أشبه بمن يمشي في نومه. ومع أنني أردت أن أقضي وقتاً مع باتسي، فإنني علمت أنني قد خيبت أملها مرة أخرى برفضي الخروج معها في تلك الليلة. وشيئاً فشيئاً، ومن دون أن أقصد، أخذت أضيف المزيد من التوتر إلى زواجنا المتوتر أصلاً.

فقالت باتسي وهي لا تزال ترغي وتزبد في طريق العودة إلى قاعدة بيل آير الجوية: «إنني لا أفهم ذلك! لماذا تفعل هذا؟ إنك تقوم بالجري في أنحاء الولاية مع الأطفال من الإصلاحية والجامعات وتجمع اللعب... ونصف الوقت لا أعرف أين أنت أو ماذا تفعل. إنني لا أفهم فحسب، فما تفعله لن يغيّر أي شيء».

تنهدت وأنا أفرك عيني، وقد أيقنت، وأنا خائر القوى، أنني سأزيد في الطين بلة في غالب الظن. فقلت: «هل رأيت على الإطلاق شيئاً خطأً... وأردت... أن تفعلي شيئاً، أي شيء، وأن تقومي بمجرد مد يد المساعدة؟ أعني، أنني لا أحاول أن أنقذ العالم، ولكن إن استطعت فقط...».

قاطعتني باتسـي قائلة: «فقط مـاذا؟ إن هذا ليـس قضيتنا. وفضلاً عن ذلك، ألا تعرف أنك تتعرض للسخرية؟ هيا، إن الجميع يستطيعون أن يرفعوا السـماعة ويخبروك قصة محزنة ويصيحـوا قائلين: إنك تنقذ العالـم. وأقل شـيء يمكنـك أن تفعله هـو أن تحظى بمنفعـة من وراء ذلك. وأعلم أن بعض المال قد عرض عليك».

قبضت بيدي على المقود، وسألتها قائلاً: «حقاً؟ من الذي يسخر مني؟»

قالت باتسي: «حسناً. أمي، أولاً...».

رددت عليها قائلاً: « أمك».

تمتمت باتسـي بعد أن فقدت طاقتها وقالـت: «وهناك أكثر... إن الجميع في المجمع السـكني يعتقدون أنك غبي. هيا، من سيكون غبياً بما فيه الكفاية لكي يقود السيارة في منتصف الليل ويفقد نومه لمجرد أن يتحدث إلـى بعض طلبـة الجامعـة الغريبـي الأطوار وهـم يعلمون تمامـاً كل شـيء سـتقوله لهم؟ يمكنهـم أن يقـرأوه في الكتـب، أليس كذلك؟ إنهم يسخرون، يا ديفيد. جميعهم يسخرون منك».

فقلـت بتهكم: «هكذا إذاً؟ هل سـخروا مني عندمـا قابلتِ زوجة الحاكم في الحفل؟»

ردت عليَّ بغضب قائلة: «حسناً، إن كان لا بد لك من أن تعرف، فليس ذلك كل شـيء. وفي الواقـع، لقد كان الدجاج فـي حفل الغداء بـارداً. فـكل العمـل الذي قمـت بـه كان من أجـل قطعة مـن الدجاج البارد وجائزة غبيـة ما! وكما قلت لك، إن أحدهـم يتصل بك فتذهب إليه جريـاً. ويمكنك أن تقول إنك تدين لأحد بشـيء، ولكن هذا ليس صحيحاً. وإن كنت كذلك فعلاً، فأنت تدين لي! أبق حياتك تسير على هذا المنوال، وسوف يأتي يوم يتوجب عليك فيه أن تختار بين ما تفعله وبيني أنا. ويمكنني أن أتحمل موضوع سـلاح الطيران، لكن هذا الأمر

المتعلق بالأطفال وإنقاذ الكوكب قد بدأ يفوق حده كثيراً».

دافعت عن نفسي قائلًا: «ولكن ماذا في الأمر إن كنت أريد أن أفعل شيئاً؟ إنني لا أعرف ما هو، لكنني أؤمن إيماناً راسخاً بما أفعله. وربما تكون فترات القيادة الليلية تلك لا تشكل أيّ أهمية، لكنني في أعماقي أستطيع أن آوي إلى الفراش وأنا أعرف أنني قد استغللتُ فرصتي وبذلت قصارى جهدي. وهذا جيد بما فيه الكفاية بالنسبة إليَّ. ولا يسعني أن أشرح هذا الآن، لكنني أشعر أنني أمتلك تلك الموهبة وأنني أحدث تغييراً. ويجب عليك أن تثقي بي من هذه الناحية، يا باتسي، من أجلنا ومن أجل ستيفن. فإن لم نفعل نحن شيئاً، فمن سيفعل؟ وإن لم نتدخل الآن، فمتى نفعل ذلك إذاً؟ إنني أحاول فقط أن أجعل هذا العالم مكاناً أفضل، وأنت تعلمين ما أعنيه. وأنا أسعى فقط لأن أجعل الوضع أفضل بالنسبة إليك وإلى ستيفن. فأنا لا أستطيع أن أغض الطرف عن هذا، أرجوك». وأضفت قائلاً: «يجب عليك أن تثقي بي».

فقالت باتسي: «تحدث تغييراً؟ إنني لا أرى أي تغيير. وبالإضافة إلى ذلك، ليس الأمر أنك عندما تشتري زوج أحذية لأحد الأطفال أو تعطيه لعبة ما أنك سوف تغيّر حياته». وأنهت كلامها بأن قلبت عينها وأومأت برأسها ثم عادت إلى النوم.

أصاب ذكر باتسي للألعاب وتراً حساساً بي. ففي أثناء طفولتي تحت وصاية والدي بالرعاية، لم يكن الناس، كالموظفة الاجتماعية، السيدة غولد، يمنحونني فقط الأمل في أنني سوف أتمكن من أن أحقق مستقبلاً واعداً، بل أشياء صغيرة كانت تفاجئني مثل الألعاب. وكان الإخلاص في ما يقومون به شيئاً لا أنساه في حياتي. والآن بعد سبعة عشر عاماً من إحداث الآخرين لهذا التأثير في حياتي، بدأت أمد يد المساعدة لغيري.

ومع ذلك، فإنني في كل برنامج قدمته، وكل مسابقة شجعتها ورعيتها، وتبرُّع منحته، وميل قطعته في ساعات الليل، كنت أقوم ببساطة بما أؤمن أنه صحيح ومنصف. وفي وسط حملتي هذه، أصبحت مغلفاً بسلام من نوع خاص. ففضلاً عن تكريس نفسي لكي أصبح أفضل أب بمقدوري أن أصبحه، وقعت ميثاقاً عاهدت فيه نفسي على أنني سأبذل ما بوسعي لكي أضمن أن أحداً لن تؤول حاله إلى حال والدتي من أيّ ناحية كانت.

الفصل الثاني عشر

الوداع الطويل

في صيف العام 1990، بدأت التغيّرات الطفيفة تدق ناقوسها على زواجنا. وبدأت التغيّرات بالنسبة إليَّ كفرد في طاقم الطيران خلال شهر كانون الثاني بسحب طائرة **أس أر** – 71 من العمل. فبعد سنوات من الإشاعات عن إغلاق القاعدة والتخفيض في عدد الطيارين، أصبحت طائرة **البلاكبيرد** تعتبر باهظة جداً. وقد تضمنت مراسم سحب الطائرة أهمية عاطفية بالنسبة إليَّ. فبعد سنوات قضيتها في الدراسة والعمل كجزء من برنامج فريد من نوعه، أصبحت لديَّ الفرصة لأن أرى طائرتي المفضلة عن كثب. وقد كنت مرتدياً بدلة الطيران وستيفن بين ذراعي عندما تحسسنا بأيدينا للمرة الأولى والوحيدة سطح طائرة التجسس المصنوع من التيتانيوم.

قبل رحلة الطائرة الأخيرة، وبينما تملَّك بعض الأفراد من القاعدة القلق بشأن مهمة جديدة لتملأ الفراغ الذي خلفته طائرة **أس أر** – 71 **بلاكبيرد**، كانت المهمة المطلوبة من بعض أفراد السرية، بمن فيهم أنا، أن نملأ بالوقود الطائرة الجديدة التي أتت من العالم المحجوب عن الأنظار، عالم العمليات السوداء وهي: مقاتلة **ستيلث أف** 117.

كان العمل بطائرة **أف** 117 يعني أنه لا مزيد من المهمات الطويلة خارج البلاد. وبعد أن قضيت أنا و**باتسي** أشهراً ونحن بعيدان بعضنا عن بعض خلال السنوات الخمس الأخيرة، بدا على وجودي في البيت أنه يضخم التوتر بيني وبينها. ولقد أثرت جنونها من دون أن أتعمد ذلك.

فلطالما تمتعت **باتسي** بالحرية المطلقة في البيت. والآن أصبحت أقف عقبة في طريقها. وحتى بعد بضعة أسابيع تعوَّدت أن أعود فيها إلى البيت كل يوم، ما زلت أشعر أنني ضيف عابر في المنزل. وعندما بدأ الإحباط يملأني بسبب أشياء تافهة صغيرة، تحملت **باتسي** ذلك بصبر، لكنني استطعت أن أشعر أن كثرة تلك المواقف، مهما انعدمت أهميتها، قد بدأت تبني حاجزاً يفصل بيننا.

لكنني أيقنت أن خوفي كان يعزى إلى مسائل تتعلق بالثقة. فبعد أن قضينا معاً ست سنوات تقريباً، أصبحت على يقين من ثورات **باتسي** المفاجئة أن شيئاً ما كان يعتمل في الأعماق. وخلال شهر تموز من العام 1990، زاد موقفان حدثا معنا من تعقيد الأمور. فقد اكتشفت أن **باتسي** كانت تملك بطاقة ائتمان تحت اسمي. وبعد أن أقسمت **باتسي** أنها قد تلقت البطاقة بالبريد من مكان مجهول، أعطتني رقم هاتف الشركة. ولكن عندما طلبت الرقم، انتزعت **باتسي** السماعة وخبطتها في مكانها، وقالت: «لقد سبق أن اتصلت وتحدثت إليهم... وقالوا إنه لا بأس إن تأخرنا قليلاً في السداد».

أدركت أن الطريقة الوحيدة لأحل المشكلة تكمن في أن أجاريها في لعبتها. فعندما سألتها عن اسم الشخص، استطاعت **باتسي** فقط أن تأتي باسم **ريتشارد**. ورفضت أن تعطيني اسم عائلته أو وظيفته أو رقم التمديد. فبدت لي كأنها كذبة مفضوحة أخرى، لكن **باتسي** صممت على موقفها إلى حدّ أنها تصرفت، حتى عندما اتصلت بهم أمامها، كأن كل شيء كان بحسب ادعائها. وبعد أن شرحت الموقف لبضعة أشخاص، استطعت أخيراً أن أتحدث إلى مشرف محاسبة، فاعترف بالتوقيع على البطاقة وقال إن أيّ دفعات لم تسدد منذ تم تفعيل هذه البطاقة قبل أشهر. فاعتذرت له بصدق وأعلمت المشرف بحقيقة الموقف ووعدته أن أعوض عما حدث، وتوسلت إليه أيضاً ألا يكشف

الأمر لأي شخص خارج منظمته.

صحت بغضب وأنا أضع السماعة قائلاً: «لماذا؟ كان... كان يمكنك أن تخبريني الحقيقة... وأن تحظي ببطاقة باسمك. لماذا يجب عليك دائماً أن تدفعي بي إلى...؟»

تدخلت **باتسي** قائلة: «هراء! إنني لا أستطيع أن أحظى ببطاقة. وأنت تعلم ذلك. فأنا أعاني من مشكلات تتعلق بالبطاقة الائتمانية».

لم أستطع أن أصدق مدى وقاحة **باتسي**. وقلت لها: «ليس هذا بيت القصيد، بل هو البطاقة والإنفاق والاتصال بشخص ما من شركة البطاقات من دون أن تتمكني من أن تتذكري اسمه وأن يخبرك أنه لا بأس في أن نتأخر بالسداد! إن هذا المنوال معك لا ينتهي أبداً! فلطالما يوجد شيء ما. وقد سئمت الكذب. وسئمت الألاعيب والخداع المستمر. أتعتقدين حقاً أنني غبي إلى هذا الحد؟ وهل خداعك لي أنك قد اتصلت بشخص ما من شركة ما سيلوح بعصا سحرية على ما فعلته ويجعل الأمور تصبح أفضل حالاً؟ إنها مسألة تتعلق بالمسؤولية، وقد سئمت معالجة كل شيء!» والتفت لكي أغادر الغرفة، متسائلاً ما إذا كنت على صواب باتهامها. هل خدعتني **باتسي** حقاً أم أنني وقعت على بطاقة ائتمانية قبل وقت طويل ونسيت الأمر برمَّته؟ لقد أخذت الأمور تمضي بسرعة شديدة بحيث إنني لم أستطع أن أسبر غور المشكلة. فتوقفت وأنا أقترب من الباب، والتفت نحو **باتسي**، وقلت: «هل تعلمين أو حتى تكترثين أن لديَّ فحص أمني قادم؟ إن اكتشف سلاح الطيران شيئاً بهذا الشأن، فيمكنهم أن يسحبوني من...».

قالت **باتسي** بغضب: «ممّاذا؟ لقد سئمت كل شيء يتعلق بسلاح الطيران. إنك لا تقوم بأي شيء سوى ذلك. وأنت لا تفعل شيئاً، ولم تفعل شيئاً قط. فأنت مجرد مجنَّد ملتحق بالجيش. وقد حاولت أن تدعي أنك جزء من شيء ما لكي أبقى متماشية معك، لكنني أقول لك

هذا: إنني أستطيع أن أفعل ما أريد في الوقت الذي أريده. ولن يملي علي أحد ما أفعله!»

«أتريد أن تتوخى الصراحة؟ أتريد أن تتحدث عن الصدق؟ هياً، لنكن صريحين! أخبرني عن نفسك! هيا، إنني أنتظر، أخبرني!»

لمدة عام تقريباً بينما كان تصنيع طائرة **أس أر** - 71 يتوقف، وقعت أوراقاً أقسم فيها على السرية التامة بشأن انخراطي في برنامج **ستيلث** حتى على الرغم من أن الطائرة قد سبق أن كشفت على الملإ. وحتى بعد استخدام سريتنا لطائرة **أف** 117 خلال ظهورها الأول في **بَنَما** كجزء من العملية المسماة **القضية العادلة**، حُذرنا ثانية من النتائج الوخيمة إن باح أي شخصٍ بأي شيء بما في ذلك أننا هددنا بالسجن.

ومما زاد المسائل تعقيداً أنني لم أخبر **باتسي** عن بعض المنظمات التي كنت أعمل لديها خارج سلاح الطيران. وعندما حاولت من قبل، كانت إما ضجرة أو ببساطة لا تحفل بذلك. وقد تمنيت من أعماقي أن تكتشف **باتسي** بنفسها شعور مد يد العون للآخرين الذين يحتاجون إلى المساعدة، وعندئذٍ، ربما سنستطيع أن نعمل معاً كزوجين على حل المسائل التي ما زالت تقض مضجعنا. ولكن حتى بعد أن تقبلت الجائزة من السيدة الأولى في الولاية، ظلت **باتسي** تنأى بنفسها عن الموضوع.

وهكذا، وأنا واقف أمام الباب ووجه **باتسي** يتحول إلى اللون الأحمر، أيقنت أنه إذا كان هناك منافق في البيت فهو أنا. فأخذت نفساً عميقاً، وسألت بصبر: «قولي لي، ما الذي يجري؟ هل تعتقدين أننا نعاني مشاكل مالية؟»

قالت لي: «هذه مشكلتك أنت. فلطالما كنت لا تكترث إلا للمال!»

«إن كان هناك أي شيء تريدينه ويهمك إلى هذا الحد، فسوف أحصل عليه من أجلك. وأنت تعلمين ذلك. وقد يستغرق ذلك بعض الوقت، ولكن إذا وجد هناك ما يدخل السرور إلى قلبك...». وبينما أنا أبحث عن جواب مراوغ، بدأت أشعر بالذنب أكثر. هل كنت أقول إنه يجب على باتسي أن تنفق المال لتعثر على السعادة؟ إن كانت باتسي تملك كل شيء ترغب فيه، فهل هذا سيملأ الفجوة التي تشعر بها؟ وتساءلت ما إذا كانت باتسي ربما تسرف في إنفاق المال لأنني لا أؤمن لها احتياجاتها العاطفية.

وفجأة شعرت أنني قد خدعت. فقلت: «توقفي! انتظري! كلا، ليس الأمر متعلقاً بالمال...».

فصاحت باتسي قائلة: «هراء! وحتى جدتك تقول هذا! والجميع يعلمون أن هذا هو كل ما تهتم له. إن المال فقط هو كل ما تقلق بشأنه. ويجب عليك أن تهدئ من روعك قليلاً».

«إنك لا تدركين ذلك. فالأمر كأنك لا تريدين أن تفهمي. لدينا ابن. ويجب علينا أن ندخر المال من أجل كليته، كما أننا ندين له بذلك وبمنزل حقيقي يكون ملكاً لنا. فنحن لن نبقى في سلاح الطيران إلى الأبد. وربما لا تدركين هذا، لكن هناك الكثير من التغيرات التي تلوح في الأفق. إننا ننفق كل شيء في أيدينا».

فقالت باتسي وهي تهز رأسها: «لا تتحدث إلي عن الفقر هكذا. إنني أعلم أنه لطالما يوجد لديك مخبأ سري ما. وسنكون على ما يرام، لكنك تتصرف وكأنّ كل شيء سيتداعى فوق رأسينا».

قلت لها: «إن الأمر لا يتعلق بالمال، يا باتسي، بل يتعلق بنا نحن! ويبدو عليك كأنك لا تكترثين لشيء. وأنا أعلم أنك تكترثين كثيراً، وأقدر كل شيء تبذلينه من أجلي، ولكن... في بعض المرات، أشعر أن كل ما عليَّ أن أفعله هو أن أصلح الأخطاء التي ترتكبينها.

ويبدو الأمر كأنك لا تفكرين حتى بعواقب ما تفعلينه. هل تعتقدين حقاً أنني أتشاجر معك فقط لأنتزع منك بعض المعلومات، حتى أقوم هكذا فحسب بإصلاح خطإ اقترفته؟»

واستأنفت كلامي قائلاً: «نعم، إنني أريد بيتاً! وأريد أن أدخر المال من أجل مستقبل ابننا! هل يجعلني ذلك فعلاً رجلاً سيئاً؟ من أجل أي شيء عملت بكل جهدي منذ عمر الثالثة عشرة، وحتى قبل ذلك حين كنت عبداً لدى والدتي؟ لقد كنت عبداً! وقد سئمت هذا! وهكذا، فإن كان الاحتفاظ ببطاقة ائتمانية واحدة وادخار بعض الدولارات يجعلني رجلاً سيئاً... إذاً فأنا مذنب حقاً. والشيء الأهم هو: ما زال علي أن أصلح الفوضى التي تتسببين بها».

فقالت باتسي بغضب وهي تمر بجانبي: «سوف تفعل هذا! قم بإصلاح الأمر. وفضلاً عن ذلك، ما الذي يفترض بي أن أفعله؟ فعندما تكون في البيت، تقضي وقتك مع ستيفن أكثر مما تقضيه معي».

فحاولت أن أوقفها بأن قبضت على ذراعها، وقلت: «تمهلي للحظة». لكنني عرفت من نظرة عينيها أنني قد تجاوزت حدودي كثيراً.

«انزع يدك عني، يا مؤيد منع إساءة معاملة الأطفال». وصعقت من عبارتها، فأبعدت يدي عنها. فقالت باتسي: «لقد حظيت بانتباهك، أليس كذلك؟ أصلح المشكلة وتجاوز الأمر».

وبعد أن خرجت باتسي من الغرفة بغضب، نزعت قطعة من الورق أحتفظ بها في دفتري. وكتبت فاتورة جديدة إلى جانب الفواتير الأخرى التي تراكمت على مدى السنوات العديدة الماضية. وقلت لنفسي متنهداً إنني مازلت أحظى على الأقل بعملي في إصلاحية الأحداث. وقد بدأت الوظيفة كطريقة لكي أكسب المزيد من المال، لكنها أصبحت ضرورية للبقاء. ثم وضعت يدي على جبيني، وبدأت

ترتعد أوصالي. وكل ما استطعت فعله هو أنني تمنيت ألا تنشأ مشاكل أخرى بخصوص بطاقة الائتمان.

استغرقت شهراً تقريباً لكي أجاوز أزمتنا الأخيرة. ومهما استمرت **باتسي** بالاعتذار، فقد تعمدت أن أتجاهلها. وبعد سنوات قضيتها وأنا أسمع الأسطوانة نفسها مراراً وتكراراً، لم أعد أحفل بأي شيء تفعله، باستثناء ما يتعلق **بستيفن**. وكل ما استطعت فعله هو أنني دعوت في كل مرة كنت أفتح فيها صندوق البريد أو أردّ على الهاتف لئلا أكتشف وقوع كارثة أخرى. وبدأ قلقي يصبح أكثر حدة عندما بدأت الإشاعات تنتشر حول احتمال أن سلاح الطيران ربما، سيبدأ بتخفيض عدد المجندين في ميداني. ولخوفي من العالم الخارجي والتوقعات المحدودة، بدأ القلق يساورني من ألا أبقى قادراً على أن أعتني بعائلتي.

وأخيراً، تجاوزت استيائي. وبعد أن تركت **ستيفن** في بيت **دوتي ماي** ليقضي العطلة الأسبوعية، خرجت أنا **وباتسي** في موعد عشاء نادر. وبينما كنا نتناول طعامنا، أمسكت يد **باتسي** واعتذرت عن تصرفي الصبياني. وقلت: «أعلم أن هذا ليس سهلاً، ولا أريد أن أتصرف كالوغد... لكن الخوف تملكني فحسب. وأعلم ما يعنيه أن نتضور جوعاً، وأن نصبح مفلسين. ولا أستطيع». وأمسكت عن الكلام وأنا أهز رأسي، ثم قلت: «ولن أدع هذا يحدث لك **ولستيفن**. وأنا أعلم أنك قد أنفقت بعض المال لكي تشتري لي بعض السراويل».

فقالت **باتسي**: «إنك لا تفعل أي شيء من أجل نفسك. وقد أردت أن أفاجئك».

ضحكت وقلت: «حسناً. لقد فوجئت. وقد علمت أيضاً من كشف بطاقة الائتمان أنك لم تشتري الكثير لنفسك. وأنا آسف. فأنا أشعر أنني مغفل لأنني لا أبذل الكثير من أجلك. وهذا هو السبب في

أنني أعمل بجد كبير. ويوماً ما، إذا ما حالفنا الحظ، فسوف نتمكن من أن نحقق ما نريده. والأمر فقط هو أن الكثير من التغيرات تحدث الآن، ولا أعرف كيف ستؤثر فينا. وهكذا، يجب علينا أن نحكم عقلنا ونتحكم بإنفاقنا وفي الوقت عينه أن ندخر من أجل مستقبلنا ومستقبل ابننا. وهذا هو كل ما في الأمر».

همست باتسي قائلة بحنان: «إنك تتعامل مع كل شيء بجدية. وتقلق كثيراً. ويجب عليك أن تتمهل... قليلاً فقط».

اعترفت قائلًا: «نعم، أعرف ذلك. وأنت محقة. ولكن دعيني أقول هذا: منذ الموضوع المتعلق ببطاقة الائتمان، أصبح إنفاقك للمال أقل. وقد شعرت كأنك أصبحت شخصاً مختلفاً عن باتسي التي عرفتها عندما التقيتك للمرّة الأولى. لقد كان يزعجني ما تفعلينه، فعندما تتسكعين مع أولئك الجيران أنصاف العقول الذين يشكون ويتذمرون، فكل ما يفعلونه هو أنهم يحطون من مستواك. وأنت أفضل من ذلك. انظري إلى نفسك: إنك لست في حاجة إليهم ليعبثوا بعقلك. فأنت تعيشين حياة جيدة وأنت أم رائعة». وتوقفت وأنا أتألم من أنني أقول الشيء الوحيد الذي يجعل باتسي تؤمن بنفسها وقدرتها مرة واحدة وإلى الأبد. ثم قلت: «إنني أريدك فقط أن تكوني سعيدة، لا يهم إن يكن ذلك معي أو من دوني. إنك لست بحاجةٍ إلى ستيفن أو عائلتك أو أولئك \الأصدقاء أو إلى أي أحد ليدخل السعادة إلى حياتك. فكل ما تحتاجينه هو هذا!» وأشرت إلى قلب باتسي، ثم قلت: «أعلم أيّ امرأة عظيمة أنت. وكل ما عليك أن تفعليه هو أن تحققي هذا».

فأومأت برأسها والدموع تسيل على خديها ثم قالت: «شكراً لك، يا ديفيد، لأنك تؤمن بي. ثق بي، ولن أخذلك. ثق بي».

مساء اليوم التالي، وبعد أن عدت إلى البيت قبل منتصف الليل بدقائق لأعمل في المناوبة الدورية في إصلاحية الأحداث، كان

المنــزل مظلمــاً تماماً وباتسـي غير موجـودة. وبعـد أن بحثت في كل غرفة، بدأت أخشـى الأسـوأ. واتصلت بإحدى صديقاتها، فردت على الهاتف والموسيقى تصدح في البيت. وبعد أن سألت عن باتسي لأكثر من عشـر مرات، صاح صوت شـخص ثمل يقول إنها ليسـت موجودة قبـل أن يضع السـماعة. وبعـد أن قمت بالاحتمـالات الممكنـة كلّها، أوشـكت أن أتصـل بدوتي ماي عندما سـمعت باتسـي وهي تتحسـس طريقها عند الباب الخلفي. فهرعت لأقابلها، وارتطمتُ بالجدار عندما وقعـت فوقي. ثم قالت بغير ترابط: «لقد عـدت إلى البيت، يا عزيزي. فكما قلت، لا بد من أن هذه أنا. ولكن لا تقلق، فأنا سـعيدة. وهذه أنا وهذا أنت». ووخزت باتسي صدري بإصبعها، ثم قالت: «إنك ستحبني كمـا أنا...». وفجأة أرجعت رأسـها إلى الوراء، ثـم فتحت عينيها على وسعهما للحظة قبل أن تتقيأ علي.

بعد سـاعات، وبعـد أن نزعـت ملابس باتسـي الملوثـة والمبللة بالشـراب وأكـدت لهـا أنه لـم يعـد هناك شـيء لتتقيـأه، سـمحت لي بأن أضعهـا في السـرير. وبعد أن اعتنيت بأمر باتسـي، نظفـت الحمام ووضعت ملابسنا في الغسالة، ثم استحممت وارتديت ملابسي لأعمل في المناوبة الصباحية في إصلاحية الأحداث.

بينمـا كنـت أقود السـيارة مـن قاعدة سـلاح الطيـران إلـى مدينة ماريزفيـل، ضحكت بينـي وبين نفسـي. وأدركت أن باتسـي قد ذهبت فـي زيارة إلى منــزل صديقتها ومـن الواضح أنها قد تناولت شـيئاً ما. ولـم تكن الغلطـة غلطتها، ولم تتعمـد حدوث هذا. ومـع ذلك، فبينما بدأت الشـمس تظهر في المرآة الأمامية، غلفتني موجة من الغضب. إذ إن السـبب الوحيد لإجهاد نفسي بالعمل هو أن أسدد فواتيرها. وفضلاً عـن كل هذا، فقـد بدأت أحـاول الآن أن أكسـب احترام وثقـة أولئك المراهقين في الإصلاحية الذين عانـوا أوضاعاً كالجحيم لكي يتمكنوا

مـن أن يتقدموا في حياتهم ويصبحوا متحملين للمسـؤولية بدلاً من أن يعيشـوا حياتهم كضحايا عاجزة. وفي غضون ذلـك الوقت كله، كانت باتسـي تقضي يومها نائمة في السـرير في غيبوبة ثمالة أخرى. فصحت لنفسي وأنا أضرب المقود بيدي قائلاً: «تباً. كيف يمكنني أن أكون غبياً هكذا؟» ففي كل مرة دسـت فيها على كبريائـي معتقداً أنني قاسٍ عليها وحاولـت أن أصل إليها من كل قلبي، كان شـيء ما يحـدث دائماً. ثم قلـت: «إنك غبي، غبـي، غبي! إنك لن تتعلـم أبداً، يا بيلـزر. فهي لن تتغير أبداً على الإطلاق. وأنت مغفل جداً لتتحمل تفاهتها!»

أجهدت نفسي لكي أجلو تفكيري بينما كنت أركن سيارة التويوتا في موقـف سـيارات إصلاحية الأحداث. ولـم يتوافر لـي الوقت لكي أفكر في باتسي أو أحلل الوضع الذي كنت سأواجهه لدى عودتي إلى البيت أو حتى لأفكر كم أصبحت خائر القوى. وبينما كنت أمشـي إلى آخـر الرواق، كان كل ما تيقنـت منه هو أن هذه هي بدايـة النهاية. فلم تكن باتسي ستحظى بثقتي ثانية قط.

* * *

فـي شـهر آب من العـام 1990، غير غـزو صدام حسـين للكويت أولوياتي. وأياً كانت المشـاكل الزوجية التي واجهتها فقد بدت عديمة الأهمية أمام احتمال خوض حرب حقيقية. وعلى مدى أكثر من أسبوع، حمَّـل كل فرد مـن أفراد طواقم الطيـران الطائرات بكل نـوع من أنواع معـدات الدعم المحتملة. وتلقينا تعليمـات لا حصر لها ولا عدّ تتعلق بدفاع حرب الأسـلحة الكيميائية ومهمتنا بإعادة تعبئة مقاتلات ستيلث بالوقود. ولمعرفتنا التامة أن طائرة كيه سي 135 لا تملك مقدرة دفاعية ولأن طائرة بوينغ هي متعددة القوة، وهو ما يعني أن الطائرات المقاتلة المتعددة لا تسـتطيع أن تطيـر إلى أهدافها من دون وقـود طائرتنا، فقد كانت طائرة بوينغ ناقلة الوقود تتمتع بمواصفات الهدف الأول. ولأنها

تعتبر محطة وقود طائرة في السـماء، فقد كنت أنا وطاقمي سنتبخر في الهواء بسـبب الانفجار إذا ما تعرضنا لضربة واحـدة من طيران العدو. وبينما أخذت الأيام تمر وانتظرت القاعدة لتتلقى الأوامر بنشر الجنود، أصبح قلقي بشـأن باتسـي ودفتر الشـيكات أو أيّ بطاقات ائتمان ربما تكون قـد حصلت عليهـا آخر ما يشـغل بالي. وتوجب علـي أن أضع مشـاعري المختلطة بشـأن زواجي جانباً وأن أصب اهتمامي على أداء واجبي والعودة إلى البيت وأنا على قيد الحياة.

وبعـد تأجيلات لا حصـر لهـا ولا عدّ وسلسـلة مـن التنحي من الوظائف في اللحظة الأخيرة، تلقيت بلاغاً رسـمياً بنشـر جنود سـريتنا في السـاعة الثالثة مـن صباح اليـوم التالي. فقضيت الليلة التي سـبقت تلك الليلة مع باتسـي وأنـا أضمن أنهـا تملك كل شـيء ترغب به في أثنـاء غيابي وتعـرف ما تفعل تحسـباً لحدوث أي طـارئ. وكنت على يقين من أن باتسي ستكون على ما يرام.

لكن قلبي ظلّ مشـغولاً على ستيفن. وبينما أنا مستلق بجانبه على سريره، أمسك بمسجلة الووكمَن التي أعطيته إياها في ذلك اليوم. وقبل أن يستغرق في النوم، همس لي قائلاً: «إلى أين أنت ذاهب، يا أبي؟»

همسـت في أذنه قائلاً: «سـوف يتوجـب علي أن أركـب الطائرة لبعض الوقت».

«هل ستحضر لي معك شيئاً؟»

«نعم، ولكن فقط إن اعتنيت بوالدتك». ثم وجدت نفسي أكرر ما تعوَّد والدي أن يقوله لرون، أخي الأكبر، قبل سنوات حين مغادرته إلى العمل، فقلت: «كن رجل البيت من أجلي. أيمكنك أن تفعل هذا؟»

اسـتدار سـتيفن واسـتغرق في النوم بين ذراعي. وبينمـا أنا أربت على شـعره الأشـقر الناعم وأقبِّل جبهته، صرحت لنفسي أن كل شيء سـيكون على مـا يرام. فقلت في نفسـي: إنهـم لن يسـقطوا طائرتنا، يا

ستيفن. وإن فعلوا ذلك، فلن تنفجر. وسأستخدم مظلتي. وحالما أصبح على الأرض، سأهرب. ولن يأسروني. وإن فعلوا ذلك، فسوف أهرب. وإن لم أستطع الهرب، فسأكون على ما يرام، وسوف أعود. ومهما يحدث، سأعود من أجلك!

في خضم ذلك الخوف كلّه والإحساس الجامح بالمغامرة، شعرت بهدوء غامر وأنا أحتضن ابني. وبطريقة غريبة، كان الشعور نفسه الذي اختبرته في طفولتي عندما طلب مني أن أجلس على يدي في قبو منزل الوالدة. فقد تعوَّدت أن أستجمع شجاعتي كلّها وأقول لنفسي إنه مهما يكن ما حدث بيني وبين الوالدة، فقد كنت سأنجو. فيمكنها أن تضربني، وأن تفعل ما تريده، لكنني بمشيئة الله كنت سأنتصر بطريقة ما. والآن بينما أخذت ساعات الليل تمر بتثاقل، هيأت نفسي لاختبار آخر. وبعد ساعات، استنفرت للمشاركة في مهمة **درع الصحراء** في ذكرى ميلاد **ستيفن** الرابعة.

كنا في الأسابيع القليلة الأولى في **السعودية** نتصرف بحذر شديد دائماً. ولم نكن واثقين مما نتوقع أو متى أو ما إذا كنا سنفعل شيئاً ما. وكلما تحدثت إلى **باتسي** على الهاتف، كانت تذهل كأنني أعرف نوعاً ما وقت عودتي إلى البيت.

وبحلول منتصف شهر كانون الثاني من العام 1991، وعندما أطلعنا قادةُ سلاح الطيران على الخسائر المحتملة خلال المرحلة الأولى من الحملة وإمكانية فقدان الجميع، فتح ذلك عيني على الحقيقة. فلم يعد هذا اختباراً للنضج. وأصبح همي الآن هو ألا أخفق في تنفيذ الجزء المخصص لي من المهمة. وكما تبين، مع ذلك، فبعد الأسابيع القليلة الأولى، حافظت قوات التحالف على السيادة الجوية على **العراق**، وأصبحت المهمات روتينية.

ولأنه كان يُطلب منا أن نذهب في رحلة جوية ليلية في العصر

ونعود في ساعات الصباح المبكرة، فإنني وجدت من المستحيل أن أنال أي قسط من النوم. وبينما أنا مستلق على سريري العسكري، تعوَّدت أفكاري أن تتجه دائماً إلى ستيفن. وقد أصبحت شديد الارتياب بشأن أمور خارجة عن سيطرتي. ماذا إن اختنق بالطعام وباتسي لا تنظر إليه؟ وماذا إن لم ينظر إلى كلا الاتجاهين قبل أن يعبر الشارع وصدمته سيارة؟ ماذا سأفعل في تلك الحالة؟ وفي بعض الأوقات، عانيت من الكوابيس. وكنت أستيقظ وجسدي مبلل بالعرق. وأخيراً في إحدى الأمسيات بعد نوبة قلق أخرى، خرجت لأتأمل النجوم. وفي سكون الليل، وسط الحرب، بينما أشعر بالنسيم العليل القادم من الصحراء، وجدت الصفاء النفسي. فقد كنت لا أزال في حاجة إلى أن أفهم أن هناك أموراً كثيرة خارجة عن إرادتي. وقد توجب علي أن أغض الطرف عنها. وبعد صباح ذلك اليوم، وفي أيام أخرى تلت، لم أنم قط بعمق كما فعلت عندما خدمت في حرب الخليج.

عدت من السعودية في آذار عام 1991، وترجلت من الطائرة، فأسرعت باتسي لتقابلني. وفي وسط مطر غزير، عانقتها كما لم أفعل من قبل. وقلت لها: «كل شيء على ما يرام». فنظرت باتسي إليَّ بارتباك. ثم قلت: «سيكون كل شيء على ما يرام. وأنا آسف جداً حقاً على كل شيء وعلى السخافة التي عرضتك لها والقلق من الأمور التي لا تعني شيئاً. ومهما يحدث، أنا على يقين من أننا سنكون على ما يرام». ثم عدوت بسرعة وحملت ستيفن، الذي كان مرتدياً سترة الطيران البنية الصغيرة. فضممته إلى صدري حتى صاح أنه لم يعد يستطيع التنفس. وبينما أنا وعائلتي نمشي خلال جمهرة من الناس الذين يلوحون بالأعلام ويهتفون، غمرتني موجة من الفخر. فلم يكن أفراد القاعدة جميعهم قد عادوا أحياء، من دون أن يتعرضوا لخدش واحد، فحسب، لكنني كنت أملك كل شيء يمكن لأي شخص أن

يتمناه في حياته. فعاهدت نفسي على أن أفعل أي شيء يتطلبه الأمر لأسوي مشاكلي مع **باتسي**. فبعد أن صمدنا معاً ذلك الوقت كلّه، تيقنت من أن شيئاً لا يستطيع أن يفرق بيننا.

بعد أن عدت إلى البيت، أصبحت الأمور التي كانت تبدو معقدة جداً قبل أشهر عديمة الأهمية الآن. فظللت أنام بعمق، ولم أعد أضغط على نفسي كما كنت أفعل في الماضي. ولبضعة أسابيع، شعرت أنني أمشي بين الغيوم. ولم أكن أنا و**باتسي** وثيقي الصلة بعضنا ببعض هكذا على الإطلاق. وللمرة الأولى، استطعت أن ألاحظ تغيُّراً في موقفها. فقد أصبحت مبتهجة ومعتمدة على ذاتها. وأخذت تبادر بمواجهة مواقفها بنفسها من دون أي تدخل من أمها. وفي أحد الأيام، وبينما أنا أقود السيارة إلى مدينة **سكرامنتو** في الجوار، مددت يدي لأمسك بيدها، وقلت: «إنني فخور بك، يا **باتسي**. أعلم أنه ليس من السهل أن تكوني متزوجة بي وأن تتحملي كل شيء كما فعلت أنت، لكنك قد تحسنت تحسناً ملحوظاً. وينبغي أن تكوني فخورة بنفسك. فقد نجحت. لقد فعلت ذلك حقاً. ولن يستطيع أحد أن يتأمر عليك بعد الآن وأن يتكبر عليك لأنك أفضل من ذلك، ولطالما كنت هكذا. وربما حرب الخليج هي أفضل شيء... حدث لنا».

انتهى شهر العسل السعيد عندما تلقيت رسمياً أوامر نقلي إلى قاعدة **أوفيت** الجوية في ولاية **نبراسكا**. وفي أمسية متأخرة من شهر أيار، كان الحزن يملأني وأنا أقود السيارة من قاعدة **بيل آير** الجوية التي كانت بمثابة بيتي وعائلتي البديلة لأكثر من ثماني سنوات. ولم تقم أيّ حفلات وداع في السرية لأن الآخرين أيضاً تبعثروا بهدوء إلى قواعد أخرى. وفي أثناء عملية إغلاق القواعد العسكرية وتقليص عدد الموظفين، كنت في عداد من حالفهم الحظ. فما زلت على الأقل أملك وظيفة.

بعد يوم واحد، وبينما كنت آخذ قسطاً من الراحة في منزل الجدة في يوتا، تلقيت مكالمة مهتاجة من الوالدة. فأخذت السماعة متسائلاً كيف عرفت بوجودي في المنطقة لأنه لم تكن لديَّ النية في أن أزورها. ولكن بينما أنا أصغي إلى صوت الوالدة وهي تتوسل إلي دفعني شيء في صوتها لأذهب لزيارتها. وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن تعودت على رائحة منزلها، ثرثرت أنا والوالدة في بادئ الأمر كما تعوَّدنا أن نفعل من قبل. ومن ثمّ تذمرت من مرضها، وهذه المرة أدركت أنه لم يعد تمثيلاً. ولم يسعني إلا أن ألاحظ ارتجاف يديها المستمر. فحتى حين كانت تضع إحدى يديها على الأخرى، لم تستطع أن تواري ارتعاشها. وبعد أن تناولت الوالدة جرعة، مما ظننت أنه شرابها المعتاد، خفّ ارتجافها. وتابعت تذمرها من مدى صعوبة المشي بالنسبة إليها الآن وكيف أنها تعتقد في بعض الأحيان أن قدميها ستتمزقان من شدة الألم. وبعد أن أصغيت إليها لأكثر من ساعة، أدركت، كم أصبحت الوالدة وحيدة ويائسة، حتى مع وجود كيفن معها في المنزل.

بعد لحظات قليلة من الصمت، قمت بمجازفة كبيرة، فقلت بلامبالاة: «أحب أن أعلمك أنني أعمل... وأمد يد المساعدة للأطفال والآخرين الذين... يعانون مشاكل».

فأجابت الوالدة وهي تومئ برأسها: «نعم. حسناً... إن جدتك... يجدر بها أن تبتهج لسماع هذا».

فانفجرنا كلانا ضاحكين فجأة.

ولثانية عابرة، أعادني صوت سعادة الوالدة في الزمن إلى الماضي. ومن لمعان عيني الوالدة، بدا عليها أنها قد استشعرت بذلك أيضاً. لكنني أيقنت أن ذلك ليس أكثر من لحظة عابرة. فلم أكن سأتلقى اعترافاً بما حدث بيننا، ولا حتّى أن أنال منها اعتذاراً صادقاً.

وبعد كل شيء عانيته، شعرت أنني لم أعد بحاجةٍ إليه. ومع ذلك، فما زال الطفل في داخلي يشعر بحاجة ملحة إلى أن يحتضن أمه بين ذراعيه ويمتص كل ذرة من ألمها. وفي تلك اللحظة، كنت لأهب أي شيء مقابل أن أسمع رنين ضحكة أمي.

بينما أنا شارد الذهن، تحسست أصابعي صندوق الوالدة المصنوع من خشب البلوط الذي تعوَّدت أن تعتز به في الماضي. وحبست أنفاسي عندما جلت ببصري متأملاً مجموعة شموع ذكرى الميلاد الحمراء الطويلة. فالتفت بسرعة نحو الوالدة. ثم عاودت النظر إلى الشموع، ومسحت الغبار المتراكم عن قواعدها. وبحسب ما أتذكر، كان أكثر ما تحرص الوالدة على العناية به هو زينة ذكرى الميلاد العزيزة عليها. وقد تعوَّدت دائماً أن تضع الزينة بعد ذكرى الشكر وتزيلها بعد رأس السنة مباشرة. فسألت نفسي عندما اكتشفت الآن أن رقاقات الثلج المرشوشة كانت لا تزال على النافذة في منتصف شهر أيار: لماذا لا ترتب الوالدة الشيء الوحيد الذي يعني لها الكثير؟

واعتقدت في نفسي أن ذلك يجاوز حد الكسل. وإن لم تعتن الوالدة بزينة شجرة الميلاد مع اقتراب الصيف فمتى ستفعل ذلك؟ وما لم... وقلت لنفسي: آه، يا الله. إن الوالدة تعلم... تعلم نوعاً ما أن وقتها محدود.

جعلت يداها ترتجفان من جديد. وكالعادة، غطت الوالدة إحدى يديها بالأخرى. لكن ارتعاش يديها ازداد شدة، فبذلت جهدها لتتناول كأس شراب أخرى. فنظرت بعمق إلى عينيها، وقلت: «لا تتوقفي. لا تحاولي أن تقلعي عن الشرب».

أشرق وجه الوالدة، وقالت: «إنك... إنك تتفهم؟»

فأومأت برأسي. وبينما أنا واقف أمام الوالدة، جلت ببصري متأملاً ملامحها كلّها محاولاً عبثاً أن أعثر على المرأة التي عشقتها

وأنا طفل صغير والتي تشوقت لأن تبادلني الحب. ومع ذلك، فعندما أغمضت عيني، لم أستطع أن أمنح الوالدة الإنسانية التي كنت أمنحها للغرباء. فاستجمعت التعاطف كلّه الذي أكنه في صدري، وبلعت ريقي بصعوبة، وقلت لها: «ارحلي بسلام».

فرفعت رأسها كأنها لم تسمعني.

شعرت بالضعف ينال مني، وبلعت ريقي قبل أن أكرر ما قلته بصوت متهدج، فقلت: «إنني لا أتمنى أن تعاني أي ألم... وأتمنى من أجلك فقط... أن ترحلي بسلام».

فقالت الوالدة بنبرة صوتها المترفعة القديمة: «نعم، حسناً، هذا جيد...».

فقلت بسرعة وأنا أشير بإصبعي إلى وجهها: «كلا!» ورفعت صوتي وأنا أشعر بساقي ترتجفان، وقلت: «لا تفعلي... لا تفسدي ذلك. ليس بعد كل شيء فعلته. إن هذه ليست واحدة من ألاعيبك التي تستغلينها. إنك لا تملكين... أحداً... ولم يبقَ لديك شيء. توقفي فحسب! تخلي لمرة واحدة عن هذا الهراء وافعلي ما هو صواب، بربك!» وتوسلت إليها والدموع تكاد تسيل من عيني: «أقسم لك بكل شرفي أنني لا أتمنى لك أي ألم ومعاناة. وأرجو لك السلام فقط». والتزمت الصمت وبدا على صدري أنه يعلو ويهبط من فرط الانفعال. ثم هدأت نفسي وقلت بصوت ثابت: «هذا هو كل ما أستطيع... وأفضل ما أستطيع أن أفعله من أجلك».

حاولت الوالدة أن تخترقني بنظرتها. وبعد لحظات، خفَّت حدة توترها. فهززت رأسي. ومن دون أن أتفوه بالكلمات، حركت فمي قائلاً: «إنني لا أستطيع. لا أستطيع أن أفعل هذا».

وبإيماءة من رأسها، أبدت الوالدة لي أنها قد تفهمت شعوري. وربما قصدت باتصالها بي في حالتها العاطفية تلك أن أهرع إليها

وأمنحهـا غفراني. وما تسـبب فـي ألمي أكثـر، وبعد حيـاة قضيتها في محاولـة إثبات قيمتـي للآخرين، لـم أسـامح والدتي، ولـم أسـتطع أن أفعل ذلك.

وبينمـا أنا أنزل الـدرج متوجهاً نحـو الباب، صاحـت الوالدة من كرسيها قائلة: «يا **ديفيد**؟»

«نعم، يا سيدتي؟»

«أريـدك أن تعلـم...». وأمسـكت عـن الـكلام لكـي تسـتجمع أفكارها، ثـم قالت: «إنني... فخـورة بك. فقد أصبحـت على ما يرام. وأنا فخورة بك، يا **ديفيد بيلزر**».

التفـتُّ ونظرت إلـى الدرج، وتلـوت دعـاء قصيراً قبـل أن أغلق الباب خلفي.

في شـهر كانـون الثاني مـن العـام 1992، توفيت الوالـدة إثر نوبة قلبية في أثناء نومها.

بعد أربع وعشرين ساعة، في شـارع **ميلبيري** خارج مدينة **سولت ليـك سـتي**، انضم أشـقاء عائلة **بيلـزر** كلّهـم بعضهم إلى بعـض. وفي بـادئ الأمر، شـعرت بالارتباك يتملكني مـن الجميع إلـى أن أتى **رون** وعانقنـي. وقد كان هناك الكثيـر لنقوله، ولكن لم يبـدُ علينا أننا نعرف من أين نبـدأ. وبعد بضعة أيام، بينما نحن الخمسـة نتحدث بعضنا إلى بعض، شـعرت بالخـزي يغمرني لـكل ما قـد عانيناه جميعاً وبالشـفقة للحياة التي عاشـتها الوالـدة. وقضينا تقريباً كل لحظـة من اليوم ونحن ملوثون بالأوسـاخ والقذارة ونحـن نخلي منـزل الوالـدة المخرب من الأثـاث. وقبل جنـازة الوالـدة بوقت قصيـر، وبينما نحـن ننظف غرفة نومها، صـادف أحدنا صـورة زفاف الوالـدة. وقد رأيت تلـك الصورة مـرات لا حصـر لها ولا عـدّ، ولكـن للمـرة الأولى أدركـت كم بدت مذهلة. فقد بدا وجه الوالدة حريرياً وشـعرها لامعـاً، ولكن ما فاجأني

هـو عيناها. فقـد بدا عليهما أنهما تشـعان بالسـعادة الصافيـة. ومنحني تعبير وجه الوالدة الشـعور بأنها كانت على وشـك أن تبـدأ حياة رائعة مليئة بالسـعادة. وبينما أخذ الإطار يرتجـف في يدي، بحت بمكنونات صدري وسامحتها. سامحت الوالدة. وطوال السنوات القليلة الماضية، وبعد أن زرت الوالدة في صيف العام 1987، ترددت في كيفية شعوري نحوهـا. وعندما جلسـت أمـام الوالـدة قبل بضعة أسـابيع مـن وفاتها، أوشـكت أن أصرح لها بغفراني. ولكن لأنني كشفت عن خبايا ماضيّ لمـرات عديدة وطوال سـنوات طويلة فقط لكي أرضـي الآخرين على أمل أن أحظى بقبولهم لي، ترددت في ذلك. ثم احتقرتها جزئياً بسبب سـتيفن. ولكن، بينما ازددت انهماكاً مع أولئك الذين يجهدون أنفسهم لنسـيان ماضيهم، شـعرت أنه يتوجب علي أن أحرر نفسـي من مشاعر الحقد.

في يوم شـتوي غائم، حضر حفنـة من الناس فقط جنـازة الوالدة لكي يقدمـوا تعازيهم. وتـلا التأبين رجـل محترم عرفت، فـي ما بعد، أنه قابـل الوالدة عدة مـرات ويعمل كمحتـرف بدوام جزئـي في لعب الغولـف. وعندما اقتربت من قبـر الوالدة، وركام مـن الثلج يحيط بي، ركعت وتلوت الدعاء. وضممت يدي بعضهما إلى بعض وأنا أرتجف من البـرد القـارس، وقلـت: «لترحـل روحك أخيـراً في سـلام أبدي. وليحمك الله ويحررك من الشر... آمين».

وعندما أنهيت دعائي، اسـتطعت أن أشـعر بحمـل ثقيل يرفع عن روحي.

وقبـل أن ألحق برحلتـي الجوية المغـادرة، وعدنا نحن الخمسـة بعضنا بعضـاً أن نبقى على اتصال، لكن تلك كانـت آخر مرة يلتمّ فيها شمل الإخوة بيلزر على الإطلاق.

الفصل الثالث عشر

الرقصة الأخيرة

لم أتطلع للعودة إلى نبراسكا. وقد اكتشفت مرة أخرى أن **باتسي** قد اقترضت مالاً. وهذه المرة، كادت تتوسل إلى الجدة قبل عام تقريباً لتقرضها المال في أثناء وجودي في **السعودية**. ولم أكن لأعرف قط لو أنني لم أطلب من الجدة قرضاً لأمنحه لأخي الأصغر، **كيفن**، الذي أصبح في أوائل العقد الثاني من عمره ويحتاج إلى المال لكي يعثر على منزله الخاص ليعيش فيه. وقد أصرت الجدة في البداية على أنني قد اقترضت المال منها. وعندما أكدت لها أنني لا أعرف شيئاً عن القرض، استشاطت غضباً أكثر لأنه كان ينبغي عليَّ أن أعرف.

أخذت **باتسي** تتململ في كرسيها طوال الوقت وهي تدعي براءتها حتى انهارت باكية وقالت إنها نسيت أن تخبرني وشعرت بالإحراج لذكر الموضوع أمام الجدة. وحاولت أن أدافع عن زوجتي، فرفعت الجدة رأسها ببساطة وتعبير وجهها يقول لي: «لقد قلت لك هذا» كأنها كانت تستمتع بإشعال النار بيني وبين **باتسي**. وفي ذلك الوقت، شعرت أنني شخص حقير لأنني أنا وإخوتي الآخرين لم نستطع أن نساعد **كيفن** الذي أصبح قادراً أخيراً على أن يعيل نفسه.

في القاعدة الجوية الجديدة، ومع أنني قد عينت هناك لثمانية أشهر، فما زلت أحاول أن أتأقلم مع المكان. وكان عملي الجديد مختلفاً تماماً وسخيفاً بالمقارنة مع قاعدة **بيل**. فقد أصبحت الآن جزءاً من برنامج طائرة **لوكينغ غلاس إيه سي** 135 التي كانت مهمتها تقضي

بـأن تخدم كمركز عسـكري جوي بديل في حال نشـوب حرب نووية. ولكـن حتى على الرغم من وجود عاتق مـزود بالوقود ملحق بالطائرة، فإن طائرة **إيه سي** 135 كانت نادراً ما تـزود الطائرات الأخرى بالوقود فـي الجو. ومـا عقـد المسـائل أكثـر، أن طائـرة **لوكينغ غـلاس** كانت مسحوبة من الخدمة، لكنها ظلت مستمرة بالطيران بشكل غير رسمي.

خلال إجراءات دخولي إلى الوظيفـة، تعلمت أن مهمتي الكبرى كعامل عاتق الطائرة لم تكن أن أتعلم تزويد طائرة مختلفة بالوقود، بل أن أتأكد من حصول أفراد الطاقم العشرين على وجبات غدائهم.

فـي رحلة تأهيلـي الجوية الأولى، اكتشـفت مـدى جدية وظيفتي عندما قام عامل لاسـلكي من مرتبة متدنية بتوبيخي أمام الطاقم بأكمله لأن غداءه لم يكن يحوي علبة خردل. وعندما هبطنا، تعرضت للتأنيب على يد رئيسـي الذي نظر إلي بتهكم سـافر. وفي غضون أيام، بسـبب خطئي، أمر جميع عمـال عاتق الطائرة بأن يتفقـدوا مكوِّنات الوجبات كلّها قبل الإقلاع.

وفـي البيـت، بعـد أن اسـتقررنا في شـقة جميلـة لا نسـتطيع أن نتحمل نفقتها، سرعان ما نال الضجر من **باتسي**. ولأننا كنا نعيش بعيداً عـن القاعدة، فقد شـعرت أنها منعزلة أكثر. وعندمـا عرفت بأمر نقلي، دعـوت أن يجبرنـا الانتقـال على الاعتمـاد علـى نفسـينا كزوجين من دون تدخـلات العائلة إلى الأبد. وخلال مسـافة الطريق إلى **نبراسـكا**، ثرثرت أنا و**باتسـي** حول حصولها على شـهادة المدرسة الثانوية الحرة ثم التحاقها بصف في الكلية. وقد بدت متفائلة جداً. ولكن في غضون أسابيع، تذمرت **باتسي** لأنها كانت تفتقد عائلتها في **كاليفورنيا**.

وقد اعتقـدت مع فتـرات الطيـران المخفضة، بسـبب تخفيضات الميزانيـة، أننـي سـأصبح قادراً علـى أن أقضـي المزيد مـن الوقت مع عائلتـي وأنهـي دراسـتي الجامعيـة وأتطـوع فـي البرامج من فتـرة إلى

أخرى. ولكن بسبب جدول الطيران الدائم التغير، لم يعد بوسعي أن أحضر في الكلية أو أن أتطوع كما تعوَّدت أن أفعل في **كاليفورنيا**. وكنت نادراً ما أرى **باتسي** أو **ستيفن**. وما زاد في الطين بلة، أنني عندما تلقيت ترقيتي لأصبح رقيباً تقنياً، عينت في وظيفة مقيِّم جناح الطائرة في أثناء الرحلة، الأمر الذي أجبرني على العمل لساعات أطول. وفي بعض الأوقات، كنت أتواجد في البيت لوقت يكفيني فقط لأرمي الكرة عدة مرات مع **ستيفن** ثم أحممه قبل أن أقرأ له في السرير. وفي بعض الأحيان، كان التعب ينال مني بحيث أغط في النوم مع **ستيفن** على سريره. وبمرور الأشهر، بدأت أشعر أن عملي عديم القيمة تماماً وأنني أحتقر نفسي كوالد وكزوج.

في ربيع العام 1992، بدأت إشاعات قوية تنتشر عن تخفيض كبير في عدد الجنود. واستشعرت حدوث ذلك. ولأن طائرة **لوكينغ غلاس** لم تعد طائرة جاهزة لتنفيذ المهمات ولأنه لم يعد يسمح لعمال عاتق الطائرة أن يؤدوا مهماتهم، فقد اعتقدت أنني من بين الأوائل الذين سيسرحون من الخدمة. ولطالما تخيلت نفسي أخدم عشرين سنة حتى أتقاعد، لكن هذا لم يعد الآن خياراً متاحاً. وقد قدم سلاح الطيران أيضاً علاوات تقاعدية ولكن لفترة محدودة فقط وبعد فترة انقطاع معينة. وادعى سلاح الطيران أنه يستطيع قانونياً أن يسرح أي شخص من الخدمة ما دام يعتقد أن الضرورة تقضي بذلك. وبسبب عدد السنوات التي قضيتها في الخدمة ومستوى راتبي، أيقنت أنني أحد أكبر المرشحين للتسريح.

بعد أشهر من التفكير، أجريت محادثة صريحة مع **باتسي**. وحاولت عن عمد أن أبقيها جاهلة بالموضوع كي لا أزعجها. وبادرت بالحديث قائلاً: «سوف يتوجب علينا أن نتخذ قراراً. إن سلاح الطيران سوف يعلن...».

فتدخلت باتسي قائلة: «دعك من هذا! إن عملك سيئ. وأنت لست سعيداً. وأنا بائسة وأكره هذا المكان، وليس هناك شيء أفعله. وستيفن بحاجة... إلى أن يكون مع عائلته. دعنا نأخذ المال أو العلاوة أو أي شيء ونعود إلى البيت قبل أن يطردك سلاح الطيران ولا يتبقى لدينا شيء».

صعقني انفجار باتسي. فقلت: «حسناً. منذ متى... أعني، متى علمت بذلك؟»

فرفعت باتسي حاجبيها، وقالت: «إنني أعرف أكثر مما تعتقد».

«حسناً، انتظري. فهناك المزيد. وإذا ما فعلنا ذلك، فيجب عليك أن تعلمي وتدركي تماماً، ما يعنيه هذا. إنها دفعة واحدة فقط. ولن تكون هناك تغطية للنفقات الطبية...».

فسألت باتسي: «كم هو المبلغ؟»

فقلت لها: «حسناً، إذا لم تكن لدينا أيّ فواتير غير متوقعة، فينبغي لنا أن ندخر بعض المال من أجل كلية ستيفن. والبقية سندخرها من أجل تسديد الدفعة الأولى لمنزل جديد. ولكن». وحذرتها قائلاً: «إن بقيت أنا وحدي من يعمل...».

فقالت باتسي مدافعة عن نفسها: «لقد قلت لك إنني أعاني ألماً في الظهر».

فتجاهلت ما قالته، وقلت: «إنني لا أقول هذا. ولكن أصغي إلي، يجب عليَّ أن أحظى على الأقل بعمل بدوام كامل مع الكثير من الأوقات الإضافية، إن لم أكن سأحظى بعملين».

فسألت باتسي وكأنها تشعر بالإهانة: «إذاً، ألا يقولون إنهم سيدفعون لك الكثير من المال؟»

«من وجهة نظري أرى أنه لا يتوجب على سلاح الطيران أن يدفع لنا شيئاً».

«ماذا ستفعل إذاً؟»

«لقد فكرت في هذا ملياً. ولا أستطيع أن أعمل في إصلاحية الأحداث بدوام كامل لأنني بحاجة إلى شهادة جامعية. وهم لا يبحثون عن الطيارين. وإن حالفني الحظ، أستطيع أن أعمل بثلاث وظائف بدوام جزئي. فالوظائف الآن نادرة بسبب الركود الاقتصادي وما إلى هنالك، ولكن... هناك خيار آخر...».

وقضيت بقية الوقت وأنا أطلع باتسي على منظمة المتحدثين المحلية، فقلت: «لقد رأوني أتحدث عدة مرات. ويعتقد المالكان، ريتش وكارل، أنني أملك مواصفات تجعلني متحدثاً. وهو ليس مكتباً بل أشبه بأن أحظى بعملي الخاص. وستزودني الشركة بالطاقم المساعد. ويمكنني أن أعمل خارج كاليفورنيا. وأنت تعرفينني، فسوف أعمل بكل جهدي. وفي غضون بضعة أعوام، إذا حالفنا الحظ، فربما يمكننا أن نحظى بمنزل ونعيش عند ضفة النهر. فكري في هذا، يا باتسي». ومددت يدي لأمسك بيدها. وقلت: «سنتمتع بمزايا الأمرين معاً. وإن فعلنا ذلك، فلن أطرد من عملي. وسأتمكن من أن أساعد الأطفال والناس الذين يعملون مع الأطفال والشركات والأعمال. وأعلم أنني لن أصبح أبداً واحداً من أولئك المتحدثين المحفزين الذين ترينهم على التلفزيون ولا أريد أن أكون كذلك. ولا أستطيع أن أشرح لك هذا، لكنني أعتقد من أعماق قلبي أنني أملك رسالة يمكنها فعلاً أن تساعد الكثير من الناس. وقد لا نصبح ثريين، ولكن من يأبه لذلك؟ فكري في التأثير الذي يمكننا أن نحدثه». وابتسمت ثم قلت: «لقد قالوا إنهم سينشرون الكتاب».

«ذلك الشيء الذي كنت تعمل لأجله لوقت طويل؟ لماذا هو مهم بالنسبة إليك إلى هذا الحد؟»

قلت لها: «إن ذلك الكتاب سوف يغير حياة الناس بالتأكيد».

فضلاً عن ذلك فقد عاهدت نفسي قبل وقت طويل.

تابعت قائلاً: «أصغي إلي. أعلم أنني أفاجئك بالكثير. وما زال أمامنا بعض الوقت. ولا أريد أن أجازف بفعل أي شيء قبل أن نفكر فيه ملياً. وهذه هي الخطوة الوحيدة الأولى من بين الكثير من الخطوات التي يجب علينا أن نتخذها. وفي كلتا الحالتين، لن يحدث هذا بين ليلة وضحاها. فأنا أحب سلاح الطيران، وقد كان أشبه بعائلة بالنسبة إليَّ... لكنني أعتقد أن الوقت قد حان لأغادره.

«أعدك بهذا. وإن توجب علي أن أعمل في عشر وظائف لكي أدفع الأجرة وأؤمن الطعام، فسأفعل ذلك. ولن أعرضك أنت وستيفن للخطر أبداً. هذا وعد».

وبعد أن استوعبت ما قلته كلّه، سألتني **باتسي** قائلة: «كم هو المبلغ؟ ومن مجمل الأمور التي تتحدث عنها، كم سنجني من المال؟»

فقلت لها بتردد: «حسناً. إن الأمر أشبه بالعمل في تكليف. فكلما زادت البرامج التي أعمل بها، جنيت مالاً أكثر. لكن هناك نفقات: فسوف أتنقل على طريق السفر كثيراً... ولكن، كما قلت لك، ينبغي لنا بعد بضعة أعوام أن نجني رزقاً طيباً. وعليَّ الآن أن أقوم بعمل جيد، وهذا كل ما في الأمر».

سألتني **باتسي** قائلة: «شيء واحد أريد أن أعرفه. ما اسم الكتاب؟»

«**الطفل المدعو الشيء**».

«هذا عنوان مثير للكآبة. إنه عنك، أليس كذلك؟»

وحاولت أن أخفي الحقيقة عنها، فهززت كتفي قائلاً: «لنقل فحسب إنها قصة عن طفل لا يستسلم أبداً». ثم نظرت إلى **باتسي**، واستطعت أن ألاحظ أنني قد فقدت اهتمامها. فتوقفت قليلاً قبل

أن أكـرر مـا قلتـه: «ليس علينـا أن نقـرر الآن، لكننـي أريـدك فقط أن تعلمي...».

فابتسمت **باتسي** ابتسـامة عريضة وقالت: «افعل ذلك! إنني أقول لـك أن تتركهم! خذ المـال ولا تنظر إلى الوراء. وسـوف نكون بخير. وأنا أعلم أنك ستعتني بنا. لنقم بذلك. هيا!»

فـي شـهر آب من ذلـك العـام، تلقيـت إعفاء مشـرفاً من سـلاح الطيـران. ومع أنني كنـت أتوق للعيش عند نهر **رشـان**، فقـد عدنا إلى المنطقـة التـي قابلـت فيها **باتسـي** لأوّل مـرّة، خـارج **ماريزفيـل**، لكي تتمكـن من أن تبقى علـى مقربة من عائلتها. وألحقنا **سـتيفن** بمدرسـة رائعة وبدأنا حياتنا من جديد.

في خريـف العـام 1992، وبينمـا كنت أقوم بسلسـلة مـن البحث عن الحقائق من أجل كتاب **الطفل المدعو الشـيء**، اتصلت بمدرسـتي الابتدائيـة واكتشـفت أن أحد المدرسـين الذيـن بلغوا السـلطات عني، واسمه السيد **زيغلر**، كان لا يزال يعمل بالتدريس. فطلب مني أن أزور المدرسـة. وكانت هناك نبرة غريبة في صوت المدرس كأن هناك شيئاً ما أراد أن يقوله لي.

كانت العودة إلى مدرسـتي السـابقة من الأمـور التي توجب عليَّ أن أواجهها وكانت أشـد وطأة من دخول منـزل الوالدة. وفي منتصف شـهر تشـرين الأول، في صباح جميل منعـش، دخلت باحة المدرسـة كأننـي أعـود لزيـارة أرض مقدسـة. وكان الشـيء الوحيد الـذي ميزته هو رائحـة الطعام الصـادرة مـن الكافيتيريا حيث تعوَّدت قبل سـنوات أن أتسـلل وأجري وفي حوزتي حفنة من النقانـق لأتناولها وأنا جالس خلف سلة القمامة.

قابلـت السـيد **زيغلر** بينمـا كان يرافق طـلاب صفه إلـى المكتبة، حيث ألقيت محاضرات عدة. ولأن كلانا شـعر بالارتباك، فقد صافحنا

بعضنـا بعضاً بخفة وتبادلنا تحية سـريعة. وكلما نظرت بشـكل خاطف إلى السـيد زيغلر، وأنا أتحـدث إلى طلبة الصف، بـدا عليه أنه يتجنب النظر إليَّ إما بالنظر إلى الأسفل وإما بالإشاحة بوجهه عنّي بعيداً.

في نهاية اليوم، بينما أسـرع مئات الأطفال خارجين من المدرسة ليلعبوا أو ليعودوا إلى البيت، سـألني صبي صغير يرتدي سـترة مهترئة كبيرة القياس ما إذا كان بوسعه أن يتحدث إلي. وعلى الرغم من حرارة شـمس فترة العصر، فإنني لاحظت أنه كان يشـد أطراف أكمام سـترته بعصبية. وبعد أن هدأت من روع الصبي وطمأنته أن كل شـيء على ما يرام، انحنيت وأمسـكت بيده. وفجأة انفجر الصبي باكياً وأخذ يخبرني أن عمـه كان يضربـه ويحـرق ذراعيه بالسـجائر المشـتعلة. وبينما أخذ صـدره الصغير يعلو ويهبط، تنشـق قائلاً: «إنني آسـف، يا سـيد بيلزر، إننـي لا أقصد أن آخذ مـن وقتك. وأنـا لا أريد أن أعـرض أحداً لأيّ مشـكلة. أرجوك». وأخذ يتوسـل إليَّ قائلاً: «لا ينبغـي أن تخبر أحداً، أرجوك».

شـعرت كأنني عدت بالزمن إلى الوراء. فقـد قابلت الطفل الذي كنته في ما مضى. فقلت للصبي وأنا لا أزال ممسـكاً بيده: «أصغ إلي. أتتذكر ما قلته بشـأن ما حدث لي وأنا طفل؟» فأومأ الطفل برأسه وهو يكفكف دموعـه. ثم قلت: «هذا هو اتفاقنا. يجـب علينا أن ننال بعض المسـاعدة من أجلـك. ونحـن لا نريد أن نعـرض أحداً لأيّ مشـكلة، لكن هذه ليست طريقة سليمة للحياة. هل أنا على حق؟» فأومأ الصبي مجدداً. ففكرت في الموظفة الاجتماعية، السـيدة غولـد، وما قالته لي عندما بحت لها بسـرّي. فقلت: «أصغ إلي، إنك ستكون على ما يرام. لكن الأمر يتطلب شاباً شـجاعاً مثلك لكي يفصح عن سره كما فعلت أنـت، وهذه هي الخطوة الأولى في تحسـين الأمـور. فيجب عليك أن تكون قوياً، ولكن يجب عليك أن تثق بي. إنني أعدك». ورسمت علامة

ضرب على صدري، ثم قلت: «أعدك وعد شرف. فأنت لا تستحق أن تعيش هكذا، وسوف نجعل هذا الوضع مختلفاً من أجلك».

رافقت الصبي إلى الغرفة نفسها التي انتظرت فيها عندما تم إنقاذي قبل عشرين عاماً تقريباً. وبعد أن تحدثت إلى مدير المدرسة، السيد ريزو، ودعت الصبي الصغير وأنا أطمئنه مجدداً أنه قد قام بما هو صواب. ثم خرجت متعثراً إلى موقف السيارات وأنا مذهول. وبينما كنت أتأمل مجموعة من الأطفال في باحة اللعب وهم يصرخون ضاحكين، وهو المكان نفسه الذي تشوقت من أعماقي في ما مضى لأن أكون فيه، بدأت أصاب بفرط التهوئة. ولم أستطع أن أمنع نفسي. وفي النهاية، انحنيت واضعاً يديّ على ركبتيّ ثم تعافيت قبل أن تمر مجموعة من الأطفال بجانبي للتوّ. واستغرقت دقيقة لأتلو الدعاء للصبي الصغير، ثم شكرت الله لتغيير مجرى أحداث القدر ومنحي امتياز العودة إلى المدرسة التي كانت تعني لي الكثير وكيف أنني قد أديت دوراً صغيراً في مد يد العون لصبي يحتاج إلى المساعدة.

أفزعني صوت مدرس الصف الخامس من خلفي وهو يقول: «لقد سمعت لتوّي بما فعلته. وسوف يكون الصبي على ما يرام. إنك بالتأكيد تملك موهبة خاصة بالتعامل معهم، أقصد الأطفال». ورفع السيد زيغلر يده. وقال: «أصغ إلي، أعلم أن أمامك طريق طويل لتقود السيارة فيه، ولكن إذا كان لديك بعض وقت الفراغ...؟» وبدأت غصة تتشكل في حلقي. وكل ما استطعت أن أفعله هو أنني أومأت برأسي موافقاً.

مساء ذلك اليوم، خلال عشاء في مطعم محلي، حاولنا كلانا جاهدين أن نبقي مجرى الحديث مستمراً، ولاحظت أننا لم نكن ننظر بعضنا إلى بعض إلا قليلاً. فقد شعرت ببساطة بالخزي الشديد. وعبر الطاولة، أشاح السيد زيغلر بوجهه عندما رفعت نظري عن الطعام

وتكلمت. وتنحنح السيد زيغلر بعد أن أنهى عشاءه وقال: «إنه لأمر جيد فعلاً أن أراك... وقد فكرت في هذا لبعض الوقت، ويجب عليَّ أن أخرجه من صدري. ولست واثقاً ما إذا كنت حتى تعرف به، ولكن... في ذلك اليوم عندما أتيت إلى صفي، ذلك اليوم في آذار عندما تم إبعادك عن البيت...».

شلت حركتي فجأة من شدة الخوف. ولم أكن قد عرفت قط لماذا تدخل مدرسيّ واستدعوا الشرطة. وأصبحت متوتراً جداً بحيث إنني اعتقدت أن عيني كانتا ستنفجران. ووضعت يدي اليسرى تحت الطاولة وضغطت على ساقي. وكدت أرفع يدي لكي أمنع السيد زيغلر من الاستمرار في الحديث. ووصلت إلى حد أنني بدأت أمرر أصابعي في شعري.

«لقد... أتيت إلى المدرسة في ذلك اليوم... وكنت صغيراً جداً. ولكن، آه، يجب عليَّ أن أبوح بهذا، لقد أتيت إلى المدرسة في ذلك اليوم من آذار وليس... ليس هناك جلد على ذراعيك». وأنهى السيد زيغلر كلامه ثم ابتلع جرعة من شرابه.

أسقطت الشوكة من يدي. وأخذت نفساً عميقاً وأنا أحدق بذراعي اليمنى. وقلت: «إنني، آه، أتذكر. إنني أتذكر...». وشعرت تقريباً كأنني في حالة ذهول. ثم قلت: «نعم، أتذكر وجود قشور رمادية داكنة كالبقع على ذراعي... وأصابعي... صحيح؟»

بدا السيد زيغلر نفسه كأنه قد رأى شبحاً. فقال: «نعم».

«لقد نسيت، أعني أنني لم أعرف السبب قط. إن هذا غباء، لكنني لم أفكر قط أنها قد تفعل شيئاً مختلفاً... أعني، في بعض الأوقات، لقد كانت الوالدة حذرة جداً...». وأخذت أتلعثم وأنا أحاول أن أكتشف ذلك الشيء الوحيد الذي اقترفته الوالدة في حقي بحيث... فهززت رأسي وقلت: «تباً! المعذرة. هذا هو ما حدث في صباح اليوم الذي

اتصلتم به جميعاً بالشرطة. لقد تذكرت!» وامتلأت عيناي بالدموع. ثم كررت قائلاً: «لقد تذكرت. لقد كانت أصابعي وذراعاي... تحكني. ولم أستطع الامتناع عن خدشها... و... لم أكن قد أنهيت أعمالي المنزلية في الوقت المحدد. وفي صباح الجمعة ذلك عندما اتصلتم بالشرطة... توجب على الوالدة أن توصلني إلى المدرسة لذلك اليوم. وهي لم تفعل ذلك من قبل قط، لكنني... كنت متأخراً جداً، متأخراً جداً بأعمالي. ومن دون جلد... لم أستطع أن أمسك شيئاً... ولم أستطع أن أنجزها في الوقت المحدد...».

أطلقت نفساً عميقاً طويلاً. واستطعت أن أشعر بأطراف أصابعي تنتفض. وقلت: «لكن ذلك حدث... عصر ذلك اليوم، قبل يوم الجمعة. فقد جعلتني أضع ذراعي في دلو يحوي... مزيجاً من... ماء النشادر والكلوركس. وهذا هو ما حدث. وهذا هو ما تسبب بذلك». وأغمضت عيني وارتجفت من البرودة التي سرت في أوصالي. وعندما فتحت عيني، استطعت أن أشعر بدمعة تسيل على خدي. واعتذرت لمعلمي قائلاً: «إنني آسف. فلطالما توجب عليَّ أن أتوقع ما كان سيحدث، أعني أن أنجو، وأن أتفوق عليها بالذكاء. وأتذكر أن الوالدة حاولت، كما أعتقد، أن تقحم رأسي في الدلو، وهكذا، ويا لغبائي، كل ما استطعت أن أقوم به هو... أنني فكرت... في الحصول على أكبر قدر من الهواء في حال... وضعت رأسي في الدلو». وتوقفت للحظة. ثم قلت: «لقد نسيت الأمر برمّته. يا إلهي، إنني أتذكر كل شيء فعلته، وكل كلمة قالتها، لكنني لا أعرف. فأنا لم أكن أعرف قط ما الذي جعلكم جميعاً تتصلون بالشرطة صباح ذلك اليوم. لقد حدثت أمور كثيرة معي في يوم واحد...». ونظرت إلى الأسفل نحو يدي المرتجفتين، وقلت: «أعرف أن هذا يبدو تافهاً، لكنكم... جميعاً أنقذتم حياتي».

قال السيد **زيغلر** مقللاً من أهمية الموقف: «كل ما فعلناه هو... في أيّ حال، لقد كان بإمكان الجميع أن يلاحظوا أفعالها. وفي ذلك الوقت من الماضي، لم يكن هناك شيء يمكننا أن نفعله أو يسمح لنا أن نفعله. وفي ذلك الوقت من الماضي، كان ذلك يعتبر تأديباً بحيث لا مجال لتدخّل الدين أو القانون في معظم الحالات، ولكن توجب علينا أن نفعل شيئاً ما. واستطاع كل واحد منا أن يلاحظ ما يجري. إنه أمر لا يسع المرء أن ينساه أبداً».

في ما بعد، ونحن في موقف السيارات، عانقنا بعضنا بعضاً مودعين. وقلت له: «شكراً، يا سيد **زيغلر**».

ابتسم وقال: «ناديني **ستيفن**».

فقلت: «شكراً، لكنني لا أستطيع ذلك. إنك تعني لي الكثير. فأنت معلمي».

بعد أشهر، وفي أسبوع الذكرى العشرين لإنقاذي، عدت لأقدم للسيد **زيغلر** النسخة الموقعة الأولى من كتاب **الطفل المدعو الشيء**. واحتفظت بالنسخة الموقعة الثانية من أجل ابني. وأعطيت الباقي للسيدة **كونستان**، معلمتي في الصف الرابع، والتي ما زالت تدرس في المدرسة، والسيدة **ودورث**، معلمة اللغة الإنكليزية، التي شجعتني، بسبب تلعثمي الشديد في الصف، على التواصل من خلال الكتابة. وعن طريق إهداء الكتاب وتقديمه لمنقذيّ، استطعت أن أحقق عهدي لنفسي بأن أشرفهم في اليوم الذي أنقذت فيه.

بعد أسابيع، تلقيت صورة لمعلميّ أخذت في يوم زيارتي. وقد حفر على الإطار: مع حبنا وإعزازنا. فهرعت كطفل في حوزته لعبة ثمينة إلى **باتسي** لأريها الصورة، لكنها لم تحفل بها. وقد بدا أن صبرها على مهنتي الجديدة قد بدأ ينفد. فحاولت أن أخبرها، لكنني لم أستطع أن أجعلها تدرك كم من الصعب عليّ أن أبدأ من جديد ولاسيما منذ

السنوات التي تعوَّدت أن أمنح فيها البرامج بالمجان للمنظمات التي لا تملك أيّ مدخرات. وبطريقة ما، جعل هذا من الصعب علي أن أكسب رزقي. ولكي أهدئ من روع **باتسي**، فقد أخبرتها أن الشركة كانت لطيفة بما فيه الكفاية بحيث إنها منحتني قروضاً مقدمة لأنني لم أحظ بالكثير من الحجوزات. وقد عملت بدوام جزئي في إصلاحية الأحداث لكي أدفع الأجرة وأسدد الفواتير حين لم أكن على طريق السفر. كما أنني حصلت على وظيفة أخرى بصقل أبواب خزائن المطابخ بورق الصنفرة. وبدا أنني مهما حاولت جاهداً أن أقنع **باتسي**، فقد كانت لسبب ما تعتقد أنني سأنجح بين ليلة وضحاها.

أيقنت أن هناك خطباً ما في مكتب **لنكولن**. وبحلول ذلك الوقت، كان ينبغي أن أتلقى المزيد من الحجوزات. لكنني خشيت أن أقول شيئاً للمالكين، **كارل وريتش**، ولا سيما أنهما كانا يساعدانني على إعالة عائلتي. وكرهت نفسي للموقف الذي كنت فيه. وللمرة الأولى في حياتي، تلقيت المال من دون أن أجنيه بجهدي أولاً. ومنذ كنت تحت وصاية والديّ بالرعاية، تعوَّدت دائماً أن أؤدي حصتي من العمل. وكنت في معظم الوقت قد احتفظت بمخاوفي لنفسي. وشعرت أنني شديد الارتياب. واعتقدت أنني إذا عملت بجد بما يكفي، مع القليل من حسن الحظ، فإن جهودي كانت ستكلل بالنجاح يوماً ما.

وجلّ ما أقلقني هو **ستيفن**. ففي بعض الأوقات، تعوَّدت أن أهرع إلى البيت بعد الطيران أو القيادة في الليل أو العمل في إصلاحية الأحداث أو بعد العمل بمناوبة كاملة في محل الخزائن، لأحيي **باتسي** وأستحم بسرعة ثم أسرع لأصطحب **ستيفن** لحضور آخر فيلم من أفلام ديزني أو لنقضي فترة العصر ونحن نلعب البيسبول في المتنزه. وكلما كان **ستيفن** يعود من المدرسة، كنت أؤجل عملي لكي أتمكن

مـن أن أتواجد برفقتـه. وبعد ذلك، وبعـد أن أضعه في السـرير، كنت أعـود لأكمـل مهماتي. ومـع أنـني حاولت جاهـداً أن أعتنـي بعائلتي، فإنني لم أرد أن أفقد ابني نتيجة ذلك.

* * *

أما بالنسـبة إلى باتسـي، فقد أتت القشـة التي قصمت ظهر البعير في شهر تموز من العام 1994. وبعد أن انتظرتني لكي أنجح في عملي، طفح الكيل بالنسـبة إليها. فقالت: «لقد مرت سـنتان تقريباً. ولا ينبغي أن يستغرق الأمر كل هذا الوقت. وأنت ما زلت لم تحقق أي...».

«لقد قلت لك إن الأمر سيستغرق وقتاً...».

«لقد وعدتني أنك ستسـتغرق سـنتين فقط، ولم تنجح بعد. وماذا عني؟ لقد توجب علي أن أنتظر بينما تركب الطائرة في سلاح الطيران. والآن، بعـد سـنتين، ما هـي النتيجة التـي حظيت بها من جـراء ذلك؟ إنك لا تسـتطيع حتى أن تسـدد أجور تدفئـة البيت». وقبـل أن أتمكن من الدفاع عن نفسـي، واصلت حديثها في موضوع آخر قائلة: «يا لك من ضعيف الشـخصية. إنني أعلم أنك تتعرض للخداع على يد أولئك المتحدثين في نبراسكا. فهم لا يعرفون أي شيء عما يفعلونه. وهـم لا يسـتطيعون أن يدعموك. بربك، إنهـم يسـتغلونك كالشخص الذي يمنع إسـاءة معاملة الأطفال. ومن يريد أن يسـمع عن هـذا؟ ما الذي حدث لك وأنت تقدم تلك البرامج التي تحث على المسـؤولية في السابق؟»

فهززت رأسـي مشـيراً إلى أنني لا أملك إجابة. فقالت: «أنت ذكي في أمور كثيـرة، لكنك غبي تماماً فـي أمور أخرى. إننـي لا أثق بهم. فكر في هذا. إن كنت متحدثـاً عظيماً وإن كان كتابك جيـداً جداً، أخبرني، كيف يحدث إذاً أنك لا تحظى بأيّ حجوزات مدفوعة؟»

«حسناً، لقد حصلنا على أكثر السنة الماضية...».

«أوه، كلا، لا تتحـدث عـن هـذا. وحتـى بعد أن أحـرزت جائزة

الأميركي الأبرز، لم تحصل على أي شيء».

فصححت كلامها بفخر قائلاً: «إنها جائزة الشبان الأميركيين العشرة الأبرز».

فقالت **باتسي** وهي تشيح بوجهها: «أرجو المعذرة! أياً يكن! إذا كانت جائزتك المحترمة على هذا القدر من الأهمية، فلماذا، إذن، لم تحصل على أي شيء منها؟ لقد مضت سنة ونصف منذ عملت بهذا المجال، ولا أرى أحداً يأتي ليقرع بابك. هيا، أخبرني».

لو أنني أستطيع أن أمضي عمري كله وأنا أفعل ذلك، ما كنت لأتمكن على الإطلاق من أن أفسر **لباتسي** مزيج عدم الأهمية والشرف المطلق الذي شعرت به وأنا أتسلم ذلك التقدير في ليلة الذكرى العشرين لإنقاذي. وقد قدمت جائزة الشبان الأميركيين العشرة الأبرز لأبطال طفولتي: **تشك ييغر** و**أورسون ويلز** والممثل الذي أدى دور بطلي الدائم، **سوبرمان**، وهو **كريستوفر ريف**، فضلاً عن مجموعة من الآخرين.

طقطقت **باتسي** أصابعها لتعيدني إلى الحاضر، وقالت: «مرحباً؟ ما أرمي إليه هو أنك لم تنجح بعد. وربما كنت مشهوراً عندئذٍ، لكنك لست على أي شيء من الأهمية الآن. وقد توجب على أولئك الأغبياء أن يتعاملوا معك بصورة أفضل. وكان يمكن لنا أن نصبح أثرياء!»

وصاحت **باتسي**: «بعد كل ما فعلتَه، وبعد كل تلك السنوات، أنت لا تدرك ذلك. ويمكنك أن تتصرف بكل فخر وأن تقول أي شيء تريد قوله، لكن ذلك لا يسدد أجرة المنزل. و...». وضخمت **باتسي** الأمر أكثر قائلة: «إن أردت أن تعرف شيئاً، فأنا أعتقد أنك مليء بالهراء. وقد قرأت كتابك، إن أمكنك أن تدعوه كذلك. فهم يجعلونه يبدو كأنه كراسة. ومع ذلك لم يحدث شيء من هذا القبيل. فمن المستحيل أن يتحمل أي شخص هذا كلّه. وكان ينبغي أن أعرف هذا من قبل. فكر

في ذلك. إن أنت تعرضت لهذه الإساءة كلّها، ولم تمت... لأصبحت مريضاً نفسياً ومدمناً على العقاقير غير القانونية والكحول أو أي شيء. وقد عشت في مدينتي ماريزفيل ويوبا ستي طوال حياتي. وإن كنت تدعي أنه صحيح، فأنا أعلم بالتأكيد أن سلاح الطيران لم يكن ليسمح لك بأن تلتحق به، ناهيك عن العمل في كل تلك الطائرات النفاثة، إن لم تكن قد كذبت بشأن هذا أيضاً. مستحيل!» وهزت باتسي رأسها وقالت: «مستحيل! فأنت نقي جداً وكل شيء مثالي في حياتك. ما الذي فعلته؟ أدفعت لأولئك المدرسين لكي يدعوا أنك قد تعرضت للإساءة؟ أوه، نعم، لقد حاولت أن تتكتم على ذلك، لكنني اكتشفته. والسبب الوحيد في أنك أردت أن تواري ماضيك عني هو أنه ليس صحيحاً. ولهذا السبب لا يقدمون لك أيّ حجوزات مدفوعة. ولهذا السبب ليس كتابك التافه موجوداً في أيّ، وأكرر، في أيّ مكتبة. إذاً لماذا تفعل هذا؟ أتريد أن تتحدث عن الثقة؟ هيا، تحدث بصراحة، هيا، أخبرني الحقيقة! فبعد كل الهراء الذي جعلتني أمر به، إنني أستحق أن أعرف!»

وصلت مراجل غضبي إلى حدّ الغليان. فقلت: «أتريدين أن تعرفي ماذا أفعل؟ أتريدين ذلك؟ أتريدين فعلاً أن تعرفي؟ إنني أعمل مع الأطفال وأتوسل إليهم ليصدقوا أنهم سيتمكنون من أن يغيروا وضعهم مهما حدث لهم. وفي الإصلاحية، أتحدث إلى المراهقات اللواتي يردن أن يقتلن أنفسهن لأنهن قد سئمن أزواج أمهاتهن. آه، إن هذا يصبح أفضل! ويجب علي أن أقف أمام ضباط الشرطة والموظفين الاجتماعيين الذين يقضي عملهم أن يبحثوا عن الأطفال والرضع المحبوسين في أقفاص والذين يتعرضون للضرب حتى الموت وعن المقيدين بالسلاسل إلى المراحيض وأقنعهم أن يرتدوا ستراتهم وربطات عنقهم وبلوزاتهم كل يوم ويخرجوا ليروا أشياء لا

يريد أحـد في مجتمعنـا أن يعترف بوجودهـا. وهؤلاء النـاس يعاملون معاملة الأعداء!»

«وعندما يواتيني الحظ بما يكفي لأن أتحدث في العمل المشترك، أقسـم لك إنني أدعو لئلا أتحدث بسـرعة كبيرة وأن أقول شـيئاً مسـلياً وفكاهيـاً وأمنحهم شـيئاً، شـيئاً واحداً فقـط يمكنهم أن يسـتغلوه لكي يحسنوا حياتهم. وأقول لهم إنني إن استطعت أن أبتلع ماء النشادر وأن أتعلم الكلام بعد أن تلعثمت لسنوات... وإن استطعت أن أضع ضمادة بعد أن تعرضت للطعن... وإن لم أتحول، على حد قولك، إلى مريض نفسـي، بعد الهراء كلّه الذي تعرضـت له، فما الـذي يمنعهم من ذلك بالله عليك؟ وهل تريدين أن تعرفي كل شيء عن هذا؟ إنني أدعو الله أنهـم - أولئك النـاس - لا يدركون... حقيقة شـعوري الداخلي. إنني لا أسـتطيع حتى أن أمعن النظر في عيونهم. ويعتقد بعضهم أنني أتمتع بكل ذلك، لكنني لا أشـعر أنني جدير بمـا فيه الكفاية لكي أطيل النظر في عيونهـم. على الإطلاق! أعلم أنني لسـت ذكياً، وأعلم أنني لسـت على هذا القدر من الأهمية، وأشعر أنني مزيف. وحتى الآن، بعد تلك الجوائـز كلّهـا، والطيران في سـلاح الطيـران، والحصول على رسـالة من الرئيس... أشـعر أنني مذنب جداً... وأحـاول جاهداً أن أفكر. ولا أعرف لماذا بعد تلك السنوات كلّها...».

«أعلم أنني لـن أصبح متحدثـاً محفزاً. فأنا لسـت جذابـاً وناعماً ولست مصقولاً، لكنني حقيقي. وأنا أبذل كل ذرة وكل نفس في كياني وأمنح أفضل ما لدي. ولهذا السـبب أهبط في **أوماها** و**نبراسـكا** وأقود سـيارتي مسافة عشـر سـاعات إلى **بيسـمارك** في **نورث داكوتا** وأصدم غزالاً بزجاج السيارة، وهذا لكي أتمكن من العمل طوال النهار والليل وأقـدم برامـج للأطفـال في سـجن الأحـداث وأنـا آمل طـوال الوقت ألا تنـزف أحشـائي بعد أن ابتلعت كِسـراً من الزجاج لكـي أوفر ثلاثة

وثلاثين دولاراً تعرفة الطيران! لماذا؟ لأنني أشعر بالذنب. هذا هو السبب! أتريدين أن تعرفي لماذا أفعل هذا: لماذا أعيد عيش ماضيّ أمام عيني كل يوم؟» وقلت بغضب: «إنني أعمل لكي لا يتوجب عليك القيام بذلك. إنني أنهض في الفنادق الرخيصة التي لا تحوي أيّ مياه ساخنة لأستحم فيها وأنا أدعو لكي تكون ثيابي التي غسلتها قبل ثلاث ساعات قد جفت. إنني أفعل ذلك لكي تسنح لي الفرصة لأمنح ابني حياة أفضل! وأنا أتقبل الهراء كل يوم وأدعو لكي أزرع بذرة خير، واحدة فقط، وهذا كل شيء. وأعلم أنني موضع استهزاء، لكنني منحت ذلك حياتي كلّها. وأريد فقط أن أجعل الناس يشعرون بشعور جيد حيال أنفسهم. وهذا هو كل ما في الأمر. وأعرف ما يعنيه أن تكون قيمة المرء أقل من صفر. وأريد أن يشعر كل شخص أقابله أنه مميز وأنه الشخص الوحيد الذي يملك أن يخرج للحياة ويجعلها أفضل. وأحياناً، في غمرة كل هذا الهراء، أستطيع أن أضحكهم. إنني أتمتع بموهبة، ويمكنني أن أستغلها لأحسِّن حياة الناس حتى لا يتوجب عليهم أن يعيشوا الجحيم الذي عشت فيه أنا وإخوتي». وختمت كلامي قائلاً: «حسناً... سأفعل ما عليَّ فعله».

قالت باتسي بعد أقل من لحظة: «إن هذا لا يغير الحقيقة. لقد... لقد حظيت بفرصتك. ويمكنك أن تتظاهر أنك مغرور وفخور، لكنك كاذب. ومهما قلت، فقد وعدتني قبل سنتين. وقد سئمت الانتظار. ماذا عني؟ لقد سئمت انتظار شيء أفضل ليحدث. ألا تفهم ذلك؟ إنك فاشل! ولن تنجح أبداً على الإطلاق. أنت فاشل كبير». وأشارت إليَّ بيديها لتعبر عن ذلك. ثم قالت: «لقد انتظرت ونلت كفايتي من الانتظار. وسأطرح عليك هذا السؤال: هل تحبني؟»

تلكأت قليلاً، وأنا لا أزال غاضباً، لأصفي ذهني. وبعد بضع ثوان، أومأت برأسي ببطء.

فأصرت باتسي قائلة: «كلا. أريد أن أسمعها. بعد كل الهراء الذي جعلتني أمر به، أستحق أن أسمع الكلمة». وأمرتني قائلة: «قلها!»

فشهقت قبل أن أومئ برأسي ثانية، وقلت: «إنني... إنني أحبك».

فأمالت باتسي رأسها جانباً وقالت بتهكم: «حسناً، إذاً، هل تثق بي؟»

ومن دون أن أتردد للحظة، قلت: «كلا».

بعد سنوات قضيتها في إخفاء الحقيقة وأنا أتلطف في التعامل مع أدق التفاصيل التي كانت ربما ستنفجر في وجهي في أيّ لحظة منذ عرفت باتسي، بحت لها بمكنونات صدري. وأخيراً تفوهت بالحقيقة التي لطالما أثقلت قلبي منذ عرفت باتسي. ومع أن الدهشة قد صعقتني من البوح الذي قمت به أمامها، فقد شعرت أنني ازددت نقاء.

تسمرت باتسي في مكانها. وبينما أنا أنتظرها لكي تصفعني على وجهي، استمرت بالتحديق بي. فتلعثمت قائلاً: «إنني آسف. وأنا أحبك... وسوف أحبك دائماً... إنني آسف، لكنني... لا أستطيع فقط...».

«حسناً، إن كنت لا... إنني لا أصدق ذلك! بعد كل ما تحملته معك والتضحيات التي بذلتها كلّها... لقد نلت كفايتي. فأنا لا أستطيع أن أعيش مع شخص... لقد حنثت بوعدك!» وصاحت قائلة: «سنتان! لقد قلت إن المدة هي سنتان. أتتحدث عن الثقة؟ أنا لا أثق بك أيضاً. ولن أعيش مع أي رجل لا أستطيع أن أثق به. وهذا هو الأمر».

وصاحت باتسي قائلة: «إنني أريد الطلاق!»

الفصل الرابع عشر

الإصرار

بعد ثماني سنوات من الزواج، انفصلت أنا وباتسي في أواخر شهر تموز من العام 1994. وجلسنا مع ستيفن لكي نطلعه على الخبر. وعلى الرغم من رباطة الجأش التي بدت عليه حيال هذا، فقد استبد بي القلق عليه. وفضلاً عن كل شيء، لم أرد لستيفن قط أن يعيش حياة الخسارة والمعاناة التي عشتها عندما انفصل والداي. ومنذ اليوم الذي تزوجنا فيه، كافحت بكل جهدي لكي أحمي ابني من كل مصدر محتمل من مصادر الأذى. والآن، أخفقت في أهم عنصر من عناصر دوري كوالد، وهو أن أحافظ على لمِّ شمل عائلتي.

بعد عدة محادثات خاصة أجريتها مع ستيفن، أدركت أنه كان يبدو أكثر راحة حيال الانفصال عنّي أنا. ووعدته أنه مهما حدث بيني وبين أمه، فإن إخلاصنا له لن يتغير أبداً.

تطلب الأمر مني زواجاً منهاراً وثلاثين سنة تقريباً لكي أحقق حلمي بالعيش عند نهر رشان. وعلى الرغم من أن باتسي قد ألمحت أن وضعنا الحالي كان ربما مؤقتاً، فإنني لم أستطع أن أحمل نفسي على إخبارها أنه حال انتقالي من البيت، لن تعود هناك فرصة للعودة بالنسبة إلي.

ولأنني كنت على طريق السفر ومنشغلاً بالعمل في أثناء الوقت الذي قررت أنا وهي مصيرنا، فإنها فاجأتني بأن استغلت الوقت لتعثر لي على شقة بغرفة واحدة قرب نهر رشان. وفي اليوم الذي

انتقلت فيه إلى غويرنفيل، أوصلتني باتسي بكل لباقة بالشاحنة طوال مسافة الثمانمئة ميل إلى بيتي الجديد. وفي وقت متأخر من اليوم، عانقنا بعضنا مودعين وكفكفنا دموعنا. واعتقدت أننا قد شعرنا نحن الاثنين أن الإحباط والقلق اللذين تراكما على مدى السنوات قد بدأا يتلاشيان.

وبسبب صغر حجم المنزل ووجود أثاث يتألف من مكتب ورف كتب وطاولة، فقد استغرقت أقل من يومين لكي أرتب منزلي الجديد. وسرعان ما أتى ستيفن لكي يمكث عندي لأسبوعين. ولم نعد نفترق بعضنا عن بعض. وأصبحنا نقضي وقتنا ونحن نجمع الخشب ونصطاد في النهر ونلعب في وسط الشارع الهادئ أو كنت في أثناء الليل أحمله في حضني ونحن نتأمل النجوم بعد أن نشوي النقانق. وعندما أتت باتسي لتأخذ ستيفن، انفجرت حقيقة انفصالنا كالقنبلة في وجهي. وبينما ابتعدت باتسي وستيفن، تألمت وتمنيت أن أهرع إلى آخر الشارع وأنتزع ستيفن إلى ذراعي، وأتوسل إلى باتسي أنه يمكن لنا أن نحل كل مشكلة نشأت بيننا. لكنني لم أستطع أن أحرك عضلة واحدة في جسمي لأطاردهما، ولم أكن لأفعل ذلك. وكل ما فعلته هو أنني حاولت أن أرهف السمع لألتقط أخف صوت صادر من سيارة باتسي بعد أن تلاشت عن الأنظار لوقت طويل.

وقفت في وسط الشارع لوقت بدا كساعات. وبعد أن بدأت أرتجف من البرد، عدت إلى البيت، وأغلقت الباب خلفي، وبكيت لأيام. ولمدة أسبوع تقريباً، عشت في عزلة تامة عن العالم الخارجي. وكانت أيامي تتألف من الاستيقاظ في الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً، لكي أتمكن من أن أطوف في كل مكان من محيطي. وكل يوم، وبعد أكثر من تسع ساعات في تنظيف المنزل، كنت أنزع وأغسل وأعيد ملأ رفوف الثلاجة الفارغة تقريباً، ثم أركع على ركبتي وأفرك

الأرضيـة حتى يكاد الطـلاء ينـزع عنهـا. وقد اعتقدت أنـه إذا كان كل شـيء حولي خالياً من العيوب بشـكل مثالي فإن حياتي سـتصبح نوعاً مـا منظمة أيضاً. ولم أكـن لأنتهي حتى وقت متأخر من المسـاء وفقط بعـد أن أفرك الهاتـف، ثم أنهار على الكرسـي وجسـدي مبلل بالعرق والهاتف المعقم مثبت في يدي وكأن باتسـي ستقبل بعودتي إلى البيت إذا أنا اتصلـت بها. فطلبت رقمها عدة مرات، لكننـي تعوَّدت دائماً أن أغلق الخط قبل أن يرن الهاتف.

وإن ساورني شعور جيد حيال نفسي وشعرت أنني أستحق ذلك، فتحت البـاب في وقت متأخر مـن الليل بعد حمـام طويل لأقف على العتبـة لبضـع دقائق وأتأمـل مجموعة النجـوم التي عثرت أنا وسـتيفن عليهـا. فأحياناً بينما أنا أصغي إلى حفيف الأشـجار وهي تترنح، كنت أشم رائحة موقد أحد المنازل ورائحة الأشجار الحلوة قبل أن أستغرق في النـوم علـى فراشـي المبلـل. وكان ذلـك في يـوم جيد كفيـلاً بأن يجعلني أتخطى وضعي السيئ.

بعد أسبوع من الوحدة، اتصلت بمكتب لنكولن في محاولة يائسة لكي أحصل على أي عمل قادم حتى أتمكن نوعاً ما من أن أسـتمر في حياتي. وفي كل مكالمة أجريتها، كان رئيسي، جيري، يؤكد لي أنه بعد بضعة أيام فقط سـيصبح غارقاً فـي العمل. فكل ما اسـتطعت فعله هو أنني شكرته لثقته بي ودعوت لأتقدم في عملي.

ثـم تعوَّدت في فترات العصر أن أجلس وأنتظر سـتيفن ليعود من المدرسـة لكي أتمكن من أن أتصل به وأتجاذب وإياه أطراف الحديث عن يومه. وشـكرت الله أنه بدا مع كل مكالمة سـعيداً ومبتهجاً. وكما وعدتني باتسي، فقد أبقت ستيفن مشـغولاً وسمحت لي بالتحدث إليه ورؤيته في أي وقت.

كلمـا أقفلت السـماعة بعد التحـدث إليه، لم يكن يسـعني إلا أن

أشعر أنني خائن وأنني نوعاً ما قد تخليت عن ابني. وحتى مع أن منزلي كان مغطى بصور لستيفن وكانت أعداد كبيرة من أعماله الفنية من المدرسة تغطي البراد وكل بوصة من خزائن المطبخ، فإنني مع ذلك شعرت أنني قد هجرته. وأصبح شعوري بالذنب يستنزفني إلى حدّ أنني تحديت نفسي عدة مرات لأشاهد فيلماً، لكنني عوضاً من ذلك كنت أعود إلى البيت كأنني لا أسمح لنفسي بالهرب من حقيقتي المرَّة ولو لساعات قليلة فقط. واعتقدت أن متعة مشاهدة أحد الأفلام ستحرم ستيفن من حقه علي.

كانت النعمة التي خلصتني مما أنا فيه هي منتجع ريو فيلا في بلدة مونتي ريو المجاورة. ولسنوات بعد أن خرجت من الخدمة، حللت وباتسي وستيفن ضيوفاً هناك. وقد أصبحت صديقاً مقرباً للمالكين، ريك ودون. ومن زيارتي الأولى لهما، علم ريك ودون عن شغفي بالسكن بقرب نهر رشان. والآن، بدلاً من أن أبقي نفسي في منفاي الذي فرضته على نفسي، كانا لطيفين بما يكفي بحيث سمحا لي بالعمل على أراضيهما. وعندما لم يتواجد ستيفن بصحبتي، شعرت أنني قد عثرت على هدف لحياتي. فكنت، بعد إنجازي أيّ مهمة مع شركة المتحدثين، أرتدي ملابس العمل وأهرع إلى ريو فيلا لأقطع الأعشاب الضارة وأشذب الأشجار أو أقضي ساعات وأنا أسقي العشب في شمس فترة العصر المتأخرة. وقد بدأ يسري في داخلي ببطء مع مرور الصيف إحساس من القيمة والإنجاز.

لكن شعوري بالخزي لم يفارقني لحظة واحدة. ومنذ انفصالي عن باتسي، بدأت أشعر وكأنني منافق كلما تحدثت في أحد البرامج وقدمت اقتراحات عن مواجهة المشكلات والتخلص من المحن. وكان الوقت الوحيد الذي أشعر فيه بأنني صادق مع نفسي هو عندما أرسم البسمة على وجوه الجمهور. فتمكنت من خلال حس الفكاهة

من أن أنسى أمر حياتي الجديرة بالشفقة.

لكنني في أوقات الوحدة، حتى بعد التحدث مباشرة، كنت أشعر بشعوري نفسه في طفولتي. فمهما حاولت جاهداً أن أعمل ومهما بذلت مجهوداً، لم أشعر أنني جيد بما فيه الكفاية. فلم أستطع أن أجعل زواجي ينجح. وقد تخليت عن مهنتي في سلاح الطيران لكي أحاول عبثاً أن أثبت قيمتي كمتحدث حتى ينتهي أمري فحسب وأنا ضحية الإساءة بدلاً من أن أصبح شخصاً ذا رسالة تلهم الآخرين. وقد آذيت الحب الوحيد في حياتي، ألا وهو: ستيفن. ومهما يكن المستقبل المخبأ لي، فقد تمكنت فقط من أن أدعو لئلا تطارد نقائصي ابني.

وبمرور الأيام، بدا بعض الأوقات أفضل من بعضها الآخر. وفي بعض الليالي النادرة، تمكنت من أن أنام أكثر من ثلاث ساعات دفعة واحدة. وكنت قد تعوَّدت أن أقيتَ نفسي باللبن الرائب في الصباح وفنجان من الحساء الجاهز مع قطعة من الخبز الفرنسي في المساء كطعام عشاء لكي أتمكن من أن أوفر المال لوقت زيارة ستيفن. وأخذت أقلل من طعامي معظم الوقت. ومع أنني فقدت مقداراً كبيراً من الوزن، فإن نفسي ظلت تحدثني أن الأمور ستتحسن مع مرور الوقت. وفضلاً عن أوقاتي مع ابني، فإنني كنت مستعداً لأن أقضي حياتي في وحدة تامة. فقد كان آخر شيء أردته هو أن أفسد حياة شخص آخر، كما فعلت مع باتسي وستيفن.

خلال أواخر خريف ذلك العام، وأنا لا أزال على طريق السفر، اتصلت بجيري. فأحاطني علماً أن غرفة التجارة الصغرى العالمية قد اختارتني كأحد الشبان العشرة الأبرز في العالم. وقبل أن أستمتع باللحظة الراهنة، أخفض جيري صوته وهمس قائلاً إن الشركة تعاني متاعب خطيرة. ففكرت على الفور في الدفعات المقدمة التي سددتها لي الشركة وأنه كان ينبغي بحلول ذلك الوقت أن أكون قد سددت

المبلـغ بكاملـه. لكنني لبعـض الوقـت الآن، كلما تحدثـت إلى **جيري** بخصوص حسابي أو أيّ مسائل تتعلق بالتفاصيل، كان يصيبه الإحباط والاستياء الشـديد أحيانـاً. ولأنني قد خرجـت من الخدمة العسـكرية لتـوّي ولا أزال أتكيف مـع التعامل مع العالم المدني، وبسـبب وظيفة **جيـري** كنائب مدير الشـركة السـابق، فقد شـعرت أنني قـد بالغت في الإلحاح عليه. وكل ما اسـتطعت فعله هو أنني تحليت بالصبر. ولكن بعد شهور من الوعود، لم أستطع أن أحظى بأجوبة عن أسئلتي، وكلما كنت أسـأله، كنـت أشـعر بانتقاص قـدري وأتراجـع عن ذلـك. وكما فعلت مع **باتسـي** قبـل انفصالنا، لكـي أوفر على نفسـي المتاعب، فقد قمت بمجرد المضي في طريقي لكي أتجنب المواجهات مع الآخرين. وقبل أن أغلق السـماعة، كـرر **جيري** تأكيده لي ألا أقلق وأنه سيسـتمر بمساندتي.

في وقـت لاحق من ذلك اليوم، تحدثت إلى **سـتيفن** بشـأن يومه وأطلعت **باتسـي** على الخبر الجيـد. وعندما تحدثت إليهـا لاحقاً على الهاتف، ولدى مقابلتي لها شـخصياً، بدت لي امرأة جديدة. فقد كانت تعمـل في وظيفـة تحبهـا وتتحدث عـن الأمور التـي تريـد أن تحققها فـي حياتها. وقـد أصبح موقفها مفعمـاً بالثقة والاسـتقلالية. وحتى مع أنني علمت أنها تقابل شـخصاً آخر، فلم أطلعها على أي شـيء. وبعد سـنوات قضتها **باتسـي** معي، تمنيت لها السـعادة كلّها، لأنني شـعرت أنني قد تسـببت بتعاسـتها طوال تلـك السـنوات. وقبل أن أسـافر إلى **اليابان** لكي أتسـلَّمَ الجائزة، كانت **باتسـي** لطيفة بما يكفـي بحيث إنها أرسـلت لي رسـالة لتشـكرني على كل ما بذلته من أجلهـا وتؤكد فيها على سعادتها الجديدة. وهكذا، باشرت **باتسي** حياتها من جديد.

* * *

قضيـت أكثر من أسـبوع علـى الطريـق قبـل أن أصل إلـى مدينة

كوبـي، فـي **اليابـان**، لأبقى لأربع وعشـرين سـاعة فقط ثم أباشـر عدة رحلات جوية عائداً وأهبط في **نبراسكا** وأقود السيارة لعدة ساعات ثم أتحدث في إحدى المدارس. وقد أصر **جيري** على عودتي إلى **لنكولن** في عصر يوم السبت لكي يتمكن أخيراً من الإجابة عن مخاوفي وجهاً لوجه. ومع ذلك، فعندما ذهبت إلى المدرسة الثانوية، رفضت المديرة أن تسمح لي بالتحدث إلى طلابها. إذ إنني بدوت وكأنّني سيغمى عليَّ من شدة الإرهاق. وقالت المديرة أيضاً إنها تعلم بشأن عودتي الأخيرة من **اليابان**. وأرادت من **جيري** أن يطلب مني العودة إلى مدرسـتها في وقت آخر. فمزح **جيري** مع المديرة قائلاً: «لا تقلقي بشـأن **ديفيد**. فهو لـن يمانع بذلك». وكان الضغط النفسـي وتغيّـرات التوقيت وقلة النوم قـد نالت مني. فأكـدتُ للمديرة أنني لـن أخذلها، وبقيـت مع الطلاب طوال اليوم ثم قدت السيارة لأربع ساعات عائداً إلى **لنكولن**. وبعد أن غفوت خلف المقود وكدت أتعرض لحادث وأحطم السـيارة، توقفت فـي موقف للراحة لكـي آخذ قيلولة. وفـي وقت متأخر من مسـاء يوم الجمعـة دخلت الفنـدق أخيراً، ثـم انهرت على سـريري وأنـا لا أزال مرتديـاً ملابسـي. وقبـل أن أغط فـي النوم، شـعرت بإحسـاس بالفخر يغمرنـي، فعلى الرغم مـن أنني كنت متعباً، فقد منحـت أفضل ما لديَّ وأحدثـت تأثيراً كما آمـل. وفكرت في اليـوم التالي وأنا أشـعر أن كل شيء سيتحقق كما يجب.

فـي وقت مبكر من صبـاح اليوم التالـي، أيقظني **كارل**، الشـريك الأكبر في الشـركة، باتصال هاتفي يطلب مني فيـه أن آتي إلى المكتب علـى الفـور. واعتقـدت أن السـبب هـو إقامة حفلـة مفاجئـة من أجل الجائـزة التي تلقيتها لتوّي. وكان الطاقم بأكمله يعلم كم عملت جاهداً لكي أثبت قيمتي. ومنذ انفصالي عن **باتسـي**، خرجـوا عن عادتهم بأن عاملوني بتعاطف جم.

كنت أقبض على الجائزة بيدي، وكدت أوقعها عندما رأيت النظرة التي تعلو وجوه الجميع. واعتقدت أن أحدهم قد مات. وعندما جلست، بلعت ريقي بصعوبة وهم يخبرونني أن **جيري** قد اختلس مبالغ من المنظمة. ولكن عندما قدموا لي عدداً كبيراً من الأوراق والشيكات الملغاة التي حولها لنفسه، بدأ كل شيء فجأة يصبح منطقياً.

لم أرد من الجميع أن يعتقدوا أنني قد أسأت استخدام ثقتهم. لهذا، اعترفت للجماعة بالمبالغ المقدمة التي طلب مني **جيري** أن أحتفظ بها لنفسي وأنني شعرت أن **جيري** قد عزلني متعمداً عن بقية الطاقم. وعندما نظر بعضهم إلى بعض ثم إلي، أيقنت أنهم قد حكموا علي. وكان آخر شيء راودني هو أن يعتقد الجميع أنني قد خدعتهم أيضاً. وشعرت أنني حقير عندما وضعت الجائزة على الطاولة على مرأى من الجميع. فقد كان ينبغي لي أن آتي قبل أشهر عندما استشعرت حدوث المشكلة. ولكن عندما قال لي **ريتش**، المؤسس المساعد للشركة، إن المبالغ المقدمة ليست شرعية فحسب، بل إنها مدفوعة بالكامل، عندئذٍ فقط شعرت بالراحة. وقال لي **ريتش** على انفراد: «وفضلاً عن ذلك فأنت **كجيمي أولسن** أيضاً. أوه، نعم، بالمناسبة، تهانينا على الجائزة».

توجب عليَّ أن أواجه **جيري** وحدي. ومع أنني شعرت بالبغض للقيام بذلك، فقد اتصلت **بجيري**، وللمرة الأولى كرجل أعمال، أظهرت له شيئاً من قوة الشخصية عندما اختلق لي الأعذار. وحاول **جيري** أن ينحى باللائمة على الشركة لما حدث وطلب مني أن أثق به، لكنني لم أرد أن أخوض في لوم الآخرين وتوجيه أصابع الاتهام. ومن دون تقليل احترام أو عدم افتقار إلى المشاعر، قلت له ببساطة: «إنني لا أستطيع أن أراك أو أتحدث إليك ثانية على الإطلاق».

بعد عدة أيام، ولدى عودتي إلى **غويرنفيل**، كرهت كل شيء

حيال نفسي. وشعرت كأنني مجرد مزحة سخيفة. ولأن منزلي هو منزل صيفي، فلم يكن يحوي مواد عازلة للحرارة أو وحدة تدفئة باستثناء موقد خشبي أثري. وكانت درجة الحرارة داخل المنزل أعلى من درجة التجمد بقليل. وبسبب السفر المستمر والأحداث المتغيرة الأخرى، شعرت أنني مستنزف عاطفياً. فمسحت بقطعة قماش نظيفة التمثال الصغير المكون من يدين ذهبيتين تحملان كرة أرضية فضية واسمي المحفور على القاعدة الخشبية. وفي لحظة غضب عارم، كدت أرمي داخل الموقد الجائزة التي تلقيتها قبل أيام أمام آلاف المندوبين في أنحاء البلاد والذين أغدقوا علي مديحاً شعرت أنني لا أستحقه، ثم هززت رأسي باشمئزاز. فها أنا ذا، شاب بارز في العالم، منفصل عن زوجتي وابني لأنني لاحقت حلماً فقط لكي أشعر بثقتي تنتهك ثانية. وحتى لا أتجمد حتى الموت لأن موقدي مبلل بماء المطر، كنت أستطيع أن أحتفل بفنجان حساء جاهز كعشاء لي. وبعد أن نفخت الهواء في فراشي الهوائي المبلل، غطيت نفسي بطبقات من أكياس النوم المهترئة. وإذا حالفني الحظ، فقد كنت سأستغرق في النوم قبل أن ينال مني الجوع، لكي أتمكن من أن أوفر عشائي لمرة أخرى.

عندما استيقظت في اليوم التالي، مشيت لأميال تحت الرذاذ البارد. وفكرت متأملاً بالسنوات القليلة الأخيرة وكيف تخليت خلال وقت قصير عن زواجي ومهنتي في سلاح الطيران. لقد كانت باتسي محقة. فقد منحتني سنتين والنتيجة هي أنني الآن أعيش كالإسكيمو. وعندما انتهزت فرصتي وتقدمت فيها على غير هدى، عرضت للخطر كل ما اعتبرته مقدساً. ومع أنني اعتقدت أن رسالتي تتلخص في مساعدة الآخرين، فإن النتائج الشخصية بدت واضحة وضوح الشمس.

لقد كانت باتسي هي من ملكت الشجاعة لكي تتركني. فأنا لم

أستجمع شجاعتي لأن أرحل. وقد شعرت أنها بذلت جهداً في علاقتنا أكثر بكثير مما فعلت أنا. والأهم من كل شيء هو أننا ببساطة شخصان مختلفان. وربما بسبب رغبتي في أن أحمي **باتسي**، كبتُّ أنفاسها من دون قصد حتى جعلتها تفاهتي تخلفني وحدي.

لم أكن أستحق أن أتواجد بصحبة **باتسي**، أو أي شخص آخر. ولكن مع أنني ما زلت أهتم بأمرها، فلم أستطع قط أن أثق بها أو، بسبب **جيري**، بأي شخص آخر. وربما كان محيطي البارد كالثلج عقوبة مثالية لغبائي. وكان الشيء الوحيد الذي تيقّنت منه هو أنه من المعني لي أن أبقى وحيداً. وبسبب مزيج شعوري بانعدام القيمة وحفظ الذات، لم أستطع أن أسمح بدخول أي شخص، باستثناء ابني، إلى قلبي القاسي.

في غضون أشهر، خلصت نفسي من مشاعر رثاء الذات وفكرت ملياً في وضعي. فودعت شركة **لنكولن**؛ وسمعت أن **جيري** قد سوى مشاكله مع الشركة، فتمنيت لهم حظاً موفقاً. وقررت أن أدير مشروعي الخاص. وبهذه الطريقة، استطعت أن أصبح مستقلاً ومتحكماً بمصيري. وإن فشلت، فقد أردت أن يكون ذلك من صنيعي أنا. فبالنسبة إليَّ، كانت ميزة العمل المستقل هي رؤية **ستيفن**. ولأنه كان يعيش على بعد مسافة مئتي ميل، فقد استطعت أن آخذ إجازة لم أكن في الأحوال الطبيعية لآخذها في وظيفة عادية. وهكذا، أصبح باستطاعتي أن أقود السيارة لثلاث ساعات لكي أراقبه وهو يلعب مباراة بيسبول متأخرة أو أقضي عطلة أسبوعية طويلة معه أو أرتب وقت عملي بالنسبة إلى وقته خارج المدرسة. وبمرور الأيام، وعلى الرغم من خوفي، فإن الساعات الطويلة بدت علاجاً مناسباً. ولأن **جيري** لم يكن يجيب عن مكالمات الزبائن المهتمين ببرامجي، فقد وجدت نفسي الآن أملك عملاً يكفيني فقط لأعيش عيش الكفاف. وقد أيقنت أن الأمور كانت ستنجح، ولا

سيما بحلول الوقت الذي سأدخر فيه مالاً كافياً لكي أشتري سريراً ذا قاعدة وبطانية تدفئة. وبمرور الأيام، أصبح لديَّ شعور أفضل حيال نفسي. ولكن ما زالت هناك مسألة واحدة في حاجة إلى أن أختمها.

في صباح أحد الأيام بعد أن عدت إلى البيت، تلوت الدعاء طلباً للهداية قبل أن أتصل بباتسي. فالتقينا بعد ساعات. وبعد أن انفصلنا لأكثر من سنة، شعرت أنني مدين لها بأن أصرح عن كل ما يعتمل في صدري. ووصلت باتسي مرتدية طقماً جميلاً وبدا من الواضح أنها قد استغرقت وقتاً إضافياً لتزين وجهها وشعرها. وذكرني مظهرها بباتسي التي عرفتها عندما التقينا للمرة الأولى. فتنهدت بعمق عندما بدأت أتحدث، ولكن عندما فتحت فمي لم أتمكن من قول شيء. وبعد عدة محاولات، قلت متلعثماً أخيراً: «أريدك أن تعرفي... كم أنا آسف». فأشرقت عينا باتسي. ثم تابعت قائلاً: «لقد كنت مخطئاً... من عدة نواح، وأتوسل إليك أن تمنحيني غفرانك».

فمدت باتسي يدها لكي تمسك بيدي، وقالت: «هل يعني هذا أنك مستعد لأن تعود إلى...؟»

همست قائلاً: «كلا». وأشحت بوجهي عنها. ثم قلت: «إنني آسف. لم أقصد أن أتصل بك وأعطيك الانطباع الخطأ». وهززت رأسي وقلت: «إنني لا أستطيع أن أفعل ذلك بك وبستيفن. أعني أننا سنكون على ما يرام لبعض الوقت، ولكن... سينتهي بي الأمر وأنا أفسد كل شيء...». ومن دون تحذير، بدأ صدري يرتجف. وشعرت بالدوار وأنني على وشك أن أنزلق عن الكرسي.

قالت باتسي: «ديفيد؟ ديفيد؟ هل أنت بخير؟ ما الذي... ما الذي تقوله؟»

فهززت رأسي ثانية وأنا مطرق.

وبينما كنت أجلس أنا وباتسي بصمت، أخذ الناس يمرون أمامنا

في ردهة الفندق ويطلبون المشروبات ويضحكون أو يشاهدون شاشة التلفزيون الكبيرة.

وبعد بضع دقائق تنامى الضغط الشديد خلف عيني. وأوحى لي تعبير وجه **باتسي** ألا أقول شيئاً. فبكيت وقلت: «إنني مدين لك بالكثير. وكان يمكنني... وكان ينبغي لي أن أعاملك معاملة أفضل. لقد... لقد كنت خائفاً، طوال الوقت، مما سيحدث تالياً. ليس الخطأ خطأك أنت... فأنا لم أستطع فحسب أن أمنحك ثقتي. وأنا آسف فعلاً بشأن ذلك. إنني أقسم بالله إنني أعلم أي مغفل كنت. وأطلب منك الصفح لأنني أثرت جنونك. فكل مرة مددت فيها يدك لي... أبعدتك عني. كيف يمكنني أن أحبك... أعني أن أحبك فعلاً في حين أنني أكره نفسي؟» وقلت وأنا أدق بيدي على الطاولة: «هناك الكثير من الأمور التي فعلتها بشكل خاطئ، ولن أسامح نفسي على ذلك أبداً. فقد توجب عليَّ أن أتوقف وأصغي لما حاولت أن تقوليه لي. ومع أنني أمنت لك الكثير، فأنا لم أتواجد إلى جوارك قط».

سألت **باتسي** وهي تمسح عينيها: «حسناً. أعتقد أن هذا يعني أننا قد انتهينا؟»

فعضضت على شفتي وأومأت برأسي.

توسلت **باتسي** قائلة: «قلها فحسب. أخبرني لكي أتمكن من الاستمرار، ويمكنني تحمّل ذلك. فكن رجلاً وقل لي».

بلعت ريقي وحدقت في عينيها، وقلت: «يا **باتسي**، إنني لست جديراً بما يكفي لكي أكون زوجك وأعتقد أنه ينبغي لنا... ينبغي لنا أن نحصل على الطلاق».

أغمضت **باتسي** عينيها قبل أن تومئ برأسها موافقة. وبعد أن جففت عينيها بمنديل وعدلت بلوزتها، ابتسمت وقالت: «حسناً، لا يمكنك أن تلومني على المحاولة».

فضحكت وقلت: «إنني أشعر بالإطراء. إنني كذلك فعلاً».

قضينا بقية فترة العصر ونحن نناقش كل مسألة خطرت ببالنا. ثم قالت باتسي: «إنك تدرك أن ستيفن سوف يعيش معي. فأنا أمكث في المنزل وأنت على طريق السفر معظم الوقت. ويمكنك أن تراه وتتحدث إليه في أي وقت تريده. ولن أستخدمه أبداً كلعبة للضغط عليك، وأعتقد أنك تعرف كيف هو الأمر. وأنا لن أفعل ذلك لابننا».

وتابعت باتسي قائلة: «إن ستيفن بالنسبة إلينا نحن الاثنين هو أفضل شيء حدث في حياتنا، وقد أردت شيئاً أكثر، لكن هذا هو كل ما في الأمر».

فقلت: «مهما حدث، أريد أن نبقى صديقين». فأومأت باتسي برأسها على الفور. وقلت لها: «إنني أعني هذا. فليس لدي الكثير من الأصدقاء. وأعتقد أننا نستحق أن نمنح بعضنا ذلك». وتوقفت لآخذ نفساً، ثم قلت: «وهناك شيء آخر... أريدك أن تعلمي أنك محقة بشأن المكتب في لنكولن. وقد اكتشفت ذلك قبل بضعة أشهر فقط. فقد تعرضت لسوء الإدارة، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع الاستمرار في العمل. أما بالنسبة إلى الكتب فقد طبعت فقط ولم تنشر، ولم تحظ حتى بحقوق طبع. ولهذا السبب هي ليست متوافرة في المكتبات».

سألت باتسي: «وكتاب الصبي الضائع، أيضاً؟» وهذا هو كتابي الثاني الذي أصر جيري على أن أؤلفه. فأومأت برأسي. ووبختني باتسي قائلة: «يا الله، كيف يمكنك أن تكون بهذا الغباء وأن تسمح للعديد من الناس أن يقوموا باستغلالك بهذا الشكل؟ ومع أنك ذكي جداً، فأنا لن أفهمك أبداً».

ففكرت بنفسي قبل سنوات، وأومأت برأسي قائلاً: «لا أعرف. منذ كنت طفلاً... لم أملك الشجاعة قط لكي أدافع عن نفسي. ولطالما تملكني الخوف الشديد. وحتى الآن وأنا راشد، سواء أكان

ذلك يتعلق بجيري في المكتب أم بشراء سيارة أم بالدفاع عن نفسي لكي لا أتعرض للظلم أو حتى، بلا مؤاخذة، بك أنت، لم أستطع أن أفعل ذلك. لقد كان... من السهل أن أفعل ذلك للآخرين، ولكن ليس لنفسي».

تنهدت باتسي قائلة: «إن الوضع مختلف معي. فأنا زوجتك، يا ديفيد».

فأومأت برأسي، لكنني فعلت ذلك لنفسي. وقلت: «تلك التغيّرات كلّها ستحدث الآن».

فقالت باتسي بإشراقة في عينيها: «إذاً، ماذا ستفعل؟ هل ستقاضيهم؟»

فهززت رأسي وقلت: «كلا. الأمر لا يتعلق بالمال. ولن يكون كذلك أبداً. فأنا لا أريد الحصول على مقدار ضئيل من مال لم أجنه من عمل يدي، بل إنها مسألة شرف. وأسوأ شيء يمكنني أن أفعله لهم، أو لأي شخص خذلني، هو أن أقطع أي علاقة لي بهم».

«أعتقد أنك غبي. ولو أنني مكانك لما فعلت ذلك. إذاً، ماذا ستفعل لكي تحمي نفسك؟»

فقلت وأنا مبتسم: «هذا بسيط. لن أثق بأحد».

«إنك تفعل هذا. وسوف تؤول بك الحال لتصبح رجلاً عجوزاً وحيداً، يا ديفيد بيلزر».

فتنهدت وقلت: «أعلم ذلك. ولكن لا يمكنني أن أسمح لنفسي أن أتعرض للأذى ثانية».

قالت لي: «إنني لا أعرف ما هو رأيك بي. وأعلم أنني قد قطعت خط العودة معك، لكنني لم أخذلك قط، يا ديفيد».

«أعلم هذا. وسوف أكون على ما يرام. أقسم إنني أتمنى لك السعادة كلّها. وهذا كل شيء».

قالت لي بنبرة قوية: «إنني كذلك. أعني...».

فقاطعتها قائلاً: «أعلم ذلك. وقد كنت أعلم لفترة من الوقت. هل أنت سعيدة؟ وهل هو طيب معك؟ ومع **ستيفن**؟»

ابتسمت **باتسي** بسعادة وقالت: «نعم. ويمكنك أن تقول إنني حصلت لنفسي أخيراً على راعي بقر حقيقي».

فتوسلت إليها قائلاً: «من فضلك، كوني حذرة. فنحن راشدان، لكنني لا أريد **لستيفن** أن يتعرض لأذى أكثر من الأذى الذي سبق أن تعرض له».

«إذاً، ماذا ستفعل؟»

فقلت من دون تردد: «سأكون والداً صالحاً. وسأستمر بالعمل، ولن أستسلم أبداً. وسوف أعمل بجد إلى أن أحقق النجاح».

قالت **باتسي** بسرعة: «إنني لا أتحدث عن العمل أو عن **ستيفن**، يا **ديفيد**. فأنا على يقين من أنك والد صالح بالنسبة إليه. ولكن لمرة واحدة في حياتك، فكر في نفسك. فماذا عنك؟ وماذا ستحقق من أجل نفسك؟»

وللحظة واحدة شعرت بأهمية سؤال **باتسي**. فجلست وأنا منحن إلى الأمام، وقلت: «إنني لا... لا أعرف. سوف أعيش اليوم بيومه فقط. وهذا هو كل ما أستطيع أن أفعله. فأنا لا أريد أن أكرر الأخطاء نفسها التي ارتكبتها مرة أخرى».

هزت **باتسي** رأسها غير مصدقة، وقالت: «يا الله، بعد تلك السنوات كلّها... ما زلت تحمل عارها».

لم أعثر على أي جواب. فشعرت فعلاً أنني منبوذ في ما يتعلق بقربي من أي شخص فضلاً عن ابني.

عندما نهضنا لنغادر، تعانقنا أنا وباتسي، وقالت لي: «سوف أحتفظ دائماً بمكانة خاصة لك في قلبي، يا **ديفيد بيلزر**. فأنت رجل

طيب. أرجوك، اخرجِ إلى الحياة وعش قليلاً!»

فقلت: «شكراً، يا **باتسي**، ليست لديك فكرة عما يعنيه هذا لي. وسوف أتلو الدعاء من أجلك كل يوم. بالتوفيق، يا **باتسي**».

«إلى اللقاء، يا **ديفيد**».

«إلى اللقاء، يا **باتسي**».

وسرعان ما قدمنا طلب الطلاق. وبعد أقل من ثلاثين يوماً من انتهاء طلاقنا، تزوجت **باتسي** رجلاً آخر.

ما بين **ستيفن** وعملي، تعمدت أن أعيش لنفسي فقط. وبالمجمل، شعرت بالرضا عن حياتي. وفي أسبوع جيد، وإذا شعرت أنني أستحق ذلك، كنت أغامر بالخروج إلى الحياة وأدعو نفسي لحضور فيلم. وقد برهن العمل المستقل على أنه أصعب مما توقعت. ومع ذلك، فقد أحببت كل دقيقة من وقتي. وبعد أن اشتريت حقوق الكتابين من شركة **لنكولن**، سرعان ما وجدت ناشرين أرادا أن ينشرا الكتابين. وحتى مع أنني كنت أعلم أنني سأحظى بصفقة أكثر ربحاً مع دار نشر في **نيويورك**، فقد وقعت العقد مع دار نشر أصغر في ولاية **فلوريدا**، وجزء من السبب في ذلك هو أنني قد أعجبت على مدى سنوات بأعمال مؤلفيهم: **جون برادشو** و**جاك كونفيلد**. وقد اعتقدت أن دار نشر صغيرة قد تتمكن من أن تقضي وقتاً أطول بتسويق كتابيّ وترويجهما.

في غضون بضعة أسابيع، تلقيت مكالمة من محررة مساعدة قدمت نفسها لي على أنها **مارشا دونوهو**. فتحدثنا عن التغيّرات التي أرادت أن تحدثها وبرنامج نشر كتابي الأول. وبعد أن أغلقت السماعة، لم يسعني إلا أن أعتقد كم بدا وقع صوتها رائعاً. وقبل أن تختلط الأمور في ذهني، أبعدت **مارشا** عن تفكيري بأن دفنت نفسي في عملي.

مـرت الأشـهر، وكلمـا ناقشـت ومارشـا كل صفحـة وكل مقطعٍ وحللت معهـا كل كلمة في الكتاب، شـعرت أنني مفتـون بها. وفضلاً عن أنها كانت تملك أعذب صوت سمعته على الإطلاق، فقد احترمت الشـغف الذي تكنـه لعملها. وقـد اعتقـدت أن المحرريـن لا يملكون وقتاً كثيراً لكي يقضوه على أي مشـروع بحد ذاته بسـبب العدد الهائل مـن المهـل المحددة داخل عالم النشـر. ومـع ذلك، فبسـبب اهتمامي واهتمام **مارشـا** الشـديد بالقصة، فإننا تعوَّدنا أن نقضي أكثر من سـاعة ونحن نحـوم حول جملة واحـدة. فقلت لها يوماً مـا: «لا أريد لك أن تتعرضي للمتاعب. وأنا لا أفهم موقفـك. فأنا أتعرض للكثير من النقد اللاذع لأنني أحـاول أن أبذل أقصى جهدي. ولكن لمـاذا تفعلين أنت هذا؟»

أفضت مارشـا إلـيَّ قائلة: «قـد أكون جديـدة هنا، لكننـي لطالما كنت مهتمـة بالكتب في حياتـي. ويتحتم علـيَّ أن أخبرك أنـه لا مثيل لهذا الكتاب بين ملايين الكتب. وأقسـم بالله إنني لم أستطع أن أضعه مـن يدي. وحتى قبـل أن أتصل بك، آمنت بقيمة هـذا الكتاب، وأؤمن بمـا تفعله أنت من كل قلبي». ثم رفعـت صوتها من الانفعال، وقالت: «هل تعرف حياة كم شـخص سـتغير بهذا العمل؟ إننـي لا أعرفك إلى هذا الحد، يا ديف، لكنني أعتقد أنك شخص مدهش».

ضغطت السماعة بقوة على أذني حتى إنني اعتقدت أنها ستنـزف. ولأنني لـم أكن متعـوّداً على المجاملة، فقد سـخرت منهـا على الفور قائـلاً: «إنني أراهن على أنك تقولين هذا لكل المؤلفين». وبعد لحظة، قلت لها: «أتؤمنين، أعني، أتؤمنين حقاً أن ما أفعله صواب؟»

بعد أن انتهت محادثتنا، جلسـت مسمراً على كرسيّ. ولم أستطع أن أصدق مدى حسن طالعي. فبعد تلك السنوات كلّها والمعارك التي لا نهاية لها، بدأت أعمل مع شخص يؤمن بالقيم نفسها التي أؤمن بها.

وقلت بصوت مرتفع: «إنها تؤمن! **مارشا** تؤمن بي حقاً!»

لم أتعمد قط أن أتخطى العلاقة بين المحررة والكاتب، لكنني أضعت نفسي وأنا أستمتع بكل كلمة وكل دقيقة قضيتها مع **مارشا** على الهاتف. وكان من السهل بالنسبة إليَّ أن أتيَّمَ بها. وفي نهاية تحرير كل صفحة، تعوَّدنا أن نكافئ أنفسنا برواية القصص وتبادل النكات. وسرعان ما أصبحت مفتوناً ليس بحس **مارشا** الفكاهي فحسب، بل بأخلاقيات عملها وشرفها. ومع مرور الوقت، بدأت تخبرني عن صراعاتها وخيبات أملها في الحياة، فأدركت قوة الإرادة المدهشة التي تتحلى بها. فلم تكن **مارشا** تستسلم قط، وأياً يكن العمل الذي تقوم به، فهي تمنحه كل ذرة من كيانها. واتفقنا أن نتحدث بعضنا إلى بعض عن أي شيء في أي وقت. فأصبحت **مارشا** صديقتي الحقيقية الوحيدة.

ومن دون أن أتوقع، وبعد أسابيع من نهاية إحدى جلسات التحرير، استندت في كرسي وتنهدت ببطء وأغمضت عيني وأنا أتخيل ابتسامة **مارشا** والطريقة التي ترد بها شعرها للوراء عندما تضحك. وقبل أن أسمح لنفسي بأن أستمتع بذلك، كبحت مشاعري في داخلي. وأيقنت أن **مارشا** بعيدة كل البعد عن أمثالي. فهي ألطف وأكثر شخص حساس عرفته، في حين أنني لست أكثر من صبي مغفل مصاب بفرط الحركة وذي أفكار غريبة يواري قلقه خلف عمله وحسه الفكاهي الجنوني.

لم تستسلم **مارشا** معي قط. وبسبب الطبيعة الحية لبعض أجزاء الكتاب، انهارت **مارشا** أكثر من مرة وبكت على الهاتف. وفي أحد الأيام، ومن دون أن أفكر، كدت أبتلع الهاتف لشدة رغبتي في التواجد قربها، وقلت: «إن الأمر على ما يرام، يا مار، لا بأس، يا عزيزتي. فقد حدث هذا قبل أمد بعيد. وقد انتهى الآن». وبعد أن خرجت الكلمات

من فمي بثانية واحـدة، تراجعت عما قلته، فقلت: «أصغي إلي، يا مار، إنني آسـف. فلم أقصد أن... إنني آسـف. لم أقصد أن أكون مباشراً... أرجوك انسي ما قلته لتوّي، أرجوك».

فتنهدت مارشـا، وقالت: «لا بأس بذلك، أيها الغالي. فقد أصبح كتابك بمثابـة طفلي. وعندما يحتل أحدهم مكاناً في قلبي، فأنا أحميه. وأتمنـى فقط لو اسـتطعت أن أكـون موجودة لمسـاعدتك، فأنت عزيز عليَّ كثيراً. أرجوك، لا تعتذر لي، فنحـن صديقان، وقد كنت بانتظارك لتقول لي أي شيء».

«إنني، آه...». وتوقفت أفكـر فيها، ثم قلت: «إنني فقط لا أريدك أن تبكي، صدقيني، فأنا على ما يرام، ولا أريد أن أتسـبب لك بالأذى، وهذا كل شيء».

همسـت مارشـا قائلة: «يا ديف، لقد كنا نعمل معاً لبعض الوقت الآن، وأعلـم كيف تبـدو من غلاف كتابـك، ولكن... هـل يمكنك أن تراني؟»

فأمرنـي دماغي قائـلاً: اغلق السـماعة قبل أن تخفق وتقول شـيئاً ما. اغلق السـماعة! فشددت قبضتي على السـماعة، وسرت موجة من الطاقة داخل قلبـي، فتنهدت عبر الهاتف، الخـط الوحيد الذي يربطني بمارشـا، قائلاً: «نعم. أحياناً في الليل عندما تسـود السـكينة كل شيء، وعندما أتنـزه في الهواء الطلق وأنظر إلى النجوم... أغمض عيني...». والتزمت الصمت.

«من فضلك تابع، يـا ديف. أعلم أن هذا صعـب. وأعلم أنك قد مررت بالكثير في طفولتك وأعلم بخصوص ما حاولت أن تفعله وعن طلاقك وابنك... ولكن قل شيئاً، ولن أؤذيك، وأعدك بذلك».

أغمضـت عينـي وتمنيـت أن تواصل مارشـا الكلام. ثـم أطلقت تنهيـدة طويلة، وقلـت: «أحياناً في الليـل، قبل أن أذهب إلـى النوم...

يمكنني أن أرى وجهك...».

بقينا نتحدث على الهاتف تلك الليلة من التاسعة حتى الثالثة صباحاً. وبعد ذلك، سرت الهوينى نحو الضباب الرمادي الذي بدأ يستقر على الأشجار. وقد كنت أعلم كل شيء عن مارشا، حتى طريقة تنفسها، فرفعت بصري إلى السماء وحمدت الله.

وفكرت في نفسي قائلاً: ربما.

بدأت أنا ومارشا نتواعد على الهاتف. وبعد أربعة أشهر، وعندما توطدت صداقتنا ومشاعرنا الشخصية أكثر، قررنا أن الوقت قد حان لكي نلتقي.

شعرت أن أعصابي محطمة في اليوم الذي كان من المقرر لمارشا أن تصل فيه بالطائرة. وكدت أن أصدم سيارتي وأنا أحلم بمارشا على الطريق. وبعد ساعات قضيتها في المطار، ظللت أعدل ثيابي لكي أبدو مثالياً تماماً في نظرها. وشعرت كأنني تلميذ مدرسة يستعد لموعد عاطفي وخشيت أن تعتقد أنني قبيح أو أن تسخر مني إذا قلت شيئاً خطأ. ولكن أكثر ما قلقت منه هو أن أتسمر في مكاني، بعد كل محادثاتنا الليلية المتأخرة ومغازلتنا العاطفية وأكوام البطاقات والرسائل التي تبادلناها، ولا أدعها أبداً تدنو مني كما فعلت مع باتسي. ماذا لو لم أستطع أن أعبر عن شعوري؟ وبالنسبة إليَّ لطالما تبادر إلى ذهني هذا السؤال: ماذا لو لم أستطع أن أفتح قلبي وأدع مارشا تدخله؟ وبدأ الفزع ينال مني، وتخيلت نفسي ألوذ بالفرار قبل أن تتعمق الأمور بيننا. وأردت جزئياً أن أسقط الوردة الصفراء التي كنت أحملها خلف ظهري وأولي هارباً من مكان الأمتعة في المطار. ثم قلت لنفسي: «يا الله. من أحاول أن أخدع؟» فأطرقت، ثم وجدت نفسي أتراجع خطوة إلى الوراء ثم خطوة أخرى. وبلعت ريقي بصعوبة، معتقداً أن مارشا ستتفهم موقفي في نهاية الأمر. فقد كانت جيدة فوق الحد بالنسبة إليَّ.

بينما كنت أستدير، لفت نظري وميض مفاجئ. وعندما بدأ الركاب يتدفقون من بوابة مكان الأمتعة، برز شخص واحد من بين الحشد. فجعلتني عينا **مارشا** الفاتنتان وشعرها البني المحمر اللامع أكاد أفقد وعيي. وتسارعت الأفكار في ذهني، وتخيلت نفسي أمشي إلى الأمام وأمد يدي لكي أقدم نفسي بشكل ملائم. فلم أود أن أبدو يائساً أو مباشراً فوق اللازم.

لكنني تخليت عن خوفي، وفكرت في نفسي: لتذهب هذه الأوهام كلّها إلى الجحيم.

فجرينا إلى ذراعي بعضنا بعضاً بارتباك. وشعرت بنبضات قلب **مارشا** تتسارع ونحن نعانق بعضنا، وقالت لي والدموع تسيل على وجهها: «لا أستطيع أن أصدق هذا».

تخليت عن دفاعاتي، وهمست قائلاً: «مرحباً، يا أميرتي». وللحظات قليلة، توقف العالم عن الحركة. وعندما ألقيت نظرة طويلة أخيراً على وجه **مارشا**، أغمضت عيني ومررت أطراف أصابعي على وجهها حتى عنقها.

فتنهدت وهي تستند برأسها إلى يدي، وقالت: «افعل أي شيء تريد فعله، ولكن لا تدعني أذهب».

أجبتها قائلاً: «ربما هناك فرصة لذلك».

فكفكفت **مارشا** دموعها، وهزت رأسها، وقالت: «لقد حلمت بهذا اليوم لوقت طويل، يا **ديف**. فلا تتخل عني».

في الأيام القليلة التالية، لم أفترق عن **مارشا** قط. فقضينا كل لحظة من لحظات اليوم بصحبة بعضنا بعضاً. وكنا نمسك بفنجاني القهوة ونثرثر في الهواء الطلق لساعات في بعض الأوقات. ومع ازدياد افتتاني بها، بدا على **مارشا** أنها تستوعب كل تفصيل من تفاصيل حياتي إلى حدّ أنها أصرت على أن ترى الكوخ الصيفي

الذي مكثت فيه وأنا طفل. فحاولنا أن نعيش السحر الذي أسرني قبل سنوات عديدة وأنا طفل، وراقبنا الشمس، ونحن نحتضن بعضنا، وهي تغرب خلف الأشجار والسماء، وهي تتحول من اللون الأزرق إلى البرتقالي. وبمرور كل ساعة، وجدت نفسي أتجرد من طبقات الدرع التي ارتديتها كدفاع لي لسنوات قضيتها في معارك في أعماق ذاتي. وأصبحت **مارشا** الشخص الوحيد الذي استطعت أمامه أن أكشف عن خبايا روحي.

مرت الأيام بسرعة. وفي اليوم الذي سبق عودة **مارشا** إلى الديار، بدأت أتراجع. فقد كانت الحقيقة الباردة بالنسبة إليَّ هي أن **مارشا** تعيش على بعد آلاف الأميال وتحظى بوظيفة وعائلة رائعة وحياة حقيقية. فلم أرد لها أن تتورط في عالمي الغريب. وعلى الرغم من اشتياق كل ذرة من كياني لكي تتواجد معها، فإن الطريقة الوحيدة كانت أن تبقى صديقة مقربة، كما اعتقدت، وأن أدعها حرة طليقة.

وبعد أن جلسنا في الهواء الطلق نحرك قهوتنا التي أصبحت باردة ونحن صامتان، ردت **مارشا** شعرها إلى الوراء وسألت: «هل أنا السبب، يا **ديف**؟ هل اقتربت منك أكثر من اللازم؟»

أخذت الدموع تملأ عيني، ثم هززت رأسي، وقلت: «كلا، لست أنت السبب. إن الأمر يتعلق بي أنا فقط». وتلعثمت قبل أن أبلع ريقي بصعوبة، وقلت: «إنني لا أريد أن أتسبب لك بالأذى. وهذا كل ما في الأمر».

مدت **مارشا** يدها لتمسك بيدي وسألتني: «ما الأمر، يا **ديف**؟ ما الذي تخشاه؟»

فأغمضت عيني بشدة. واشتد الضغط في داخلي بحيث إنني لم أعد لأتحمله أكثر. فقلت لها بسرعة: «أنت! إنني خائف حتى الموت منك أنت! ولا أستطيع حتى أن أنظر إليك! أعني، إنك جيدة أكثر من

اللازم بالنسـبة إليَّ». واستندت مارشا على ظهر كرسيها وهي مصعوقة مـن هول المفاجـأة. وتابعـت قائلاً: «بربـك، انظري إلى نفسـك. إنك مثالية ورائعة جداًا فأنت لا تكذبين ولا تغشـين ولا تسـرقين. وليست لديـك أيّ عيـوب أو أي لـؤم في شـخصيتك. كمـا أنك تؤمنيـن بالله وبـذل قصارى جهدك في الحياة. فضلاً عـن أنك متعلمة ولا تتذمرين أو تلومين الآخرين إذا لم تحققي النجاح الذي تريدينه. وليست لديك أفـكار بالية مـن ماضيك ولا أسـرار لتخفينهـا. إنني بانتظـارك لتخلعي قناعـك... فأنـت مثالية جـداً. وأنا أعلم مـن أنا وإلى أيـن أنتمي. إنني آسف، لكنني... لكنني لست جديراً برفقتك».

توسلت مارشا إليَّ وقالت: «لا تقل هذا! لقد تحملت هذا الذنب طوال حياتك. ألا تفهم؟ إنها ليست غلطتك أنت؟ ولست الملام على ذلك. وأنا راشـدة وأسـتطيع أن أتقبل هذا. وأنا أعرف عنك كل شيء، لكنني ما زلت هنا».

فأشـحت بوجهي عنهـا، ورفعـت صوتي فـي وجه مارشـا للمرة الأولـى، وقلـت: «ألا تفهمين هـذا؟ إن جدتي تكرهنـي. وقد حاولت أمـي قتلي. وقد دفعت بباتسـي إلى شـفير الهاويـة... وإن اقتربت فوق الحد... فسـوف أفسد حياتك أنت أيضاً». وتمتمت بعد أن بدأ صدري يعلو ويهبط، فقلت: «إنني أفضل أن أحول دون تطور الأمور إلى علاقة جـادة وأن أحافظ عليك كصديقة وأحاول أن أبقـي على ما بيننا. فأنت تعنيـن الكثير وأنت مهمـة جداً بالنسـبة إليَّ بحيث إننـي لا أقوى على فقدانك. إنك تسـتحقين أن تكوني سـعيدة. وإن أصبحـت على علاقة بي...».

«لقـد فـات الأوان وأصبحت على علاقة مسـبقة بـك. وأنا أعلم مـاذا أفعل. فقـد واعدت الكثير مـن التافهين في حياتـي، ولم ألتق قط بأحد مثلك، ألا تدرك كم أنت عزيز علي؟»

فهززت رأسي.

وسألتني **مارشا**: «وماذا عنك، يا **ديف**؟ ما الذي تستحقه أنت؟ يا الله، لقد عملت بجد طوال حياتك وتعرضت للاستغلال وللكثير من الإساءة، لكنك نهضت وأصلحت أخطاءك ومضيت في طريقك كأن شيئاً لم يكن. ولم تستسلم قط! ماذا عنك؟ إنك تستحق أن تعيش حياة أفضل. وأنا لم أر قط شخصاً يعمل بجد مثلك. انظر كيف ضحيت بكل شيء من أجل ابنك. إنني لم أرَ والداً يغدق هذا المقدار من الحب على ابنه كما تفعل أنت. حسناً، لقد تعرضت لزواج فاشل، لكن الأمر يتطلب شخصين ليدمرا الزواج، وأنت لست المسؤول الوحيد عن الطلاق. فربما لم يسعك أن تحبها لأنها حطمت ثقتك. ولن أخبرك حتى عن رأيي بها! لقد كنت نبيلاً ومتسامحاً معها ولائماً لذاتك أكثر مما ينبغي. إنك أكثر شخص محطم أعرفه. ماذا عن **ديف**؟ متى سيصبح **ديف** سعيداً؟ أنت تستحق، يا **ديف**، أن تكون سعيداً. متى سيحين الوقت لتفكر في **ديف**؟»

فظللت أهز رأسي، وقلت: «إن بعض الأخطاء... لا يمكن إصلاحها أبداً».

سألتني **مارشا** قائلة: «إن الأمر يتعلق بها، أليس كذلك؟ إنك لا تستطيع التوقف عن التفكير فيها. أليس هذا صحيحاً؟»

فأومأت برأسي، وبدأت قائلاً: «كل يوم. إنني أحاول فعلاً، لكنني أشعر وكأنّ هناك شيئاً ما يجرني إليها ولا أستطيع أن أتحرر منه مهما حاولت جاهداً. وأحياناً عندما أتحدث في مكان ما وأشرح ما حدث بيني وبين الوالدة، يبدو لي كأنني أبحث عن شيء ما، أي شيء، كان بوسعي أن أفعله لأغير كل ذلك... باستثناء **ستيفن**. وهذا هو أحد الأسباب في أنني أتحدث هناك. ولا أستطيع فقط أن أجد...».

فقاطعتني **مارشا**، وقالت: «كلا! يجب عليك أن تدعها ترحل،

فليس ذنبك أنها...».

«كلا. كان بوسعي أن...».

فصاحت **مارشا** الآن قائلة: «يا إلهي! لقد كانت والدتك مجنونة! وليس هناك شيء يمكن أن تفعله لتمنعها!»

وظلت دقات قلبي تتسارع، وهززت رأسي بانفعال، وقلت: «أنت مخطئة. لقد كان بوسعي أن...».

فعارضتني **مارشا** قائلة: «ماذا كان بوسعك أن تفعل؟»

توسلت إليها قائلاً: «أرجوك. لا تضغطي علي. إنني لا أريد حقاً التحدث عن هذا».

فقالت لي آمرة: «كلا! يجب علينا أن نواجهه! إن كل ما تفعله هو أنك تمنح ما لديك. فمن الممكن أن تقتل نفسك إذا اعتقدت أن هذا يساعد أحدهم. خذ دقيقة فقط وساعد نفسك. وأنا هنا من أجلك، يا عزيزي. وليس هناك شيء كان بوسعك أن تفعله». وانحنت **مارشا** لكي تعانقني، ولكن قبل أن تلمس أصابعها كتفيّ، ابتعدت عنها.

«إنك لا تعرفين شيئاً. فأنت لم تكوني هناك. وقد كان يمكنني أن أفعل شيئاً! وأسوأ ما حدث هو أنني لم أقل لا قط. فلم أقم قط بالدفاع عن نفسي. ألا تفهمين هذا؟ لقد كان بوسعي أن أحول دون ما حدث، لكنني سمحت له بأن يصل إلى حد بعيد. وفي اليوم الذي طعنتني فيه وقفت هكذا فحسب، كأنني أتوسل إليها لتفعل ذلك. ولم يكن إخوتي قط ليسمحوا لشيء كهذا أن يحدث لهم، وعرفت ذلك من النظرة في أعينهم. لكنني فعلت ذلك، ولطالما كنت أفعل ذلك. لقد بلعت ماء النشادر أمام والدي، وعندما نظفت الحمام بذلك المزيج من ماء النشادر والكلوركس شعرت بحلقي يلتهب، وكل ما توجب عليَّ أن أفعله هو أن أفرغ تلك المادة في الحمام. حتى إنني أكلت فضلات الكلب في أثناء وجود والدتي في الغرفة الأخرى. وكل ما توجب عليَّ

أن أفعله هو أن ألقيها في الحمام من دون أن تعرف بذلك قط، لكنني فعلت ذلك كما كنت أفعل كل شيء تريده. ولم أدافع عن نفسي قط، وكل ما توجب عليَّ فعله هو أن أمنعها مرة واحدة فقط. فربما كان ذلك ليغير كل شيء». وبدأت الدموع تنهمر من عيني على الدفة الخشبية. ثم قلت: «لقد كنت أستطيع أن أمنعها، لكنني لم أقل لا... قط».

بدأت **مارشا** تبكي أيضاً. وبينما أنا أغطي وجهي لأخفي عاري، جعلتني موجة قلق أنزلق عن الكرسي وأسقط على الدفة. فبقيت على ركبتي بينما أخذت أوصالي ترتعد. وقلت: «إن الجميع يعتقدون أنني... شجاع جداً لأنني أقص عليهم تلك القصة المثيرة للشفقة، مع أنني أشعر جزئياً بالخزي. والحقيقة هي: لماذا، إذن، لم أملك الشجاعة لأمنعها لو أنني شجاع هكذا؟ لقد كان يمكنني أن أرحل عنها. فقد واتتني مئات الفرص». وتصورت في ذهني الوالدة وهي تركن سيارتها الرمادية عند السوق. ثم قلت: «كلما ذهبت للتسوق وخلفتني في السيارة، أمسكت يدي مقبض الباب... وأحياناً كانت قبضة يدي تصبح مشدودة جداً وذراعي تهتز بالكامل، وكل ما كان يتوجب عليَّ فعله هو أن أدير المقبض وأفتح الباب وأذهب فحسب، وأن أضع حداً لكل شيء. فكان سينتهي كله حينئذٍ». ثم أغمضت عيني بإحكام وهززت رأسي من جانب إلى آخر بشدة بحيث إنني شعرت بنفسي وقد بدأت أفقد وعيي.

قاطعتني **مارشا** قائلة: «في أثناء زواجك من **باتسي**، هل بذلت جهداً في زواجكما، يا **ديف**؟»

فتوقفت لأنظر إليها، وهززت رأسي، وقلت: «الآن عندما أفكر في ذلك، أشعر أن **باتسي** هي من بذلت جهداً...».

فقالت بصوت مرتفع: «كلا! إن الغلطة ليست غلطتك أنت. إذاً،

إنني أسألك هذا: في أثناء زواجك، هل منحت ذلك الزواج أقصى جهدك؟»

فتوقفت لكي أستجمع أفكاري، ثم قلت: «نعم، أعتقد ذلك. بالتأكيد، أعتقد ذلك».

«وككاتب، كم قلت إنك تستغرق لتكتب فقرة واحدة؟»

قلت لها وأنا أشعر بالفزع: «ما بين أربع إلى ست ساعات تقريباً؟ لماذا؟»

تعمقت **مارشا** في أسئلتها أكثر فقالت: «الآن، لا تفكر، بل أجب فحسب. لماذا يستغرق منك الأمر هذا الوقت الطويل كلّه؟»

«لأنني لا أجيد الطباعة، وليست لديَّ آلات. لأنني غبي؟ إلى أين تريدين أن تصلي؟»

فعارضتني **مارشا** بهدوء قائلة: «كلا، صه، تمهل. أخبرني. تحدث بصراحة وأخبرني، يا **ديف**. لماذا؟»

استطعت أن أشعر أنني على وشك الانفجار، فقلت: «لأنني... أريد أن أبذل ما بوسعي وأن أقدم أفضل شيء لديَّ في شخصيتي وفي ما أفعله». وصحت قائلاً: «هذا هو السبب!»

«كأب وزوج في أثناء زواجك...».

فأجبتها بسرعة قائلاً: «لقد بذلت ما بوسعي!»

«في أثناء وجودك في سلاح الطيران وفي عملك التطوعي والطريقة التي تكدس بها حطب الموقد وتطوي قمصانك وترتب الطاولة عندما تشوي طعام العشاء...؟»

«لقد حاولت ومنحت كل ذرة من روحي». ثم توسلت إليها قائلاً: «توقفي. انسي الموضوع فحسب».

ثم سألت **مارشا** بصوت أجش: «وفي كل شيء؟ هل تعوَّدت دائماً أن تمنح كل شيء أقصى طاقتك؟»

فأومأت برأسي موافقاً.

«هل قدمت أقصى ما لديك كابن؟»

«نعم لقد فعلت هذا. لطالما كنت أفعل ذلك في أعمال المنزل وفي محاولتي أن أثير إعجابها ودعائي كل يوم لئلا أخيب أملها».

رفعت **مارشا** حاجبيها وقالت: «ولم تستسلم قط؟»

فقلت بقناعة تامة: «كلا! لم أستسلم قط».

«لقد أخبرتني، وأنت في وصاية أهلك بالرعاية وفي سلاح الطيران، أنهم لم يريدوك بحيث إنك قد استغرقت سنوات لكي تثبت لهم أنك تريد أن تطير لصالحهم... وبعد أن تعرضت للخداع على يد ذلك الرجل في شركة **لنكولن** وغادرت صفر اليدين... وبعد كل شيء تعرضت له، لماذا بحق السماء، لماذا تضغط على نفسك؟ وأنت طفل، يا **ديف**، لماذا قمت...؟»

صحت قائلاً: «لأن ذلك هو كل ما أملكه. فلم يكن لديَّ شيء آخر! وهذا هو كل ما أنا عليه! وهذا هو كل ما عرفته على الإطلاق! ولو أمكنني أن أعود إلى هناك، مرة واحدة للحظة واحدة... لكان كل ذلك قد انتهى. وليس لديَّ شيء آخر، وكل حياتي...».

هبطت **مارشا** على الدفة، وقالت: «أعلم، يا عزيزي، أعلم». ومدت يديها لكي تحتضن رأسي على صدرها، وهمست قائلة: «لقد اتخذت قرارك واتخذت والدتك قرارها. فليست الغلطة غلطتك أنت. وليس ذلك من صنيعك أنت. لقد تخلت والدتك عن نفسها قبل وقت طويل جداً وتخلت عن ابنها وعائلتها وكل شيء في حوزتها. لقد استسلمت. ولم يكن أحد يستطيع أن ينقذها، وأقلهم هو ابنها الذي عاملته معاملة الحيوانات. لقد كانت امرأة محطمة قبل أن تدخل حياتها بوقت طويل، ويجب عليك أن تنساها. فليس هذا من صنيعك أنت، وأنت تستحق، يا **ديف**، أن تتحرر منها».

اعترضت قائلاً: «لقد كان يمكنني أن...».

فصاحت **مارشا** قائلة: «كلا! قل لي، قل لي ما هو الشيء الوحيد الذي كان من الممكن لك أن تفعله لكي تمنعها من تدمير ذاتها؟»

هززت رأسي وقلت: «أن أكون ابناً أفضل؟ لا أعرف. إنني لا أعرف فحسب».

«أنت ابن صالح الآن، ولطالما كنت كذلك. ومهما حدث لنا، ومن أجل سلامك النفسي، وبعد كل السنوات التي قضيتها في البحث، يجب عليك أن تدرك أن ذلك لم يكن من صنيعك أنت».

شعرت بوطأة الضغط تخف ببطء، فقلت متلعثماً: «لقد شعرت طوال... حياتي بكاملها، منذ كنت طفلاً، كأنني أرى كل شيء يحوم حولي وأنني نوعاً ما أدع الأمور تسيطر عليَّ محكمة قبضتها لأنني لا أشعر أبداً أنني أستحق أي شيء باستثناء ذلك. أما بالنسبة إلى زواجي وشركة **لنكولن**، فقد استحقيت ما نلته من هذين الأمرين. ولهذا السبب لم أستطع أن أخبر **باتسي** أو أي شخص آخر أي شيء. ولهذا السبب أحاول أن أخفي ماضيّ وأتقبل التفاهة كل يوم من حياتي. فأنا لا أستحق أي شيء أفضل من هذا».

«أعلم أنه ليس هناك شيء كان بوسعي أن أفعله لأمنعها، لكن هذا لا يساعدني، ولا يمنع ذلك الشعور من أن ينهشني كل يوم. وبسبب هذا أشعر أنني لا أستحق أي شيء، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بك. فأنت نقية جداً».

وأطلقت نفساً عميقاً، وقلت: «إنني لا أستطيع الاستمرار في هذا بعد الآن. وقد سئمت السباحة عكس التيار وأنا أحاول إثبات وجودي... لقد سئمت».

قالت **مارشا**: «بعد كل ما عانيته، ومهما حدث لنا، يا **ديف**، فأنت تستحق كل شيء تمنحك إياه الحياة. وأنا فخورة بك جداً. فأنت أكثر

شخص ملهم عرفته. وأنت بالنسبة إليَّ تمثل شخصيتي الممثلين **روبن ويليامز** و**جيمي ستيوارت** مجتمعتين. ولا أقول هذا لأنني معجبة بك إعجاباً أحمق. ومهما يحدث، فأنت عزيز علي. ومهما يحدث، فأنا أثق بك من كل قلبي، يا **ديف بيلزر**. وأنت صديقي المفضل». وتنهدت **مارشا** وقالت: «يمكنني أن ألاحظ أنك تدفع الناس للجنون فقط لأنك تريد أن تبذل ما بوسعك. لكنك، يا **ديف**، تستحق... إننا نستحق أن نمنح أنفسنا فرصة. وأنا لا أحاول أن أكبت أنفاسك أو أن أحملك على عمل أي شيء. وأقسم إنني لو عشت مئة سنة، فإن علمت شيئاً واحداً فهو أننا نستحق أن نكون معاً».

مسحت دموعي وحدقت بعيني **مارشا** المغرورقتين بالدموع، وقلت: «أأنا صديقك المفضل؟»

فسألتني قائلة: «لماذا تعتقد أنني أتيت لمقابلتك؟»

أغمضت عيني، وتحررت من خوفي من القرب منها، وخلعت آخر طبقة من درعي الواقية، وقلت: «عندما أكون معك، يا **مارشا**... أشعر أنني نقي. فأنت تخففين من وطأة إحساسي بالعار».

صاحت **مارشا** قائلة: «وأنت فارسي الأبيض. ومعاً، ونحن جنباً إلى جنب، يمكننا أن نحقق أي شيء، يا **ديف**. ألا تستطيع أن ترى أن كل ما أريده هو أن أبقى بصحبتك؟»

عندها شعرت أنني أتحرر من مخاوفي. فمهما حاولت أن أبعد **مارشا** عني، تلهف قلبي لكي تبقى معي. وعندما شعرت بقلقي يتبدد وقلبي يتحرر من عبئه، وضعت ذراعي حول خصر **مارشا** ورأسي في حضنها. وقلت: «إنني لن أستحقك أبداً. فأنت صديقتي المفضلة. وأنا أحبك. فأنت المرأة الوحيدة التي خلقت من أجلي يا **مارشا**. وأنت المرأة الوحيدة... الوحيدة التي أثق بها».

الفصل الخامس عشر

الأمور الجيدة كلّها

الآن، أصبح كل شيء مختلفاً تمام الاختلاف. فوقفت **مارشا** وظهرها باتجاهي وهي تتحدث بانفعال عن المتطلبات الموكلة إليها في ذلك اليوم فحاولت أن أهدئ من روعها وتوسلت إليها ألا تتعامل بجدية كبيرة مع العمل. وقد كانت لدي أسبابي لأبعد تفكيرها عن العمل، ولكن مهما حاولت أن أحول اتجاه **مارشا** عن الموضوع، فقد بدا علي فقط أنني أزيد من حدة شغفها.

لكن هذا كان من أحد الأمور التي أحببتها في **مارشا** وهو التزامها الثابت. فبعد أشهر من لقائنا في **كاليفورنيا**، تخلت **مارشا** عن وظيفتها كمحررة وانتقلت إلى **غويرنفيل**، لا لتصبح على مقربة مني فحسب، بل لكي تتولى إدارة عملي. ولأن **مارشا** قد عرفتني حق المعرفة، وبسبب احترامنا المتبادل لبعضنا البعض، فقد كان الخيار المثالي. ومع ذلك فقد استهزأ بعضهم من قرارها معتقدين أنها ستقوم بمجرد تأدية دور السكرتيرة وتردّ على الهاتف وتنظم مواعيد المقابلات الإعلامية المستمرة، وتهتم بأوجه سفري المرهقة كلّها وتحافظ على تقويمي الزاخر بالالتزامات. وفي بعض الأوقات في أثناء سفري، تعوَّدت **مارشا** أن تعمل بجد من اثنتي عشرة إلى ستّ عشرة ساعة لتنهي يومها فقط وهي تحاول أن تبقى مواكبة لمراسلات الأوراق الرسمية التي بدأت قليلة، لكنها سرعان ما أصبحت كثيرة إلى حدّ أنها ظلت لشهر تجيب عن آلاف الرسائل الإلكترونية من جميع أنحاء العالم.

ولأن حياتنـا أصبحـت جنونية جداً، فقـد بذلنا جهـداً في علاقتنا الشـخصية. ومع **مارشـا**، تعلمـت أن أصغـي إليها وألا أحـاول فرض سيطرتي وأن أمنحها النصيحة لدى شعوري بحاجتها إليها. فإذا اختلفنا علـى أمر ما، ناقشـناه من جميع النواحـي. وإن خضنا مناقشـة غاضبة، بذلنا قصارى جهدنا لكي نحل المسألة ونتعلم منها ونتقدم إلى الأمام. وفي كل موقـف وكل عقبة واجهناهـا معاً، كانت **مارشـا** تظل مخلصة وملتزمة ولـم تحطم ثقتي قط.

كان دخول **مارشـا** إلى أعمق أعماق قلبي، والأهم من كل شـيء تقديمها إلى **ستيفن**، أكبر مجاملة استطعت أن أقدمها لها. وقد تعلمت دروساً من أخطائي الماضية، وتعلمت أن أحترمها كسيدة. كانت **مارشا** قد سـكنت في كـوخ صغير قرب نهر **رشـان** فـي الجانـب المقابل من منـزلي، فتعوّدنا أن نجلس في منـزلها بعد العمل لكي نشـاهد فيلماً أو نقرأ حتـى وقت متأخر من الليـل إلى أن يحين وقـت مغادرتي بعد أن أقبِّلها متمنياً لها ليلة سعيدة.

في أثناء وجودي بصحبة **مارشـا**، لم يعـد يتوجب عليَّ أن أقضي جل وقتـي والقلق يتملكني من أن يتداعى كل شـيء مـن حولي. وفي العمـل، حمتنـي **مارشـا** مـرات عديـدة، وعلمتني الفـارق الدقيـق بين مسـاعدة الآخرين والتعرض للاستغلال وأن ثمة طرائق عديدة لأساعد بها الآخرين وأؤمن احتياجات ابني وأحافظ على قيمة ذاتي عوضاً من أن أهمل نفسي وأفسد خططي باستمرار فقط لكي أرضي الآخرين.

وقد سـاعدتني **مارشـا** أيضـاً علـى أن أنضـج كرجـل بطرائق لم أعتقـد قط أنهـا ممكنة. فعلى مدى سـنوات، شـعرت أنني أسـبح ضد التيار وأن هناك أحمالاً ثقيلة ترهق كاهليّ. ولكن بدا أيضاً على **مارشا** أنها تشـجعني وتدعمني طوال الوقت. فهي لـم تجعلنـي أؤمن بقدرتي على أن أحقق كل شيء، فحسـب، بل إنني أستحق ذلك فعلاً وأنه من

المقدر لجهودي أن تكلل بالنجاح. وهكذا أصبحت مع **مارشا** شخصاً لا يقهر.

أما كشخصين مرتبطين عاطفياً، فقد مررنا بالكثير من المسرات والمتاعب. وكانت **مارشا** تعيش في عالم مختلف تماماً. وبسبب سفري معظم الوقت وذهابي في رحلات في كل الاتجاهات، فضلاً عن تعرفها إلى **ستيفن** والمواقف الصعبة التي تعرّضت لها مع **باتسي**، أصبحت الحياة بالنسبة إليها قاسية. وفي الأوقات الصعبة حين كنا بالكاد نستطيع أن نوفر بعض المال معاً لكي ندفع فواتيرنا، تعوَّدت **مارشا** أن تجلس معي في كوخي المتجمد لنتشارك بعض الحساء الجاهز ورغيفاً من الخبز الفرنسي البائت. ومع ذلك، فقد عثرنا معاً على طريقة لمساعدة الآخرين الذين نعلم أنهم أسوأ حالاً منا. ولبعض الوقت بدا كل شيء يسير ضدنا، فكنّا نتساءل عن الحكمة من عملنا إلى أن نجهش بالبكاء. لقد كنا نعمل بجهد كبير، لكننا بالكاد استطعنا أن نعيل أنفسنا. ومع ذلك، فلم نفقد إيماننا قط ونحن معاً لأننا أيقنا أن غداً هو يوم آخر فعلاً.

وبمرور الوقت، أحرزنا تقدماً حقيقياً. فأصرت **مارشا** على أن أنتقل من كوخي المتجمد إلى منزل حديث دافئ مكون من غرفتي نوم بين الأشجار. وبدا المنزل أشبه بعِرْزال للكبار. وبعد سنوات قضيتها في التضحية وتوفير كل قرش، ألحت عليَّ **مارشا** قائلة إنني أستحق أن أعيش كما يعيش البشر الطبيعيون. وشعرت بالفخر الشديد يغمرني بعد أن انتقلت إلى منزلي الجديد عندما حملت **ستيفن** من كتفيه وأدخلته إلى غرفة نومه، وقد كانت مليئة بالأثاث والدمى وألعاب الفيديو الجديدة التي يحبها. فعلى مدى سنوات بعد الطلاق، تعوَّد **ستيفن**، حين كان يزورني في منزلي القديم، أن يرتجف برداً في الفراش الهوائي أولاً ثم في سريري الشبيه بالورق المقوى. وعندما

لم أستطع أن أتحمل نفقة إعداد وجبة شهية لستيفن، كنا نقوم بمجرد تسخين وجبة عشاء مجمدة. ولأنني لم أكن أملك مائدة طعام في ذلك الوقت، فإن **ستيفن** تعوَّد أن يجلس على كرسي خشبي يمكن طيه في حين أقف أنا إلى جانبه. ولم يتذمر **ستيفن** قط. وبطريقة غريبة، ربما كانت مشاهدته لي وأنا أكافح في الحياة مفيدة لبناء شخصيته. وكانت **مارشا** وحدها تعلم مدى التضحيات التي بذلتها لكي أحمي ابني وأؤمن له احتياجاته.

كما حدث في نواحي حياتي كلّها، بدأت الأمور تسير في مسارها الطبيعي ببطء شديد. وبينما أنا مسافر على الطريق، بعد أن مررت بموجة لا نهاية لها من العمل، اختلست أنا و**مارشا** بعض الوقت لكي نثرثر معاً. وكما حدث في ما مضى، حين كان الهاتف خط الوصل الوحيد بيننا، جلست وبدأت أفكر متأملاً في مستقبلنا معاً.

عندما عدنا إلى البلدة بعد أن بدأ تيار **إل نينو** الحار يهدد نهر **رشان**، وقفت **مارشا** أمامي لتصف لي أحداث يومها بتفصيل دقيق. ومن دون أن تدرك ما حدث، اختطفتها من مكتبنا وأخذتها إلى منتجع **ريو فيلا** لكي أطرح عليها السؤال الأهم في حياتي. وقد خططت منذ بعض الوقت لأطرحه على **مارشا** في يوم ذكرى الحب. فكنت سآخذها إلى مدينتها المفضلة في العالم، وهي مدينة **كارمل**، وأقدم لها باقة من الزهور الصفراء على الشاطئ في أثناء غروب الشمس. لكن هذا اليوم لم يكن سيحل إلا بعد أربعة أسابيع. وكطفل في ذكرى الميلاد، لم يعد بوسعي أن أخفي انفعالي بعد الآن. ففي ما يتعلق **بمارشا**، كانت قوة إرادتي معدومة تماماً. فقد أصبحت أشبه برجل ممسوس.

وبينما أخذت **مارشا** تثرثر عن يومها، ظللت أحاول أن أصرف تفكيرها عن الموضوع، لكنها لم تكن على دراية بنواياي. وبعد نصف ساعة من الوقوف تحت العريشة الظليلة، كدت أفقد كل أمل. إذ إن

توقيتي لـم يكن مناسـباً. فقد رغبت أن يكون كل شـيء سـحرياً تماماً بالنسـبة إليها. ومع ذلك فقد تملكنـي الرعب من أن ترفض طلبي. وما زاد من شـعوري بالرعب، اكتشافي أنني لا أعرف كيف أسألها. وها أنا ذا رجل يتحدث كوسـيلة لكسب رزقه ويملك سـرعة بديهة يمكنه بها أن ينسـي الناس مشـاكلهم، ومع ذلك فلم أسـتطع أن أصوغ الكلمات الأهم في حياتي.

وعندما بدأت **مارشـا** تسـترخي ببـطء. تقدمت نحوهـا ووضعت ذراعي حول خصرهـا. وقلت بصوت عميق بطـيء: «أغمضي عينيك. وخذي نفسـاً عميقاً». وشـعرت مـن أعماقي بتوتر **مارشـا** يهـدأ. وبدأ رأسـي يدور، ولم أعرف مـا أقوله تالياً. فهمسـت في أذنها، وسـألتها: «ما رأيك... بنهر **رشـان**؟» فبدا على جواب **مارشا** المهدئ أنه يخفف من ارتجاف سـاقي. فتابعت قائلاً: «وما رأيك... **بسـتيفن**؟» وفي تلك الأثنـاء، كنت قد أخرجت بيـدي اليمنـى العلبة المخملية السـوداء من جيبـي ودسستها بين ساقي.

جعل بعض الضبـاب المترافق مـع المطر البارد **مارشـا** ترتجف. وبينما أخذت تقول لي كم تحب **سـتيفن** وكم هي فخورة به، أغمضت عيني، وتلوت دعاءً سـريعاً. ثم مددت يدي إلـى العلبة. وعندما بدأت الدمـوع تنهمر من عيني، وقفت أمام **مارشـا** وركعت وأنـا أفتح العلبة، وسألتها قائلاً: «ما رأيك... أن تقضي بقية حياتك معي؟»

ظننت من صراخ **مارشـا** أنها قد غضبت منـي. وأخذت تقفز إلى الأعلى والأسـفل علـى الدفة الخشـبية لوقت طويل جـداً. وفقط حين كادت تنتزع عنقي وهي تعانقني، أدركت أنها قد وافقت على طلبي.

وبعـد سـاعات قليلة، وفي وسـط أسـوإ عواصف ضربـت ولاية **كاليفورنيـا**، قدت أنا و**مارشـا** سـيارتنا نحو الشـمس الغاربـة. وحررنا أنفسنا من مشاكل العالم ليوم واحد. وكان هدفنا الوحيد هو أن نمضي

بقية حياتنا معاً... ونحن سعيدان إلى الأبد.

حدثـت لحظة نـادرة أخرى خـلال إجازة سـتيفن الصيفيـة، ففي تموز من العـام 1998، وبعـد أن احتفلنا بيوم جميل، واختتمناه بعشـاء من اللحم المشوي، خرجت لأتمشـى في نزهتي المسائية. وكالمعتاد، انضم سـتيفن إلـي. وطوال سـنوات، منـذ أصبح قـادراً على المشـي، تعوَّدنـا أن نتجـول معاً. وبعـد أن انتقلت إلى نهر رشـان، أبلينـا الكثير مـن أزواج الأحذية ونحن نراقب الغسـق وهو يتحول إلى سـواد الليل ونمسك بأيدي بعضنا بعضاً ونتأمل الجمال المهيب من حولنا. والآن، مع اقترابه من سـن المراهقة، بدا سـتيفن في بعض الأحيان قلقاً بشـأن العثور على مكانه في العالم.

كان الهواء منعشـاً بشـكل خاص فـي تلك الأمسـية حين أخذت الغيوم تتلاشـى لتصبـح خطوطاً برتقالية اللون والشـمس تختفي خلف الجبال. وعندما انعطفنا في الطريق المألوف، رفع ستيفن نظره وسألني: «فـي ذلك الوقـت من الماضـي... هل كان ذلـك صعباً؟» فسـألته عن مقصده لأنني لـم أفهم سـؤاله. فأطرق سـتيفن، وقـال: «أنت تعلم، في ذلك الوقت من الماضي».

فأجبتـه بلامبـالاة: «أوه». وقـد شـعرت دائمـاً أن واجبـي الأول كوالد هو أن أحمي ابني من شـناعة العالم ولاسـيما مـن الرعب الذي عشـته في الماضي. ومع ذلك، فلكي أهيئه لسـن الرشـد، فقد شـعرت أنـه من واجبي أن أحيط سـتيفن علماً بحقائق الحياة. وفي سـن مبكرة كسن السادسة، بدأ ستيفن يتسـاءل عن ماضيّ. فعوضاً من تحطيم ثقته بالكـذب عليه، التففت حول الموضوع بأن ادعيـت أن والدتي تعوَّدت أن تتفـوه بكلام سـيئ وتقترف أموراً سـيئة أحياناً بسـبب مرضها. وفي ذلـك الوقت مـن الماضي، كان جواب بسـيط كهـذا كافياً بالنسـبة إلى عقل سـتيفن الفضولـي. ولم تكن لدي النية فـي أن أفصح عن خطورة

ما حدث لـي خوفاً من أن أثير الرعب في نفسه. ولكـن الآن، بعد أن ظهرت فـي عدة برامج حوارية تلفزيونية ونشـرت كتابيـن عالميين عن حياتـي، فقد أصبح مـن المحـال أن أخفي ماضـيّ عنه. فقلـت: «إنني لم أعتبرهـا صعبة في ذلـك الوقت، يا سـتيفن. بل كانت مجرد شـيء اضطررت أن أعيشه. وهذا كل شيء».

فسألني قائلاً: «ولكن هل شعرت بالخوف؟»

قلت له مناقشـاً الموضوع نفسـه الذي حاولت جاهـداً أن أحميه منـه: «نعـم، أحيانـاً. ولكـن... ألا تخـاف أحيانـاً عندمـا تواجـه رامي البيسبول؟»

فلمعت عيناه وقال: «أوه، نعم. أعني أحياناً».

فسألته قائلاً: «حسناً. ماذا تفعل أنت؟»

فهز كتفيه وقال: «أنت تعلم».

قلـت له: «كلا، إننـي لا أعلم. فأنا لـم ألعب قط البيسـبول حقاً. ولـم أختبر قط ما يعنيه أن تحدق بالرامـي وهناك كرة تتوجه نحوك في طرفة عين. ولأخبرك الحقيقة، إنني لا أدرك كيف تفعل ذلك».

فقال ستيفن وهو يهز رأسه: «كلا، هذا ليس مهماً. بل يحتاج إلى مجـرد تمرين، وهذا كل شـيء. وقد فعلت ذلك طـوال حياتي. فالمرء يفعل ذلك من دون أن يفكر فيه».

فسـألته قائـلاً: «وعندما تكـون متأخراً فـي العد، وهنـاك ضربتان ضدك، ويمكنك أن تشـعر بالضّغط المتنامـي كلّه من حولك، ألا تفكر في أن تنسحب أبداً؟»

قال ستيفن: «كلا. إنني أقوم فقط بما عليّ القيام به».

«وهذا هو ما فعلته وأنا طفل، يا ستيفن. فقد بذلت جهدي وحاولت الحصـول على أفضل ما في الأمـور بالضبط كما فعلـت وإياك عندما لم يكن لدينا حطب كاف لتدفئة المنـزل. إنك تقوم بالتكيف مع محيطك».

«ولكن ألم يكن والدك على علم بما يحدث؟»

«نعـم ولا. وأعتقـد أنـه لم يدرك مـا كان يجـري أو أنـه لم يكن يريـد أن يفهمه. وبحلول الوقت الذي فعل فيـه ذلك... كان الأوان قد فات. وأعلمك أن والدي كان كوالدتي مدمناً على الكحول. فقد كانت الأمور مختلفـة كثيراً في ذلك الوقـت. وقد حدث الكثيـر من الأمور، لكنهـا بقيت طـي الكتمان والسـرية مثل السـرطان والإيدز والمسـاواة والكثيـر من الأمور التي لا يفترض بنا أن نناقشـها إما بسـبب الإحراج وإمـا بسـبب العـار أو أيـاً يكـن السـبب. ولحسـن الحظ، فقـد أصبح المجتمـع أفضـل الآن. فيمكننا أن نتحـدث بصراحة عن الأشـياء التي لم نكن لنتحدث عنها قط وأنا في مثل سـنك». وسـألت ستيفن لأبعد تفكيـره عن الموضوع قائلاً: «أتعرف الكلمـة الوحيدة التي لم يكن أي طفل ليقولها لأحد والديه؟»

فاتسعت عيناه وقال: «ماذا؟»

«لا. إن المـرء لا يقول أبـداً كلمة لا. ففي طفولتـي، إن قال أحد الوالدين \اقفز، قال الولد: إلى أي ارتفاع؟»

«هذا غباء نوعـاً ما. فأنا أقول لا طوال الوقت. ولا أسـمح لأحد بأن يعاملني بتلك الطريقة».

فرفعت إصبعـي وقلت: «نعم بسـبب التغيّرات التـي طرأت على المجتمع. فالأمـور... الأمور كانـت مختلفة جداً في ذلـك الوقت من الماضي».

وقـف سـتيفن أمامـي وسـألني قائـلاً: «هـل تسـامحها؟ أعنـي، والدتك؟»

فركعـت على الأرض، وأمسـكت به من كتفيه، وقلـت: «بالطبع. فهناك شـيء مـا قد جعـل والدتي تـؤول إلى تلـك الحـال. وفي ذلك الوقـت مـن الماضي، عندما نشـأت، لـم يكن يسـمح لهـا أن تتحدث

عن الأمـور التي تبدو سـلبية. ولا أعتقد أنه كان لديهـا أحد لكي تلجأ إليـه ولكي يسـاعدها على معالجة مـا يزعجها أياً يكـن. ولا أعتقد من وجهة نظري أن أي شـخص يسـتيقظ يومـاً ما ويريد أن يكون سـيئاً أو أن يـؤذي الآخرين أو أن يدمن علـى العقاقير غير القانونية، لكن شـيئاً ما يؤدي به إلى ذلك القرار بسبب موضوع لم يعالجه. وبطريقة غريبة، وعلـى الرغـم من كل شـيء فعلته أمـي بي، فإننـي تعلمت منهـا ما لا يجب أن أفعله». فأومأ لي سـتيفن برأسـه أنه قد فهـم قصدي. فتابعت قائلاً: «ولهذا السـبب، أحاول دائماً أن أجعلك تواجه المشـاكل عندما تطرأ في حياتك. وإن تعلمتَ أي شيء من ماضيّ، فهو ألا تكره أحداً. فإن فعلت ذلك وكرهته، أصبحت شـبيهاً بذلك الشـخص الذي أسـاء إليـك. وعندما تكبـر في العمر، سـوف تواجـه الكثير مـن المصاعب. فإن تعرضت لمشـكلة ما، لا تخلـد للنوم وأنت غاضـب وتحدث إلى والدتك أو اتصل بي في منتصف الليل أو افعل أي شـيء. ومن المهم ألا تجعـل المتاعـب تتراكم فـي داخلك، أيـاً يكن الوضع، لأنها شـيئاً فشـيئاً سـوف تنهشـك في داخلك كما فعلت أنا بأمي. وسـيكون ذلك أمراً مؤسفاً ولاسيما بعد كل ما فعلته من أجل نفسك. لا تكره أحداً!»

«هل تعوَّدت أنت ووالدك أن تقضيا وقتاً معاً؟»

«ليـس الكثيـر من الوقـت. ولكـن كما قلت لـك، كانـت الأمور مختلفة في ذلك الوقـت من الماضي. وأنا واثق من أنـه أراد جزئياً أن يفعل ذلك، ولكن لا أدري...». وأمسكت عن الكلام عندما فكرت في نفسي وفي والدي.

سألني ستيفن وهو يميل برأسـه جانباً قائلاً: «هل كان لكما وقت خاص معاً؟»

عندما أدركت المكان الذي كنت فيه في تلك اللحظة، اسـتدرت ببطء إلى اليمين نحو سـتيفن، وقلت: «حسـناً، فـي الواقع...». وتهدج

صوتي للحظة. ثم قلت: «ربما كنت أصغر منك بقليل في إحدى الأمسيات مثل هذه الأمسية، وخرج والدي ليدخن سيجارته المسائية، فتبعت خطواته إلى هذه البقعة بالذات حيث قضيت وعائلتي صيفياتنا معاً».

سألني ستيفن وهو يشير بيده بدهشة: «هنا تماماً، عند ذلك الكوخ؟»

«نعم، هنا تماماً. وقد تجولنا حول المكان. وفي ذلك الوقت وأنا بصحبة والدي، شعرت بأنني بطول عشرة أقدام وأنني شخص مهم. وهذا شيء لن أنساه أبداً. فقد عنى لي الكثير حينئذٍ. ولهذا السبب أحب أن أتمشى معك». وابتسمت ثم قلت: «فهذا شيء أستطيع أن أورثك إياه».

اقتفيت أنا وستيفن، ونحن معاً في صمت، آثار رحلة بدأت قبل أعوام طويلة. لكننا هذه المرة أمسكنا بأيدي بعضنا بعضاً. وأبقيت ابني قريباً مني. وفي نهاية الطريق، توقف ستيفن ليحيط خصري بذراعيه، وقال: «شكراً، يا أبي».

قلت وأنا أغص بالكلمات ثانية: «كلا، شكراً لك أنت، يا ستيفن. فأنت تعني الكثير بالنسبة إليَّ. وأعلم أن الأمر ليس سهلاً عليك، لكنني أبذل قصارى جهدي، وأريدك أن تعرف كم أحبك، فأنا أحبك حقاً».

وقرب منزلنا، سألني ستيفن بخجل قائلاً: «يا أبي... هل سأنجح؟»

استطعت فقط أن أربت على شعره الذهبي بدهشة. وقد نغص علي السؤال نفسه لسنوات عديدة.

«لا بأس، يا أبي. أعلم أنه سؤال غبي. ولا أريد أن أضيع وقتك».

فوجهته قائلاً: «خذ كل الوقت الذي تريده، يا ستيفن. اجلس هنا».

فسألني وهو ينظر حوله: «هنا، في وسط الشارع؟»

فجلست وأنا أطوي ساقي على الرصيف، وقلت: «هنا، فليس هناك شيء أهم من هذا. هدئ من روعك. فأنت صغير جداً لتتعامل مع الأمور بهذه الجدية. وسوف تنجح. ولا يخامرني أي شك على الإطلاق!»

«كيف تعلم؟ أعني...».

فأومأت برأسي: «أعلم ذلك. وأعرفك أنت. فأنت شاب رائع، وأنت لطيف وحساس، وتعرف الخطأ من الصواب. والأهم من كل شيء، هو أنك تملك قلباً طيباً». فاعترفت وأنا أغير الموضوع وقلت: «أعلم أن طلاقنا ليس سهلاً. وأنا آسف حقاً. وأعلم أن المدرسة أو التعامل مع الأطفال الآخرين أو الأمور التي تواجهك بشكل يومي ليست أموراً سهلة، ولكن هذه هي الحياة. فالجميع يعاني من المشاكل، الجميع يفعلون ذلك».

«لكنك مختلف. فأنت تعالج الأمور كلّها على الرغم من أنها ليست سهلة دائماً، ولكن هذه هي طبيعة كل شيء. إنني لا أحاول أن أبدو رجلاً قاسياً، ولكن مهما يحدث لك، فهذا لا يمنحك عذراً لكي تلوم الآخرين أو تنغمس في رثاء الذات. وتستطيع أمك ومدرسوك والآخرون الذين يحبونك أو حتى أنا نفسي أن نساعدك لوقت محدد فقط. ثم ستصبح الأمور عائدة إليك لتحقق ما تريده. ولا أحد كامل. وليس هناك آباء مثاليون. ولا أحد يعيش حياة مثالية. وقد حاولت ووالدتك أن نسوي أمر علاقتنا، لكننا لم ننجح. وربما ستتعلم شيئاً إيجابياً من أخطائنا عندما تكبر».

«سوف تكون على ما يرام، فأنت تملك قلباً قوياً، وسوف ترتكب الأخطاء في حياتك وسوف تخفق، لكن ذلك سيحسب لك كما يفعلون في مباراة البيسبول. فلديك بضع ضربات، لكنك على

الأرجح تضرب أكثر مما تملك في القاعدة. ولكن لا تستسلم. وحاول أن تركز وهدئ من روعك وخذ نفساً عميقاً وسدد ضربة قوية. إنني أتوسل إليك، يا ستيفن، ألا تستسلم. إذ إن هناك الكثيرَ من الناس الذين يستسلمون عند أول بوادر المشاكل. فهم يتسربون من المدرسة ويتصرفون كأنهم يعرفون كل شيء وتتكون لديهم عادة التخلي عن كل ما يملكونه. لكنك أفضل من هذا. فإذا استسلمت، يصبح كل شيء كافحت من أجله، كدرجاتك المدرسية والبيسبول واحترامك لذاتك، بلا طائل. والأمر المهم، في نهاية المطاف، هو أنه لا يزال عليك أن تواجه نفسك. أعلم أن هذا كثير عليك لكي تستوعبه في سنك هذه، لكنني موجود لأساعدك. وكما قلت لك، فأنا لا أستطيع أن أفعل هذا كله من أجلك، ولكن عملي كوالد هو أن أجعلك رجلاً راشداً مسؤولاً وعملياً ومنتجاً. فأنا لست هنا لكي أربي طفلاً بل رجلاً سعيداً ومحباً ومراعياً، إنني أستشعر العظمة في داخلك، فأنت تملك حياتك بكاملها أمامك. وإن تعلمتُ شيئاً من ماضيّ، فالشيء الوحيد الذي أستطيع أن أعلمك إياه هو هذا: ليس هناك شيء، يا ستيفن، لا تستطيع أنت أن تحققه إن أردته بإصرار كاف. والقرار عائد إليك. ولطالما كان كذلك. ولطالما سيكون. ابق مستقيماً على دربك، وكن صادقاً مع نفسك، وستكون بخير».

ابتسم ستيفن وسألني قائلاً: «أتعتقد ذلك؟»

فأخذت بيده وقلت: «بل أنا على يقين من ذلك. وسوف تكون بخير. وأنا هنا من أجلك. وحتى عندما لا أكون معك بجسدي، فلا يكاد يمر يوم واحد من دون أن أفكر بك وأتلو الدعاء من أجلك. هيا». ومازحته قائلاً بلهجة الممثل آرنولد شوارزينغر: «لا تفعل ما أفعله أنا وتصبح جاداً طوال الوقت. استمتع! وهدئ من روعك واغتنم يومك. وخذ نفساً». وبينما نحن نحدق بالنجوم التي ترصع السماء السوداء،

بـدا كل شـيء فـي متنـاول أيدينـا. فملأت أنـا وسـتيفن رئتينـا بالهواء المنعش. وسألته قائلاً: «أتشعر بتحسن؟»

أومأ سـتيفن برأسـه وهو يمسـح دمعة مـن عينـه. فانحنيت نحوه وضممته إلى صدري، فقال لي: «أحبك، يا أبي».

وهمسـت قائلاً: «وأنا أحبـك أيضاً، يا بني. أحبـك فعلاً. ثق بي. فسوف تكون الأمور على ما يرام».

قال سـتيفن وهو يرفع نظره إلي: «إنني آسـف أنك اضطررت أن تحتمل كل هذا».

ثم غيرت مجرى الموضوع، بينما كانت دمعة تسـيل على خدي، فقلت: «حسناً... لأخبرك الحقيقة». وقلت متلعثماً: «عندما أجلس هنا معـك أشـعر وكأن ذلك لم يحـدث قط. ومـا دمت أنظر إليـك وأعلم أنـك على ما يـرام، فهذا هو كل مـا يهمني. وأوقات كهـذه... هي كل مـا أعيش من أجله. وسـوف أتذكر هـذا دائماً، وسـأتذكر الوقت الذي نقضيه معاً الآن كإحدى أفكاري السعيدة».

قفز سـتيفن ليمشـي نحو الحاجـز القريب، وقـال: «وأنـا أيضاً». واسـتغرقت بضع ثوان لكـي أتخلص من التشـنج في سـاقي، ثم تبعته وأنـا أتسـاءل عمـا يريـد فعله. ثـم قـال: «أتتذكر، يـا أبي، كيـف كنت دائمـاً تتحـدث معي عـن رائحة أشـجار الصنوبـر وكيف أنهـا تمنحك شـعوراً جيداً حتى عندما تكون محبطـاً؟» وكنـت لا أزال متأثراً، فكل ما اسـتطعت أن أفعله هـو أنني أومأت برأسـي. ثم قال: «حسـناً، هذه سـتكون رائحتي المفضلة. فعندما أشـمها سـوف أفكر فينـا وفي وقتنا معاً. وسوف تكون هذه فكرة سعيدة».

فأجبته قائلاً: «هذا جيد». ثم مشيت لأقطف بعض زهور الياسمين الحلوة من العريشة. وقلت: «ليكن كذلك».

وفي وقـت لاحـق، وبعد أن وضعت سـتيفن فـي السـرير وقبلته

متمنياً له ليلة سعيدة، وصديقه وولي، دمية التمساح المحشوة، بين ذراعيه، وقفت أمامه لوقت طويل لأتأمله وهو يستغرق في النوم. وقبل أن أطفئ الضوء، أغمضت عيني وأخذت نفساً من رائحة الياسمين التي كان عطرها عابقاً في غرفة ستيفن. ودعوت قائلاً: «أفكاراً سعيدة». ثم أغلقت الباب خلفي.

عندما عدت إلى الخارج، نظرت إلى ساعتي. وخلال نزهتي مع ستيفن، أصبحنا في غضون أربع ساعات على علاقة وطيدة أكثر من علاقتي بوالدي خلال اثنتي عشرة سنة. فتمشيت في ساعات الصباح الأولى من اليوم الجديد تحت عريشة من الأشجار الطويلة، وشعرت أنني أوفر حظاً مما كنت عليه على الإطلاق. فبعد سنوات من الصراع الشديد والمعارك الشخصية، بدأ كل شيء يصبح منسجماً. وقد أصبحت والداً لشاب رائع لم يعش طفولة كالتي عشتها. وقد حطمت قيود الماضي وحالفني الحظ بما يكفي لأن أساعد الآخرين. وأصبحت لدي أخيراً امرأة في حياتي أحبها وأعشقها. فشعرت أنني سعيد بكل معنى الكلمة. وقد حققت حلم حياتي. فقد أصبحت أعيش على بعد مسافة قصيرة من الكوخ الذي بدأت فيه رغباتي الطفولية ترسخ في داخلي.

وقبل أن أعود إلى البيت، توقفت فجأة عندما شممت رائحة أشجار الصنوبر العطرة. فالتفت لكي أحدق بالنجوم البراقة الفضية التي تلمع فوق قمم الأشجار. وأغمضت عيني وأخذت أفكر في المرة الأولى التي استنشقت فيها الرائحة نفسها التي ظلت تستحوذ علي. وحين كنت صبياً في الخامسة من عمري، وقفت أنا ورون وستان مع والدي على ضفة نهر رشان. وأجهدت عنقي لكي أرفع نظري إلى السماء الزرقاء الداكنة التي أخذت تتحول إلى لون برتقالي متوهج وخطوط أرجوانية وكأن أحدهم قد استخدم فرشاة الرسم ليلون بها

السماء. وعندما شـعرت بأحدهم يلمسني، ارتجفت واعتقدت أن ذلك هو والدي، لكننـي ألقيت نظرة خاطفة لأرى وجه الوالدة وهي تبتسـم بسـعادة نحوي وتحتضنني بين ذراعيها. فقالت لي: «تنفس. خذ نفسـاً عميقاً. واحتفـظ به. ولا تنس هـذه اللحظة ما حييـت». وعندما فعلت ذلـك شـعرت كأن هذا العطـر الطبيعي وحفيـف الأشـجار الناعم هما عطـر الوالدة وهمسـها. وللحظة واحـدة، بدوت أنا وأمـي وأبي ورون وسـتان عائلة مثالية. فلم أشـعر قط أنني في أمان أو أنني أحب الوالدة كما فعلت في تلك اللحظة. وبعد سنوات، وعندما أعدت تشكيل تلك الصورة في ذهني وأنا في أعماق يأسـي المرة تلـو الأخرى، كان ذلك كافياً لأن يبعد عني الألـم والوحدة.

والآن، وأنـا واقـف وحيداً بيـن مخلوقـات الله، أغمضـت عيني وأرخيت جسـدي وتنشـقت أكبر قدر من الهـواء اسـتطاعت رئتاي أن تستوعبه. وكدت أعيد صورة عطر الوالدة وشعر والدي الأسود الفاحم وابتسامته السـعيدة إلى ذهني وأنا أتذكر تلك الأمسية التي حدثت قبل أمد بعيد. ففتحت عينـي، ورأيت نجم القطب، وتمتمـت قائلاً: «ارقدا بسلام. وأرجو أن يمنحكما الله السلام الأبدي. آمين».

الخاتمة

تموز 1999

شاطئ مدينة كارمل في ولاية كاليفورنيا

من دون أن أشعر بأي هم في هذا العالم، أرتشف الشراب وأنا أتأمل المحيط الأزرق الصافي. وعلى الشاطئ، تركض الكلاب جيئة وذهاباً في الماء وهي تطارد زبد المحيط أو بعضها بعضاً أو تجلب العصي. وتبدأ ملاءة من الضباب تكتنف الخليج. ويمكنني أن أرى شعر جسدي يقف منتصباً من الهبوط المفاجئ في درجة الحرارة. فألغي من ذهني مجرد فكرة مقاومة البرد بارتداء سترة أو الهرب بعيداً بحثاً عن ملجإ في حال انهمر المطر فجأة. وكل ما يمكنني فعله هو أن أستند إلى المقعد الخشبي وأحتسي رشفة أخرى من شرابي وأتأمل السماء الأرجوانية الملبدة بالغيوم. فأنا أتعلم ببساطة أن ألتزم السكون.

ما زلت أعجز عن منع نفسي من الابتسام، وليس بيدي حيلة. فقد كانت الأيام القليلة الماضية التي عشتها أشبه بدوامة. وحتى الآن وأنا أغمض عيني، أستطيع فقط أن أستعيد أجزاء صغيرة انفعالية ونابضة بالحياة من يوم مقتبس عن قصة خيالية. فقبل ساعات، كنت واقفاً وظهري يواجه نهر **رشان** على الأرض نفسها التي طلبت فيها يد **مارشا** للزواج. وبوجود ابني، **ستيفن**، الواقف إلى جانبي ليقوم بدور إشبيني، أتت **مارشا** وهي تمشي الهوينى على سجادة مخملية حمراء

كأنها ملاك يمشي على الماء. فوقفنا إلى جانب بعضنا بعضاً تحت قوس أبيض يقطر تقريباً بكم هائل من الأزهار والأقحوان البرتقالي الفاقع والسحلبية الزرقاء الفيروزية وزهور الغاردينيا البيضاء كالثلج. فداعبت يد **مارشا** المرتجفة، وشرد ذهني حين شرع رجل الدين يتحدث عن روعة الحياة والحب والالتزام. وكل ما استطعت فعله هو أنني جعلت أحدق وأنظر إلى أعين الناس الذين أتوا ليشاركونا فرحة زفافنا البسيط. وكانت السيدة **ودورث** - معلمة اللغة الإنكليزية في الصف الخامس التي قالت لي وأنا طفل ألا أقلق من تلعثمي المتوتر لأنه من المقدر لي أن أتواصل مع الناس عن طريق الكتابة - تكفكف الدموع في عينيها وأنا أنحني لها انحناءة صغيرة. ثم نظرت خلفها، فابتسمت لرؤية أصدقاء طفولتي وأنا في وصاية أهلي بالرعاية: **بول برازيل** و**ديف هاورد** وزوجة **ديف** المحببة **كيلي**.

عندما طلب مني رجل الدين أن أمسك بيد **مارشا**، انحنيت وهمست لها جزءاً من الرسالة التي كتبتها لها حين كنا نتواعد على الهاتف قبل سنوات. ثم ركعت على ركبة واحدة ووضعت الخاتم في إصبع **مارشا** الرقيق. وفي غضون لحظات، قدمني رجل الدين و**مارشا** إلى العالم على أننا السيد والسيدة **بيلزر**.

والآن، وأنا أفتح عيني، ما زال يمكنني أن أشعر بقلبي يقفز من الانفعال ليس لأنني ملتزم بمشاركة حياتي مع **مارشا**، فحسب، بل بكل الأمور التي تكشفت في حياتي أيضاً. فأنا الآن سعيد وموفور الصحة والعافية ولم يعد يملأني الرعب مما يخبئه المستقبل لي. وابني شاب مذهل ومراع للآخرين ولديه حياته بكاملها أمامه، ولا ينقصني شيء. إنني أحظى بمهنة رائعة ومجموعة صغيرة من الأصدقاء المقربين وعلاقة متينة تربطني بخالقي.

وعلى الرغم من الأخطاء كلّها التي ارتكبتها، فإنني أصبحت الآن

شخصاً مستقلاً. لكن أحد الأمور التي ظلت تربطني بماضيّ المظلم هو شارة والدي التي أحتفظ بها لكي أكرم ذكراه. فقد كنت أطير وهي في حوزتي في كل مهمة في أثناء خدمتي في سلاح الطيران، كما أنني حملتها في جيبي الخلفي حين كان لي شرف لقاء الرئيس **ريغان**. وعندما تم اختياري لأكون حامل المشعل في الذكرى المئوية لدورة الألعاب الأولمبية، حملت الشارة معي. وكما قلت: «إنني موافق بكل تأكيد!» وعندما سئلت ما إذا كنت سأتخذ **مارشا** زوجة لي، كنت أضع شارة والدي العزيزة في جيب بدلتي الرسمية.

وكرجل ناضج مسؤول الآن، أصبحت راشداً وحكيماً بما يكفي لأدرك أن ليست هناك حياة مثالية أو حتى طبيعية. فكل شخص يعاني من ماض ومتاعب. فالحياة هي ما نصنعه نحن منها. وأنا مهتم فقط بأن أصبح شخصاً طيباً ومتواضعاً وأباً حنوناً ومرشداً وزوجاً محباً. وكل يوم يمرّ، أبذل فيه قصارى جهدي في كل شيء أقوم به.

في السماء فوقي، تبدأ خطوط من اللونين الأرجواني والأحمر الداكن تنتشر على طول الأفق، ويهب على وجهي نسيم بارد حين تعثر أصابعي على قطعة ورق في جيب قميصي. فأفتح الورقة، وأعيد كل كلمة في ذهني قبل أن تنظر عيناي إلى الرسالة التي همست جزءاً منها في أذن **مارشا** قبل ساعات من الآن:

> إنني أطير على ارتفاع 28.000 قدم متوجهاً نحو الغرب في مكان ما فوق نيفادا. وأفكر فيك. وفي بعض الأوقات، أشعر أنه من الصعب علي أن أتوخى الصراحة وأن أتحدث إلى امرأة مثلك. وحتى وقت قريب، لم أكن قد فعلت هذا قط.
>
> إن التقرب من أحدهم، هو صعب جداً جداً بالنسبة إليَّ.
>
> فمن الأسهل والآمن بالنسبة إليَّ أن أراقب الأشياء عن

مسافة. وأحياناً أشعر أنني ضائع جداً. فأنا لم أكن قادراً قط على أن أختبر الأشياء من حولي كما يفعل الناس العاديون مثل أن يحتضنني أحدهم في أثناء غروب الشمس وأن أشعر بالأمان والبعد عن الهموم مع امرأة. فهذا إحساس ما زال عليَّ أن أعيشه. وهكذا، أراقب الآخرين وأبتسم لسعادتهم. وأحياناً يكون هذا كافياً بالنسبة إليَّ. فأنظر في عيونهم وأحني رأسي احتراماً وأمشي الهوينى مبتعداً وأنا أشعر أنني أكثر دفئاً في داخلي وأفكر في أنني لن أتمكن أبداً من أن أشارك أحداً هذه اللحظات كما يفعل بقية الناس.

مؤخراً، بدأت أشعر أن هذا هو ربيع عمري. فقد عملت بجد وزرعت الكثير من الأمور الطيبة وسرعان ما ستنبت وتنمو أمام عيني. ولكن ما زلت أشعر بالخوف، إلا أن الرعب لم يعد يسيطر علي، وأصبح بإمكاني أن أتعايش مع هذا. وأشعر بطريقة غريبة أن كوني في حالة عقلية دفاعية دائمة هو راحة بحد ذاته. لكنني يوماً ما أود أن أصبح شخصاً حقيقياً، شخصاً قادراً على أن يتخلى عن حذره ويدع شخصاً ما يدخل قلبه. وأود أن أختبر هذا قبل أن أموت، وأن أركن أخطاء حياتي القديمة على الرف وأن أعيش بسلام تام بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

إذا كان عليَّ أن أبقى وحيداً، فسأفعل هذا. وأهم ما أدركه هو أنني لا أستطيع أن أعيش فحسب، بل أستطيع أن أثق بنفسي. وأشعر أنني آمن بتلك الفكرة فضلاً عن معرفتي أنني لن أسبب المعاناة لشخص آخر.

ما زلت أحلم ببيت، بيتي أنا: نظيفاً ومنعشاً وواسعاً، يعبق فيه عطر الزهور بينما تعزف الموسيقى في جهاز الستيريو. إنني أحلم كما لطالما كنت أفعل، وسوف أفعل هذا دائماً، وأحاول

أن أحرر نفسي، لكن هذا صعب لأنني تعرضت للسيطرة عليَّ من قبل الكثيرين. ولكن ربما إذا استسلمت، فسوف أعثر على الجواب الذي أريده، وسأجد السلام.

ربما يوماً ما، سيكون لي بيت. ثم ربما سأتمكن يوماً ما من أن أعود إلى البيت... وإليك.

وبعد أن أعيد رسالة **مارشا** إلى مكانها، أمسح دمعة عن خدي. وبينما أتأمل الطبيعة من حولي حيث تتكسر أمواج مياه البحر على الشاطئ، أدرك إلى أي مدى وصلت.

تعلن زوجتي التي مضى عليها بعض الوقت وهي جالسة بصمت إلى جانبي فجأة قائلة: «نخب زوجي». فأجيبها قائلاً: «ونخبك، يا أميرتي». وأحيط كتفي **مارشا** بذراعي، ويمشي زوجان عجوزان الهوينى إلى جانبنا، فيبتسمان ويومئان برأسيهما للعروسين الجديدين.

في أعماق قلبي، أعلم أن كل شيء ممكن إذا توافر الأمل والجهد والقليل من الحظ السعيد.

إنني أعيش حياة مدهشة.

وجهات نظر متعلقة بالكتاب

ديف بيلزر

زوج وأب ومؤلف ومؤيد للقضية

وأنا أدخل مرحلـة منتصف العمر، وحتى في هـذا اليوم، لا يزال يصعـب علـيَّ أن أدرك تمامـاً حقيقة ما حـدث لي وأنا طفل. وبسـبب الحياة التي يمكنني أن أعيشـها اليوم، يبدو لـي كأن تجارب ماضيّ لم تحدث قط. إن كل واحد منا يعاني أوضاعاً خاصة من ماضيه. والجميع يواجهون المصاعب بشكل يومي. ولسـت مختلفاً عن الآخرين، سواء فـي ذلك الوقت أو الآن. لقـد اعتقدت من كل قلبي فـي طفولتي أنني إذا تمكنت من أن أتخطى محنتي، فعندئذٍ لم أكن لأحقق كل ما قررت تحقيقه، بل كل ما يواجهني كان ليصبح أكثر سـهولة. وهذا هو السبب فـي أن قصتي ليسـت عـن كوني ضحيـة العنف ضد الأطفـال، بل عن الروح الإنسانية التي لا تقهر والتي تكمن داخلنا جميعاً.

لقد مررت بتجربة اسـتثنائية، لكن الحظ حالفنـي بما يكفي حتى أتعلـم منها وأصبح شـخصاً أفضـل. إنني لا أسـتطيع أن أغيـر ماضيّ، وهـذا لا يمنحنـي الحق بأن أسـتخدمه كركيـزة في حياتـي، وليس من المقـدر لـي أيضـاً أن أبقى سـجيناً بسـبب هـذا. وعلى مدى سـنوات عديدة، آمنت بالفلسفة التي تقول: «إن ما لا يقتل المرء يمكن أن يزيده

قوة». فتوجب عليَّ ببساطة أن أتعلم كيف أنهض من سقوطي في عمر مبكّر.

يبدو عليَّ أنني قد تعرضت للاضطهاد والاستغلال طوال حياتي، والفشل في بعض الأوقات، لكنني، بفضل رحمة الله، وجدت نفسي نوعاً ما قادراً على أن أقف على قدمي وأصلح الضرر وأتقدم إلى الأمام.

لسنوات خلت، قال لي صديق عزيز إن عدداً كبيراً من الناس ينضجون في عمر الثلاثين. ومع الذي مررت به في حياتي كلّها، فقد أصبحت الآن مؤمناً حقاً. وبمرور كل يوم، تتأثر مشاعري بشيء لم يكن معروفاً بالنسبة إليَّ في اليوم الفائت. وككل إنسان راشد، أشعر بالندم بسبب بعض الأمور، أحدها **باتسي**. فبعد مرور الوقت، وبواسطة الإدراك المتأخر والنضج ومهما كان ما يقوله الآخرون، أدرك الآن أننا ببساطة شخصان مختلفان وأنها في الواقع قد بذلت جهداً في زواجنا أكثر مما فعلت أنا. ولهذا السبب أدعو **باتسي** زوجتي السابقة لا طليقتي لأنني أعرف أن هذا أشبه بكونها غير موجودة، وأنا أرفض أن أعامل أي شخص بتلك الطريقة. ويمكنني فقط أن أتمنى ألا تتكرر الأخطاء التي ارتكبتها كوالد مع ابني. وبسبب علاقتي الفاشلة مع **باتسي**، فقد ألزمت نفسي بأن أصبح زوجاً أفضل **لمارشا**، وهذا ما يجعلني أقدرها حق قدرها. وأنا الآن موفور الحظ بما يكفي لكي تشاركني حياتي امرأة تكملني فعلاً.

لكنني عندما أفكر في الماضي، أدرك تماماً أنني ارتكبت مقداراً كبيراً من الأخطاء. فكما يفعل كثيرون من الأفراد الذين يعانون قلة الثقة بالنفس، سمحت لنفسي أن أصبح على علاقة بأناس أساؤوا فهم طيبتي وكرم أخلاقي على أنها دلالة على الضعف وحاولوا أن يستغلوا ذلك من أجل مصلحتهم. وفي ذلك الوقت من الماضي، شعرت

جزئيـاً كأنني تلميذ مدرسـة راغباً في أن يفعل أي شـيء ليحظى بقبول الآخريـن حتى يوافقـوا على وجـوده ويؤمنوا به. ولـم أفكـر قط في أن أحمي مصالحي أو أحافظ على معاييري التي كافحت في سـبيلها بكل قوتـي، حتى مع أنني قـد أدركت تماماً مدى خطورة أوضاعي، بسـبب الخـوف مـن الرفض والوحـدة، لكن الخبـرة والنضج أصبحـا حليفين مهمين إلى جانبي الآن.

وبسـبب ما تراكم في داخلي كلّه، لم يكن مـن المتوقع أن أحقق النجـاح قط. ولم يمر يـوم واحد، مهما يكـن مجهداً ومتعبـاً ومحبطاً، من دون أن أشـعر بالامتنان لحسن طالعي. إنني أقدر ما حظيت به كلّه في حياتـي حتى الهمبرغر البـارد المبلل الذي كنت أضعه في السـيارة لسـاعات وأنـا متوجه فـي طريقي إلى المطـار في منتصـف الليل لكي أجهد نفسي بالعثور على الحل الأمثل لمشكلة أحدهم بعد أن أتحدث بـلا توقف طوال اليوم بكامله. إنني أعتز بـكل نفَس من أنفاس الحياة، وأقضـي السـاعات وأنـا أتأمـل أوراق الزهـور الملونة الرقيقـة وأنفعل للمسـة أصابـع حبيبتي وأحب سـماع رنة ضحـك ابني. وربما بسـبب الماضـي الذي عشـته، أصبحـت أهم الأمـور بالنسـبة إليَّ هـي الأكثر بسـاطة، مثل الإحسـاس بأشـعة الشـمس الدافئة على ظهـري أو تأمل السـماء الزرقـاء الصافية. وحتى فـي هذا اليـوم، لم أكـن لأغير لحظة واحدة من حياتي. ولا يهمني ما إذا انتهى كل شـيء الآن، فقد عشـت وتعلمت وأحببت. وأهم درس تعلمته هو نعمة الحياة. ومهما يحدث، فالغد هو يوم آخر دائماً.

مـا زالت هناك أوقات أشـعر فيها بشـيء ما يتملكني مـن الخواء والذنـب والخـوف مـن أن يصبح أي شـخص مقربـاً مني فـوق الحد. وهذا شـيء يجب علـي أن أقاومه كل يـوم. وكل ما يمكننـي فعله هو أن أحافظ على عهدي الذي قطعته على نفسـي قبل سنوات حين كنت

في الثامنة من عمري، أي مباشرة بعد أن أحرقت الوالدة يدي بالموقد: منذ ذلك الحين، لن أستسلم أبداً وسـوف أبذل طاقتي كلّها لتحقيق ما أصبو إليه. وكرجل ناضج، لا أتوقع من نفسي ما هو أقل من هذا.

وعندما تحين منيتي، أود أن أكون على يقين من أنني قد سـددت ديونـي لأولئـك الذين أحدثـوا تغييراً فـي حياتي وأن أرقد بسـلام وأنا أعلم أنني أوقفت السرطان من الانتشار لدى من أحبهم.

كلير فريجر جاغواير

معالجة متخصصة بشؤون الزواج والأسرة

بسبب عملي كمعالجة متفرغة متخصصة بشؤون الزواج والأسرة، فقد عملت لسنوات عديدة مع أناس تعرضوا للأذى وهم أطفال وتعاملت مع التأثير الهام الذي أحدثه ذلك في حياتهم كراشدين. وبتعاون من زوجي الدكتور **جون جاغواير**، أصبحت أنا وهو شغوفَين بتزويد الناس بالقوة لكي يتغلبوا على الحلقة المفرغة التي يكررون فيها إيذاء أنفسهم والآخرين، ولكي يشكلوا عائلات سليمة وقوية. فنحن نؤمن بأن العلاقات، عندما تكون الأولوية فيها للتعاون والوحدة، لا تشكل صميم منع الأذى فحسب، بل تكوِّن القدرة في أنفسنا على أن نشكّل نوعاً من ثقافة الرعاية التي تجدد مجتمعنا وتحطم آثار اللامبالاة والهيمنة والخضوع التي تميز العلاقات المؤذية.

إنني أحب قراءة قصص تتحدث عن الناس الذين تمكنوا من الانتصار على المأساة ومشاركة تلك القصص معهم. والجزء الأفضل، بالنسبة إليَّ دائماً، هو كيف يمكن لأحدهم أن يسترد قوته عن طريق الألم ويلهم الآخرين من خلال الأمل والشفاء. ولقد حدث في يوم عادي من الأيام التي تعوَّدت أن أقضيها في جمع القصص من مكتبة قريبة أن صادفت قصة **ديف بيلزر** المؤثرة التي تحطم الفؤاد. وبينما أنا أقرأ بشغف قصة كتابي **الطفل المدعو الشيء والصبي الضائع** المدهشة، علمت أنه يجب عليَّ أن أتحدث إلى **ديف** لأعرف كيف تمكن من أن يحول معاناته الشديدة إلى حياة يكرسها لمساعدة الآخرين.

وفي أثناء قراءتي لكتاب **حكاية رجل اسـمه ديف**، وجدت نفسي أقرأ الكتاب من وجهات نظري الاختبارية كلّها كامرأة وزوجة وأم وابنة وصديقة ووكيلة ومعالجة نفسية. وبكيت وأنا أقرأ عن لقائه اللطيف مع والده، ذلـك اللقاء الذي تاق له طويلاً، ومواجهتـه المعذبة مع والدته، واكتشافه السـعيد **لمارشا** كشـريكة حياته، وأخيراً محادثته الحميمة مع ابنـه العزيز، **سـتيفن**. واسـتطعت أخيراً، كمـا فعل أنـاسٌ لا حصر لهم ممن قـرأوا هـذا الكتـاب، أن أفهم كيف أجـاب **ديف** عـن العديد من التسـاؤلات التي كانت تكتنف حياته، وكيف استطاع أن يسامح والدته القاسية على سـنوات العذاب من خلال مقدرته الشافية على التسامح، وكيف استطاع أن يسامح والده السلبي، الذي مات بين ذراعيه، لأنه لم يمنع حدوث ذلك العنف. فعثر على طريقة ليتخلى عن تلك الأكاذيب البغيضة ويودع الأبوين الجريحين غير المؤهلين لله. واسـتطاع أخيراً، وهو مسـلح بالتعاطف والتسـامح وحب العلاقات الداعمة، أن يساعد الآخرين للعثور على طريقهم أيضاً.

من المثيـر للإعجاب أن يلاحظ المرء انتصار **ديف** على المأسـاة عن طريق قوة التسامح والحب! فيمكن أن ترى قصة **ديف** بكاملها على أنها دليل على بقاء الروح البشرية. وأنا مبتهجة به ومعه ومع جميع من تأثروا بثلاثيتـه اللطيفة والقوية فـي آن. وقد ألهمتنـي الحقيقة أن هناك الكثير مما يمكننا أن نقدمه لنمد يد المساعدة لأنفسنا وللآخرين.

لقد قطعنا شـوطاً كبيـراً في فهـم القـوى المحركة للألـم والبقاء والشـفاء، فأتـت أفضـل الأبحـاث المتعلقـة بتأثيـر الألم علـى النفس البشـرية، مما لا يدعو للمفاجأة، من ضحايا الحـروب وضحايا العنف المنـزلي. ويسـتخدم الأطفال والراشـدون الذين ينجـو ن فعلاً دفاعات مبدعـة وقويـة تتألـف مـن الإنـكار والانفصال عـن الآخريـن والكبت والخيال، الأمـر الذي يبقيهم على قيـد الحياة (وبكامـل قوتهم العقلية

مـن وجهة نظـر الكثيرين) إلـى أن يتمكنوا مـن الهـروب والعثور على الدعـم ومصادر الشـفاء. وليس المحظوظون هم من يهربون فحسـب، بل الذين يتماثلون للشـفاء، في حيـن أن الآخرين يقعون ضحية جحيم دائـم ويسـقطون فـي هاوية المـرض العقلـي أو الموت أو نقـل إرثهم المرعب من خلال إيذاء الآخرين.

إن هـذه نجاة، نعم، لكن هنـاك ثمناً كبيراً تتحملـه الروح والعقل لأن أجزاء مهمة من النفس تكون قد دفنت. ومهارات البقاء هذه تؤمن خارطة الطريق التي يحتاجها المرء للشفاء لاحقاً ولالتماس الطريق إلى الكنـز المفقود الذي يجب على الناجين كلّهم، إلى جانب مسـاعديهم الماهريـن، أن يجدوه لكـي يتعافوا بعـد أن يواجهوا وحـوش ماضيهم المخيفة ويتغلبـوا عليها ويحرروا أجزاء براءتهـم وقدرتهم على اللعب والضحـك والثقة والحـب والإيمان كلّها بقيمتهـم الداخلية التي دفنت في وقت الحرب.

ليسـت النجاة كافية. ويمكننـا أن نلاحظ من قصة حيـاة **ديف** أنه عندمـا يترك النـاس غير محمييـن لوقت طويـل، كما حـدث معه، فإن وضعهـم يصبح طقسـياً بشـكل مخيف، كما حـدث بينه وبيـن والدته. وإعـادة إشـعال هـذا الوضع تحـدث عادة بسـبب الإدمـان وقلـة الثقة بالنفس وبقيمتها وكتمان الأسـرار والنكران والخـوف أو اللامبالاة من جانب أولئك الذين يمكنهم أن يحدثوا فارقاً في حياة **ديف** (وهم والده وأقاربـه وجيرانـه وحتى المجتمـع في ذلـك الوقت من السـبعينيات). وقوانيـن الخـزي القويـة - لا تشـعر بالسـلوك المخـزي والمـؤذي أو تتحـدث عنـه أو تحـاول إيقافـه - التي تعيش فـي تلـك العائلات وما زالت كذلك إلى حـد مرعب في مجتمعنا تترك أفـراداً، وخصوصاً من الأطفـال، عرضة للهجـوم. وهذا الأمر أشـبه بتعطل جهـاز الإنذار في منـزل ما وهو ما يسمح لأي متطفل أن يدخل بسهولة ويسطو عليه.

ويمكننا أن نلاحظ في حياة **ديف** أن مشكلة الثقة لديه شكلت درعه الواقية التي تحميه من التعرض للأذى، لكنها تمنعه أيضاً من التقرب من أي شخص، ولا سيما من الناس الذين شعر أنه لا يستطيع أن يثق بهم. إن ثقته المتدنية جداً بنفسه جعلته الهدف المثالي للتعرض للاستغلال. وكما هو شائع بالنسبة إلى الكثيرين، فقد انتهى الأمر **بديف** وهو يقيم علاقة مع شخص يتحدر من الخلفية الاجتماعية نفسها. والواقع، أن الأفراد الذين يعانون ماضياً مضطرباً ينجذب بعضهم إلى بعض. لكن هذين السالبين لا يشكلان موجباً، بل يحدثان المزيد من المشاكل والحواجز والعزلة ويغذيانها. وكان بؤس **ديف** محتملاً فقط بسبب الحب والإخلاص المطلقين اللذين كان يكنهما لابنه وشعوره بالالتزام لكي يحافظ على دوام زواجه واستمراره.

والخبر الجيد هو أن كثيراً من الناس الآن يحتشدون ويتعاونون في مجالات عديدة لبناء عالم لا يقع فيه التدخل لحل المشكلة فحسب، كما حدث في حياة **ديف**، بل لمنع حدوثها على حدٍّ سواء. أما كيف نبني عالماً كهذا؟ فهو بأن نبني علاقات تكون فيها الأولوية للحب والاهتمام وأن نتغلب على اللامبالاة والهيمنة والخضوع التي تخلق المشاكل في المقام الأول. وقد أُنقذ **ديف** وأمثاله عندما اهتم الناس بمشكلتهم وتحركوا لمعالجتها.

وعندما نرى كيف أن الحب الدائم لأناس عديدين في حياة **ديف** قد ساعده على تحويل معاناته الكبرى إلى خدمة محبة أكبر يستغلها لمساعدة الآخرين، نشهد معجزة حقيقية. فيمكننا أن نرى كيف أن الحب يستطيع أن يحرر المرء من المعاناة وكيف أن معالجة معاناة الآخرين يمكنها أن تحدث معجزة وتوحد علاقاتنا كلّها. وعندما نسامح الآخرين، نحرر أنفسنا من الروابط المرة التي تجمعنا بأولئك الذين ألحقوا بنا الأذى.

وسـوف أتذكر دائماً الأسـئلة التـي حثتني على الاتصـال **بديف**: «كم تستغرق من الوقت لتسامح الآخرين؟» «أيمكن أن تتحول المعاناة إلـى حب؟» وسـوف أتذكـر أن مدى جـودة حبنا للآخريـن وحبهم لنا قـد هيمنت في أجوبة تلك الأسـئلة إلـى حد كبير. فمن خلال الشـفاء والتسامح يمكننا أن نصبح أفضل لا أن نصبح قساة. شكراً جزيلاً لك، يا **ديف**، لأنك مصدر إلهام للآخرين ومثال يحتذى عن النمو ومساعدة الآخرين ليسـاعدوا أنفسـهم. ونحن، إلى جانب الكثيريـن ممن تأثروا بقصتـك إلى الأبـد، سـوف ننضم إليك فـي هـذا العمل الهائـل الذي ينطوي على الأمل والشفاء!

ستيفن بيلزر

الابن

على مدى أكثر من ثلاثة عشر عاماً، بذل والدي الكثير من أجلي ومـن أجل الكثير من الناس. وما زلت لا أفهـم كلياً ما حدث لوالدي، لكنني أعلـم أن مـا حدث قـد جعله يـود ألا يـرى ذلك يحـدث لأي شـخص آخر. وخلال الأوقات التي رأيته فيها يساعد الآخرين، قررت أنني سـأحاول، عندمـا أصبح راشـداً وأنجب أطفـالاً، أن أكـون والداً صالحاً كوالدي.

إن إحدى ذكرياتي المبكرة عن والدي وقعت حين كان في سلاح الطيران وأرسـل إلى حرب الخليـج في يوم ذكرى ميـلادي الرابع. لم أكن أعلم بالضبط ماذا يجري، ولكن عندما عاد، أتذكر أنني ذهبت إلى القاعدة ورأيت طائرة **بلاكبيـرد أس أر** - 71 تهبط قبل أن تهبط طائرته تماماً. فشعرت بسعادة غامرة لأن أرى والدي ثانية.

والآن عندمـا أراه، تشـرق عينـاي بالفـرح. فقـد علمني السـلوك والأخـلاق العظيمة والكثير من الأمور التي لا يسـعني ذكرها جميعها. وآمل أن أتمكـن يوماً ما من أن أعـوض عليه. فأنا أحـب والدي كثيراً فعلاً. إنـه والد عظيم جداً. وهكذا، أظن أن مـا أحاول أن أقوله هو أن والدي سيبقى في قلبي ما حييت.

مارشا بيلزر

الزوجة والمديرة التنفيذية

هـذا الرجـل المدعو ديـف، من أيـن أبـدأ الحديث عنـه؟ فهناك الكثيـر ليقال عنه، وهناك الكثير من المشـاعر التـي أكنها له، فهو رجل يتمتـع بالفضيلـة وفـرد يحقق إنجـازات لا حصـر لها ويملـك قلباً من ذهب. إنه رجل مخلص ونشـيط وحكيم بشـكل رائـع. ومع ذلك فهو أكثر شـخص قلق رأيته في حياتي، فهو يسـبح باسـتمرار عكس التيار. وأكثـر ما يعجبني فيه هو أنه يتمتع بأصدق روح ويمنح ما لديه كلّه لِمَا يقوم به. وسـواء أكان ديف يعمل في حديقتـه ويعتني بأزهاره أم يعيش حياتـه الحافلة وهو يقدم برامجـه واحداً تلو الآخر، فإنـه يمنح ما لديه كلّه. وعندما يكتب ديف رسالة ليرفع من الروح المعنوية لأحد معجبيه الشـبان أو يقود سيارته لثماني سـاعات في العطلة الأسبوعية ليرى ابنه وهو يلعب البيسـبول، فإنه يبذل طاقته كلّها. وعندمـا يقدم ديف مقابلة مؤثرة على التلفزيـون أو يحتضنني ليلاً ونحن نسـتغرق في النوم، فإنه لا يتراجـع أبداً عما يفعله. وفي كل شـيء يقوم به، يمنـح قلبه وروحه عـن طيب خاطر. إنه يخطط لكل تفصيـل ويتوقع كل قصة ويتولى كل شـيء ببراعة تامة، وهو يفعل ذلك لأن هذه هي طبيعته. وليسـت لديه دوافع خفية ولا أقنعة ولا شـيء متوقع في المقابل. وأن يمنح كل ذرة من كيانه في كل شـيء هو بالنسـبة إلى ديف أن يكـون ديف الحقيقي، ولا شيء آخر يجدي نفعاً.

إن ديـف يتمتـع بموهبـة - وهـي بـلاء فـي آن معـاً - فـي جعل

الأمور تبدو سهلة. فيمكن للإنسان العابر أن يرى **ديف** يعيش روتين حياته اليومي بالسفر والتحدث والكتابة والتصرف كأب وزوج صالح، ويفسر حياته على أنها مثيرة ومشجعة ومقدَّرة. إن الناس يغذون طاقة **ديف** واستشرافه وبعضهم يتوقع منه أن يحل مشاكلهم بعصاه السحرية. وينطوي وصفه ككاتب عالمي من كتاب **نيويورك تايمز** على نجاح فوري وحياة رغيدة، لكن زمرة قليلة من الناس فقط هم من يعرفون كم يمكن لحياة **ديف** أن تكون قاسية ومزعجة وغريبة ومقللة من قدره، وكيف أن تضحياته هي أكثر بكثير من المكافآت التي يحظى بها. وفقط أولئك الذين يعيشون خلف كواليس عالمه يمكنهم أن يتفهموا عواقب كفاحه. فحياة **ديف** هي صيغة دلالية لحقيقة أن المرء لا يستطيع أن يحظى بالورد من دون الأشواك، لكنه يرحب بكل منهما من دون تحفظ. إذاً لِمَ يفعل هذا؟ ومن أين يستجمع ذلك الثبات كلّه؟ وكيف يحافظ على التزامه بما يعتبره مسؤولية؟ وكيف يستطيع أن يعيش ماضيه المرعب مرة ثانية في سعيه لمساعدة الآخرين وأن يفعل ذلك بشغف ومرح وصدق؟ ومع أنني مقربة جداً منه، فأنا لا أعرف الحقيقة تماماً. وبمشاركتي له حياته خارج قلبه وداخله، أشعر بالقليل فقط مما يلهمه. فيمكنني أن أقول إنه الدين لأولئك الذين أنقذوا حياته والتعاطف الذي يشعر به ليساعد الآخرين، في حين أن حبه لي ولستيفن يغذي تلك الرغبة الجامحة. فهو بالتأكيد رجل في مهمة. إنه يمثل شخصيات كل من **باتمان وإنديانا جونز وجيمس بوند** مجتمعةً. فككل هذه الشخصيات، يمتلك **ديف** جانباً مظلماً وماضياً قلقاً وحياة يعيشها لكي يرى النور فقط. وهو يقوم بأي شيء يتطلبه الأمر منه لكي يضفي السلام على عالم محتضر.

إن **ديف** إنسان يستحق الإعجاب، وأنا أعرفه وأفهمه أكثر من الذين تشرفوا بمعرفته جميعهم، وأعتبر نفسي مباركة بسبب ذلك.

ولكن مـن الصعب جداً أن يعـرف المرء التضحيـات المطلوبة منه في الماضـي والحاضر لكـي يكون ديـف بيلـزر. إن الله يحبـه. لقد عانى الكثيـر ولطالمـا كان الأكثر طيبة علـى الرغم من الإسـاءة التي تعرض لهـا. وفي مـا يتعلـق بوالدة ديـف ووالـده وزواجه الفاشـل الـذي دام تسـع سـنوات والخداع الذي تعرض له من شركته السـابقة ناهيك عن علاقـات العمـل غيـر الملائمة فـي مهنتـه، يمكننـي أن أقول ببسـاطة: لقـد كان ديف طيبـاً أكثر من الـلازم! ولا أقصد أن أتحدث بقسـوة أو أن أشـجع على الكراهيـة والحقد، ولكن مـن فضلكم افهمـوا أنه بناء على ما أعرفه وما قد شـهدته شـخصياً، فأنا أشـعر أن أولئك الناس لم يسـتحقوا تفهمه وطيبته وصبره معهم. وبالنسـبة إلى ديف، فأسوأ شيء هو أن يحطم المرء ثقته، فهو يشـعر أن هذه أسوأ إهانة يمكن أن توجه إليـه. وهذا هو بالضبـط ما فعله أولئـك الناس. ومع أنني أعتبر نفسـي امرأة طيبة ومهذبة ومتعاطفة، فأنا لم أكن لأحتمل أي جزء مما احتمله ديف في تلك العلاقات. ولا أنوي الإسـاءة لأي شـخص، لكنني كنت لأبتعد عنهم إلى أقصى مسـافة ممكنة! ويمكنني أن أشـهد أن ديف قد كشـف للقراء عن الأحداث التي وقعت في حياته بشـكل مصغر جداً، علـى الرغم من أن الحقيقة كانت ولا تزال أكثر قسـوة بكثير، لكنها إذا ما كشـفت للناس بكل صراحة، فسوف تنسـف عقولهم والرسالة التي يحـاول ديف من أعماق روحه أن يوصلها إليهم. وهذا هو السـبب في أن الله قد منح ديف النعم كلّها التي يسـتحقها لأنه فعل ما هو صواب وكان الأكثر طيبة وأدار خده الثاني لمن صفعه. وقد تحمل ديف وحقق الأشـياء التي لم أكن أنا أو أي شـخص آخر ليحققهـا. لقد عاش حياة طيبة فقط بعـد أن عانى جحيماً على الأرض وظل ثابتاً على الرغم من كل شيء.

ببسـاطة إن ديـف عزيز عليَّ، وفـي الواقع هـذا هو اسـم التدليل

الـذي أطلقته عليـه قبل سـنوات، ولا أتردد فـي أن أدعو **ديـف** العزيز كلما اسـتطعت (ما يتسـبب في إحراجـه!). **فديف** متواضـع جداً! وإن كنتـم تعتقدون أنه شـخص عظيم، فأنتـم لا تعرفون حقاً مـدى عظمته الفعليـة. **فديف** - من دون غـرور - هو الرجل الأكثـر تعاطفاً وهدوءاً وغيريـة وإخلاصاً من بيـن الناس الذيـن عرفتهم علـى الإطلاق. وهو أحد الشـباب الأميركيين الأبـرز في أميـركا وفي العالم وحامل شـعلة الذكـرى المئوية للألعـاب الأولمبيـة، وأكثر مـن ذلك بكثيـر. وهم لا يمنحـون جوائز كتلـك كل يـوم أو لأي سـبب كان؛ فهي إطـراء مميز للأفـراد الأفـذاذ الذيـن قدموا إنجـازات مهمة إلـى العالـم. لكن **ديف** يود أن يجعل الناس على الأرجـح يعتقدون أن هذا ليس على قدر من الأهميـة! وحتى عندما نشـر أول كتابين رسـمياً واعتقد قلـة من الناس فقط بأهميتهما في حين أن الكثير من الناس توقعوا أنهما مجرد حشـو ووصـل بعضهم إلى حد أنهـم قاموا بتخريب جهوده في نشـر الكتابين حتى إنهم سـخروا مـن **ديف** في أثناء ذلـك، لم يتوقـف الكتابان، ولم يصبحا أكثر الكتب مبيعاً لدى **نيويورك تايمز**، فحسب، بل أصبح **ديف** المؤلـف الأول الذي يكون له كتابان متتاليان علـى لائحة الكتب ذات الغلاف الرقيـق. ومرة أخرى، ظلّ **ديـف** متواضعاً ومقـدراً للناس حق قدرهم في غمرة عمل بطولي كبير كهذا.

أريـد، وأنا زوجتـه، أن يعلـم العالم كم هو رائـع ومحب ويعتمد عليـه، وكـم هو قـوي وهش فـي آن معـاً، وكم هو شـجاع ومـع ذلك ضعيـف، وكم هـو رائـع مـع أسـرته وأصدقائه. إنـه حليفـي ومعجبي الأروع وناقدي الأكبر. إن **ديـف** يدللني إلى أقصى الحدود، فهو يقول إنني صديقتـه المفضلة وأميرته. وهو يمزح معـي فيقول إنني في أيامي الجيدة أشـبه بشـخصية الغزالة **بامبي** وفي أيامي السـيئة أشبه بشخصية **المبيد**. وهو الوحيد الذي يسـتطيع أن يضحكني ويبكيني بمجرد النظر

إلـيَّ وأن يجعلني أشـعر أنني أسـتطيع أن أمتلـك العالـم بيـن يدي. إن عزيمتـه التي لا تلين وصبره ينهكانني، لكنه فارسـي الذي يرتدي درعاً لامعة وتوأم روحي وأكثر الرجال الذين أعرفهم وسـامة. وأشـعر دائماً أنني بحاجة إلى أن أدافع عنه وأحميه وأهزم أعداءه، في حين أنه طوال الوقت يحميني ويدافع عني.

كان أعظـم يوم فـي حياتي، فضـلاً عن انتمائـي إلى عائلـة رائعة وإلى زفافي الجميل، هو عندما أمسـكت بسـماعة الهاتف قبل سنوات وتعرفت إلى رجل اسـمه **ديـف**. وعندما عينت كمحـررة لكتابه **الطفل المدعو الشـيء** تغيرت حياتي إلى الأبد. فسـرعان مـا أصبحت أعيش أكثر وضع مرعب وسـعيد في حياتي. ومن الغوص فـي أعماق اليأس إلى الركوع على ركبتي لأشـكر الله على الهـواء الذي في رئتي، كانت حياتي مع **ديف** مقدرة لأن تكون. وبسـبب **ديـف** تعلمت أن أقدر قيمة الحياة بكل مسراتها وأحزانها. وقد تعلمت أن أحب الزهور ونهر **رشان** ولون السماء وعطر الياسمين ونعومة الحرير. وبسبب **ديف** تعلمت أن أسامح وأنسـى وأن أنظر إلى الجانب المشـرق من الحياة. فقد علمني كم مـن المهـم أن يقوم المرء بمـا يلزم وأن يكون مثـالاً يحتذى به من قِبَلِ الآخرين. والأهـم من كل شـيء، أنه ساعدني على أن أرى كم من حياة محطمة يمكنها أن تشفى من القلوب والأيدي التي تهتم بها.

عزيزي **ديـف**، إنني أحبك كثيـراً. وأنا فخـورة بمعرفتك ومباركة بحبي لك وغيـر جديرة بحبك لـي، وأن أكون زوجتـك وصديقتك... ليست هناك كلمات في العالـم يمكنها على الإطلاق أن تصف ذلك.

لمحة عن المؤلف

أدّى **ديف**، وهو فرد متقاعد في طاقم طيران، دوراً مهماً في عمليات: القضية العادلة ودرع الصحراء وعاصفة الصحراء. وقد اختير **ديف** للمهمة الخاصة في إعادة تعبئة الوقود لطائرة **بلاكبيرد أس أر** – 71، التي كانت سرية للغاية في ما سبق، ومقاتلة **ستيلث أف** 117. وفي أثناء عمله في سلاح الطيران، عمل **ديف** في إصلاحية الأحداث وفي برامج أخرى موجهة للشباب المعرضين للخطر في أنحاء **كاليفورنيا**.

تتضمن إنجازات **ديف** الاستثنائية تزكية من الرؤساء **ريغان وبوش وكلينتون** فضلاً عن رؤساء آخرين. وعلى الرغم من محافظته على برنامج طيران دولي نشيط، فإن **ديف** نال جائزة **جي سي بيني غولدن رول** لعام 1990، ما جعله مرشح **كاليفورنيا** لتلك السنة. وفي العام 1993، كرم **ديف** كأحد الشبان الأميركيين العشرة الأبرز لينضم إلى مجموعة مميزة من الطلاب السابقين التي تتضمن: **تشك ييغر وكريستوفر ريف وآن بانكروفت وجون أف كينيدي وأورسون ويلز وولت ديزني**. وفي العام 1994، كان **ديف** الأميركي الوحيد الذي اختير من بين الشباب الأبرز في العالم لجهوده في التوعية بشأن العنف ضد الأطفال ومنعه، فضلاً عن غرس قيم المرونة في نفوس الآخرين. وخلال الذكرى المئوية للألعاب الأولمبية، كان **ديف** حامل الشعلة. فحمل اللهب الذي يتمنى الجميع حمله.

وعندما لا يكون **ديف** على طريق السفر أو برفقة زوجته **مارشا** أو ابنه **ستيفن**، فهو إما يتسكع في أنحاء مدينة **كارمل** أو يعيش حياة هادئة في جنوب **كاليفورنيا** مع سلحفاته **تْشَك**.

الفكرة الرئيسية

إن وجهة نظر **ديف** الفريدة من نوعها والملهمة، مجتمعة مع حسه الفكاهي الشبيه بالممثل **روبن ويليامز**، تسلي محترفي العمل وتشجعهم على التخلص من أيّ عقبة وهم يعيشون الحياة إلى أقصى حدودها. إن **ديف** مثال حي على المرونة والإيمان بالبشرية والمسؤولية الشخصية. وهذا ما يجعله إحدى الشخصيات الاستثنائية التي لا مثيل لها اليوم في **أميركا** بأكملها.

ويقدم **ديف** أيضاً برامج محددة لأولئك الذين يعملون في مجال الخدمات البشرية والمجالات التربوية. وفضلاً عن ذلك، فإن **ديف** يكرس وقته للشباب المعرضين للأذى بالإضافة إلى التحدث في جمعيات المدارس الإعدادية والثانوية.

مقتطف من كتاب

امتياز الشباب

قصة مراهق وتوقه للقبول والصداقة

بقلم ديف بيلزر

تقاطعني **مارشا** قائلة: «لقد توفي **دان برازيل**، يا **ديف**».

فأضـرب بيدي الحرة ركبتـي وأنا أهتز إلى الأمـام والخلف على حافة السـرير، وأقول: «كان ينبغي لي أن أعرف. لقد كان ينبغي لي أن أعرف. فليس الأمر كأنها المرة الأولى لي مع هذا الأمر... لقد كان... ينبغي... أن أعرف».

تصيح **مارشـا** قائلة: «إنني آسـفة جـداً. فقـد كان **دان** بمثابة والد بالنسبة إليك، أليس كذلك؟»

فأقول وأنا أغـص بالكلمات: «نعم. إن **دان** من نـوع الآباء الذين يود أي طفل أن يكون أباً له».

«هل كان مريضاً إلى هذا الحد؟»

«كلا! لقـد كان مريضاً، نعم، لكن المرة الأخيـرة التي رأيت فيها **دان**... كان اليوم الذي ذهب فيه إلى الطبيب لكي يحصل على شـهادة صحيـة. وعلى الأقل، هـذا هو ما قاله لـي عندما اتصلـت به في وقت متأخر من ذلك اليوم. ولم أسـتطع أن أصدق هـذا. فقد رأيت **دان** قبل

ذكرى الميلاد مباشرة. وبدا بخير وموفور الصحة والعافية...». وبينما بدأ صوتي يتلاشى، ظللت أكرر في ذهني أن ذلك بدا لي وكأنّه البارحة وكأنني قد رأيته لتوّي.

في غضون دقائق، أعادتني **مارشا** إلى طبيعتي. وقد كدت أهرب، لكنني كذبت قبل أن أودعها بشأن حصولي على ما يكفي من النوم والطعام. لقد كانت **مارشا** تقلق بشأني وتوجهني باستمرار لأعتني بنفسي. وبعد أن أغلقت السماعة مع **مارشا**، طلبت أحد الأرقام الوحيدة التي أحفظها عن ظهر قلب منذ مراهقتي: رقم عائلة **برازيل**. فتركت رسالة موجزة، ووضعت الهاتف في مكانه، ثم عاودت الاستلقاء في السرير وأخذت أصغي إلى الرياح العاوية وهي تتسرب عبر الثقوب في جدار غرفة النزل. ثم أغمضت عيني واستطعت أن أرى الرجل الذي قد أدى، بطريقة غريبة، دور والدي في الأيام التي تملكني فيها الخوف وأنا مراهق مجنون في وصاية والدي بالرعاية، والرجل نفسه الذي أرشدني للدخول إلى مرحلة النضج والذي حمل بعد سنوات ابني، **ستيفن**، بين ذراعيه القويتين.

وبسبب أسلوب حياتي المضطرب وسكني على بعد أميال منه، لم تسنح لي الفرصة لأرى **دان** قدر ما أريد. وشعرت أن مواجهتنا الأخيرة لم تحدث تقريباً. وبعد أن تركت شقتي الصغيرة ذات الغرفتين في الساعة الثالثة صباحاً، قدت السيارة إلى **بي آيريا في سان فرانسيسكو** لأحصل على خدمة البائع لسيارتي الرياضية المميزة من الشركة التي ادعت أنها تحتاج اليوم بطوله للقيام بذلك. فدهشت عندما وجدت الصيانة مكتملة قبل الموعد المحدد بساعات. وعندما اتصلت **بدان**، بدا غير راغب برؤيتي. فقمت بإغرائه بأن قلت له إنني أريد أن أريه شيئاً. وقد كنت في الثامنة عشرة من عمري في آخر مرة قلت له فيها شيئاً كهذا وكنت أتباهى في الجوار بسيارة جديدة تماماً أقرضتني إياها

شركة السيارات التي عملت فيها لأنني كنت البائع المثالي لذلك الشهر.

وكان أول ما لاحظته حيال **دان** عندما رأيته هو كم ازداد إرهاقاً ونحولاً منذ زيارتنا الأخيرة، لكن ابتسامته بالنسبة إليَّ لم تكن تخبو أبداً. وفي منزله، حيث قضينا الكثير من الساعات معاً في أثناء سنوات مراهقتي، تحدثت بانفعال عن لائحة الأمور التي أردت القيام بها، والتي تراوح ما بين تقدم ابني في المدرسة وزواجي الوشيك من **مارشا** ومهنتي كمؤلف ومقدم التي نجحت مؤخراً بعد أن تعرضت لسوء الإدارة وعشت على الحساء الجاهز والخبز الفرنسي لسنوات. وقد صدمت عندما أعلمني السيد **برازيل** بلامبالاة أنه يعاني من مرض السرطان. فشعرت أنني مغفل كبير وأنا أثرثر عن كل ما فعلته وكل شيء يتعلق بي. وكنت أميل لسنوات، بسبب قلة ثقتي بنفسي، إلى محاولة أن أحدث تأثيراً من دون أن أنوي ذلك فعلاً، ولا سيما عندما يتعلق الأمر **بدان**.

عندما بدأت أقدم اعتذاري، قام **دان** وزوجته **بيث** بمجرد الابتسام. فطمأنني **دان** أنه قد حصل على شهادة صحية مقللاً من أهمية الأمر. وكان **دان**، أكثر من أي شخص آخر في حياتي، يعرف شدة كرهي ومقتي لذلك المرض. وقد لجأت له عندما توفي والدي الحقيقي بين ذراعي بسبب مرض السرطان. وبعد سنوات، أصبح أحد آبائي بالرعاية، وهو رجل يتمتع بشجاعة عظيمة، مصاباً بالمرض نفسه. وهذه الكلمة بحد ذاتها قد قذفت الرعب في نفسي.

خرجنا من البيت وذراعه تحيط بكتفي، وأكد لي **دان** مجدداً أنه بأفضل حال. وفي الحقيقة، كان هو وزوجته على وشك أن يغادرا من أجل القيام بالفحص الطبي نصف السنوي.

صاح **دان** قائلاً ونحن نقترب من سيارتي: «إذاً، أهذه هي؟ من

كان ليظن...».

بالنسبة إليَّ وإلى دان، لم يتعلق الأمر بالسيارة الفاخرة والنجاح المبالغ في تقديره للكتب القليلة التي ألفتها. فوقفنا أمام السيارة، واستغرقنا في تأمل اللحظة وأومأنا برأسينا. فانحنيت نحو دان وهمست في أذنه قائلاً: «أنت». فالتفت دان إليَّ وابتسم. ثم قلت: «كنت تعلم كل شيء. ولطالما عاملتني كشخص حقيقي ودفعتني إلى الأمام حين كنت في أمس الحاجة إلى ذلك. لقد اهتممت بي فعلاً ولا أستطيع أن أخبرك كم لا يزال هذا يعني لي. وهذا المجمع السكني هو الحي السكني الذي أحبه وأنت الوالد الذي لم يكن والدي، لكنني لطالما دعوت لأجله».

قال دان مغيراً الموضوع: «حسناً، لقد تغلبت على الكثير من المحن. وقد فعلت ذلك بنفسك. وإن فعلنا، نحن الجيران أي شيء، فقد قمنا بمجرد وضعك على الطريق الصحيح. وتوجب عليك أنت أن تحمل العبء. وقد دفعتنا إلى الجنون... وجعلت هذا المجمع بأكمله في صخب...».

فقلت مبتسماً ابتسامة عريضة: «إنه امتياز الشباب، يا دان، امتياز الشباب».

قال دان مبتسماً: «والآن أنت من يساعد الأطفال».

فقلت له مازحاً: «إنه الواجب والشرف والبلاد والحقيقة والعدالة والطريقة الأميركية!»

تمشينا حول السيارة، وكانت الابتسامة التي عرفتها في عيني دان لسنوات لا تزال تشع من خلالهما. وربّت الرجل الذي هندس وأعاد بناء الكثير من السيارات يدوياً على السيارة كأنها تحفة فنية. وعندما دخل دان بخفة إلى مقعد السائق وأدار المحرك، بدا كأنه مراهق. وعندما أخذ ينقر على دواسة البنزين، أحسست بشدة توق دان لأن

يأخذ السيارة في جولة سريعة. فتخيلت دان خلف عجلة القيادة بجانبي وتصورته وهو يقطع الطريق بسرعة جنونية من دون أن يشغل باله أي هم في العالم.

أومأ دان برأسه إيماءة أخرى. فحركت شفتي من دون صوت قائلًا: «خذها... هيا، خذها في جولة». وللحظة، أمسكت يد دان اليسرى المقود وأمسكت الأخرى مبدِّل السرعة اليدوي وبدا الوقت كالأبدية في غضون بضع ثوان. لكنني علمت أنني قد أخرت دان عن موعده مع الطبيب. وعندما وقفت بيث إلى جانب دان وهو يخرج، أيقنت أن الوقت قد حان ليغادر.

وقفنا بعضنا إلى جانب بعض ونحن نومئ برأسينا قليلاً قبل أن نعانق بعضنا. ولطالما كرهت أن أقول له وداعاً. فزل لساني وقلت: «أعلم أنني أقول هذا طوال الوقت، لكنني أحبك. أحبك، يا دان...».

عانقني دان وقال: «إنك ابنُ صالح، يا ديفيد».

فانزلقت في السيارة وعدلت وضع نظارتي الشمسية. وأعلنت قائلاً: «في المرة المقبلة، سنأخذها في جولة».

فأومأ دان موافقاً. ثم قام بدور الأب القلق الذي لا ينتهي، فاستفسر قائلاً: «هل تتعرض لأيّ مخالفات على الإطلاق؟»

اندمجت في المشهد، وأطلقت ضحكة. وشعرت من جديد أنني شاب في السابعة عشرة واسع العينين وتواق للمغامرة. فرفعت حاجبي وقلت: «ليس أنا، يا سيدي. فأنا صبي طيب!»

بعد دقائق في نهاية المجمع، أرحت السيارة إلى جانب سيارة دان وبيث قبل أن ننطلق معاً في اتجاهين مختلفين. وقد فكرت أن أجعل مغادرتي فخمة بأن أسرع بالسيارة، لكنني ذكرت نفسي أنني راشد في وسط العقد الثّالث من عمري، وهذا يعني أنني كبير جداً وناضج جداً لأقوم بهذا النوع من التهور الصبياني. وهكذا، لوحت لهما

مودعاً وتوجهت بلامبالاة نحو الشمال إلى **باي رود**. وعندما اختفت سيارتهما خلف مرآة سيارتي الخلفية، تملكني شعور مفاجئ. فأوقفت السيارة. وكما فعلت قبل سنوات في الشارع نفسه، مرت بذهني قائمة بسيطة لكنها شاملة: (1) تفقد وجود الشرطة، (2) تأكد من عدم وجود أطفال أو أي مشاة آخرين في الشارع، (3) تأكد من توافر فسحة مناسبة أمام السائق طوال الوقت، (4) أعد التحقق من اللائحة وفكر في ما أنت على وشك أن تقحم نفسك فيه. وبعد ثوان، أخذت نفساً عميقاً، واستندت في مقعدي، وضغطت بقوة على دواسة البنزين، ودفعت القابض وانطلقت مسرعاً.

وبخط من المطاط المحروق ودخان أسود مائل إلى الرمادي في أثر عجلات سيارتي، أعلنت بهدوء قائلاً: «وداعاً، يا **دان**. أراك في المرة القادمة».

* * *

والآن، في ظلمة الليل، على بعد آلاف الأميال، في ليلة قارسة، جلست على حافة سريري. ولم أبك. وللحظة واحدة، بدا على يدي المرتجفة أنها قد سكنت. فوضعت أصابعي على جبيني وأغمضت عيني، وكل ما استطعت فعله هو أنني أصغيت إلى الرياح العاوية وأدركت كم غيّر **دان برازيل** وسكان البلدة الصغيرة مجرى حياتي.

«طوال تلك السنوات، بذلتِ قصارى جهدك لكي تحطميني، لكنني ما زلت هنا. ويوماً ما سترين أنني سوف أجعل من نفسي شخصاً مهماً». كانت تلك الكلمات إعلان دايف بيلزر استقلاله عن والدته، والتي تجسِّد الاعتماد المطلق على الذات. إن قرّاء كتابيّ بيلزر السابقين: «الولد التائه»، و«طفل اسمه نكرة»، والذين يبلغ عددهم أكثر من مليوني شخص، يعلمون أنه قد عاش لكي يروي قصته الشجاعة. ولكن حتى وبعد أن جرى إنقاذه، فإن ذكريات السنوات التي كان فيها «نكرة» و«تائهاً» ومحطماً ومنكمشاً ما زالت تطارده. وبينما يحاول دايف جاهداً لكي يحقق شيئاً مهماً في حياته، يصمم على أن يواجه كل نكسة ويكتسب القوة من المحن.

يدعو دايف بيلزر القراء للانضمام إلى رحلته ليكتشفوا ذلك الصبيَّ التائه الذي لا اسم له، وكيف وجد نفسه أخيراً في قلب وروح الرجل الذي أصبح حراً طليقاً.

إن **دايف بيلزر** يجول في أنحاء البلاد مقدماً الأمل لعدد لا حصر له من الناس. وقد تلقّى دايف تزكية من الرؤساء ريغان وبوش وكلينتون. وفي العام 1994، كان الأميركي الوحيد الذي تلقّى جائزة الشباب الأبرز في العالم. وكان كتابه التالي، «امتياز الشباب» قد نشر في شهر كانون الثاني من العام 2004.

اقرأ للمؤلف أيضاً:

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
في
نيل وفرات كوم
www.neelwafurat.com

ISBN 978-9953-87-514-9
9 789953 875149